الدكتور مصطفى الديوانى
طبيب الأطفال

قصة حياتى

ملتزم النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

١٩٦٥



اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
في 16 / ذو القعدة / 1445 هـ
الموافق 24 / 05 / 2024 م
سرمد حاتم شكر السامرائي
م. سرمد حاتم شكر

الدكتور مصطفى الديوانى
طبيب الأطفال

قصة حياتى



ملتزم النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

١٩٦٥

هذا الكتاب

ليس له عمق البئر .
وليست له رحابة باب
المسجد أو الكنيسة
ولكنك قد تجد بداخله شيئاً

المؤلف



هذا الكتاب

بقلم الشاعر الكبير عزيز أباظة

الأستاذ الدكتور مصطفى الديوانى تتوثق بينه وبينى المعرفة فالصداقة منذ سنوات وسنوات . وشرفت بأن عرفت إلى جانبه من أسرته الكريمة بعض ذؤاباتها . عرفت عمه المرحوم المحامى الكبير أحمد الديوانى ، وعرفت أخاه المرحوم الدكتور عبد المنعم الديوانى ، وعرفت أخاه المستشار سيد الديوانى . على أن أقرب من اتصلت بينى وبينه أواصر الصداقة من أقربائه هو عمه الأستاذ المستشار مهدى الديوانى . فلقد كان زميلاً لى فى دراسة الحقوق . ثم تلاقينا بعد ذلك فى مدينة طنطا، هو محام يبدأ حياته فى المحاماه ماضى العزيمة يتمتع بين زملائه بقدر من الامتياز . وأنا أبدأ حياتى فى هيئة النيابة العمومية أجرى فى حلبة مع أوساط شبابها ، لا أنا سابق مذكور ، ولا أنا متخلف مغمور . ثم خضنا الحياة بعد ذلك . كل على سننه . لا نفترق إلاَّ على عهد ، ولا نتجمع إلاَّ على ود . وما زلنا بحمد الله إلى اليوم على هذه الحال .

وكما أعرف الدكتور مصطفى الديوانى طبيباً له فى فنه ، مكانته وأستاذيته ، أعرفه كذلك أديباً له قدره . وكاتباً له أسلوبه السهل المرح القادر فى الوقت نفسه على تصوير ما يجول بذهنه من رأى وفكر ، وما يختزنه فى واعيته من قراءات وتجربة ، تصويراً واضح المعالم لا غموض فيه ولا تعثر .

ويبدو لى أن هذه الصلة التى نوهت بها هى التى أوحت لصديقى الدكتور مصطفى أن يشرفنى فيعهد إلىَّ أن أقدم لكتابه هذا القيم الذى توشك أيها القارىء العزيز أن تستمتع بما يتدافع بين ضفتيه من مواضيع ذوات طلاوة . تترقرق فيها رهافة الحس . وتتلألأ بها وضاءة النفس .

وقبل أن أقدم لك هذا الكتاب ، أرجو أن أنبهك إلى أن قدراً من الترخص فى صحيح اللغة العربية قد أنقض على تعبيرات فيه قليلة أو كثيرة . ولعل هذه سمة من سمات الكاتب المداعب ، قصد إليها عن اختيار وعمد . وبعض الكتاب فى كل أدب من آداب العالم يؤثرون شيئاً من ذلك . ولهم مذاهبهم ومبرراتهم . وأرجو أن أنبهك كذلك أن فى الكتاب أخطاء مطبعية . ليس الدكتور المؤلف مسئولاً عنها . ولكن الدكتور المؤلف مسئول إلى جانب مصحح الكتاب عن تعرضه لغضب سيبويه والكسائى تعرضاً قد يقلل بعض الشىء من لذتك وأنت مقبل على الكتاب تنهل من روائعه . على أن نصيب صديقى الدكتور مصطفى من هذه المسئولية . يدفعها هوناً ما ما يكتنف عمله اليومى من جهد ومشقة وتشعب وإرهاق . فهو فى عيادته ، ولست أذكر الكلمة التى ارتضاها المجمع للعيادة ، أقول هو فى عيادته مستحق لأبلغ الرحمة . فهذا طفل محموم . يحمله إليه والد مفؤد محطوم . وتلك وليدة منيت بشلل الأطفال . تذوب حولها أم والهة مهدمة الآمال مقطعة الأوصال . وإلى جانب هؤلاء صرخات محشرجة . يدوِّن بين أدعية ناشجة . كل هذا والدكتور المؤلف مقبل على مرضاه . وأولياء مرضاه . يبذل لهم من عمله أصدقه ومن عطفه أقصاه . ثم هو متخذ بعد ذلك سبيله إلى منزله ، فدالف إلى مكتبه يعالج كتابه هذا الذى بين يديك . أو كتاباً آخر لم يصل بعد إليك . فله إذن معاذيره ولقد كنت قمينا وأنا أقدم عملاً نفيساً أن أقصر النظر على كثير حسناته ، دون قليل هناته . لولا أننى أحببت أن يكون هذا العمل النفيس أدنى إلى مشارف الكمال .

وأدباء الأطباء ، وهم ليسوا قليلين بحمد الله، موهوبون على الأغلب . ولعل دراساتهم بعينها متيحة لهم أن يلموا بالحياة ومنازع النفس الإنسانية أكثر من

غيرهم . والأدب وهو متصل بالإنسان من حيث هو كائن ، هو فى الوقت نفسه أبلغ وأسمى أصداء الحياة . وربما كان تعمق الأطباء للحياة فاضلاً على تعمق سواهم كما قدمت لأنهم كثيراً ما تبتدى على أيديهم الحياة . وكثيراً أيضاً ما تنتهى على أيديهم الحياة .

والدكتور مصطفى الديوانى يقف من أدباء الأطباء بين أفذاذهم . فإن كنت لم تقرأ له ما كان يؤثر به الصحف والمجلات بين الفينة والفينة من محوّرات البحوث والمقالات والمقطوعات فى الأدب والعلم والاجتماع فإن الله قد تداركك بهذا الكتاب الذى تقتنيه وتصاحبه . فقد يكون فيه عما فاتك غناء . وإن كان ما فاتك من أدبه عصارة من ثقافة مثمرة وتجربة واسعة الأرجاء .

ولك أن تسألنى أيها القارىء العزيز بعد ذلك أى كتاب هذا الذى أدفع به إليك ؟ وأستميحك العذر إذا أجبتك بأننى على الرغم من قراءتى له قراءة الدارس فأننى لم أصل بعد إلى حكم حاسم عن كنهه . أهو كتاب سيرة ؟ يجوز ! فإنك لترى عنوانه دالاً على ذلك . وأنت لترى كذلك أقساماً برمتها من فصوله ومقاطيع ونتفا متناثرة فيه هنا وهناك منبئه أنه كتاب سيرة . ولكنك لا تكاد تنساق فى مطالعة فصول أخرى حتى تسأل نفسك أقصة هذه ؟ وأنت جد عالم أن عناصر القصة ومقوماتها لم تتوفر فى هذا الذى تقرأ . ولقد تسأل نفسك كذلك أهو كتاب من الكتب الحاشدة التى تجمع بين الفن والعلم والأدب ثم تسوقه إليك فى عجيب من التأهيب وحسن من التبويب . وأود أن أبادر فأقول لك أنك إذا كنت طالعت نفسك بهذه الأسئلة ، فلقد طالعت نفسى بأمثالها . ولقد صحَّ عندى . بعد أن أخذت أثبت وأنفى . أنه نوع فريد من السرد يبدو وكأنه متعارضة ألوانه متنافرة ألحانه . ولكنه فى حقيقة

أمره مؤتلف الروح . متسق المذهب . متقارب المترع . بفضل المقدرة التي خلق لها المؤلف الفاضل مابثه فيه من أواصر مُدْعمة . وروابط محكمة . فكأنما كان هو نفسه نظاماً شُدت إليه نفائسه . كما تشد إلى نظام العقد نفائسه .

ولست أتجنى على الحقيقة إذا أنا قلت أن محاسن هذا الكتاب ليست قليلة . ولا خفيفة الوزن . على أن رائعتين من هذه المحاسن قد ملأتاني لصديقي الدكتور الديواني أكباراً فوق أكبار . وتقديراً فوق تقدير . ذلك لأنهما تتواكبان وتتضافران على إثبات ما لهذا الرجل من خليقة رائقة وإنسانية سامقة . استمع إليه يتحدث عن والده ووالدته وإخوته . أنه يتحدث عنهم في عطف يتقاطر في حواشيه ما يشبه التقديس . وفي تقدير تحس كأنما هو ضرب من التعبد . ثم احتشد بأحاسيسك عند السطور وبين ما تخفيه السطور تجد نوعاً كريماً من الألم الكابر قد صقله وطهره . كما تطهر النار نفائس الجوهر . ثم استمع إليه يتحدث عن زوجه وأولاده وأعمامه وسائر خاصته من ذوي قرابته . فأنك لتحس كأن كل كلمة عنهم وكل أشارة إليهم قد جرى الحب فيها كما تجري الدماء في الأعراق . وتشعر كأن الرحمة المترقرقة قد انسكبت حولها كما تنسكب من حور الأحداق مدامع الأشواق .

ثم استمع إليه لذلك وهو ضيف الله عند عتبات بيته المحرمة . واستمع إليه وهو ضيف رسول الله في روضته المكرمة . ثم استمع إليه ثالثة وهو جار المسجد الأقصى وحين يدلف في مواطن الألم والنور التي سلكها كلمة الله عيسى بن مريم . ثم استمع إليه يتحدث عن زيارة عتبات سيد الشهداء ابن فاطمة بنت رسول الله وعن زيارته لمشاهد كربلاء وتأثره بمآسي كربلاء ..

استمع إليه عند هذا كله فأنك لواجد إلى جانب الأحاسيس المرهفة والصور الشاعرة . نفثات مطهرة العنصر . وابتهالات صافية الجوهر . كلها إيمان غامر بالواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

تلك رائعته الأولى . أما رائعته الثانية فلسوف تنافسنى أيها القارىء العزيز فى تقدير فضلها والأشارة بنبلها حين تطوف بذكرياته وأحاديثه عن أصدقائه وزملائه وبنى مهنته . أنه يتحدث عنهم جميعاً كأنما هم ملائكة أطهار . ولبسوا جميعاً على القطع ملائكة أطهار . ولكن ماذا تقول النفس الكريمة التى لا تنزع عند غيرها إلاَّ إلى النواحى الكريمة . وماذ تقول فى العين الفاضلة التى تنبو ببصرها عن تهافت الناس وسقط الناس إلى فضل الناس وتكرم الناس .

وبعد . . فلقد حلت طويلاً بينك وبين استمتاعك بالكتاب أيها القارىء العزيز . فهلمَّ أذن إليه . ويقينى أنك مستروح به . مفيد منه . مقدر له إن شاء الله .



مقدمة الكتاب

طالما سألت نفسى لأى غرض نعيش ؟ وهل يستوى الذين يعملون والذين لا يعملون ؟ وهل كان لتمسكى بالتفاصيل فى علاقاتى بالناس إسهام فى ما وصلت إليه من رضاء الله ورضائهم ؟أنى لأغبط أحياناً من يعيشون فى جنّة الغافل ، يرضون بما قسم الله لهم من رزق سهل يأتى إلى مستوى الأقدام دون جهد ودون بذل عرق ودموع . وعجبت لم خلقنى الله من صنف الكائنات الذين يشبون على أطراف أصابعهم ليتطلعوا إلى ما هو أعلى من حاجبهم ، مستعينين على هذا بانعكاس أحاسيسهم على مرآة الحياة . فمن كلّت قدماه فقد إنزوى إلى غير رجعة ، ومن طالت فترة احتماله فقد قسم الله له أن يشقى فى نعيم ذ كائه ، ويندمج في دوّامة لا تنتهى إلا مع الحياة . فأطماع ابن آدم لا تقف عند حد ، وله فى كل ساعة من حياته أمل جديد ، وما الأمل إلا قيد أو عهد بينك وبين نفسك . فإذا انفصمت عراه عند تحققه سرعان ما يحوط عنقك قيد جديد أو قيود جديدة ، ولن تفلت منها إلا بإذن الله وتوفيقه . لأن عدم الإفلات معناه أن يضيق بالقيد عنقك حتى يكاد يخنقك أو يأتى الفرج فى آخر لحظة وعلى أهون سبيل . ولولا حكمة الله سبحانه وتعالى فى تسخيره أبداناً لمصلحة أبدان لما سار الكون على هذه الوتيرة المعجزة التى هى الدليل الأكبر والأول على وجوده سبحانه وتعالى،وهو الذى يسيطر على الكون فى بساطة وسلاسة ويسر، يرفع من يشاء ويخفض من يشاء ، عزيز كريم إذا رضى ، جبار مذل إذا غضب أو سخط ، ولكنه فوق كل هذا عادل كريم، يعفو ولو بعد حين .وسبحانه العادل بين الجميع ، سبحانه لكل من فى الوجود مجيب شفيع ، ينصف العقرب والثعبان، ويستوى عنده الإنسان والحيوان ، سيان عنده المدقع وذو المال ، والمزهوّ فى

دمقس والغارق فى بالى الأسمال . ألم ينشر بذور الحب فى أرضه الواسعة فولَّف الحية على ثعبانها ، وأنثى العقرب على ذكرها ، وبنت حواء على رجلها ؟ سبحانه يعدل بين الجميل والقبيح ، وبين الأبكم والفصيح ، والحسناء ذات الدلال والأفعى ذات الفحيح . فهو خالق الأشياء كلها وهو على كل شىء قدير !

لقد وضعت طوال حياتى هذه القوة الجارفة أمام عينى، وملأت بها كل مشاعرى خوفاً من غضب الله وتزلفاً فى سبيل رضائه . وأقسم به أنه كان دائماً إلى جانبى . لم يخذلنى أبداً لأنه جل جلاله يعرف كم أحببته ، وكم عبدته ، وكم أخلصت لتعاليمه التى أنزلها فى كتبه السماوية ، والتى تتركز معانيها فى كلمات قلائل : المسلم من سلم الناس من يده ولسانه ! .

لقد سردت فى هذه الصفحات ما يكفى لتغطية مراحل أى حياة . ولكنى لا زلت أشعر أن هناك فراغات هائلة لم تُملأ بعد ، وقد يكون فراقنا عند الصفحة الأخيرة من كتابى وداعاً إلى لقاء ، لأن ما كتبته لكم ليس حياتى كلها .

أنه نصف حياتى !

أول مارس ١٩٦٥ مصطفى الديوانى

إلى روح والدتى

كلما خطر الماضى ببالى ، وتذكرت أحداث الأيام وأشجان الليالى ، صحت مهلا يا دموعى وقلت رفقاً يا خيالى ! ، هاتف الذكريات يدوى ، وتسرى هزاته فى أوصالى ، وترجيع صدى الماضى يدر فى مقلتى الدموع الغوالى ، موكب الزمان يتهادى فى استرخاء الذى لا يبالى بما نقاسى ، وعجلة الأيام تجرى حتى تكاد تخطف أنفاسى ، فتطوى فى دورتها الدائمة الأودية والهضاب والجبال الرواسى .

نعم ! راحت الأيام الخوالى وذابت فى سحب الماضى ذكراها . فإذا فكرت فيها عجبت كيف أصبح الحاضر ماضياً أو كيف يصبح مستقبلا بإذن الله . ولقد ذهب الماضى بأحداثه وعواصفه واحتسب من الأيام التى قسم لك أن تعيشها ، أما المستقبل ، فإنك لا تدرى على أى حال ستراه إذا قدر لك أن تراه . وما أرخص الماضى إذا قيس بلذة الجرى وراء الخبىء الذى يخفيه الغد المملوء بالأسرار .

لقد مضت السنون طوالا وهى تطويك فى أيامها ، وما كان أثقلها على النفس أحياناً . كانت لكل سنة أيام وساعات ودقائق وثوان ، فإذا ما اكتمل العام وسمى منصرما صار فى رخص التراب ، وإذا عنيت باستعراضه فى ذاكرتك ذات يوم لم يستغرق ذلك منك أكثر من ثوان معدودات ، وكلما مرت السنون كثاراً إزدادت رخصاً واشتد إمعان ذاكرتك فى إذلالها ، فقد تستعرض العشرين منها فى دقائق ، وما أرخص السنين فى عمر الزمان .

قادتنى قدماى أخيراً إلى الحى الذى نشأت فيه ، وقد دفعنى الحنين إلى تلمس جدران المنزل الذى كنا نقطن فيه وكان يخيل إلى فى أيام الطفولة أننى

أسكن قصراً منيفاً ، والواقع أنه كان إذ ذاك من أفخم منازل المنطقة . أو قل قصورها إذا شئت . ولما زحفت المدارس إلى ذلك الحى أصبحت السكنى فيه لا تطاق فاضطررنا إلى الانسحاب وسلمنا زمامه إلى إحدى الجمعيات الخيرية التعليمية التى لابد أن تكون قد قلبته ظهراً على عقب ليوافق أغراضها ، والواقع أننى لم أجرؤ على إرتياد هذا المكان منذ تلك الساعة إذ لم أطق رؤيته على الصورة المهلهلة التى تخيلتها .

وأخيراً بعد ثلاثين عاماً من هجرى إياه جرؤت قدماى على وطء عتبته ويا ليتنى لم أفعل . ما بال قصر الطفولة المنيف يتضاءل فى ناظرى . هل طغت على أثره فى ذاكرتى مرتفعات اسكتلنده ، وجبال سويسرا ، أو على الأقل مظاهر العمران التى اجتاحت مصر فى السنين الأخيرة ، والتى ملت العين من ضخامتها . أم هى سعة كاذبة أوحت بها قناعة الطفولة التى يرضيها القليل والتى يفسدها الاندماج مع العالم الذى لا تقف عظمته أو حقارته عند حد . وليس هناك أقتل للقناعة من إتساع أفق التفكير والجرى وراء الممنوع أو المجهول ولو رضى الجميع بالواقع لباتوا قانعين شاكرين الله ، ولاستراح القاضى وأقفلت المحاكم والسجون أبوابها .

وبينما أنا أجول بناظرى فى الفناء الواسع والشبابيك المغلقة تذكرت والدتى . . . لقد عاصرت هذه السيدة الجليلة التى وقف لها القدر بالمرصاد دائماً ولم يمهلها إلا سنين قلائل تعد فى عمر الزمن لحظات خاطفة . إن الضربات التى كالها لوالدتى ما زالت تلسع ذاكرتى لسعاً كلما تلكأت بخاطرى .

لقد رأيت دموعها للمرة الأولى فى عام ١٩١٧ وأنا بعد طفل صغير لم يكن يشعر إلا بالسعادة من حواليه تتراقص بين جدران المنزل الكبير . ثم أصيبت أختى الكبرى بمرض التيفود وانتابتها المضاعفات . أن القدر بدأ يدق

بقبضات غلاظ على باب البيت السعيد وبدأت أمى تزرف الدمع مقدماً ، دمع الأم التى أوشكت أن تثكل فى فلذة كبدها . وانطلقت صرختها مدوية فى ذات صباح مشئوم ورأيتها واقفة فى إحدى النوافذ الكثيرة المطلة على الفناء الكبير وقد تجللت بالسواد لأول مرة تصرخ وتعول . . وكان جدى الشيخ واقفاً فى الفناء يطلب منها فى صوت مرتجف أن تسأل الله الصبر فتجيبه: وأين هو الصبر يا أبى ، أنها النار تغلى بين ضلوعى ، وإنى لى أن أطفئها !

ولكن مرور الأيام كان كفيلا بإطفائها . فقد مضت الأعوام وعادت الابتسامة من جديد ، واحتفلنا بقران شقيقتى الأخرى بعد فقد الكبرى بأربع سنوات ، وصدحت الموسيقى وغنى صالح عبد الحى فى المكان نفسه الذى تقبلنا فيه العزاء منذ سنوات قلائل ، وصال فيه وجال كبار المقرئين أمثال الشيخ على محمود والشيخ أحمد ندا والشيخ محمود البربرى رحمة الله عليهم جميعاً .

ولكن هل هادنها القدر حقاً ؟ لم يمض عام أو أكثر قليلا حتى فجعت فى والدى وهو فى شرخ الشباب ! إنى ما زلت أذكر كيف وقفت أنظر بعين زائغة إلى الشباك المغلق فى الطرف الأيسر من واجهة المنزل المطلة على الفناء ، وهو شباك الغرفة التى رقد فيها أبى ، أتوقع بين دقيقة وأخرى أن تطل منه صارخة معولة ، تعلن نهاية والدى الذى كنت أحبه حباً جماً .

وإنى لأذكر تماماً ما حدث فى ذلك اليوم : لقد استقبله وهو فى أتم صحة وأوفر عافية ، وودعته والدتى وهى سعيدة به وهو يتهيأ للخروج بعد أن أدى فريضة الصبح .

ولا عجب فقد كان مثلا رائعاً من أناشيد الشباب ، ولم تقع عيناى على مثل جماله ! وأذكر كيف احتضن فى حنان الدكتورة فاطمة عابدين ابنة عمتى ،

وكانت بعد طفلة تتأهب للذهاب إلى المدرسة ثم الدكتورة زهيرة عابدين ، وكانتا قد حضرتا مع والدتهما لقضاء بضعة أيام فى المنزل الكبير ، ثم ركب عربته الفاخرة ذات الجوادين المطهمين ، وانصرف وأنا أودعه بنظرات كلها حب ولسان حالى يقول ، ليس فى الناس أب مثل أبى ! ولما عدت من المدرسة ساعة العصر شعرت بوجوم فى جو المنزل ، ولما سألت عن سره قال لى أخى الأكبر أن والدى أصيب بالذبحة الصدرية ، ولم أكنْ أعرف بعد كنهها ودرجة خطورتها . فدخلت عليه ، فهش فى وجهى وحدثنى فى حب وشغف كعادته ، وبينما أنا واقف بجانبه وقد أمسك بيدى سمعته يتأوه بألم وحرقه ثم شهق شهقة كبيرة أرتمى عقبها على ظهره . فصرخت والدتى ونادته باسمه لعله يجيب . .

وجريت أنا نحو الباب غير مصدق أن النهاية أوشكت ، ولما وصلت إلى فناء الدار وقفت كالمشدوه مركزاً عينى نحو شباك غرفته انتظر فى صبر وأمل نتيجة المعركة الناشبة بين الموت والشباب والحياة ! ولما لم أسمع صياحاً لفترة من الوقت انبعث فى بريق الأمل أن ينجو حبيبى .

ولكن سرعان ما فتح الشباك وأطلقت والدتى صرختها الكبرى معلنة إنتصار الموت . . دائماً الموت . . وما زالت أذكر كيف مشيت فى خطى متثاقلة واضعاً أصابعى فى أذنى لاكذب نفسى فيما ترى وتسمع حولها من علامات الموت ، ومضت على ساعات أبحث عن صمام الأمان من نفسى وهو الدمع فلا أجده! إن لهذه المآقى فلسفة عجيبة .. فهى قد تدمع من شدة الضحك ثم تجف عند ما يجد الجد . . ولكن رب مقلة جافة أهطل من دمع هتون . . والله أعلم بالدمع الكاذب وما تخفى المقل . .

حدث هذا فى عام ١٩٢٢ ، ثم هادنتها الأيام أعواماً طويلة تخرجنا كلنا

خلالها فى الجامعة فى لمعان مرموق . . وكنا نداعبها قائلين : لديك الآن خمسة جياد يجرون لك عربة الحياة ! . . فكانت تضحك فى غبطة وهى تشكر الله على ما أتاها من سراء لا ضراء ، حتى إذا جاء عام ١٩٤٥ تمطى القدر وتثاءب ثم أخذ يبحث فى ذاكرته وسجلاته عن تلك التى أهملها أعواماً . . فنكبها فى ولدها محمود وهو فى قمة مجده ، وكان محامياً ناجحاً . ولمحتها من بعيد وقد ثكلت من جديد بعد طول أوان — واقفة بجانبه تناديه وهو مسجى على فراشه ولا مجيب . . فلم يحدث قط أن نقض الديان حكمه العالى . .

كان الحزن بالنسبة لها عادة قديمة فسرعان ما كللت رأسها وجسدها بالسواد ... وكأنها تستعد لمعركة حاسمة مع القدر الذى لم يشأ أن يمهلها طويلا ، فنكبها بعد ثلاثة أعوام فى أخى الأكبر الدكتور عبد المنعم ، وكان من ألمع الأطباء . .

وبعد عامين أخرين فى ابنتها الحبيبة والوحيدة !.. زهيرة !

ثم جلست تنتظر فى تحفز . .

ترى هل يرحمها القدر ويكتفى بما قدمت له من قربان ! .

كانت تدعو الله وتلحف فى دعائها أن يجعل يومها قبل أيام من تبقى لها من فلذات : سيد أخى ، وإبراهيم وأنا . .

وخيل لى أنها وقفت حائلا بيننا وبين الزمان تتلقى السهم فى صبر وطول أناة . .

حتى تهاوت مثخنة بالجراح ، فلزمت الفراش دون حراك فى سنواتها الثلاث الأخيرة ولكن ذهنها كان كامل الصفاء ، ولسانها دائم الدعاء : اللهم لا تجعل يومهم قبل يومى . .

ألم أقل لـكم أنها الأم دائماً . .

إنها المخلوق الأزلى الذى يحبك دون غرض إلا وجه الأمومة الخالصة . .

وهى كنز لا يعوضك عنه ألف زوج ولا ألف ولد . .

نحن فى أحضانها إذ نعيش وفى قلبها وبين ضلوعها إذ نموت . .

فنخلد فى بودقة الذكرى التى لا تخبو أبداً ما دام بين الحنايا قلب يدق وأنفاس تتردد . .

سلام على أم . .

سلام على الأم . .

* * *

كيف وجدت

ما زلت أذكر ذلك اليوم المقدس : أول أكتوبر سنة ١٩٢٩ عندما ألبسونى رداء أبيض واعطونى سماعة فى يدى وقالوا لى انطلق إيهاب الشاب الممتلىء غروراً واذرع بملء خطاك طرقات مستشفى قصر العينى فانت الآن طبيب امتياز يملأ السمع والبصر بعد أن كنت منذ شهرين اثنين طالباً عادياً ينظر إلى لابسى الرداء الأبيض من أطباء الامتياز والنواب فى إعجاب وأمل .

أحقاً انقضت تلك الحقبة الطويلة من حياتى وأنا غافل ؟ كلا ! ما كنت بغافل أبدا . لقد مضت تلهث وأنا ألهث معها . لقد كانت مرحلة طويلة منهكة غاصت قدماى فى رمالها المحترقة أكثر من مرة ، فإذا حاولت السماء أن تمطر لتلطف من حدة الحرارة أبرق البرق فخطف منى البصر ، وأرعد الرعد فاصم منى الأذن فأمشى أنا التائه الضليل الذى هلهلته تقلبات الجو نحو الأفق الذى يبدو قريباً وهو فى الواقع بالنسبة إلى أبعد من الشمس أو القمر . وتستمر الرحلة بين سهولة وعسر وانقباض ويسر والنهاية لاتأتى أبداً ، ولا يعزى عن تأخرها إلا الأمل . وتمر الأيام فى بطء والقدر يرقب مبتسماً فهو يرخى العنان حيناً ويقبض عليه حيناً آخر . كل صفعة جديدة تنسيك آلام سابقتها وأنت تتحمل أملا أن تكون هذه أو تلك آخر الصفعات .

وكلما لاح من بعيد بريق الأمل غشيته فجأة تباشير ظلام مفاجىء فتتمتم لنفسك قائلا :

(أكلما راح قيد جاء قيد ، رب أين المفر ؟)

ثم تحاول أن تستسلم متظاهراً باليأس ولكن هيهات ! فان أطماع ابن آدم

لا تقف عند حد . كل يوم بأمله . بل كل دقيقة بآلامها . فما كادت مدة الامتياز تنتهى حتى تعلقت بأمل طالما داعبنى وهو أن أصبح نائباً لقسم الأطفال . فلما بلغته تطلعت إلى السفر إلى الخارج فى بعثة حكومية لأستكمل ثقافتى الطبية . ولما تم لى ما أردت ووصلت إلى بلاد الإنجليز ذاب منى الشحم واللحم فى سبيل الحصول على درجة العضوية لكلية الأطباء الملكية بلندن . ولما نلتها خيل إلى إذ ذاك إننى جلست على قمة الجبل العالى وأن مصر كلها سوف ترقص طربا عندما يبلغها خبر نجاحى ! ولما عدت إلى القاهرة لم أجد على رصيف المحطة سوى إخوتى وأقاربى ، وكان الجو قاتما وكأن القاهرة تعمدت أن تذل من كبريائى . فوصلت إلى منزلى بعد أن دلفت السيارة فى شوارع القاهرة التى بدت أنوارها ضئيلة بالنسبة لمدائن النور التى ارتدتها أبان زيارتى لعواصم أوروبا أثناء عودتى إلى الوطن . ولما ذهبت إلى مقر عملى فى صباح اليوم التالى بدت أمام عينى الحقيقة التى لا مفر من مواجهتها . لقد عدت إلى حيث يجب أن أفيد مما درست وحصلت ، وشمرت من ساعد الجد فعلا لولا أن الحكومة كانت قد أعدت لى مفاجأة استنفدت كل مجهوداتى الجسمية والذهنية فى سبيل احباطها . فقد حددت لى راتباً يقل بضعة جنيهات عما يتناوله زملائى . وقضيت أشهراً أذرع طرقات وزارة المالية متردداً على مكاتب بعض إخواننا الموظفين أرجو منهم الشفاعة وأتوسل إليهم فى سبيل إيجاد مخرج من هذا الظلم المقصود أو غير المقصود ! وفجأة تذكرت ما كان يقوله لنا المرحوم عبد العزيز باشا إسماعيل على سبيل النصح : ارفع صيتك بين الناس يرتفع قدرك بين أولى الأمر والحل والعقد وأنت لا تدرى فيسعون إليك سعيا ! فصممت على فتح عيادة تغنينى عن التوسل فى سبيل الحصول على جنيهات قليلة وترغم الحكومة عند ما يعلو صيتى أن

تغدق على ما أريد دون أن أطلب منها ذلك، لأن الطبيب الناجح الذى يزود بالمزيد من ثقة الناس تزيد ثقته بنفسه ويتضاعف اعتزازه بكرامته فيترفع عن كثير من السفاسف ، ويكون همه الأول اتقان عمله وبدء نواة مدرسية أو جيل من الأطباء سرعان ما يرتفع على أكتافهم إلى السماكين ، فيزيده ذلك إيماناً برسالة الأستاذ التى من أهم عناصرها نكران الذات وبذل النفيس فى سبيل تعليم الأجيال المتعاقبة دون كلل .

* * *

إذا سألتنى لماذا أصبحت طبيباً فلن أجيبك قائلا إننى ولدت والغرام بمهنة الطب فى دمى . إننا فى الدنيا مسيرون لا مخيرون . وقد جاء ترتيبى متقدماً فى امتحان البكالوريا فدخلت بسهولة كلية الطب . وما وطئت قدماى باب الكلية حتى جعلت نصب عينى أن أصبح طبيباً ناجحاً متفوقاً . فليس بكاف أن تصير طبيباً وحسب ، بل العبرة أن تتفوق ثم تترك الباقى للعناية الإلهية العليا تأخذ بيدك إلى القمة أو ما يقرب منها إذا أغدقت عليك بعض الهداية و بعض التوفيق .

ويجب أن يدرك الطبيب الناشىء أن النجاح فى مهنتنا لذيذ فى مرارته ومر فى لذته ، وإن الطبيب منا ليحترق أحياناً ليشتد لمعانه . وما أتعس الزميل الذى أسبغ الله عليه الحظ الوفير والصيت العريض . إنها والله ورطة ما بعدها ورطة ، فهو مغمور إلى قمة رأسه بثقة يعجز معها عن اختلاس سويعات قلائل يقضيها بين أهله وخلانه وقد يهمل بسببها فى مراعاة صحته فيأخذ فى الذبول تدريجياً عند ما تخبو جذوته من كثرة الإرهاق ، فى حين ترتفع نجوم أخرى تجتذب الجماهير التى لا تبقى على أحد ، فتنتزع الثقة العزيزة من صاحبها الذى يصبح تدريجياً من الأساطير الفانية . والطبيب الفيلسوف العاقل هو الذى يذعن لحكم الزمان ، فالأيام دول ولكل سن مجال .

لقد عشت بحمد الله — فى حدود رضاء الله والضمير والناس ، وتفاديت جهد طاقتى همسات الوسواس الخناس ، جاملت العدو والصديق ، وسايرت الطاهر والزنديق . تلقيت باقات الزهور عند ماحالفت ملاك الشفاء . ووخزتنى من بعيد أو قريب قوارع الكلم إذ أذن الله بانتهاء رحلة المريض فى عالم الفناء . فقل من يقنع أن هناك عالم فناء وعالم بقاء ، وما أسهل ما يُجتاز الجسر الموصل بينهما إذا الله شاء ! . اللهم إن كنت كتبتنى عندك طبيباً طيب الثمرات منزهاً عن الأغراض والنزوات ، فأصف إلى نعمائك وأفضالك وقايتى من مريضى ، فهو عزيز كريم إذا رضى واغتبط ، جبار مذل إذا غضب ونبذ وسخط .

لقد خلقت لا أعرف معنى الحقد والكراهية ، وعجب لأناس يقضون بعض النهار أو جزءاً من الليل يفكرون فى تدبير متاعب للغير . ما أبدع أن تكون إنساناً صالحاً ولكن فى حيطة تحفظ لك حقوقك نحو نفسك ، وفى غير غفلة تجعل منك فريسة سهلة للذئاب البشرية الذين يفوقون فى عالمنا عدداً من نظرائهم من ساكنى الغابات . فهناك أقوام يبغضهم الله فيبتليهم بنفوس شريرة تكره الناس والناس يكرهونهم ، ويحقدون على الناس والناس لا يستريحون إليهم ، ويعملون على إيذاء الناس والناس ينفضون عنهم ويستعيذون بالله منهم . وقد خلق الله أقواماً ذوى نفوس تألف الناس والناس يألفونها ، وتحب الناس والناس يحبونها وتحترم الناس والناس يحترمونها . اللهم اجعلنى عندك فى أم كتابك من النوع الأخير فقد أصبح العالم كله يعيش فى جو تغلب عليه المادية ، وأصبح الواحد منا يتحمل كل ما يبدو من صديق قديم وثق به لأنه لم يعد هناك وقت أو فرصة لعمل صداقات جديدة ، بل إن الإنسان ليفتقد هذه الصداقات أحياناً فى جو منزله . وما من والد مد الله

له حبل العمر حتى عاصر ابنه المراهق ، إلا أدرك جو الحيرة الذى أحاط به لمواجهة هـذا الانقلاب الطارىء الذى ساد الجو العائلى إذ تظله سحب الشقاء فى طرفة عين ، بعد أن كانت السعادة ترفرف بسخاء فى أرجائه . فيصبح الجو مستحيلاً وكأنه الجحيم بعينه ، لأن العقوق وعدم الرضا والتأفف التى تصدر من هـذه الوحدة العجيبة التى يسمونها الابن قد يولد فى نفس الوالدين شعوراً بالبغضاء لا يلبث أن يزول مع الزمن وهو كفيل بإصلاح كل شيء . وقد خلقت بحمد الله خالياً من هذه الشوائب التى يشكو لى منها كل أب وأم ، ولا أظن أننى سلمت منها ممن حولى ، فما أنا إلا فرد فى مجموع يعلم الله ما ابتلى به من نقائص قد تبدو فظيعة فى مبدأ الأمر ولكن لا يلبث الزمن أن يدربك على تجاهلها ، وتسأل الله الهداية لمن قسم له أن يقاسى من المحن النفسية التى ترغمه غير عامد على إيذاء شعورك وأنت الوالد غير المقصر فى حقه . . وخاصة إذا سمعت أن الكثير من قبلك قاسوا ما قاسيت فى ذات يوم ، ثم إذا الصبح ينبلج فجأة ويبدو الأمل الوضاح من وراء السحب القاتمة ، وتسير الأمور على أحسن حال وكأن لم يك شيئاً .

لقد تمتعت بحب والدين قل أن يجود الزمان بمثلهما ، كان والدى خليل الديوانى أباً عطوفاً ، لا أذكر أنه آذانى بكلمة جارحة أو نهرنى لغلطة ارتكبتها ، بل كان توجيهه فى رفق مصحوب بربتة على الكتف أو مداعبة للخد . وكان يحبنى حباً جماً برغم كونى السادس فى الترتيب بين إخوتى السبعة ورغم أن مولدى عاصر أحلك سنين حياته ، فقد أطاحت الأزمة المالية التى اجتاحت البلاد بكل ماله نتيجة لمضاربات الأراضى والدائرة السنية .

وكنت كما قيل لى طفلا ممتلئاً صحة ونضارة ، ذهبى الشعر أحمر الخدين متوردهما متمسك بحقوقه الغذائية إلى أقصى الحدود . فكانت مربيتى (آمنة) رحمة الله

عليها تهجم على المخصصات اليومية للعائلة وتحجز لابنها — كما كانت تسميني — حصته دون مراعاة قوانين العدالة ! . . كانت تلقمني مثلا أربع بيضات وكوبين من اللبن الصافي في الصباح . وتجعل لي نصيب الأسد في وجبتي الظهر والمساء وأنا لا أقول لا أبداً ، متمثلا بقول الشاعر :

ما قال لاقط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم

ونتيجة لهذه العناية الفائقة من مربيتي آمنة صرت مثلا حياً رائعاً لجمال الطفولة ، في وجنتيه حمره وعلى وجهه ابتسامة راضية سخية يوزعها ذات اليمين وذات اليسار فتصيب عن غير عمد ذوي القلوب الضعيفة . ويظهر أنها أصابت من والدي موضع القلب فبادلني طوال حياته معي حناناً بحنان ولم يكن حديثه معي إلا قبلات وأحضان لا زلت أذكر حرارتها . وهداني الله سواء السبيل فما انحرفت ولا تكاسلت ، بل اجتهدت في دروسي ، وكنت على الدوام متفوقاً على أقراني مما قربني إلى قلب والدي زيادة وزيادة . فلم تخبو أبداً نظرات المحبة التي كان يجود بها على كلما رآني . ولا أظن أن كثيراً من الأباء أحبوا ولدا من أولادهم بمثل هذا الإنتظام الذي لم تنل منه الأيام وأحداثها قيراطاً واحداً . بل أن نظراته الأخيرة لي قبل أن يجود بأنفاسه الأخيرة بثوان معدودات كان فيها ضراعة صامتة أن أدعو له وأشفع له عند الله ليبقى لي ولو لسنوات . ولكنه لما شهق الشهقة الأخيرة جريت إلى الباب لا ألوي على شيء ، وفي أذناي رنين مشئوم : أيها اليتيم !! أيها اليتيم ! واجه الدنيا وحدك من الآن .

ومن عجائب المصادقات أنني أكتب هذه الخواطر يوم ٢٢ فبراير ١٩٦٤ وهو يوافق يوم وفاة والدي في عام ١٩٢٢ أي بعد مرور اثنين وأربعين عاماً بالتمام ، ولا زلت أذكر تماماً ما حدث في ذلك اليوم . كنت طالباً بالسنة الثالثة الثانوية بالمدرسة التوفيقية بشبرا وأذكر أن اليوم كان صحوا جميلا وقد دخلت

حجرته فى الصباح كالعادة فوجدته يصلى ركعتى الصبح فهش لى خلال صلواته وكأنه يستمهلنى لكى لا أنصرف، والتصق جسمى بكرسى مريح فى الغرفة وكأنى لا أود الإنصراف أبداً ، فقد انتابنى شعور غريب قبل هذه الأحداث بأيام جعلنى أقول لنفسى أكثر من مرة ، كيف يمكننى أن أعيش دقيقة واحدة بدون هذا الرجل ، والله لو مات لاتبعته إلى النهاية حتى أدفن معه . ولما ذهبت إلى المدرسة سرعان ما اندمجت فى جوها المرح وضحكت وهرجت مع أقرانى فى استراحة الظهر التى تعقب وجبة الغذاء حتى دمعت عيناى من كثرة الضحك ، ولعل هذا راجع لمحاولة داخلية فى نفسى للتغلب على الشعور البغيض بالخطر المرتقب . وقد صدق باعث الشؤم فى نفسى إذا ما كدت أخطو عتبة البيت حتى قابلنى المرحوم أخى محمود وأخبرنى عن إصابة والدى بالذبحة الصدرية ولم أكن أعرف كنهها أو درجة خطورتها .

ولما وقع المحظور جريت نحو (السلاملك) ومضت فترة طويلة أبحث فيها عن الدمع فلا أجده . واستمر الجفاف والقحط فى مقلتى طوال الليل وبقية اليوم التالى . ولم يفتح الله على بعزيز الدمع إلا عند ما قاربت الساعة الرابعة وهو ميعاد بدء سير الجنازة ، وعندها واجهت النفس الحقيقة المرة وهى أن الفراق أبدى لارجعة بعده ، والحكم العالى حاسم لا نقض فيه ، ففاض الدمع فجأة وارتفع صوتى بالنحيب والبكاء حتى أغمى على . ولم أفق إلا بعد أن فارق الجسد الحبيب داره للمرة الأخيرة ، ثم حاولت اللحاق بالموكب فامسك بى من حولى . واذكر أننى رحبت بمنعهم إياى من تنفيذ غرضى اعتقاداً منى بأن فى هذا ابقاء على بقية أمل فى نفسى أن كل ما مررت به كان حلماً لا حقيقة .

* * *

قد لا أكون متجنياً على أصول الفن القصصى إذا نقلت عدسة التسجيل فجأة من هذا العهد البعيد من عام ١٩٢٢ إلى أمسية بديعة من شهر يوليو عام ١٩٦٣ ، عند ما دعانى صديقى الدكتور محمد محمود غالى العالم الجيولوجى الكبير لحضور حفل خطبة كريمته وتلميذتى الدكتورة ايزيس ، وكنا جالسين فى الحديقة فى جو يسوده المرح البرىء ، وفجأة أخذنى الدكتور غالى من يدى وقدمنى إلى شخص وقور تقدمت به السنون ولكنه حافظ على أناقته وصفاء ذهنه وكان يمسك بغليونة الأنيق يجز عليه بأسنانه فى شغف الولهان ، ويشعله ثم يعيد إشعاله بين حين وآخر كعادة مدمنى تدخين الغليون . وما كاد يقدمنى قائلا هذا ابن حبيبك وزميل صباك خليل الديوانى ، حتى هب الرجل وأمسك بيدى فى اشتياق وحرارة وبدأ فى عينيه حنين ذكرى قديمه هلهلتها السنون إلى حين ، ولكنها لا تلبث أن يشتعل أوارها كلما لفحها لهيب الذكريات . وبدا وكأنه يريد أن يضمنى بعينيه قبل أن يقول : أنا محمد عباسى السمرا صديق والدك يوماً بيوم . لقد تركنا وهو فى شرخ الشباب .

ثم تدرج الحديث إلى ذكريات عزيزة كنت أتوق لمعرفتها . حدثنى عن الإحتفال بعقد قران والدى عام ١٣١٢ هجرية وكان الجو صيفاً وأضىء المكان بخمسين مصباح فبدأ الليل وكأنه النهار ، وقد أقيم الحفل فى الهواء الطلق وأحياه أحد نجوم ذلك العهد وهو الشيخ حسن الآلاتى ، وكان جميل الصوت والنكته وأطرب الحاضرين بقصائده فى مدح الرسول بطريقته الجذابة ، وكان يمتلك مقهى كبيراً بحى السيدة زينب إسمه المضحكخانة ، يجتمع فيه سراة البلد وعامة الشعب ليستمعوا إلى طرائفه ونكاته وموشحاته الدينية التى تخصص فى القائها . ولم يكن هناك ما يمنعه من رشق سهامه اللاذعة على مستمع يقاطعه وهو يلقى

إحدى مدائحه النبوية . وتمضى السهرة فى هذا الخليط الساحر ينصرف الناس بعدها إلى بيوتهم جذلين مسرورين .

وحدثنى عن سيدة فرنسية إسمها مدام (جيز) اشتهر محلها فى الوقت بنوع من الفطائر المسكرة وكان إذا اصطحبه والدى إلى هناك أكل والدى عشرين منها على الأقل لفرط حلاوتها وأكل السيد عباس اثنين أو ثلاثة منها على الأكثر. فقلت لنفسى هل طـــــال عمره لأنه كان مقلا وقصر والدى لأنه كان أكولا ؟

وطال بيننا حديث ذو شجون انتهى بانتهاء الحفل وقبل أن نفترق ناولنى بطاقته وهذا نصها :

محمد عباسى السمرا

تاجر وقومسيونجى

١ شارع النحراوى   شبرا

فوضعتها فى محبة واحترام كبيرين فى حافظتى ووعدته بزيارة قريبة . ولـكنى سافرت بعدها بأيام فى رحلتى السنوية إلى أوروبا وأمريكا وحملت البطاقة معى خلال هذه الرحلة المتشعبة الأطراف وكنت كلما رأيتها بين أوراقى أصمم بينى وبين نفسى ألابد من زيارة لهذا الشخص العزيز الذى رافق والدى خلال صباه وشبابه ورجولته، وسعد ذات يوم باندماج روحى حدثنى عنه والدمع يكاد يفيض من عينيه ، ولما عدت إلى الوطن حالت مشاغلى الـكثيرة دون تلبية نداء القلب نحو هذا الرجل المسن وتـكررت تلميحاته لمن يعرفوننى عن تقصيرى فى الوفاء بالموعد، حتى إذا كانت ليلة من شهر فبراير عام ١٩٦٤ دعيت إلى منزل صديقى الدكتور غالى بمناسبة عقد قران كريمته التى احتفلنا بخطوبتها فى الصيف الماضى

وبينما أنا جالس أستمع إلى إحدى الفتيات وهى تؤدى دورها فى المسرح لفت نظرى نفس الصديق المسن الوقور يجوس بين المدعوين باحثاً بعينيه عن عزيز الذكريات فى شخصى فما كاد يرانى حتى هرع نحوى فى تباطؤ حتى إذا ما تماسكت يدينا فى سلام حار أخذ كرسياً وجلس بجانبى وبدأ يعاتبنى على عدم برى بوعدى بزيارة طال انتظاره لها . فكررت وعدى مؤكداً هذه المرة بأن الزيارة سوف تتم فى خلال أيام ، وفعلا انتهزت فرصة فسحة من الوقت بعد طعام الإفطار فى أواخر شهر رمضان المبارك واستدللت على العنوان من البطاقة . ولما طرقت الباب فتحته لى الباب خادمة نظيفة الملبس والمظهر ولما سألتها عن صاحب البيت أشارت إلى غرفة على يسار الداخل فلما فتحت بابها بيدى رأيت صديقى الشيخ قابعاً فى فراشه وقد التحف بأغطية سميكة من الصوف ولم ير الداخل فى مبدأ الأمر خلال عينين داعبهما النعاس وأضعف حدة نظرها مرور السنين . وأخذت أقترب منه خطوة بخطوة وفى حذر واحترام وكأنى أطأ عتبة باب أبى تماماً ، وما كاد يتنبه لوجود زائر غريب فى الغرفة حتى تساءل فى صوت لا هو بالخافت ولا هو بالمرتفع من أنت ؟ ولما أخبرته باسمى هب فى سريره فرجوته أن يبقى كما هو تحت أغطيته الصوفية الثقيلة . فاستجاب لرجائى دون تردد ، بقى كما هو طول مدة زيارتى . وتحدث معى عن الماضى البعيد عندما كان ثمن أردب القمح حوالى الستين قرشا ، ورطل السمن بقرش صاغ ، والإثنى عشر بيضة قرشا صاغاً وطرائف أخرى مثل العادة القديمة فى تشييع الجنازات وأنهم كانوا يمشون على الأقدام من منزل الفقيد حتى المقبرة وأخبرنى أنه سار فى ألف وخمسمائة جنازة على قدميه حتى القبر . وفجأة ضغط زر الجرس وطلب من الخادمة أن تحضر لى فنجاناً من القهوة ، ثم أشار إلى إطار من الخشب المطعم بالصدف معلق على الحائط القريب ، فوجدت صورة مكبرة لى معه وقد أخذت فى حفلة

الخطوبة التى تقابلنا فيها أول مرة ، وعجبت كيف دخلت قلب هذا الرجل الوقور بمثل هذه السهولة ، وكيف مهد طريقى إلى قلبه حب قديم لم ينته بوفاة أحد طرفيه . وأخذت أتأمله وهو يتكلم وأدقق النظر فى التجاعيد التى خطها الزمان على جبينه فى رفق وهواده ، وطبقات الرواسب السوداء التى تجمعت على أسنانه التى لم تزل محتفظة بقوامها المتين ، والرعشة الخفيفة التى صاحبت حركاته وخاصة عندما كان يحاول إشعال غليونه الحبيب ، وقارنت بين استسلامه للرقاد فى مثل هذا الحياد وبين ما كان يتحلى به من نشاط وحيوية عند ما كان فى سن والدى عند وفاته . لقد كان الفارق بينهما فى السن عاماً واحداً . فهل يا ترى كنت أرضى لوالدى أن يعيش حتى تمل منه الدنيا بعد أن ينال الزمن منه بهـــذه الصورة غير العادلة ؟ أم الأفضل اعتزاله وهو فى قمة النشاط كما يعتزل الرياضى الكبير الملاعب قبل أن تهلل الجماهير عليه لا له .

ولما هممت بالإنصراف ودعنى صديقى الوقور وداعا جميلا دون أن يتحرك من فراشه ، بل بقى قابعاً بين أغطيته الثقيلة ، قانعاً من الدنيا بالراحة والسلام وغليونه الحبيب الذى يدل شكله ورسمه على أناقة دفينة فى نفس صاحبه ، وأدرت ظهرى فى تأثر بالغ لفقد تعلقت بهذه الشخصية التى اعتبرتها جزءا من أبى . واتجهت نحو الباب بخطى ثقيله وقبل خروجى لمحت مرة ثانية صورتى فى ذلك الإطار الخشبى المطعم بالصدف والمثبت فى الحائط المجاورة للباب . وطلبت من سائق السيارة أن يسير بى الهوينا على كورنيش النيل لكى أستسلم لأفكارى . ولما نظرت إلى النجوم المتناثرة فى السماء تمتمت قائلا بصوت غير مسموع : الحمد لله يا خالق السموات والأرض ، لعل لك فى كل مايخفى علينا أمره حكمة . والله ما كنت أحب أن أرى والدى على هذه الصورة . لقد قبضته إليك وهو فى أوج الصحة والشباب . ولو أمهلته قليلا لمتعتنى به لبضع سنين جذلة

سعيدة أحتمى خلالها بظله حتى أنهى دراستى على الأقل ، وأتجنب فترات الحرج التى مررت بها وقد كان عائلنا الوحيد . ولكن هذه سنتك وإرادتك ولن نجد لأيهما تبديلا .

ولا أظن أننى كنت سأمل عشرة والدى أبداً مهما طال به العمر ، بل كنت سأواظب على محبته واحترامه إبان رجولته ، ثم رعايته وهو شيخ لأرد بعض ما أغدقه على من حب وحنان .

وإنى منذ ذلك الوقت أشعر باحترام غريب نحو الابن الذى يحترم والده ويرعاه فى شيخوخته أو يحزن لفقده ويحترم ذكراه .

ولعل أروع مثل صادفته أخيراً يرجع إلى شهور مضت عند ما استدعانى أحد تلاميذى الدكتور على راضى ، ليستشيرنى فى حالة طفل مريض بحى العباسية . وبعد أن انتهينا من مهمتنا الرسمية تقدمت إلينا الخادمة الصغيرة وهى تحمل صينية وزعت علينا برشاقة زجاجات الكوكاكولا وأطباق ملئت بأنواع الكعك المشهى . وألحت صاحبة البيت بروحها الشرقية المضيافة على الطبيب الشاب أن يتناول قسطاً من هذه الحلوى فاعتذر فى لطف قائلا : (أعفونى من فضلكم) ولما زدنا إلحاحاً عليه قال : ليس إمتناعى والله بسبب المرض ، ولكن والدى قد توفى أخيراً ولم تمض الأربعون يوماً بعد على وفاته .

وما كاد ينتهى من كلامه حتى شاهدت الدمع يترقرق بين جفونه فى حزن صامت وبدت على تقاطيع وجهه صرامة هادئة اختلطت بإيمان عميق بالله ، فلم تتربع على الجبين تقطيبة ولا عبسه ، ولم تتراقص البسمة الحائرة على ملامحه المحايدة .

فتعجبت لهذا الوفاء النادر فى جيل أصبح فيه عقوق الأبناء لأبائهم عادة ، ونظرت فى تأمل وإكبار إلى هذا الشاب الذى يمثل الحد الفاصل بين

جيل وجيل . ويعزينا وجود أمثاله أن هناك بارقة أمل فى مستقبل قريب أو بعيد ينحسر فيه الموج الـكاسح عن شاطىء يصل إلى جنـة مفتاحها رضاء الأباء والأمهات ، ويهرع إليها الأبناء طائعين صاغرين ، يعفرون جباههم بترابها ، ويستغفرون الله على ما اقترفوا من ذنوب وخطايا . وأنى لأتخيل هذا الطبيب الشاب وهو يقبل يد والده أثناء حياته كل صباح وهو يغادر المنزل ، ملتمسا دعواته وبركاته ، ولا عجب إذا فتح الله عليه ! إن رضاء الوالدين زاد للدنيا الفانية وللدار الباقيه سواء بسواء . أنه يتعقبك أينما كنت فتامع فى أعين الناس دون أن تدرى، ويقربك إلى الله فيزيدك من نعمائه جزاء وفاقاً لدعوات والديك وما بذلت فى سبيلهما .

أننى أدعوها كل صباح فى صلواتى لأبنائى وأبناء من أعرفهم قائلا : اللهم زدهم هداية وزدنا صبراً !! فوالله ليس أشد إيلاماً للنفس المرهفة الحساسة لوالد بذل فى سخاء ، من رؤيته ولده فى نوبات عقوق سرعان ما يندم عليها ، فيدخل باب المنزل الذى يأويه دون أن يلقى التحية ، أو يشيح بوجهه وهو يدب على الأرض بقدميه الهزيلتين اللتين لولا طعام مادى ونفسى من والدين كريمين لزادتا اختلالا وتخلخلا !!

* * *

وهكذا خلقت وترعرعت فى بيئة غلب الحب فيها على كل عاطفة أخرى وبادلت من عاشوا معى فيها حناناً بحنان ، فنشأت لا تعرف الـكراهية أو الضغينة طريقاً إلى قلبى ، فلم أحمل فى حياتى حقداً لأحد ، وساعدنى رضاء الله والناس على الإقتراب من القمة تدريجياً وفى سهولة ويسر ، دون أن يكلفنى ذلك التخلى عن مبادئى التى رسمتها لنفسى منذ أن اندمجت فى خضم الحياة الصاخب بعد أن أصبحت طبيباً . ففتحت لله قلبى وسلمته نفسى وقلت اللهم ألهمنى

الصواب وأهدنى سواء السبيل وأعطى فسحة من العمر أحقق بها رسالتى فى الحياة ، وهى أن أكون طبيباً نافعاً لوطنه وفياً لزملائه وأبناء زملائه موقراً للذين علموه محبوباً من معاشريه ومخالطيه على مختلف المستويات . واستجاب الله دعوتى وسلمنى لموج من الحياة ذى حنين كان يرتفع بى حينا ، وبينما أنا فى قمة الشعور بالأمان الدائم ، إذا به ينخفض بى فجأة حتى إذا شرق منى الحلق رأف بحالى وارتفع بى فى حنان ، وأرى الشمس والقمر والنجوم ثانية فاحمده سبحانه وتعالى على السلامة ، وأصيح من الأعماق : اللهم زدنى هداية فلست أريد غيرها ، وأنا زاهد فيما عداها . وإن كان قد بدر منى ما يغضبك فأنت غفور رحيم .

وكأى آدمى يدب على هذه الأرض الحانية الفانية كان لابد أن أمر فى أزمات ، وكانت تمر بسلام وأنا مستسلم لها فى غير غباء . فقد كان تأكدى من نفسى وإطلاع الله على سريرتى وابتعادى عن مواطن الشك والمعصية كفيلة بأن أعيش طوال حياتى مواطناً صالحاً يتمتع بالثلاثة الكبار :

رضاء الله ورضاء الضمير ورضاء الناس .

* * *

طفولتى الأولى

لما حاولت أن أعتصر ذاكرتى لأتذكر أقدم أحداث طفولتى ، ذكرت طفلا فى الثالثة من عمره حمل على رأسه الكبير ثروة ضخمة من الشعر الأصفر الذهبى ، يجرى خائفاً من شىء ما فى حوش البيت الكبير الذى ولد فيه ، وتعثرت قدماه ووقع على ظهره وارتطمت رأسه بالأرض ، فبكى فى انفعال جميل لأنه صادر من مخلوق صغير استبد بمن حوله فى دلال مستحب لا مبالغة فيه ، وكان يثق أثناء صراخه نتيجة اصطدامه أن أكثر من يد حانية سوف تمتد إليه لتعينه وتمسح دموعه . هذا الطفل الذى لن أكونه مرة ثانية ، كان يبدو لى كأنه يجرى خوفاً من جو غريب أحاط به بعيداً عن أحضان مربيته الحبيبة . فوجد نفسه فجأة وحيداً دون درعه الواقى فجرى حتى وقع على الأرض ، ثم صرخ فواتته النجدة .

وهذه الرأس الكبيرة التى اصطدمت بالأرض لها تاريخ فى حياة هذا الطفل . فقد تسبب منها عسراً فى الولادة وبقى الطبيبان المرحومان الدكتور محمد المهدى بدران وأحمد بك السعيد بجوار والدته ، وهما بنو عمومتها ، ساعة الوضع ساعات وساعات حتى فكرا فى استعمال آلات التوليد الإضطرارية ولكن جاء الفرج أخيراً وظهرت الرأس ثم صاحبها الذى صرخ عالياً حال وصوله معلنًا بدء الجهاد أو على قول ابن الرومى :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأوسع مما كان فيه وأرغد

وسلمونى إلى مرضعتى « آمنة » التى كانت تبدو فى سبيل المحافظة على حقوقى كالوحش تماماً ، فبدوت فى خلال شهور كأجمل مثل للطفولة ، ولعل

شعورى بالإ كتفاء والتشبع جعلنى أقبل على من حولى بعذوبة سخية . فأحبنى الجميع وفى مقدمتهم والدى الذى كان حبه لى مضرب الأمثال .

وكان الحاج إبراهيم مطر رحمه الله عليه يعمل بواباً وحارساً للبيت الكبير وعاصرنا منذ مولدنا حتى صرنا رجالا نافعين ، مندمجاً فى جو العائلة مع التزامه حدود الإحترام والأدب النادر نحو أفراد المنزل . شاركنا الأفراح والأتراح كأنه منا، وكان ممتلىء البنيان أسمر البشرة ترتاح النفس إلى حديثه وأقاصيصه، وفرض علينا حبه واحترامه حتى اختاره الله إلى جواره منذ خمسة عشر عاماً .

حدثنى رحمه الله أن أول عهده بى كان عندما حملنى على ذراعه وأنا طفل فى الشهر التاسع من عمره ، نشاهد سوياً الأنوار المتلألئة فى الحوش الكبير بمناسبة زفاف عمتى المرحومة السيدة بهية إلى الضابط الشاب مصطفى بدران، الذى أصبح فيما بعد وكيلا لمديرية القليوبية ، وأحيل إلى المعاش وهو فى مقتبل العمر فى عام ١٩٢٣ لصراحته فى انتقاد مغامز العهود البغيضة أثناء الإحتلال البريطانى ، وقد أنجب هذا الزواج ذرية صالحة منها الدكتور عثمان بدران الأستاذ بكلية الزراعة والدكتور إبراهيم بدران الجراح المرموق بعد ذرية من الأناث أصبحن خير مثال للزوجات الصالحات. وقد انعكست بركات والديهم إلى ذريتهن جزاء ما قدما من خير للناس ، فإنى لن أنسى ما أحاطنى به خالى مصطفى بدران من رعاية خلال الظروف المحرجة التى أعقبت وفاة والدى .

أن الدموع التى تسيل حولك ممن يحيطون بك بعد أن تفقد عائلك سرعان ماينضب معينها، وعند ماتبحث عنها لترتوى من غليلها وقد استبدت بك حاجة ملحة تجدها قد انسابت إلى غير رجة فى ذلك المصرف الكبير الذى يسمونه الأنانية ، ولكنى لا يمكننى أن أنسى شخصيتين كان لهما أكبر الأثر فى شعورى بالإستقرار فى الخضم الواسع والفراغ القاتل الذى تركنى فيه والدى أنا

وإخوتى أحدهما زوج عمتى المرحوم الأميرالاى مصطفى بدران كما أسلفت وكان فى الوقت نفسه ابن عمومة لوالدتى . أما الآخر فهو جدى لوالدتى المرحوم محمود بك محمد رئيس القسم العربى بالديوان السلطانى — إذ ذاك — وقد عاصر جدى ثلاثة سلاطين — توفيق وعباس وفؤاد — وعاش فى جو الدسائس الذى تميزت به حياة القصور فى العهود الغابرة مرفوع الرأس قائماً بعمله على أتم وجه فى حدود رضاء الله والضمير . وكان كريماً مضيافا ، وكان إذا أتى إلى زيارتنا ونحن أطفال نهرع إليه فى أحشام متكلف لأن جيبه كان عامراً دائماً بالقطع الفضية الجديدة اللامعة من ذوات الخمسة والعشرة القروش . وكان يدخل علينا وفى يده خمس أو ست أعداد من جريدة المقطم المسائية وإذا سألناه لماذا لا يكتفى بنسخة واحدة أجاب أنه وهو فى الطريق إلى بيتنا فى شبرا من منزله بحى المنيرة يعترض عربته بين حين وآخر بائع جرائد يعرض عليه بضاعته من الجريدة المسائية فيشترى منه نسخة على سبيل الصدقة . وهذا يمثل جانباً من خلقه وأعنى به طيبة القلب وصفاء النفس وحب الإحسان ، وإذا كان هذا حاله مع الغريب فما بالك مع الأقربين .

لذا مرت الأيام فى تباطىء غير ثقيل على النفس حتى استقرت أحوالنا . ولما لاقى ربه فى يوليو عام ١٩٢٦ كنا فى المرحلة الأخيرة من دراساتنا الجامعية . ولا زلت أذكر وجهه الهادىء الجميل وقد مضى صاحبه فى غيبوبة لبضعة أيام نتيجة تسمم بولى . وكان يبدو وكأنه يواجه الموت فى واقعية عجيبة . لا خوف ولا فزع ، بل استسلام الذى يذهب إلى ربه راضياً مرضياً . ولا عجب فقد كان مزيجاً خالصاً من الطهارة والصدق وعفة اللسان ومعرفة بالله وتعاليمه ، وانطبعت كل هذه الصفات الحسنى على وجهه خلال ساعات احتضاره ، فما ارتعشت من تقاطيعه عضله ولا وجلت له نفس ، وخرجت الروح الكبيرة لتقابل خالقها فى

شجاعة الوائق . وساد المنزل وجوم عجيب . هاهو الزمان يفطمنى للمرة الثانية من عطفه ، وها هى والدتى تلبس ملابس الحداد من جديد وتقف عند رأسه باكية فى حرقة التى فقدت عائلها وظلت تبكيه أعواماً طوالا . وكانت كلما سمعت عبد الوهاب يغنى قصيدة مهيار الديلمى التى يقول فى جزء منها : ليس فى الناس أب مثل أبى : علا شهيقها بالبكاء وفاض الدمع من مقلتيها وكأن الجرح لن يلتئم أبداً .

ولا زلت أذكر ذلك اليوم القائظ من صيف عام ١٩٢٦ عندما أودعناه الثرى فى تبجيل واعزاز كبيرين . وفى طريق العودة كانت فى القلب غصة تعلو على مستوى الدموع . وكنت أضغط على عضلات وجهى بين حين وآخر لأغالب نزول الدمع من مقلتى وأنفخ بفمى مستعيضاً بالنفخ عن الدمع الهتون . أى أننى كنت أرتكب أثام الحزن ألا أهونها وهو البكاء !

والواقع أن البكاء أجمل مما يظن الكثيرون. أنه ليس وقفا على السيدات وليس عاراً كما يعتقد البعض . فإذا ماجد الجد أفتح صمام الأمان من روحك القلقة الحائرة ولا تخش نقد الذين من حولك ، فأنهم يرتاحون لرؤيتك وأنت تبكى ، لأن هذا يريح أعصابهم أيضاً ، فليس هناك ما يخفف من حدة هذه المواقف إلا زفرة تطلق فى صراحة ، أو دمعة ترسل دون خجل أو حياء .

* * *

وهكذا تجدنى من كثرة ما أودعت من أرواح عزيزة فى المقابر — فى حى الإمامين — تنقبض نفسى كلما دعانى واجب المهنة لاختراق هذا الحى لأعود طفلا مريضاً . ويحلو لى أن أتأمل عن كثب قاطنيه من الأحياء، فأتخيلهم بشراً مثلنا ، لهم دموعهم ولهم أمالهم وآلامهم ، يخشون المرض ويرتعدون من ذكر الموت مع أنهم محاطين به من كل جانب ، وقد لا يهتمون لرؤية عزيز غريب

يطوى بين ذرات التراب أمام أعينهم وهم ينصرفون إلى أعمالهم ، ولا يمنعهم قربهم من القبور الصامتة من الإندفاع وراء شهوات الحياة . ولكن عندما يمسهم الجرح فإن ظاهرة التمسك بالحياة تتجلى فيهم كادميين مائة فى المائة .

وحدث فى إحدى زيارتى لهذا الحى . وكان ذلك فى الصباح المبكر أن قابلت حفار القبور الذى تقع مقبرتنا فى دائرة اختصاصه ، وبعد أن حيانى باشتياق تأملت فيه مليا فرأيت عجبا . نحن مثلا إذا خرجنا لأعمالنا فى الصباح تعمدنا أن نكون نظيفين أنيقين لنرضى الرئيس أو لنبعث الرهبة فى المرؤوس . ولكن المعلم إبراهيم كان هو الآخر نظيفاً أنيقاً . ولما شاهدته عن بعد وهو مقبل تجاهى رأيته ينظر إلى السماء الصافية فى رجاء وأمل ، ويستنشق نسيم الصباح وهو وهو مستبشر متفائل . ولابد أنه عندما استيقظ من نومه تمتم داعياً الله أن يجعله يوماً مباركا طيب الثمرات ؛ وما ثمراته إلا رؤوس عالية وأجسام حبيبه غالية . ولابد أن الزوجة كعادة نساء هذه الطبقة ، بدأت فى المشاكسة والمعاكسة حال استيقاظها، فنهرها الزوج الآمل فى فرج الله قائلا يا فتاح ياعليم ! ألا تعلمى يا مرأة أن الصياح فى الصباح يقطع الرزق. فتسكت صاغرة وهى ترجو أن تدفع الأقدار ثمن سكوتهـا مهجا وأرواحاً . أليست تطمع هى الأخرى فى اقتناء قرط ثقيل من الذهب تكيد به جارتها ؟ فكيف تصل إلى بغيتها إذا لم يفتح الله على عائلها وييسر له سبل الرزق .

هذه حال العـالم الكبير الغريب الذى نعيش فى رحابه الواسع . كل من فيه ميسر لمـا خلق له !

أن حالى مع قلمى وفكرى وأنا أحاول تدوين أحداث حياتى هى حال الموج مع الشاطىء إذ ينحسر عنه وهلة ثم لا يلبث أن يعود صاغراً ليهمس له قصته التى لا تنتهى إلا مع الزمان . وأنا إذ أكتب عن طفولتى أجدنى فجأة على

قمة موجة عالية أسرح فى الخيال على مستواها ، ثم لا تلبث أن تعود بى مرة ثانية إلى حيث كنت لأحدثكم من جديد عن أحداث طفولتى .

* * *

تلقيت دروسى الإبتدائية فى مدرسة عباس بالسبتية وكانت تبعد عن منزلنا بشارع ابن الرشيد بجزيرة بدران حوالى الكيلومتر كنا أنا وإخوتى نسيره على الأقدام أو نركب عربتنا ذات الجوادين المطهمين ويسوقها الأسطى رفاعى ويروى لنا قصصاً بديعة طول الطريق تجذب كل انتباهنا وتثير فينا الضحك الصادر من القلب الخالى .

كانت أيامى فى مدرسة عباس الإبتدائية للبنين هنية وعند ما التحقت بها فى عام ١٩١٤ كان ناظر المدرسة أستاذاً جليلا أسمه الأستاذ محمود حسنى . وكان يميل إلى القصر والبدانه ويضع على عينيه نظارة سوداء . وكنت تشعر نحوه بعطف الوالد دون تكلف لأنه كان هادئاً رزنيا وكان إذا أسدى لنا النصح فى طابور الصباح والظهر لا تشعر فى كلامه بصيغة التهديد أو الإنذار وكأنه يتعمد الإستسلام لعنصر الهداية فى نفس التلميذ ، كل حسب ما وهبه الله بقسط وفير أو شحيح منها ، فمهما كان مستوى البيئة التى خرج منها ، فعامل الهداية من عند الله يأتى أولا . فهو نور يضىء الطريق لمن شاء الله له الهدى. أما من ضل سبيله فلن يجدى معه طيب المحتدأ واقبال الدنيا عليه من جاه أو مال .

وفى العام الدراسى الثانى من حياتى بمدرسة عباس وفد علينا ناظر جديد لم تقع عيوننا نحن الأطفال إذ ذاك على من هو أشد منه قسوة وحزما ، وهو الأستاذ عبد الحميد الشربينى. لقد تولى اعباء الوظيفة والحرب العالمية على أشدها وكانت الحياة تسير سيراً طبيعياً لا يكاد يشعرك بوجود حرب طاحنة فيما وراء البحار . ولم تشن الطائرات الألمانية على مصر إلا غارة واحدة على القاهرة

أصابتها ببعض الأضرار فى الأرواح والممتلكات . وكانت الحياة رغدة هنية فرطل السمن بقرش صاغ والإثنى عشر بيضة بقرش ، وبعشرة قروش تملأ المطبخ خيراً من دجاج إلى لحوم حمراء إلى خضروات وفاكهة ، ومن أنواع السلاطات ما تشتهيه نفسك وقد يبقى لك قرش أوقرش ونصف طرف الطاهى .

كان ناظرنا الجديد الأستاذ عبد الحميد الشربينى عكس الناظر القديم تماماً . كان فارع العود متين البنيان صارم التقاطيع . إذا تكلم فى الطابور فهى الرعود والصواعق يهدد بها كل من خالف النظام سواء داخل الفصول أو خارجها . كان نادر الإبتسامة ، وفى الحالات النادرة التى كان يتخلص خلالها من مظاهر القسوة التى لا تصل إلى أعمق من جلده ، كانت البسمة تتراقص فى تردد بين تجاعيد صارمه تربعت فى إصرار على جبهته . وكان لا يضحك إلا عندما يمر علينا أثناء الدرس بين حين وآخر . وكان من عادتى أن أخفض صوتى أثناء الإجابة على أسئلة أستاذى ، وكانوا دائماً يطلبون منى أن أرفع صوتى . والحق يقال أن هذا الناظر القدير كان إذا دخل قاعدة الدرس عاد إلى قديم عهده كمدرس يرعى ويعطف ، فيمشى متئدا فى غير كبرياء وقد شبك يديه وراء ظهره ، فنهم بالوقوف ولكنه يشير إلينا فى تواضع أن نبقى كلا كنا . ويأخذ فى توجيه الأسئلة فى موضوع الساعة فارفع أصبعى . ولما يشير إلىّ أبدأ فى الكلام كعادتى فى صوت منخفض فيقترب منى ويميل على فى رقة ويطلب منى أن أرفع صوتى قليلا ويربت على كتفى مشجعاً وهو يضحك ضحكة خافتة .

أما خارج قاعدة الدراسة فهو هيكل مقدس لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه نلق وكنا ونحن صغار نتخيل أنه لم يخلق بعد الشخص الذى يمس عضواً من جسمه فى الهواء الطاق . أى خارج حجرات المدرسة حتى جاء عام ١٩١٩ وكنا طلبة فى السنة الرابعة الإبتدائية ، واندلعت نيران ثورة سعد زغلول فى مارس

من ذلك العام ـ فاقتحمت المدرسة مظاهرة يتزعمها الأستاذ رياض شمس ـ وكان إذ ذاك طالباً بكلية الحقوق . ولا زلت أذكر هذه الشخصية التى عرفت منها كيف يكون الحماس للمرة الأولى فى حياتى . رأيت شابا يافعا يضع على عينيه منظاراً يقف على مصطبة السلم الخشبى الذى يوصل إلى فصول السنة الثالثة والرابعة ويهتف هتافات حماسية ، ويطلب من الناظر أن يعلن الاضراب ويسرح التلاميذ ويقفل المدرسة احتجاجا على نفى سعد زغلول ورفاقه . رأيته يكلم الناظر بشحمه ولحمه ودمه ـ ياويلتاه ! بصوت عال سمعه كل الطلبة المجتمعون فى فناء المدرسة الواسع وزاد من عجبى أن رأيت الناظر يتطور فى ثوان إلى مصرى متحمس فى وقار ، فيحمر وجهه ويمد يده إلى رياض شمس ويهز يده هزاً عنيفاً . ونظرت إلى الاثنين أتعلم منهما درس الوطنية الأول . فحتى هذه اللحظة لم أكن قد علمت ماجرى من محاولات فى سبيل الاستقلال . ولكنى عند ماسمعت هتاف رياض شمس فليحى سعد ورفاقه! فليحى الاستقلال! سألت عن معنى هذه الكلمات ولما أدركت ما ينطوى وراءها تحمست مع المتحمسين ، وانضممت إلى المظاهرة التى سارت حتى ميدان المحطة ، ثم سمعت بعضهم يصيح أن الانجليز آتون ببنادقهم، فانسحبت فى هدوء وعدت إلى منزلى أقص على والدى ماحدث ، فوجدته يلتهب حماساً فقد كان عالما بما كان يجرى من خلف الستار وفى العلانية .

ولا أنكر أن منزلنا الكبير أصبح أبان ثورة ١٩١٩ أحد المعاقل المتواضعة التى يأوى إليها الذين يطاردهم الانجليز ورجال الإدارة المصريين من أذنابهم .وكانوا من طلبة مدرسة الحقوق ومدرسة الطب وكان عمى مهدى الديوانى المستشار الآن ينتمى إلى الأولى وأخى المرحوم الدكتور عبد المنعم ينتمى إلى الثانية . ولا أنسى يوم أتى رجال الشرطة إلى منزلنا فى اليوم الذى

اعتدى فيه المجاهد عريان يوسف سعد على رئيس الوزراء يوسف وهبه باشا .

وكان أخى بادى الشجاعة والاستهتار بالخطر عند ماطلب منه ضابط الشرطة بعد جلسة طويلة مع والدى ومعنا كان يتصرف خلالها بمنتهى اللباقة والأدب والظرف ـ أن يصحبه إلى سجن القلعة ليقضى فيهـا بضع ساعات يستوفى خلالها بعض النقاط الخاصة بحادث الاعتداء.

وعنا مانزل درجات السلم ورأى والدى يتظاهر بالجلد والشجاعة بينما دموع الخوف على فلذة كبده وأكبر أنجاله تـكاد تطفر من عينيه ، صاح أخى فى شجاعة ! لماذا أنتم خائفون ؟ فلتحى مصر : وكلنا فداؤها . . !

وشيعناه بدموع محبوسة فى المآقى لا نجرؤ على سكبها ، فقد كان المبدأ السـائد بين الجميع : كلنا فداء لمصر ، وقد ترفق الله بشعور والدى ووالدتى فعاد إليهما ولدهما البكر فى صباح اليوم التالى حيث لم تثبت عليه أية تهمة ، وعاد أخى منشرحاً من التجربة وكأن القدر قد رشق على صدره وساما من الفخار لا تمحوه الأيام .

* * *

نعم : لقد كانت المرة الوحيدة التى رأيت ناظرنا الشربينى يخرج من عبسته وصرامته هى فى ذلك اليوم المشهود من حياتى ، يوم عرفت أن هناك شيئاً اسمه الاستقلال والتضحية فى سبيل الوطن .

أما قبل ذلك فقد كنت تلميذاً هادئاً يخرج من بيته ليعود بعد يوم شاق ولـكنه سعيد ، لأن جو المدرسة كان مشجعاً على الدرس والتحصيل .

كانت هناك مجموعة من الأساتذة التقليديين الذين أحبونا وعطفوا علينا

عطف الوالد أمثال محمد القبانى (أمين عام مجلس النواب فيما بعد) والذى مرت الأيام ونعمت بالتدريس فى كليـة الطب لابنته الدكتورة زينب والأستاذ بيومى السباعى (جـد زميلى وتلميذى الدكتور بيومى السباعى أخصائى الأطفال) ولا أنسى أبداً ما كان عليه من هيبة ووقار ، كان أبيض البشرة أشقر الشارب الذى كان يحرص دائما على أن يبرمه فى غير اعتداد لأن هدوءه العام كان يطغى على كل ماعداه ، وما أبدع ولا أروع أن يسرى الحب خلال الأجيال المتعاقبة . فما كدت أعثر على تلميذى الدكتور بيومى طالباً ثم طبيب امتياز ثم معيداً ثم مدرساً بقسم الأطفال الذى أسعد برئاسته حتى صوبت نحوه كل العطف الذى نالنى من جده الفاضل ذات يوم جميل من أيام الحياة .

وكان مدرس الترجمة الأستاذ توفيق راغب رجلا فاضلا بحق ولن أنسى اتصاله الروحى بتلاميذه مما قربه إلى قلوبهم ، ولما نقل إلى بنى سويف ونحن طلبة فى السنة الثانية الابتدائية حزنا على فراقه حزنا شديدا ، وكتبت له خطابا فرد على بطريقة رقيقة ، وارفق بالخطاب صورة له وهو جالس على كرسيه ممسكا بمسبحة وقد بدأ على وجهه الهادئ الذى يزينه شارب أسود كثيف تدلى على شفته العليا ، وقار جميل . وقد تعلمت منه كيف يجب أن تستمر الرابطه بين المدرس وتلميذه مهما شط المزار ، وبعدت الأجسام .

ومن بين أزهار الباقة الجميلة التى سعدت بهـا مدرسة عباس فى أيامنا الأساتذة محمد أبو العيون ومحمود الأزهرى وعلى أبو العلا وسالم حسن ومحمد حافظ . وكان ضابط المدرسة الأستاذ على شعبان ، الذى أصبح معاون جامعة القاهرة فيما بعد ، مثلا للوالد الرحيم .

وقد خطر لى أن أدقق النظر فى صورة تذكارية أخذت لتلاميذ الفصل

ونحن فى السنة الثانية الابتدائية فرأيت عجباً . لقد أجلسونا على شكل هرمى تدريجى وجلس فى الصف الأول الناظر المهيب عبد الحميد الشربينى ، وإلى يمينه تماما التلميذ محمد فطين (أستاذ ورئيس أمراض الأذن والأنف والحنجرة بكلية الطب الآن) أنيقاً فى اعتداد وقد عوج طربوشه إلى يسار حتى ظهر فى الصورة وقد لمس كتف الناظر ، وكنت أنا ومحمد فطين جارين عزيزين منذ السنة الأولى نذاكر سويا وفى منزلى فى أغلب الأحيان ، فقد كان البيت الكبير يسع من الحبايب ألفاً كما يقولون . وكان والده ووالدى صديقين حميمين وأنى أذكر تماما كيف ترقبنا ترقية الاميرالاى أحمد فطين إلى رتبة اللواء فصار أول (باشا) فى الحى ، وكنا فخورين بهذا لأننا أحببناه كأنه والد ثان .

وإذا تخيلنا أن الصداقة التى أكنها لمحمد فطين ترجع إلى نصف قرن من الزمان لأدركنا كم هى راسخة وكم هى عزيزة حتى هذه اللحظةالتى أعيش فيها.

وجلس إلى يمين محمد فطين الأستاذ محمود الأزهرى ، وقد قسم له أن يموت بين يدى تلميذه محمد فطين بعد أربعين عاما من هذه الصورة ، فقد قص على محمد ذات يوم غير بعيد أنه استدعى قبلها بيوم لاسعاف أستاذه القديم من نزيف حاد مفاجىء من الأنف والأمعاء ، وحاول بكل وسيلة حديثه إيقاف هذا النزيف الحاد الغزير ولكن ذهبت كل جهوده عبثاً ، وقضى الأستاذ المثالى بين يدى تلميذه الذى طفرت الدموع من عينيه حزنا وأسى .

ولما دققت النظر فى الواقفين فى الصورة أمكننى أن أميز التلميذ زكريا محمد مسعود ابن الكاتب الكبير المرحوم محمد مسعود، وقد أصبح الآن من أكبر جراحى الصدر فى الجمهورية ، وكان زكريا يتميز ببطء واتزان ، وكان إذا سأله المدرس عن اسمه أجابه بنفس البطء ، وفى وقت يكفى للنطق بست كلمات ولكن فى غير تعثر أو تلعثم.

وكان يحلو لنا أن نداعبه مقلدين طريقته فى الكلام فكان يقابل شقاوتنا بابتسامة تتمتع بنفس البطء وفيها كل حلاوة الطفولة وبراءتها . وظلت هذه حالته طوال حياته دون أن يكون لميله إلى البطء والتروى سبباً فى تعثره خلال سنين دراسته . وقد ميزته هذه الصفات ليتخصص فى فرع من أدق فروع الجراحة وهى جراحة الصدر وله فيها باع طويل يضعه فى صف واحد مع نظرائه فى بلدان العالم المتقدمة .

ورأيت بين الواقفين التلميذ محمد عبد القادر حلمى وقد أصبح فيما بعد مدير عام قسم الأمراض العقلية ، ونجيب جرجس المحامى اللامع (*) وحنا أيوب طبيب

(*) لما علم الأستاذ نجيب جرجس عن عزمى اصدار هذا الكتاب صمم فى ظرف ورقة بالغين أن يكتب كلمات عن ذكرياته معى وتفضل بكتابة الآتى : —

« يعيد الدكتور مصطفى الديوانى إلى ذاكرتى أيام الطفولة السعيدة .

كنا زميلين فى مدرسة عباس الابتدائية وكنا جارين فى الفصل أيضا .

وفى عصر كل يوم كان التلاميذ ينصرفون ليقفوا عند الباب يتطلعون إلى « الكارتة » التى تنتظر مصطفى وأخوته . والكارتة فى ذلك الوقت لم يكن يعرفها أو يركبها إلا أبناء البيوتات الكبيرة .

وكان مصطفى يمتاز بذهن لامع وذكاء خارق . وفى السنة الرابعة انتقى الناظر وهو المربى الفاضل الجليل الأستاذ عبد الحميد الشربينى — عشرين تلميذا من جميع الفصول ووضعهم فى فصل واحد ليكونوا نموذجا طيبا للمدرسة . وكان مصطفى فى مقدمة العشرين .

وإنتقلنا إلى الدراسة الثانوية بالمدرسة التوفيقية وكنا زميلين وجارين أيضاً .

ولازمه ذكاؤه ونبوغه ولاحظنا عليه التفوق فى اللغة الإنجليزية وبحثنا حتى عرفنا السر ، فقد كان يبتاع الجرائد والمجلات الإنجليزية ويثابر على قراءتها .

وانتهت دراستنا الثانوية واتجه كل منا وجهته فى الحياة . ولكن لم انقطع عن لقائه وتتبع نبوغه فى فنه وخدماته الجليلة لوطنه فى ميدان تخصصه حيث يعمل جاهداً على تقويم صحة رجال المستقبل . أطال الله حياته ذخراً للوطن .

الرمد المعروف وتادرس سيداروس المهندس النابغ . ولفت نظرى تلميذ متورد بدين جلس على يسار الناظر وقد مال بطربوشه القصير إلى اليمين ، وكان يلبس ملابس الكشافة . فعرفت فيه المرحوم العميد المهندس محمد منير خليل . وقد عاصرنى فى المرحلة الابتدائية ثم فى مدرسة التوفيقية الثانوية ، وافترقنا بعد ذلك لأنه التحق بكلية الهندسة . وفرقت بيننا الأيام ولكن على ود متصل ، حتى تقابلنا فى برلين عام ١٩٣٦ بمكتب البعثات وكان يرأسه فؤاد شرين (باشا) وكانا يصليان الظهر حاضراً وجماعة ، فأعجبنى هذا المنظر لأنى حرصت على أداء فروض الصلاة أثناء وجودى بانجلترا عضواً بالبعثة لمدة سنتين ، ولم يحل وجودى بالخارج دون مواظبتى على أداء هذه الفريضة التى بدأتها منذ كنت تلميذاً بالسنة الثالثة الابتدائية حتى يومنا هذا ، وإنى أجد فى مواجهة الله كل يوم حافزاً على اتباع تعاليمه التى نزلت فى كل الكتب السماوية ، لذا تجدنى دائماً مؤمناً فى غير تزمت ، وأعمل دائماً ما اعتقد أنه يقع فى حدود رضاء الله وتعاليمه . وهذا ما يجعلنى أتمتم دائما بينى وبين نفسى : ما أبدع أن تكون مواطناً صالحاً .

وقضيت معه فى برلين عشرة أيام سعيدة تذاكرنا فيها أيام مدرسة عباس عند ما كان خاله الأستاذ سالم حسن يضرب الكسالى فى عالم الحساب بالمسطرة على ظهر أيديهم فى الشتاء ، وكنا نرتعد لمجرد تصور أنفسنا مكانهما وكان أحدنا وهو التلميذ وديد باخوم (أستاذ التخدير فى جامعة عين شمس) يلفت نظرنا دائماً إلى مادة أسمها المادة ٨٨ فى لائحة المدارس وهى التى تحرم العقوبات البدنية ، ويقول لنا إذا تعدى مدرس على أحدكم بالضرب فتظاهروا بأنكم ترفعون أيديكم أمام وجوهكم كأنكم تتقون شر اللكمات ولكن لا تنسوا أن تجعلوا الأصبع السبابة والوسطى من اليدين فى حالة انفراج مع قلبهما إلى أسفل لتشبه رقمى ٨ متجاورين فيصبح الرقم ٨٨ بإذن الله ويتنبه المدرس الغافل .

وكان المهندس منير خليل يكره التدخين مثلى تماماً ، ولـكنه كان يصمم ونحن فى برلين أن يركب عربة الترام فى الحجرات المسموح فيها بالتدخين ، وكان يلذ له النعاس والنوم وهو يستنشق عبير دخان السجاير الألمانى الذى لا يطيقه إلا الهاوى ، وكنت أقارن بين عينى الدامعتين من قذى الدخان المزعج وعينى صديقى المستسلمتين لسلطان النوم . وكنت ألحظ أمارات الرضا واضحة على وجهه النائم وكأنه يحلم أن الدخان السارى فى خياشيمه سيجار ضخم نخم دسّ بين فـكيه رغم أنفه وهو يحلم مع الملائـكة . وكانت السعادة التى شعرت بها خلال إقامتنا فى برلين لا تعادلها سعادة فى الدنيا ، فقد كان صديقاً مخلصاً وفياً لذلك كان حزنى شديداً لوفاته منذ أعوام قلائل نتيجة إصابته بحمى التيفود . وأنى لأشعر بالسلوى عندما أرى نجله الدكتور عادل منير أخصائى الطب الرياضى يملأ مكان أبيه من الدنيا الفانية .

ورأيت فى الصورة أيضاً محمد سليمان خضر (المستشار الآن) وحمد الله بلبع وإحسان عزمى والمرحوم محمود العطار الذى كان يتميز بحمرة البشرة وظل على هذه الحال حتى كبر وترعرع . وكنت أعود أولاده فى منزله بشارع العباسية حتى توفى وهو يشغل منصب مدير الإدارة بمطبعة مصر منذ عشر سنوات تقريباً . وكنت كلما ذهبت إلى هذه المطبعة لأراجع أصول كتبى أراه جالساً فى هدوء وعلى وجهه ابتسامة لا تغيب أبداً ويرد تحيتى من بعيد بأحسن منها . وأنى أنظر الآن إلى صورته والتى يبدو منها تلميذاً فى منتهى الأناقة والنظافة ينظر إلى عدسة التصوير بتركيز هادىء ، وأسأل نفسى هل تخيل الطفل أنه سوف يموت نتيجة نزيف فى المخ بعد أربعين سنة من تاريخ تلك الصورة ؟ .

ولما نظرت إلى الصف الأخير من هذه الصورة التذكارية رأيتنى واقفاً فى تواضع وهدوء فى أقصى الصورة العليا بعيداً عن الناظر والأساتذة بعيداً جداً

عن الدكتور محمد فطين الجالس فى تحد وعلى قدم المساواة تماماً بجوار الناظر الرهيب. ووقف بجوارى المستشار عبد العزيز خير الدين : نفس الهدوء والرزانة اللتان تمتع بهما طوال حياته ، ونفس الحاجبين الأسودين الكثيفين اللذين أضفيا عليه دائماً رهبة تفوق سنه بكثير . وعلى مقربة منى وقف الطيار محمد صالح حلمى الذى أولع بالطيران منذ الصغر فكان يتحدث إلينا عن أنواع الطائرات فى ذلك الوقت مثل (فوكر) وغيرها وكنا ننصت إليه ونحن لا نعى ما يقول ولكننا كنا نعجب بتبحره فى هذا المجال الذى لا نفقه نحن فيه شيئاً . ومحمد حلمى يقيم الآن بصفة دائمة فى انجلترا يعمل مع إحدى شركات الطيران الكبرى .

ورأيت فى ركن آخر الصديق الراحل محمد خورشيد . كان فى طفولته مثلا للتورد وجمال الصحة ، ويبدو أنه كان مدللا لأنه كان وحيد والديه . وكان يسكن فى منزل للعائلة قديم بجوار المدرسة ، وتعثر فى سنى دراسته لانشغاله بالمظاهرات وجمعيات الطلبة السياسية فتوقف مسيره عند السنة الثالثة بكلية التجارة ، ورفضت قافلة حياته أن تتقدم خطوة نحو المنتهى فقنع فى الربع الأخير من عمره بحجرة متواضعة فى مبنى قديم بشارع محمد محمود أمام مدرسة ليسيه الحرية بباب اللوق . وكانت رفيقته فى الحياة كلبة بيضاء كان يحرص رغم حاجته الملحة أن يشترى لها عظاماً وشغتا مما تبقى بعد انصراف الزبائن من مطعم بعمارة بناجيه بميدان الأزهار ، وكنا نحن أصدقاؤه الذين أكرمتنا الدنيا لحد ما ، نعطف عليه بكل حماس لأنه كان محتفظاً برابطة الود القديمة ، فتجده بجوارك فى الدقيقة المناسبة إذا جد من الظروف ما يجعلك تتلفت يميناً أو شمالا باحثاً عنه ، فتراه مقبلا من بعيد بقامته البدينة يدب على الأرض دبيباً خفيفاً متواضعاً وكأننا على ميعاد ، فتتقبله فى شوق وحب كبيرين وتصطحبه إلى حيث تريد ، وتجد فيه

نعم الرفيق. وظلت حاله مع الدنيا صراعاً مستمراً. لم ير فى حياته يوماً هنيئاً . كان خليطاً من اليأس والأمل، والرضا والسخط، لا يعجبه من دنياه شيء، فكرهها وكرهته، وعركها وعركته، ولكنها عند الفراق بكته ! كان يجلس على مقعده الدائم فى إحدى مقاهى ميدان التحرير وكان يتعزى برؤية نعوش العظماء تمر أمامه وقد وضع إحدى ساقيه فوق الأخرى وعلى فمه ابتسامة ساخرة، ولا أظنها خالية من التشفى، وكأنه يقول : ماذا أخذوا معهم ؟ وأخيراً حان موعد رحيله عن دنيانا فى يوم قائظ من أوائل أغسطس ١٩٥١ ، عندما انتابته نوبة قلبية حادة ، وكان جالساً فى منزل أحد أقاربه وكان آخر حروف نطق بها هى حروف إسمى عند ما طلب من ذويه أن يستدعونى لاسعافه ، ولم يكد ينطق باسمى حتى مال برأسه إلى الأمام وأصبح بدوره فى ساعات قلائل جسدا يسجى ونعشاً يتهادى، فكانت راحته الأبدية بحق. وتخيلت جسده مستسلماً فى ترحاب لجلاديه يتلقفونه من فراشه إلى نعشه ثم إلى لحده ، وبينما أنا واقف أرقب كل هذا تخيلت يوماً تذوب فيه صيحاتنا فى التراب بعد أن يكل منا الجهد ، ويبح الصوت ، وتمل النفس من فرط ما تعذبت ، ويتعب الجسم من طول ما كافح، فيستسلم فى ترحاب واستسلام إلى الجلاد . مع رجاء فى الله عظيم وهو أن يؤنس وحشتنا فى تلك الليلة المروعة جزاء كفاحنا الشريف وعيشتنا النقية ويدنا البيضاء الطاهرة .

* * *

كانت السنة الدراسية الوحيدة التى رسبت فيها طوال حياتى هى السنة الثالثة الإبتدائية فى عام ١٩١٧ ، وكان ذلك بسبب ضعفى الشديد فى مادة الجغرافيا . ولم تكن بدعة الملاحق قد بدأت بعد ، فكان علينا أن نعيد السنة الدراسية بأكملها . وأذكر أننى أصبت خلال الأجازة الصيفية لهذا العام بحمى

التيفود ، وكان يعودنى أثناء مرضى المرحوم الدكتور عبد العزيز نظمى طبيب الأطفال والدكتور سليمان عزمى ، مد الله فى عمره . ولا زلت أذكر مظهره الأنيق وجو الثقة الذى كان يبعثه فى نفس المريض وأهله . . وأذكر أنه جاء ليعودنى ذات ليلة مع الدكتور نظمى وكانت الحمى على أشدها ، وكنت فى شبه غيبوبة فطلب منى الدكتور نظمى ، أن أنام على ظهرى ليفحص بطنى فلم أدرك تماماً فهم ما أراد منى عمله فنمت ، على جنبى الأيسر ، فهمهم الدكتور سليمان عزمى قائلا : يا للمسكين ، أنها خطرفة الحمى !

وكانت تقوم على العناية بى أثناء مرضى أختى الكبرى المرحومة (إسعاد) وكانت عطوفة حنونة لم تتركنى لحظة حتى أخذت بيدى فى طريق الشفاء . وبينما عمت الفرحة بخروجى سالماً من هذه المحنة ، إذا بها تسقط فريسة لنفس المرض ، وشعرت ذات ليلة بالوجوم يسود جو المنزل وكأنهم كانوا يكتمون عنى شيئاً وخاصة دادة (ظرافات) التى كانت إحدى جوارى جدى . فقد كنت أجلس بجوار سرير أختى ومعى الدادة السوداء التى كانت لنا بمثابة أم ثانية وإذا بنا نسمع قرداتى تحت الشباك يلاعب قرده وهو يغنى ضاربا على رق فى يده قائلا : غفار ياغفار ! ياعالم بالحال ! فانطلقت الدادة تبكى فى سكون قائلة : يارب ! ياعالم بالحال ! ولما طلبت أختى قصرية السرير لكى تتبرز فى الفراش كما أمر الطبيب رأيت البراز الدموى للمرة الأولى ، ولن أنسى منظره أبدا . وتردد الأطباء على المنزل الكبير محاولين إنقاذها . وتعرفت من بينهم على الدكاترة سليمان عزمى ومحمود عبد الوهاب ومحمد طلعت (باشا) . وللمرحوم الدكتور محمود عبد الوهاب ذكرى عزيزة عندى فهو الذى أمضى شهادة ميلادى عندما كان مفتشاً لصحة شبرا . وأذكر أن الدكتور محمد طلعت (باشا) ، وقد رأيته للمرة الوحيدة والأخيرة عند ماجاء ليفحص أختى ، كان رزيناً

هادئاً قليل الـكلام جلس فى غرفة الاستقبال بعد أن انتهى من فحصه وجلست والدتى بجانبه تبكى بحرقة وتستحلفه بكل عزيز لديه أن يفعل المستحيل لإنقاذ ابنتها ، فـكان يرد عليها فى هدوء قائلا : قوللى اللهم الهمنى الصبر واشكرى الله على كل شىء . وقد قال الله تعالى « ولئن شكرتم لأزيدنـكم » . أدركت وأنا طفل كبير خطورة الحالة عند ما سمعت هذه الـكلمات من الدكتور محمد طلعت باشا . وفعلا لم يمض يوم واحد حتى أطلقت والدتى صرخة الحزن الأولى معلنة بدء عراكها مع الحيـاة التى كانت حتى هذه اللحظة رغدة سعيدة ، ووقعت الفاجعة فى أول يوم من أيام عيد الأضحى المبارك . ومضت تلك السنون وأنا أذكر ذلك الصباح المشؤوم وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة على مرآى منى وعيناها فى طريقهما إلى التحجر ، وبشرتها الخمرية اللون تصبح بيضاء كالشمع من فرط ما نزفت من أمعائها . وكانت تشجع والدتى وهى تهذى بآخر مدخرات قاموسها اللفظى قبل أن تسكت إلى الأبد . وكانت والدتى تربت على خدها بلطف مشجعة ، وهى تستنقد هى الأخرى كل مابقى فى مستودعات نفسها من شجاعة متـكلفة . وأشحت أنا بوجهى منصرفا فى تأثر بالغ متعجباً أو قل مندهشاً لشجاعة الواقفين حولها وهى تحتضر . ومشيت مسرعاً نحو المضيفة (السلاملك) وهى مبنى منفصل فى حوش المنزل لأبقى بجانب والدى الذى كان يجهش بالبـكاء قبل أوان . ودخل عمى المرحوم احمد الديوانى ونظر إليه والدى والدمع فى عينيه متسائلا . انتهى كل شىء ؟ فرد عليه عمى وهو يطرق برأسه إلى الأرض : نعم ! .

ظلت هذه الذكرى تتعقبنى سنين طوال لاعتقادى أننى كنت السبب فى موتها فى هذه السن المبـكرة ، لأننى نقلت إليهـا جرثومة التيفود فاستقبلته طائعة مختارة مضحية بنفسها فى سبيل رعايتى والعناية بى أثناء مرضى رحمها الله رحمة واسعة .

وبدأ العام الدراسى الجديد أى السنة الثالثة الابتدائية التى بقيت فيها للاعادة كما أسلفت ، وكانت هذه الإعادة سبباً فى تدعيم مستقبلى ولن أنسى أول شهادة فى امتحانات نصف السنة ممهورة بإمضاء المدرس سليم عبد القادر وكان ترتيبى الأول لأول مرة فى حياتى ولا زلت استبشر بوجهه الأسمر كلما رأيته أطال الله عمره ، جالساً يلعب النرد فى مقاهى القاهرة فهو أحد مدرسى الأوائل الدين نالنى منهم عطف وتشجيع كبيرين لا زلت أشعر بدفئهما حتى الآن .

ومنذ تلك السنة وأنا فى المقدمة دائما سواء خلال دراستى الثانوية أو الجامعية . فكنت فى البكالوريا أول المدرسة التوفيقية والثالث بين الناجحين فى القطر . وأكرمنى الله فكنت الثالث فى ترتيب بكالوريوس الطب مع مراتب الشرف فى كثير من المواد .

* * *

أرانى قد تباطأت بعض الشىء فى الشوط الأول من حياتى المدرسية ولعل قدماى قد غاصتا فى رمالها السخية بالذكريات . وقد أجدنى مضطراً أن أسرع الخطى قليلا خلال المرحلة الثانوية بالمدرسة التوفيقية بشبرا وهى التى بدأت فى أكتوبر من عام ١٩١٩ إلى يونيو ١٩٢٣ .

وفى أوائل عهدى بالمدرسة التوفيقية كان الشعب ما زال يغلى فى اتون ثورة ١٩١٩ وكنت أجلس مع والدى فى شرفة شبرد والـكونتننتال أشهد المظاهرات التى يتعانق فيها القبطى والمسلم والهلال والصليب كانت الوحدة كاملة والهدف واحد قبل أن يدسّ المستعمر بذور التفرقة .

رأيت سعد زغلول يعود من منفاه فتهب البلاد على بكرة أبيها بحق لتستقبل ابنها العائد . ولا أظننى قادراً على وصف هذا الاستقبال وكيف كان سعد واقفاً بنفس البنيان الضخم الذى تشاهدونه فى تماثيله عند كوبرى قصر النيل وميدان سعد زغلول بالاسكندرية .

كان سعد زغلول واقفا فى سيارته يحيى الواقفين على جانبى الطريق والمجتمعين فى الشرفات من مصريين وأجانب .

وكان الأجانب واقفين فى الشرفات يصرخون فى حماس زائد وهم يلوحون بمناديلهم واذكر أننى كنت جالساً فى عربتنا أرقب الموكب من شارع الجمهورية فى المكان الذى يقع فيه مستشفى صيدناوى الآن .

واذكر ونحن جلوس فى العربة فى انتظار الموكب أن بدء الأسطى رفاعى السائق يقص علينا آخر النكات ، وكان متخصصاً فيها فقص علينا قصه رجلين اشتركا فى صينية كنافة وجلسا يقتسمانها . فأخذ زيد مثلا النصف اليمين وترك لعمر النصف الشمال وأخذ زيد يرش السكر على النصف الخاص به ورجاه عمر أن يرش بعض السكر على النصف الآخر فرفض زيد وقال كلٌّ مسئول عن نصفه . فما كان من عمر إلا أن همّ بالتبول على محتويات الوعاء فقال له زميله مهلا مهلا ماذا أنت صانع فرد عليه عمر فى تحد قائلا :

أنى أتبول على النصف الخاص بى ! ! لا أدرى لماذا . علقت هذه القصة بذهنى طوال حياتى ، فكلما طلب منى صديق أن أشاركه فى صفقة تذكرت هذه القصة التى لا تخلو من بدائية ، ولكنها مليئة بالموعظة الحسنة . فاذا اشتريت شيئاً فاشتريه فى حدود طاقتك المالية . واذا بنيت عمارة فلتكن ثلاثة أدوار بدلا من ستة وما أجمل التحلى بفضيلة القناعة ، والبعد عن المظاهر الكاذبة ! .

وفى أوائل عام ١٩٢٠ ونحن جلوس فى قاعة الدراسة إذا بضابط المدرسة حافظ أفندى يدخل علينا فجأة ويعلن أن السلطان فؤاد أنجب ولداً . فسألناه فى تهريج ليطف ما معنى انجب فقال يعنى ولد له ولد . وكانت الحصة الثالثة من يوم الخميس فسمح لنا بالانصراف ابتهاجاً بالمناسبة السعيدة إذ ذاك .

وكانت موجة الاضرابات منتشرة بين الطلبة لأى حدث سياسى . فكنا نتجمع فى الطابور ونرفض دخول قاعات الدراسة فيأتى ناظر المدرسة الانجليزى (فرنون جارات) مسرعاً وهو يعرج بإحدى ساقيه التى فقدها أثناء الحرب العظمى الأولى ويبدى لنا النصح لنقلع عن الاضراب وننصرف إلى فصولنا ، ولكن هيهات أن يستمع إليه أحد فينصرف إلى مكتبه وهو لابس طربوشه فى وقار . والحق أنه كان مربياً فاضلاً عطوفاً .

وعاصرت موجة السخط التى عمت البلاد أثر صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ . كنت عائداً إلى المدرسة بعد انتهاء فترة انقطاعى عنها بسبب وفاة والدى ، وكان اليوم صحواً جميلاً نعمت بشمسه الدافئة وأنا أمشى منكس الرأس حزين الفؤاد أغالب الدمع محاولاً أن أبدأ الحياة من جديد معتمداً على الله وعلى نفسى . ولما وصلت إلى باب المدرسة التوفيقية وجدت الطلبة متجمعين فى الشارع رافضين الدخول إمعاناً فى الاحتجاج ، ولما سألت أصدقائى منهم عن السبب أجابوا ألم تقرأ الجرائد ثم أرونى جريدة الأهرام وفيها تصريح ٢٨ فبراير بتحفظاته الأربع والذى يعترف بأن السلطان فؤاد أصبح يلقب بصاحب الجلالة ملك مصر والسودان .

ومرت السنون مزدهرة حيناً ومكتئبة حيناً وأنا لا أغير برنامجى الأسبوعى : عراك طاحن مع الكتب والكراسات فى غير ملل ، وبعد ظهر الخميس أذهب إلى سينما الكوزموا لمشاهدة الروايات المسلسلة بعد أن اشترى

جريدتى الانجليزية المفضلة التى تبحث فى شئون السينما ، وكنت اتخذ منها وسيلة لإجادة اللغة الانجليزية . وكنت أذهب أحياناً لمشاهدة روايات المرحومين نجيب الريحانى وعلى الكسار ولقد عاصرت نجيب الريحانى منذ بداية مجده فى (الابيه دى روز) فى روايات الفرانكواراب فى عام ١٩١٦ والحرب مشتعلة الاوزار ، وكنا نعود فى أيام الطفولة الأولى فرحين جذلين نردد النكات التى نسمعها ولما انتقل إلى تياترو الاجبسيانا بعماد الدين بدأ أمجاده برواية حمار وحلاوة ، التى استمر عرضها لمدة طويلة ودرت عليه أرباباً طائلة حتى سرت فى البلاد أشاعة أنه اقتنى من جرائها عزبة اسماها «عزبة حمار وحلاوة» . وبدأ علاقته وزمالته لبديع خيرى برواية (على كيفك) ومنذ ذلك الوقت لم يفرقهما إلا موت نجيب الريحانى . وتجلى سيد درويش الذى عشنا فى نعيم أنغامه الحماسية والعاطفية حتى قبضه الموت فى صيف عام ١٩٢٣ وكنت على وشك بدء دراساتى كطالب طب فى أكتوبر من عام ١٩٢٣ ، وأذكر أن أول أغنية عاطفية علقت بذهنى من تلحينه كانت أغنية والله تستاهل يا قلبى .

ذهبت ذات يوم خميس لمشاهدة رواية كانت تقدمها فرقة على الكسار وإذا بفتحية أحمد وكانت فى أوج شبابها وعظمتها الفنية ـ تقف وحدها فى ختام الثانى وتغنى الأغنية لأول مرة وأذكر أن كلماتها كانت كالآتى :

والله تســـــــتاهل يا قلبى   ليـــه تميـــل ما كنت خالى
إنت أسباب كل كـــــربى   إنت أســـــباب ما جرى لى
إيه بقى اللى حايواســــينى   بعد ما انهـــــدت أمانى
إذا كان حظى ناســينى   مين أروح له أشـكى له حالى
إن شـكيت قلبى وحواسى   يعمـلوا مؤمرة عليـــــه

وإن بكيت والحب قاسى تشتكى منى عينيه
أعمل إيه واحنا فى غربة والاغراب دول زى يتامى
مين يواسيهم فى كربة يا ما بيقاسم ويا ما
يا رب كل من له حبيب وطال غيابه ولا قريب
ما تحرموش منه وهاتوه له بالسلامة

وكنت منذ الصغر مولعاً بالنغم الحلو فلم يمض يومان على سماعى لهذه الأغنية حتى كنت أترنم بها بينى وبين نفسى كصورة طبق الأصل لفتحية أحمد وإن حالى مع النغم يسرى فى دمى منذ طفولتى الأولى . أذكر أن أول أغنية تعلقت بها نفسى وأنا طفل صغير كانت من عبد الحى حلمى وكانت مسجلة على اسطوانة وكنت أكثر من إعادتها وسماعها من الحاكى وأذكر أن كلماتها كالآتى :

يا بنتى قومى اتعشى يا بابا ما اقدرش أمشى
يا بنتى قومى دا العريس الباب يا بابا اتسند وامشى

ثم صقلت أذنى فى صوت الشيخ سلامه حجازى وكانت والدتى تصطحبنا لمشاهدة رواياته فى ملهى الكورسال بشارع عماد الدين ، ورأيته للمرة الأخيرة فى رواية (أجا ممون) بدار التمثيل العربى مع جورج أبيض ، وكان الشيخ سلامه يعرج بساقه اليمنى لاصابته بالفالج ولكنه غنى بقوة ولعلع بصوته إلى إلى الطبقات العليا . وقد توفى سنة ١٩١٧ وخلفته منيرة المهدية على عرش الطرب فزادت أذاننا صقلا وعشنا معها حتى خرجت إلى النور تلك المعجزة الربانية أم كلثوم . وكان يحلو لنا تقليدها . وأذكر فى مرة فى إحدى حفلات توديع الطلبة للنواب والمدرسين بكلية الطب أن أديت أنا إحدى أغنياتها

وهى « ياريتنى كنت النسيم اللى بداعب شعورك » لأحمد رامى والقصبجى وادى الدكتور فؤاد البقرى وكيل وزارة الصحة الآن أغنيـة « إن كنت سامح وأنسى الأسيه » وقد صاحبنا بالـكمان الدكتور فوزى خليل حنا وكنا فى ذلك الوقت طلبة بالسنة النهائية بكلية الطب وكنا نودع السادة النواب الدكتور محمد إبراهيم والمرحومين الدكتور أحمد العجاتى وعباس حلمى .

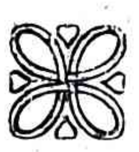
وهكذا سارت الحياة فى المرحلة الثانية ، وكانت حياة جميلة لم يمس رونقها سوى حادث وفاة والدى عام ١٩٣٢ وأنا طالب فى السنة الثالثة ، ثم لم ألبث أن اندمجت فى الحياة من جديد وانتقلت إلى السنة الرابعة بتفوق أثلج صدرى وحفزتنى إلى المزيد من الاجتهاد وبذل الجهد فى السنة الرابعة لأحافظ على تفوقى لأن منتهى أملى كان أن أصبح طبيباً يخدم الإنسانية ويخفف آلامها. وكان ترتيبى ثالث البكالوريا بين طلبة القطر بأكمله . وبينما أنا سارح فى بحور الخيال إذا بى أتسـلم خطاباً من إدارة المدرسة التوفيقية وفيه تخطرنى بأن وزارة المعارف سوف توفد بعثات هندسية من الأربعة الأوائل من الناجحين فى امتحان البـكالوريا فى ذلك العام . فوجدت نفسى بين نارين إحداهما بريق السفر إلى الخارج لشـاب يافع مثلى له آمال كبار ، وكانت مدة البعثة ست سنوات أى أنها تغرى على المزيد من التحصيل والحصول على درجة الدكتوراه فلا بأس من أن أكون دكتوراً فى الهندسة بدل أن أكون دكتوراً فى الطب لأن للقب دكتور لمعاناً خاصاً فى المجتمع كعقيدتى إذ ذاك ، وأظننى كنت على صواب .

أما النار الأخرى التى كانت تلسعنى مجرد بريقها فهى أن أصبح طبيباً يرتدى الرداء الأبيض ويفحص المرضى ليصـل إلى موطن الداء ويصف لهم الدواء ليريحهم من أكبر لعنة منيت بها الإنسانية وهى الألم .

وقفت عند مفترق الطريق وأخذت أفكر فى تأمل ابن السادسة عشر . لقد نجحت فى الكشف الطبى بعد أن ترددت مرات عديدة عليه مع المرشحين الآخرين عبد السلام عثمان وهو الآن الدكتور المهندس النابغة ، الدكتور عبد السلام عثمان ، وقد كان أكثر جرأة منى فقبل فكرة السفر إلى إنجلترا فى هذه السن المبكرة ، ويوسف زخارى وهو الآن الدكتور يوسف زخارى الطبيب النابه بمحافظة المنيا حيث استقر ونجح نجاحاً كبيراً لكفاءته وسمو خلقه . وبقى على أن أقول « نعم » لأشد الرحال إلى بلاد طالما تمنيت أن أراها رأى العين هى وجاراتها من دول أوربا .

وصعب على أن أصل إلى قرار فاستغفرت الله ونمت ليلتى بعد أن قرأت الصمدية (أى قل هو الله أحد) مائة مرة ، ورأيت المرحوم والدى فى المنام وقد افتر ثغره عن ابتسامة جميلة كلها تشجيع وأمل ،فاستيقظت من نومى منتعشاً وصممت على أن أكون طبيباً .

ودخلت كلية الطب .



فى كلية الطب

دخلت كلية الطب ـ وكان اسمها إذ ذاك مدرسة الطب المصرية ـ فى أوائل أكتوبر سنة ١٩٢٣ ولما خطوت عتبة بابها للمرة الأولى فى صباح يوم مشرق جميل خفق قلبى خفقانا لا أبالغ فاسميـه شديداً بل خفقان الفرح الجذل الذى رأى باباً يفتح أمامه ، وقد تخيله عديم الانفراج ، وكيف لا وقد كنت كلما مررت بالترام وأنا طالب فى الثانوية من أمام مدرسة الطب ورأيت أى شخص مرتديا معطفا أبيضا جالسا إلى طاولة فى أحد المعامل المطلة على الشارع ، حسدته وتمنيت أن أكون مكانه . ثم إذا بى أجد نفسى فى ذلك الصباح المشهود أمشى فى غير مرح ، بل فى تعثر حبيب إلى النفس الطامحة عبر باب الكلية ، مندمجا دون إرادة فى خضم هائل من الوجوه الجديدة الوافدة من مختلف المدارس الثانوية ، وكان أصحابها غريبين على إذ ذاك ، ثم تطورت العلاقة بينى وبين الكثيرين منهم فيما بعد إلى صداقة العمر بأكمله . أذكر بعد أسبوع من استقرارنا بالكلية ، وكنا فى قاعة المحاضرات اننى وجدتنى منجذبا إلى شاب صغير فى تقاطيع وجهه وداعة غير متكلفة ، وكان يجلس على نفس المقعد و بينى و بينه فراغ يتسع لبضعة أشخاص فأشرت إليه فى ثقة أن يقترب لأنى أدركت بفطرتى التى لم تخننى أبدا أن فى هذا الشخص بداية صداقة عمر . فقد بدا هادئا نظيف الملبس والملامس غزير الشعر لامعه ، دقيق الشفتين ، على وجهه بسمة دائمة تربعت بكل راحة على تقاطيع خلقها الله فى انسجام ودون تنافر . ولما تقدم منى سألته عن اسمه فقال (اسمى بول غليونجى) فطلبت منه أن يفسر لى اسمه فأخذ يسرد وهو يضحك ضحكته التى اعتادت أن تقف فى منتصف طريقها ليكملها بكلمات طريفة تؤدى نفس الغرض ـ إن أصل عائلته من المنصورة ودمياط وأن خليطا من الدماء اليونانيه واللبنانية والمصرية ويجرى فى عروقه ، فقلت له

مواسيا بندران يكون هناك مصرى لايحوى جسمه جزءاً ولو يسيراً من دم أجنبى وخاصة التركى منه ، فقد احتلنا الأتراك قرونا عديدة ، واعتاد أجدادنا التزوج من التركيات والشركسيات ذوات البشرة البيضاء التى لفرط شفافيتها تكاد ترى الدماء تجرى من تحتها . ولكن مياه النيل الخالد لاتلبث أن تتغلب على كل صبغة أجنبية وتبقى الروح مصرية صميمة لاينال منها الزمن .

كان هذا الحديث بداية صداقة لم تنل منها صروف الأيام ، لم نختلف أبدا على رأى ولم نتخاصم دقيقة من الزمان . كنا نتذاكر دروسنا سويا طوال سنى الدراسة بالكلية رغم تنافسنا على الأولوية ، ولكنه كان الأول دائما وأنا أتبعه بواحد أو اثنين لأنه كان يتمتع بذكاء نادر وصفاء ذهنى وذاكرة اسفنجية تمتص ماحولها فى سهولة ويسر ، ولعل خلقه النقى اجتذب إليه بقية قلوب الدفعة تدريجيا . وكان الزمن يفرقنا عن بعضنا حينا بداعى العمل بالريف أو بداعى السفر فى البعثات العلمية . ولكن المقام استقر بنا فى القاهرة أخيرا كمدرسين فى كلية الطب وتواعدنا ألا نفترق أبداً وأن نعيش على ود مقيم فلم يجرؤ على التدخل بيننا حتى يومنا هذا . وفى ذات يوم تعرفت بالطالب خليل مظهر — أستاذ أمراض النساء والولادة الآن — وكان وافدا من المدرسة الخديوية وكانت تبدو عليه مظاهر الطالب المعتنى به فى منزله روحياً وجسمياً ، ولما تعرفت على والده المربى الفاضل المرحوم يوسف مظهر وعلى والدته الكريمة عندما كنا نتردد على منزله بحى المنيرة لم أعجب لخلقه الطيب ومظهره الحسن . كان رياضياً بطبيعته ، دقيقاً يتمسك بالتفاصيل فى سبيل الاتقان . ولما أراد أن يتعلم الرقص ونحن فى السنة الثالثة التحق بمدرسة خاصة واتقن مختلف أنواعه على أصوله الفنية ، وكنت أراه أحياناً راكباً الترام وهو بملابس السهرة السوداء عائداً من إحدى الحفلات وقد وقف بجانب سائق الترام يستنشق النسيم بعد أن ينفث بدخان سيجارته فى الهواء . إذا قارنت هذا بما فعلته أنا وبول غليونجى

عند محاولة تعلم الرقص ، واعتمادنا المطلق على أذننا الموسيقية نوجه بها أجسامنا على نغمات موسيقية يطلقها حاك متواضع بمنزلى أو بمنزله ، أدركنا مقدار تمسكه طوال حياته بالقشور والجوهر ، وتمسكنا نحن الإثنين بالجوهر دون القشور . وكانت النتيجة واحدة وصل كل منا إلى القمة المنشودة فى فرع تخصصه ولم يكن ذلك لمجرد مرور الوقت أوالأسبقية بل كانت وراء هذا أهوال ومتاعب لا يصمد إزاءها إلا من هيأه القدر للتفوق . وما التفوق إلا حافز للطموح الذى متى استقرت جراثيمه فى خلايا الجسم سرعان ما تنتشر كالسرطان فلايهدأ لصاحبها بال ولا يطيب له نوم ولايلذ له طعام حتى ينال المنتهى أويبلغ المنتهى ! فالطالب المجد الطموح هو الذى يضع برنامج حياته فى اللحظة التى تطأ قدمه فيها باب كليته . لا أريدك أن تقول كما كان يقول طالب الحقوق فى أيامنا هذه أول خطوة فى سلم الوزارة، ولكن على طالب الطب أن يفكر فى مختلف المستويات التى يمكنه أن يستقر عليها ، فإما أن يجلس متربعاً على التل العالى أو يسترخى فى تواضع على مصطبه لا هى ملساء ولا ناعمة عند سفح التل الذى سبقه الغير إلى التسلق نحو قمته . ففى حالة طالب الطب مثلا يداعب الطالب الطموح الرداء الأبيض الذى يلبسه الطبيب المقيم فيقول لنفسه ياليتنى أصبح طبيباً مقيما أو نائباً كما نسميه — لأنها أول درجات التخصص وبالتالى أول درجة يصبح عضواً طبيباً فى هيئة التدريس إذا أشاء التوفيق أن يلازمه .

عند ما دخلت كلية الطب كان ترتيبى الأول بين طلبة السنة الأولى لأن أول البكالوريا كان مصابا بروماتزم القلب بدرجة متقدمة ، وأذكر أنه كان جالساً بالقرب منى يوم الكشف الطبى ، وقد بدا إذ ذاك مصفر الوجه مضطربا يتساقط العرق على جبينه . ولما كشف عليه الطبيب وهو الأستاذ الدكتور جورجى صبحى أمد الله عمره بدت على وجهه أمارات الأسف لشدة الإصابة

على الأرجح ، وكانت النتيجة استبعاده فأصبح اسمى أول القائمة لأن الثانى فى الترتيب وهو عبد السلام عثمان سافر فى بعثة هندسية ليحصل على دكتوراه فى الهندسة .

وكان علينا أن نذهب كل صباح إلى غرفة ضابط الكلية وهو المرحوم الأستاذ خليل عبد الخالق والد الزميلين الكبيرين محمد خليل عبد الخالق الأستاذ السابق بالكلية والدكتور أحمد خليل عبد الخالق أستاذ أمراض الأطفال المعروف . وكنا نمضى إمضاءاتنا أمام أسمائنا فى دفتر وضعه أمامه . وكنت كلما نظرت إلى اسمى : مصطفى صلاح الدين الديوانى : يتصدر القاعه صممت بينى بين نفسى أن احتفظ بالصداره . ولكن هيهات لى ذلك والأرض الخصيبة مليئة بالمفاجآت . لقد وفد عليها بول غليونجى من مدرسة الفرير وجميل فريد من السعيديه وقافلة لا آخر لها تضم خليل مظهر ومحمد مكين ودمرداش أحمد وفؤاد البقرى ومحمود الحكيم وفخر الدين السبكى وحلمى الدويرى ، وميشيل فهمى ومحمود شوقى وحسنى خورشيد وإبراهيم الغمراوى والمرحومين عبد المنعم بيومى وحلمى السعيد وحسين فوزى (شقيق الفنانه ليلى فوزى) وقد مات هؤلاء الثلاثة فى مقتبل العمر والمستقبل باسم مشرق ، مات الأول فجأه بعد أن صار جراحا مرموقا وكان فى زيارة عائليه للمرحوم محمد زكى الابراشى (باشا) . وإذ كان يطلعه على تقرير طبى لأحدى سيدات العائله أمسك الفقيد التقرير بيده ليمعن فى دراسة تفاصيله ، فإذا برأسه تميل إلى الأمام ويقع ميتاً بين ذراعى الباشا الكبير . وعندما ذهبت لتشييع جنازته عند ميدان المساحه بالدقى كان الباشا الكبير واقفا مع أهل الفقيد يتقبل العزاء وآمارات الآسى تقطر من قسمات وجهه المتفتح العريض . وقد لازمنى عبد المنعم طوال سنى الدراسة بمدرسة التوفيقيه الثانويه . وكانت بيننا محبة خالصة ، وكنا لا نفترق عن

بعضنا أثناء الفسحه التى تتخلل الدروس وخاصة الطويله منها التى كانت تعقب وجبة الغذاء . وكان الحديث يدور بيننا فى هدوء وأدب عجيبين ، لم تعرف الـكلمة النابية طريقها معنا أبدا . ولما وصلنا إلى السنة الرابعة الثانويه كان لا يناديني إلا بلقب (دكتور) ولعله كان واثقا من دخولى مدرسة الطب لأنى كنت الأول دائما فى الفصل ، وكان هو من الأوائل دائما ، وكان والده ضابطا عظيما ، فـكان يقيم مع أسرته بالاسكندرية فى (طابية القضاء) وهى إحدى الطوابى التى حاول منها عرابى الدفاع عن مدينة الاسكندريه ، ولا زلت اذكر كيف أخذت أبحث عنها ذات صيف قبل ظهور نتيجة امتحان البـكالوريا بقليل ولما ضغطت على جرس باب الطابيه العتيق انفرجت ضلفتاه عن وجه عبد المنعم المرحب الباسم وهو يهتف فى فرح زائد « أهلا بعزيزى الدكتور ! » واحتضننى فى محبة صادقة لن أنساها أبدا .

وفرقت بيننا طبيعة العمل فى مدرسة الطب بعض الشىء ، ولـكننا كنا نتقابل فى فناء المدرسة الـكبير على ود متصل . ولما صار طبيبا بدأ يعانى مع الوقت من ارتفاع ضغط الدم الذى كان سبب وفاته فى يومه الموعود .

أما المرحوم حسين فوزى فقد كان مرحا خفيف الروح تبدو عليه أثار عز قديم ، ولا عجب فقد كان والده ثريا ولـكن رحمة الله عليه كان متلافا وقد تقلب أولاده فى الدمقس والحرير أيام عزه وجاهه ، وكان وهو طالب فى مدرسة الأوقاف الثانويه يمتاز عن بقية الطلاب بالعربة ذات الجوادين المطهمين ينزل بها فى الصباح معززا مكرما ، ويمتطيها فى ساعة الانصراف والعيون ترمقه بمزيج من الغيرة والاعجاب ، فالـكل يتمنى أن يكون مكانه ، فبجانب هذا الاغداق المنزلى كان مجتهدا ، تبادل الأولويه دائما مع صفيه ورفيق حياته الطالب دمرداش أحمد الذى زامله فى الثانويه ، ولما دخلا مدرسة الطب كانا لا يفترقان طوال سنى

الدراسه . وقد شاءت الظروف أن يموت أخاه نتيجة إصابة بالسل الرئوى وهو طالب فى السنة الرابعة الثانويه ، وتوفى والد دمرداش أحمد بعد أسبوع من دخوله مدرسة الطب ، فظلا يلبسان الأسود طوال سنين الدراسه بمدرسة الطب . وكان كلاهما يضع على عينيه نظارة لعلاج قصر النظر الذى شاءت الظروف أن يتفقا حتى فى هذا ، فكانا يبدوان كتوأمين يجمعهما الحزن على عزيز قضى ، ووجه مستدير تربعت عليه تقاطيع دقيقة وعينان لم يستطع المنظار أن يخفى ما تميزتا به من لمعان ينم عن ذكاء مفرط . وكنت ألحظ ونحن فى المشرحه العيون الأربعة وهى تنظر فى اتجاه پول غليونجى وهو يشرح الجزء المكلف به هو وزميله ميشيل نسيم فهمى . والواقع أن بول وميشيل كانا يمثلان أبناء مدرسة الفرير من حيث نظافة المظهر وذكاء الملامح ، فضلا عما ميزهما الله به من ملاحة التقاطيع ، ولابد أنهما متى كانا يبدآن رطانتهما بالفرنسيه التى كان الزميلان دمرداش أحمد وحسين فوزى يجهلانها تماما كان ذلك بالنسبة لهما مما يلفت النظر ويثير حب الاستطلاع ، فلا عجب إذا لمعت العيون من خلف النظارات لمعانا له أكثر من معنى .

وقد عمل حسين حال تخرجه طبيبا بمصلحة السجون لشدة حاجته للمال ، وبدأ يسدد ديونه التى كان قد استعارها وهو طالب ، وأمهله القدر ست سنوات مات بعدها نتيجة إصابته بالالتهاب السحائى ، فترك أما ثاكله لاعائل لها من بعده وكانت حفيدة الشيخ القيسونى شيخ الجامع الأزهر الأسبق ، واختا شقيقة ذاقت من الحياة حلوها ومرها ولم يشفع لها جمالها وقوة خلقها وصفاء نفسها فى أن تهادنها الأقدار ، وهجرها الوالد إلى زوجه الأخرى — والدة الفنانه ليلى فوزى — وخلف لها ولوالدتها الفقر والحرمان بعد أن تقلبت فى اعطاف النعم ولست ادرى ماذا فعل الزمن بهذه الاسرة الكريمة ، وإن كنت أدعو لها من صميم قلبى . .

وواصل دمرداش أحمد صلته بالحياة بعد فقد زميل صباه . وعاشها عريضة تكفى لسد ما تركه حسين فوزى من فراغ ، أى أنه عاش بنصيب اثنين أو أكثر. وكان دمرداش أحمد طالبا ممتازا حسن البزة أنيق المظهر وامتاز بشعر اسود غزير كان يرسله إلى الوراء فى لمعان براق بفضل ما يدفعه من ميزانيته الضئيله لبائع مستحضرات الشعر . وكان مؤدبا غاية الأدب ، أتقن فن المعاشرة فأحبه الجميع دون استثناء ، وكان منذ أيامه الأولى دارسا للأدب العربى متعمقا فيه ، كلفا أشد الكلف باستظهار الشعر العربى وترديده ولم تكن تبدو عليه لفرط هدوئه تلك الطاقة الهائلة التى أهلته لنجاح قلما ناله طبيب . وإن كنت أعجب لشىء فيه فهو كثرة محبيه رغم نجاحه الهائل وهذا هو الفن الذى لا يتقنه إلا من بلى منا بداء الطموح . وانى والله لا أسميه طموحا ، بل كراهية دفينة فى النفس نحو الخمول والانزواء . لقد فضل دمرداش أحمد بعد أن أمضى فترة الامتياز أن يتعجل فى مهادنة الزمان . فاختار طريق حياته فى الصحة الوقائيه وبدأ من نقطة الصفر مثلنا تماما ، لا يملك غير مرتبه الحكومى ، أى أنه كان عصاميا بمعنى الكلمة وكان نجاحه كطبيب صحة الحوامدية أسطورة لم تكن ليبلغها أحد غيره . ففضلا عن كفاءته الممتازه فإنه وضع نصب عينيه اكتساب القلوب فالتف الناس حوله واسكنوه فى حنايا الضلوع . والطبيب الأريب هو الذى يملك الأرواح والقلوب قبل أى شىء آخر . فليس ابقى عند المريض وربه من يد نظيفة وقلب تقى وخاصة فى تلك الحقبة من الزمن التى اندمج فيها الدمرداش فى خضم الصحة الوقائيه ، ولكنه ارتفع بخلقه واصالته على مستوى الشبهات . وكان نجاحه مبنيا على المهارة الفرديه فجرى الشفاء من بين أصابعه ووهب الناس الصحه والسلامه ، ومكنوه مقابل هذا من أن يحيى حياة رغدة ساعدت على استمرارها زوجة مثالية وهبته بيتا مريحا هادئا يأوى إليه بعد اليوم المرهق الطويل فيتفرغ للتفكير فى المزيد من النجاح ،

وبينما هى تهبه على مر الأيام مى ثم نهى ثم عزه ثم ليلى ثم هشام ثم عبد الحميد ثم محمد ، تتراكم عليه الأحداث بحلوها ومرها وهو صامد لا يتزعزع . ولن أنسى يوم دهمته سيارة يسوقها سائق غشوم فى طوكيو فعاد إلى الوطن مكسور الساقين واليدين واستسلم للقدر كعادته واستلقى على سريره ينتظر التحام المكسور ليعاود نشاطه غير المحدود من جديد وأخذ الله بيده وبدأ مرة ثانية حياته ثابتة هادئة بفضل روح الكفاح التى لا تخبو فيه أبدا ، والزوجة الوفيه التى هيأت له دائما الجو العائلى المثالى .

* * *

وكان المرحوم محمد حلمى السعيد من ألمع أبناء الدفعة وقد عاصرنى خلال المرحلة الثانوية وكان دائماً متورد الوجه مرحاً ضاحكا . أخذ الحياة بواقعية عجيبة ، فالتحق حال تخرجه بقسم الطفيليات حيث عين معيداً ثم أخذ يتدرج حتى وصل إلى وظيفة المدرس وتزوج مبكراً من سيدة فاضلة وهبته ذرية قرت بها عيناه خلال حياته القصيرة . وبينما الحياة تسير سيرها الطبيعى بدأ لها أن تعوج كعادتها ففوجئنا ذات يوم بمن يقول أن حلمى أصيب بتسمم كلوى مزمن . وكنت أتردد عليه للاطمئنان عليه فى المنزل رقم ٨٨ بشارع القصر العينى وكنت كلما رأيته ينتظر الموت على فراشه فى ثبات وإيمان ترجع بى الذكرى إلى صورة من ذكريات الصبا . كان ذلك منذ أربعين عاما حين كنت أمضى أجازة السنة عند المرحومة شقيقتى زهيرة زوجة الدكتور عبدالحميد غريب الطبيب بالزقازيق . وذهب حلمى أيضاً ليقضى أجازته هناك وكنا فى السنة الرابعة الثانوية . وكانت ليلة من ليالى شهر يناير ١٩٢٣ وكنت راكباً عربة يجرها حصان أخذ يطوى شارع المديرية فى سكون الليل . وحانت منى التفاتة إلى اليسار فرأيت حلمى واقفاً وحده بجانب مصباح الشارع وقد انعكس الضوء عليه فاظهر بوضوح ملامح وجهه وخديه اللذين توردا من هواء

الريف وشمسه الدافئة . وكان لابساً جلبابا وسترة ممثلا بذلك بساطة الطالب الثانوى خارج المدرسة . فما رأيته حتى صحت فى الحوذى أن قف ! وناديت حلمى قاطعاً عليه تيار تأملاته ، فلم يكن منه إلا أن جرى إلى جريا غير مبال بأخطار الطريق فى الليلة المظلمة . وكان كل همه أن يهجم على ويعانقنى ويرحب بحضورى إلى بلده بصوته العالى الرنان .

وأذكر أن حلمى توفى فى ساعة متأخرة من الليل فحملوا جثمانه فى فجر اليوم التالى ليدفن ببلدته . وفوت أهله علينا دون قصد فرصة وداعه الوداع الأخير . ولما ذهبت إلى مكتب التلغراف لأعزى والده ، خطر لى وأنا فى أشد حالات الكرب أن أتأمل فى فلسفة عميقة الطريقة الآلية التى يعد بها الموظف الكلمات ليعرف بدقة عدد القروش التى يجب أن يضيفها إلى خزانة الدولة ، وعجبت كيف يمر مرور الكرام على كلمات بذلت مجهوداً كبيراً فى سبيل اعتصارها من بين حبّات قلبى .

* * *

كان الطالب أحمد فؤاد البقرى أحد الذين وفدوا من الاسكندرية ليختلط بالمزيج الهائل من الكتل البشرية التى تقتحم الكليات فى بداية كل عام دراسى ، والتى سرعان ما يأتلف أفرادها من غير سابق معرفة ، كل ينضم إلى من على شاكلته ، وقد يكون التعارف بداية سوء أو خير عميم ، وقد يخيب حكم النظرة الأولى ، فإذا الذى ولد فى نفسك نفوراً يصبح أوفى الأوفياء .

برز فؤاد فى هذا الموج المتلاطم كشاب ممتاز أنيق فى ملبسه وعاداته . وجذبنى إليه ميل مشترك إلى الفن والموسيقى . كان يقتصد من مصروفه اليومى ليحضر حفلات الفرق الموسيقية العالمية بالأوبرا ، أو ليستمع إلى أم كلثوم يوم

الخميس ويقص علينا يوم السبت إبداع (سومه) بطريقة كان يسيل لها لعابنا .

وعند ما توفى الزعيم الخالد سعد زغلول فى عام ١٩٢٧ انقطعت أم كلثوم عن الغناء حدادا ثم استأنفته بعد الأربعين ، وبدأت الحفلة بأغنية من كلمات رامى وتلحين محمد القصبجى .

أن يغب عن مصر سعد فهو فى الذكرى مقيم
يذهب الماء ويبقى بعده النبت الكريم

وأخذ فؤاد يقص علينا فى صبيحة يوم السبت كعادته كيف بدأت سومه غناءها وهى مجللة بالسواد وقد تربع الحزن على قسمات وجهها الجميل ، وكيف كانت تذرف الدمع فى بعض مقاطع الأغنية حتى اذا ما أسدل الستار ساد الناس الوجوم بينما أخذ فؤاد يدندن الأنشودة لمحمد مكين والمرحومين عبد المنعم بيومى وحلمى السعيد وكأنه حفظها عن ظهر قلب .

ولكن عند انفراج الستار مؤذنة ببدء الوصلة الثانية بدت سومة مزدهرة لامعة ، ونفض القوم الكآبة عن نفوسهم ، فقد ظهر على المعجزة التى عشت فى عصرها حوالى الأربعين عاما لا أكلّ ولا أملّ من سماعها ، إنها تنوى أن تتحدى الكآبة والوجوم ، فلمعت منها العينان وشاعت فى تقاطيعها ابتسامة كلها تحد ، وبدأت تغنى (ان كنت أسامح وأنسى الأسية) وكانت إذ ذاك القنبلة الكبرى على مستوى أغنية أنت عمرى فهاج الناس وماجوا وكان هذا إيذانا ، بأن سعداً قد دخل فى ذمة التاريخ على مستوى أعلى من الدموع والبكاء . فما دامت سومة قد دندنت بنكاتها وضحكاتها وأنغامها من فوق خشبة المسرح الملىء بالأضواء فإن هذا إيذان بانتهاء أيام الحداد ! .

كان الطالب فؤاد البقرى ذا صوت رخيم . وإنى أعتقد دائما فى أثر

الفن على الشخص المرتب بطبيعته فإنه يزيده تنميقا لتفاصيل حياته اليومية من ملبس وأسلوب فى المعيشة وما زال فؤاد إلى يومنا هذا وقد ولى وكالة وزارة الصحة ينغّم كل ما يمت بصلة لبرنامجه اليومى ، من نزهة على الأقدام كل صباح وتمرينات رياضية عقب العودة ثم حمام ساخن أو بارد حسب فصول السنة وتجده جالساً على مكتبه فى تمام الساعة التاسعة صباحا يصرف بأسلوبه الممتاز الأمور المعروضة عليه فى حنكة وخبرة وبذهن صاف مستوعب لاتخفى عليه خافية من التفاصيل مهما طال عليها مرور الأيام .

* * *

وكان التلميذ محمد حسنى خورشيد وكيل وزارة الصحة المساعد الآن ـ محاطا بهالة اكتسبها من انتسابه لوالده المربى الكبير حسن بك خورشيد وكنا نحمل له أجمل الذكريات فى نفوسنا خاصة من تتلمذ منا عليه فى المرحلتين الابتدائية والثانوية . وكان يتميز علينا ببعض مظاهر الثراء كالسيارة (الاسكس) الزرقاء التى اقتناها والده ونحن طلبة فى البكالوريوس فكان دخولها حوش الكلية وخروجها منه خير أنيس لنا فى وحشتنا ونحن جلوس نصطلى بأشعة الشمس بجوار تمثال كلوت بك أو نستظل بشجرة لا هى باسقة ولا هى وارفة الظلال من إحدى الأشجار الكائنة بجوار المشرحة ، وكان يحلو لنا أن نجلس على الكراسى الخشبية المتناثرة فى غير تناسق ، لنستمع إلى قصص ميشيل فهمى جراح التجميل المعروف الآن والمرحوم جورج عطوه الذى اختطفه الموت منا مبكرا وقد لازمنى فى السنة الثالثة والرابعة نتذاكر دروسنا سويا ، ونتزامل فى معامل البتالوجيا والبكتريولوجيا وقد كان صديقاً حميما لم نختلف يوما على صغيرة أو كبيرة بل كان الامتزاج الروحى بيننا كاملا . وفرقت بيننا الأيام بعد

التخرج إلى أن قابلته ذات مرة منذ أكثر من عشر سنوات أمام باب عيادتى يحمل مظروفا به صور أشعة ، وبعد العناق الطويل أخبرنى أنه ذاهب إلى عيادة بول غليونجى ليعرض عليه حالته التى تشير إلى التهاب كلوى مزمن . فشعرت فى داخلية نفسى بحزن دفين على هذه الشخصية الثمينة التى سوف يضمها التراب عما قليل وتأملت شعره الذى اعتاد فى أيام الشباب أن يعنى به عناية خاصة ، وعينيه المعبرتين اللتين تنم نظرتهما الحالمة على عمق فى الدراسة والتمعن لما خفى من الأمور المنظورة وغير المنظورة .

وقد توفاه الله بعد هذه المقابلة بقليل وظلت يافطة عيادته بشبرا معلقة عند نافذة العيادة على ناصية شارع السالمى لبضع سنوات بعد أن انتهت حياته . ولعل هذا يرجع إلى طول إجراءات المجلس الحسبى ومصلحة الضرائب وغيرها.

ومن بين الذين لمع نجمهم فى الدفعة الطالب محمود الحكيم الذى صار الآن أستاذ التخدير والمرجع الأول فى فرع تخصصه . وكان طول حياته مهذبا مخلصا يتفانى فى خدمة أصدقائه ، ولازمته هذه الصفة إلى يومنا هذا . ولا زال اخلاصه لابناء دفعته عجيباً جدا . لايكاد يرى واحدا منهم حتى يندفع نحوه بقلب مفتوح لا يعرف الرياء إليه سبيلا .

وكان الطالب محمد مكين الجراح المرموق بمستشفى هليوبوليس الآن — مثالا للاناقه بين الطلاب دائم الابتسامه تقدميا فى أفكاره حتى أنه حرم على لبس الطربوش منذ تزاملنا كطلبه بقسم الجراحة وكانت حجته دائما أنه لايقى من حر الصيف ولا برد الشتاء . وكان من المتقدمين دائما فى نتائج امتحانات الكلية ، واستمر ولعه بالجراحه خلال عمله بالمستشفيات الحكومية أو خلال بعثة الحكومة بلندن حتى أنشىء مستشفى هليوبوليس فاستقال من عمله

الحكومى وتفرغ لعمله هناك كجراح المستشفى الأول واستقر بالقاهرة يرعى ولديه محمد ومحمود وهما قرة عينيه، وتعاونه فى هذه الرسالة زوجة وفيه من أصل ألمانى تركت الأهل والوطن فى سبيل حبها للفارس الجميل.

وكلما مررت على مستشفى العجوزة التابع للجمعية الخيريه الإسلامية تذكرت مديره الطالب زكريا رفعت الذى زاملنى ولازمنى فترة طويله من حياتنا أثناء الدراسة وبعدها وكنت كثيرا ما أزوره بمنزله بشارع الجزيرة الجديدة بعابدين وأذكر أنه مرض وهو طالب بالبكالوريا بالتهاب فى حويصلة المرارة وتغيبت قليلا عن زيارته وهو الذى لم يعتد منى إلا الاسراع فى اداء الواجب نحوه، فذهبت إلى منزله أقدم رجلا وأؤخر أخرى خوفا على نفسى من عتابه، وضغطت على الجرس ففتحت لى شقيقته — زوجة الصديق أحمد على الآن — واستقبلتنى بابتسامة مشجعة واقتادتنى إلى غرفة أخيها فما كاد يرانى حتى اشاح بوجهه وأشار بيده أشارة تدل على استيائه منى لتقصيرى فى واجب الزياره. ولكنى ما كدت أجلس معه فترة من الوقت حتى تلاشى نفوره وعدنا أكثر صداقة ومحبة فأخذ يقص على قصة مرضه وكيف أنه شخص فى أول الآمر كحمى تيفوديه ثم جاء الدكتور سليمان عزمى لفحصه فشخصه عل أنه التهاب فى المرارة. وقد ثبت تشخيص الأستاذ الكبير لأن الدكتور زكريا عمل عملية إزالة المرارة بعد مضى ثلاثين عاما على هذه الزيارة، وتعود علاقتى بالطالب أحمد زكريا غنيم إلى المرحلة الثانوية وظلت الصداقه ثابتة رصينة مثل خلقه تماما حتى تخرج من كلية الطب واتخذ كل منا سبيله فى الحياة. ولكنا كنا نتقابل دائما على مودة ومحبة لم تنل منها الأيام أبدا. وكانت تجدّ مناسبات تتدعم فيها جذور العاطفة سواء فى الأفراح عندما تزوج زميلى الدكتور محمد النبوى المهندس شقيقته الدكتوره ضحى، أو فى الاتراح عندما وقفت بجانبه أعزيه فى وفاة شقيقه العالم الأثرى الكبير محمد زكريا غنيم.

أما الصديق أحمد شفيق حماده فقد اتخذ من بنها مقرا وحاز ثقة أهلها فأحبوه ووضعوه فى قلوبهم وفى اعتقادى أن فجيعته كانت كبيرة فى زميله المرحوم فؤاد خلاف وكانا لا يفترقان أبدا أيام المدرسة وما بعدها . وكان فؤاد يعمل فى قسم الأمراض الجلدية بوزارة الصحة وقد فوجئت أنا شخصيا بوفاته بمرض اللوكيميا لأنه منذ حوالى خمسة عشر عاما وعقب حصوله على دبلوم الأمراض الجلدية مر على فى عيادتى وترك بطاقة بعد أن كتب عليها بطريقته المرحة المعروفة عنه (ياسيدى إزيك) ولم تمضى بضعة شهور على هذه الزيارة حتى كنت أشيعه من منزله بشارع محمد على مأسوفا على شبابه الغض رحمة الله عليه .

ومازال إبراهيم الغمراوى اللامع فى هدوء وثقة كعادته لم يتغير .

وكيف أنسى المرحومين إبراهيم جندى الفيزى وعبد المجيد الكريمى وقد كانا مثالين للقلب الصافى والروح الشفافه ، لم يعرف الخبث الأدمى إلى نفسيهما سبيلا فعاشا خفيفين حتى حملتهما الملائكة على أكف الرحمة إلى أعلى عليين .

* * *

عندما بدأت دراسة الطب كانت البلاد لازالت ترزح تحت الحكم الانجليزى وكان الأجنبى من جميع الجنسيات مسيطرا على مرافق البلاد ، وياويلك إذا زاحمته فى الطريق أو لمس حذاؤك حذاءه أو كتفك كتفه فإنه ينظر إليك شذرا ويقول : عربى قذر أو بالفرنسية (سال أراب) وأذكر أننى كنت أستحم فى شاطىء أسبورتنج مع بول غليونجى وميشيل فهمى ، وكنت أحرك قدمى ويداى بعنف المبتدىء فتناثرت المياه المالحة من حولى وأصابت نقطة منها أحدى عينىّ أجنبية عجوز فما كان منها إلا أن تألمت وصاحت (عربى قذر) . ولتمكّن بول غليونجى وميشيل من اللغة الفرنسية فانهما أنهالا عليها باللفظ القاسى .

ونعتوها بالأجنبية القذرة التى لولا إلاّ قيمة لها فى بلدها لما جاءت إلى مصر تتمرغ فى خيرها ثم تنكره ، وتعض اليد التى أطعمتها .

وإنى كلما مررت بطريق الكورنيش إذاء السفارة البريطانيه تذكرت كيف كانت حدودها تمتد حتى شاطىء النيل ، وكيف كانت ترسو طائرة المندوب السامى البريطانى أحيانا على مياه النيل فى هذه المنطقة الحرام متجاهلة المطارات وسيادة البلاد . وكانت ثكنات قصر النيل التى يحتلها جيش الاحتلال تشغل المكان الذى بنيت عليه الجامعة العربية وفندق هليتون وبلدية القاهرة زمن خلفها الحدائق الطبيعية الغناء المزدانة بالنافورة والمقاعد والمظلات المتناثرة .

كانت هذه المنطقة حرام على ابن البلد والويل لمن يمر بجوارها .

لقد كنا نشاهد الجندى الانجليزى بوجهه الأحمر الذى ينذر بالشر والاحتقار متدليا وهو نصف عار من شباك غرفته المطل على الشارع ، وإذا لمحك فإما أن تصيبك منه كلمة نابية أو بصقة ، أو يلقى عليك أقرب زجاجة فارغة ، والويل لك إذا ترأى له أن يتدرب على الرماية من بندقية أو مسدس فى متناول يده ، فإن دمك يذهب هدرا وبلا ثمن . وكان لكل وزارة مستشار انجليزى وبالمحاكم قضاة ومستشارون بريطانيون ، وكان عسكرى المرور فى الشارع أيضا من الانجليز .

وكان فى مقدور الأجنبى أن يرتكب أى جريمة ثم يلجأ إلى قنصليته أو سفارته محتمياً بالامتيازات الأجنبية التى ألغيت فى عام ١٩٣٦ . فلم يكن عجيبا إذا احتدمت المناقشة بين مصرى وأجنبى أن يقول الأخير عندما تعوزه الحجة : لاتنسى أننى خواجه ! وكثيراً ما سمعت هذه الجملة ، وكان الأسى يملأ نفسى عند سماعها وأقول ربى أما لهذا الذل من آخر ؟

ولم يكن غريباً فى هذا الجو البغيض ـ لا أعاده الله ـ أن نجد جميع الأساتذة بكلية الطب من الانجليز أيضاً . فكان هناك المستر هاردى فى قسم الطبيعة ، وجراى فى الكيميا وهندل فى علم الأحياء ، ودرى فى التشريح ، وسيدنى سمث فى الطب الشرعى وداى وبيجام فى الطب الباطنى ، ودوين فى أمراض النساء ، ومادن فى الجراحة وغيرهم كثيرون وكان فضل بعضهم لا ينكر على جيلنا والأجيال الأخرى من قبلنا . وكان معهم جيل من المصريين الذين أخذوا يحلون محلهم تدريجياً كلما زاد قسطنا من الاستقلال حسب المعاهدات المتعاقبة التى كانت تتم بيننا وبين الانجليز . إذ كنا نكتسب أرضاً جديدة عقب كل اتفاق جديد ، وذلك بفضل جهاد الشعب الذى لم يهمد أبداً . فكانت قصتنا مع الانجليز ثورة مستمرة واضرابات واضطرابات واغتيالات أقاقت مضاجعهم وأشعرتهم بالكراهية التى يكنها هذا الشعب العظيم للمحتل الغاصب . حتى جاء جمال عبد الناصر وختم جهاد الشعب كأروع ما يكون الختام وعادت البلاد إلى أهلها من جديد واسترد المصرى كرامته وحقه المهضوم .

***

ولا يفوتنى ذكر الطالب مكين عبد الملك ذو الشخصية المرحة الذى أعرفه من قبل اجتماعنا بمدرسة الطب فقد كان يسبقنى بعامين فى الدراسة بمدرسة التوفيقية الثانوية ، وكان معروفا للطلبة بتأليفه للأزجال والمنلوجات فى المدرسة التوفيقية وإحياء حفلات السمر التى تقام فى آخر كل عام ، ومع أنه كان يسبقنى بعامين فى الثانوى لكنه تأخر فى دخوله مدرسة الطب وذلك لإعادته البكالوريا مرتين ودخوله مدرسة المعلمين لتصميمه على أن يلتحق بمدرسة الطب وأن يكون طبيباً . وفعلا حقق عزمه وسعدنا به كطالب معنا وفى دفعتنا واستمر فى مرحه وأدبه الفكاهى فى التأليف وسرعة البديهة فى النكتة حتى كتابة هذا الكتاب . ومن مواهبه الأخرى التى لاحظناها عليه وهو طالب معنا

تحايله على أن يظهر أنيقاً فى ملبسه بأقل التكاليف ، وذلك بأن يتحايل على تصليح ملابسه القديمة بنفسه حتى تتمشى مع آخر الموضات ، فيظهر وكأنه من وجهاء الطلبة حتى أنه كان يسمى بيننا (بأوجة فقير) . ولقد كان محبوبا من جميع طلبة الدفعة وذلك لطيبة قلبه وصدقه وروحه الاجتماعية وحسن ذوقه وفنه وأدبه . وهو للآن يحظى بمحبة جميع أطباء الدفعة ولم يتهاون فى ربط علاقته معهم .

وإنى لا أنسى سنة التشريح فقد ألف لنا ألفية التشريح بالشعر ، واذكر منها بيتين وهما .

وإن شرحت فى الثوراكس تلقى   نماذج من قلوب العاشقينا
على الجنْبين محصور بلنج   وملفوف بسيرس ممبرينا

ولا أنسى أيضاً فى هذه السنة وقرب امتحان التشريح . أن دعوته لمنزلى لمذاكرة عظمة الزند سويا إذ أننى بطبيعتى فى المذاكرة أكثر قابلية للحفظ عند ما أشرح ما أقرأه لشخص آخر ، فدعوته مصلحة له ولى أيضاً ، وانتهى الأمتحان ونجحنا ونجح مكين وقال لى أن فضل نجاحه فى التشريح يرجع لأن جميع أسئلة الشفهى والمناقشة كانت فى عظمة الزند التى ذاكرناها سويا والفضل يرجع لحسن شرحى له وإبانة جميع ما بها من عقد .

تأخر عنا فى التخرج مدة سنة فقلت رؤيتى له وخصوصاً وأنه عمل بالأرياف مدة طويلة تقرب من العشرين سنة ، ولكن صداقته لفؤاد البقرى لم تنقطع من أيام الكلية حتى يومنا هذا ، وبعد عمله بالأرياف طول هذه المدة عمل بالقاهرة كطبيب أول مستشفى شبرا الخيمة . ثم زاد إتصالى به فنتقابل أيام الجمع نحن الثلاثة أنا وهو وفؤاد البقرى وكأننا طلبة فى الأعوام ما بين ٢٣ — ٢٩ ، وهذه الساعات من أمتع ساعات حياتى . وقد زادت علاقتى بمكين لسبب آخر ،

فلقد تزوج بعد أن بلغ التاسعة والخمسين وانجب طفلا أسماه يحيى اختارنى له طبيبا خاصا . ولا يمكننى أن أصف محبة مكين لهذا الطفل حتى أننى أحببته كأنه ابنى أطال الله فى عمره حتى يتمتع بهـذا الطفل الذى هو ثروته من هذه الدنيا .

ومن طرائفه أنه عمل فى البدارى مدة طويلة حتى ضاق صدره فكتب إلى وكيل الوزارة الدكتور محمد نظيف القصيدة التالية ، شاكياً مستعطفاً ، ولم يسع الدكتور نظيف بعدها إلا الضحك فى عطف شديد وأشَّر بنقله .

وهذا نص القصيدة :

سجين البدارى يستغيث ويلطم ألا من مجيب بالوزارة يرحم
ثلاث سنين ثم تسـعة أشهر من العمر قضيتها لا أتكلم
وكنت سعيداً قبل ذلك عند ما أقمت بطنطا والبحـيرة أنعم
تقرر نقلى للصـعيد مفتش وحال ترقى والوظائف سُلم
فسلمت أمرى بعد طول تردد ومالى وسيط والرئيس مصمم

إلى أن قال :

ركبت قطار الليـل وهو مكدس بغير نظام والجميـع معمم
جلست وحولى قفة وصفيحة وقلة فخـار وشيخ مخضرم
وصلت البدارى بعد طول مشقة وجئت إليهـا والظـلام مخيم
وقلت لشيخ الحى أرغب منزلا فقال ستخلو والمعيشة تنعم
وأجرت بيتاً كالوكالة شكله بغير سقوف والبناء مهدم
له سلم عال بغـير حواجز كسرداب أهرام من الضيق مظلم
فتصعد مذعوراً وتنزل خائفاً كأنَّ ملاك الموت بالباب جاثم

ولكن ماقاسيت من طول غربتى ونفى البدارى كان أدهى وأظلم
فان تنقلونى بعد طول إقامتى فشكرى لكم بل والسلام عليكمو

وكتب مرة إلى المرحوم دسوقى أباظه وزير المواصلات فى أيام الحرب الكبرى لصرف طقم إطارات لعربته فقال .

سيارتى تشكو الحفاء وإطارها مل الدواء
فى كل جنب رقعة والنفخ يذهب فى الهواء
ومسيرها من منزل حتى المجاور باستياء
وتنوء عن حملى إلى مرضاى لو طلبوا الشفاء
فالى معاليكم رجائى والخليل[1] هو الرجاء

فلم يسع الوزير الأديب رحمه الله إلا أن أشر فى الحال بصرف طاقم كامل من الأطارات لسيارته .

كان هناك جيل من المدرسين المصريين يضم المرحوم الدكتور حسن الديوانى بقسم الإحياء والمرحومين الدكتور أمين عبد الرحمن وناشد فهمى وعبد الحليم حلمى بقسم التشريح والأستاذ يوسف الأعصر أطال الله عمره بقسم التشريح والدكاترة محمد رضوان وباسيلى رزق وعبد السلام العيادى والمرحوم محمد مصطفى الباجورى بقسم الكيمياء ــ ولكل من هؤلاء ذكريات عزيزة على النفس لأنهم كانوا فى حكم الأصدقاء والمرشدين لما استعصى علينا من الدروس العملية .

وكان هناك جيل أحيط بهالة أشد لمعانا مثل المرحوم الأستاذ محمد خليل عبد الخالق فقد وفد من الخارج مسلحا بأعلى الدرجات العلمية وفرض نفسه

---

(١) نسبة إلى الخليل ابراهيم .

فرضا على الإنجليز فعين أستاذا للطفيليات ، والدكتور على حسن أطال الله عمره ، فقد جاء هو الآخر من بعثة بالخارج وتربع على كرسيه بقسم الكيمياء الحيوية وظل الرائد لهذه المادة حتى الآن . ومن الذين لمعوا أيضا رغم السيطرة الأجنبية الأستاذ عبد الحميد جوهر ومصطفى عمر والمرحوم مصطفى فهمى سرور والأستاذ مصطفى حمودة أطال الله بقاءه . وإذا انتقلنا إلى القسم الاكلينيكى بالمستشفى فى أيامنا الحلوة وجدنا مجموعة هائلة ضمت أفذاذا على رأسهم المعول الأكبر على إبراهيم الذى اكتسح بالتدريج كل نفوذ أجنبى بالكلية منذ ولى العمادة فى يونيو ١٩٢٩ عقب انتحار المستر مادن وهى السنة التى تخرجنا فيها . وضمت الباقة الفريدة الأساتذة سليمان عزمى وابراهيم شوقى ونجيب محفوظ وأحمد شفيق وجورجى صبحى وجرس الضبع وعبد العزيز اسماعيل ويوسف براده وعبد الوهاب مورو وعبد الله الكاتب ، وكانت الدراسة فى الأقسام الأكلينيكية اجتهادية من ناحية الطالب فلم تكن المواظبة من طباع أساتذتنا القدامى . والحق يقال أن الدكتور سليمان عزمى كان أكثرهم دقة فى المواعيد وكانت محاضرته العامة التى يلقيها فى الكلية موضع تقديرنا كطلبة وكنا نقبل عليها إقبالا عظيما . . وكان الدكتور نجيب محفوظ مثلا فى الانتظام وعلو الكعب فى محاضراته . وبرز قسم الأطفال وعلى رأسه الدكتور ابراهيم شوقى وقسم الرمد وعلى رأسه الدكتور سيد عبد الحميد سليمان من حيث دقة المواعيد والحرص على صالح الطالب والمريض معاً . فإن مواظبة الأستاذ على إلقاء المحاضرات فيه رفع للمستوى العلمى للطالب ، ومواظبته على الدروس العلمية على سرير المريض فيه زيادة من التعمق فى فك طلاسم الحالة الغامضة . فالطب تجارب وأقدمية قبل أن يكون قراءة فى الكتب ، والعين الخبيرة اللماحة والأصابع الدقيقة الرقيقة الحساسة لا يكتسبها الطبيب إلا بعد طول المران .

ولا أدرى كيف كنا نسكت على هذه الحال من الحرمان . وكيف كنا نلجأ

إلى السادة الأطباء النواب لسد هذا النقص فى جونا العلمى ، فكنا نتقرب إليهم ونجد منهم صدوراً رحبة ، فاحبونا وأحببناهم. ولن أنسى أبداً فضل الدكتور محمد إبراهيم أيام كان نائباً بقسم الأستاذ بيجام ، ولا المرحومين الدكتور أحمد العجاتى عند ما كان نائباً بقسم الدكتور سليمان عزمى ، والدكتور عباس حلمى نائب الجراحة .

وفى عام ١٩٢٨ عاد من البعثات ذلك الفوج المبارك من المدرسين الشبان ، الذين عرفنا منهم لأول مرة لذة التدريس العملى المنظم ، من مرور على المرضى وشرح واف لما خفى من الأعراض إلى محاضرات منتظمة فى مواعيدها يجذبنا إليها الأسلوب الشيق الجديد على نفوسنا وآذاننا .

وصل عبد الله الكاتب ذات صباح وشاهدته من بعيد لأول مرة يدخل من باب مستشفى قصر العينى القديم ، وقد عوج طربوشه إلى أقصى اليمين ، يتهادى فى مشيته فى خفة الطاووس وعلى وجهه سماحة تحببك إليه من أول نظرة .

وبدأ دروسه العملية معنا فى نفس اليوم ـ وكنت لحسن الحظ أول تلاميذه ـ ، فبدأنا منذ تلك اللحظة السعيدة نسمع العجب منه ومن زملائه الذين وصلوا معه وكأنهم القافلة المباركة التى ضمت الدكاترة محمد كامل حسين ومحمد أبو العلا عانوس ومنير نعمة الله ومحمد مصطفى رياض ومحمود اسماعيل بقسم الجراحة وأنيس سلامه وعبد القادر الشوربجى وعبد العظيم سلامة بقسم الأمراض الباطنية ، ومصطفى راغب وحسين عرفان ونسيم أبو سيف وأحمد مرعى بقسم الأشعة ، ومحمود عطيه بقسم الرمد . ووفد على قسم الأطفال فى نفس الوقت أحمد خليل عبد الخالق ولى معه قصة طريفة .

فقد كنت طالباً بالسنة النهائية فى أواخر عام ١٩٢٨ عند ماقابلته ذات صباح تائها فى فناء الكلية وقد عاد من بعثته فنادانى ـ لأنه كان صديق أخى

الأكبر المرحوم الدكتور عبد المنعم وابن دفعته ـ وسألنى عن قسم الأطفال لأنه كان مفروضاً أن يتسلم عمله فى صباح ذلك اليوم . فأخذت بيده إلى حيث بدأ مجداً قلما حظى به طبيب قبله أو بعده . فقد أخلص لفنه وجعله هوايته الأولى والوحيدة وأقبلت عليه الدنيا بالجاه والصيت العريض ومهد للخاتمة السعيدة بزواجه بسيدة من الفضليات أنجبت له وهو قرير العين متفرغا لعمله ، على التوالى نجلاء ثم منى ثم محمد ثم إحسان .

وقد تزوجت نجلاء من الدكتور إبراهيم بدران أستاذ الجراحة المرموق وأقيمت فى ليلة الزفاف حفلة ساهرة لا أظن أننى شاهدت كثيرات مثلها .

أما ابنه محمد فقد سار فى ركاب أبيه من حيث التخصص فى أمراض الأطفال ،وهو من أنجب تلاميذى والصديق الصدوق الوفى لأبنى خليل الديوانى الذى انضم معه إلى قافلة أطباء الأطفال الأشبال الذين يرجى من وراءهم خير كثير .

وكان قسم الأطفال الذى تعلمت فيه كطالب مكوناً من قاعة واحدة فى مبنى ملجأ اللادى كرومر التابع لمستشفى قصر العينى ، وكان فى الدور الثالث من هذا المبنى . وكانت القاعة تحوى ثمانية أسرة وتتصل بمعمل صغير لإجراء الابحاث اليومية البسيطة .

وكانت هناك فى الدور السفلى غرفة واحدة للعيادة الخارجية كنا نجلس فى ركن منها حول أستاذنا الدكتور ابراهيم شوقى حيث رضعنا أول مبادىء علم طب الأطفال . وبعد وصول الدكتور أحمد خليل عبد الخالق كانا يتبادلان الدروس يوما بعد يوم فى انتظام ودقة بديعتين كانتا قدوة لنا بعد أن انتمينا إلى القسم كنواب ثم مدرسين ثم أساتذة . وما أبدع أن يكون

الأستاذ قدوة لمرؤوسيه وإنى لأذكر تماما بعض تعاليم هذين العاهلين الكبيرين الذين لا ينسى فضلهما .

عند ما كنت طبيب امتياز بقسم الأطفال كنت أصف المصل المضاد للدوسنطاريا لكل طفل تقول لى أمه أن ببرازه دم ومخاط ، ولم يكن فى تلك الأيام الخوالى مركبات السلفا أو غيرها من الاكتشافات الحديثة . وكان المصل غالى الثمن ، وكانت هناك على الأقل خمسون حالة من هذا النوع فى كل عيادة خارجية وهال الدكتور شوقى هذا العدد الهائل من الحقن الغالية الثمن ، فجلس بجانبى ذات يوم وأنا أشتغل بالعيادة الخارجية وقال لى تذكر أن وجود الدم فى البراز فى كثير من هذه الحالات قد ينتج عن سقوط الشرج فى حالات الاسهال العادى نتيجة الحزق والتعنى ، وفى مثل هذه الحالة لا داعى لحقن الطفل بالمصل المضاد للدوسنطاريا واستمعت إلى نصيحته وأخذت أسأل كل أم ببراز طفلها دم أو مخاط عما إذا كان سقوط الشرج أحد ظواهر المرض، فكان الجواب نعم فى ثلثى الحالات ، أى أن الحالة تبدأ كإسهال عادى فاذا ما اشتد الحزق وزاد ضعف الطفل من شدة الارهاق سقط الشرج طائعاً مختاراً ومع سقوطه يظهر الدم فى البراز .

وكانت أول محاضرة ألقاها علينا الدكتور أحمد خليل عبد الخالق ، عن مرض الدوسنطاريا . وأذكر أنه ما كاد يبدأ محاضرته فى الملحق الكائن فى حوش القصر العينى القديم حتى برز وجه أخيه العظيم المرحوم الدكتور محمد خليل عبد الخالق من خلال الباب الخلفى واستأذننا فى محادثة أخيه لفترة من الوقت فخرج الدكتور أحمد ثم رجع بعد دقائق ليستأنف المحاضرة من جديد . وكان فى عز الشباب ، وقد بدا يومها حليق الذقن متورد الوجه كثيف الشارب . وكان بخده الأيمن جرح صغير عليه قطعة صغيرة من القطن نتج دون شك خلال محاولة لحلاقة الذقن فى بداية اليوم الجديد .

وقد عاصرت فى أيام دراستى عهد الدكتور على باشا إبراهيم الذى يعتبر بحق نبياً فى ميدان الطب ، لأنه نما وترعرع فى جو غلب عليه العنصر الأجنبى ، ولم يكن للمصرى نصيب كبير فى رعاية الأسر المصرية المحترمة والمتواضعة . فقد وجدت الرطانة الأجنبية قبولا فى نفس العامة قبل الخاصة . ودق على إبراهيم برفيع فنه وشخصيته اسفيناً حاداً فى الحصن الأجنبى اندفعت خلاله جحافل الأطباء المصريين بعد طول انتظار وتردد . وشاهدوا بأعينهم ذلك المصرى القح الذى دعمت أنسجة جسمه بطمى النيل وطعمت عظامه بصلابة الأهرام يرفع العلم الذى طال تنكيسه ، فوق قلعة متداعيه . كان على إبراهيم طموحا رغم مظهر عدم المبالاة الذى كان يبدو عليه ، وكان إداريا من الطراز الأول ، فناناً بناءاً ، انتقده البعض لأنه بذل جهداً كبيراً فى بناء مستشفى القصر العينى الجديد الذى أصبح الآن من أكبر مستشفيات العالم ، دون أن يبالى بتحسين نوع المحصول لفترة من الزمن ، ولكن خفى على الناقد الساذج أنه بنى هذه الأحجار لتملأها الأجيال المتتالية .

إنه بنى هذه الأحجار ليرغمنا على خلق جيل مبارك يملأ هذه الحجرات الضخمة الزاخرة بما فيها من حقول البحث والتجارب ، وألقى على كاهلنا — نحن الذين خلفنا هذا التراث العظيم — مهمة تعهد الزرع حتى ينمو ويترعرع . والواقع أنه أوفد عدداً وفيراً من الأطباء الشبان إلى مختلف البلدان الأجنبية فى بعثات علمية وعملية فأتوا معهم بالثمين النفيس من ذخائر العلم وكنوزه وعمروا هذه المبانى الضخمة بعلمهم وتجاربهم حتى أصبح الآن يضيق بهم . وأخذنا نبنى أجنحة لنستوعب الرسالة الكبيرة التى تتضخم يوماً بعد يوم والتى وضع أساسها دون شك الدكتور على إبراهيم .

وما أزال أذكر ذلك اليوم من أكتوبر سنة ١٩٢٨ عند ما وضع الملك

أحمد فؤاد الأول الحجر الأساسى لهذا المستشفى . فقد أقيم سرادق ضخم فى المكان المجاور لكوبرى محمد على ، وكنا إذ ذاك طلبة فى السنة النهائية ، وكانت جزيرة الروضة شاسعة غير ممهدة ، ولم نكن نتخيل فى تلك الأيام أن فى الإمكان بناء كلية عظيمة على أرض كالحة ، لا يزينها سوى وجود النيل على جانبيها .

وجلست فى الصفوف الأولى لأننى كنت من بين أعضاء لجنة تنظيم الحفل ، وشاهدت الوجوم الذى ساد كبار رجال الدولة وهم ينتظرون قدوم الملك ، وأخيراً وصل موكب يسوده الوقار . ونزل الملك من سيارته هادئاً وقوراً ، وجلس فى أدب جم على كرسيه المخصص له على المنصة الرئيسية . ثم أشار إلى المرحوم أحمد لطفى السيد وزير المعارف إذ ذاك ، أن يبدأ خطابه الذى ختمه برجائه أن يقبل الملك فؤاد تسمية المستشفى باسمه أى أن يصبح مستشفى فؤاد الأول بدل مستشفى قصر العينى . ولن أنسى ونحن جلوس فى العيادة الخارجية بقسم الرمد فى اليوم التالى مع المرحوم الدكتور محمود عزمى القطان وكأنه يبدو مهموماً كاظماً الغيظ ، وبعد أن أخذ يشرح لنا بعض الحالات بالعيادة ، بدأ يتكلم فى صراحة حسدته عليها إذ ذاك ، إذ أخذ يتعجب كيف سمحت نفوس من سماهم باللغة الإنجليزية (مجموعة الجبناء) أن يلقوا فى البحر باسم القصر العينى الخالد العريض السمعة فى كل أنحاء العالم ويستبدلون به اسم فؤاد الأول . وختم كلامه قائلاً « يجب أن تفخروا بأنكم أبناء القصر العينى . أن لهذا المستشفى سمعة عالمية ، وحرام أن يمحى من االسجلات مثل هذا الاسم العظيم بمثل هذه السهولة » .

ولكن على إبراهيم كان لبقاً لأنه اعتمد على هذه التسمية وأخذ يفتح الاعتمادات ويحصل على الموافقة عليها بنفوذه الواسع عند رجالات مصر

جميعاً . وأشرف بنفسه على الرسومات وأخرج المشروع إلى عالم النّور ، وحقق أكبر آماله وآمال مصر بأسرها فى إيجاد هذه المؤسسة التى لا زالت مفخرة الشرق بأكمله .

لقد كان على إبراهيم قوياً كالصلب إبان حياته وكان جزءاً متمماً للحياة اليومية . كان صامولة لا بد منها للدولاب الطبى الفنى . كان يبدأ عملياته بالمستشفى الإسرائيلى فى السادسة صباحاً ولا يأوى إلى فراشه إلا بعد منتصف الليل بعد أن يمضى لحظات سعيدة مع شلته بمقهى (الأنجلو) بشارع شريف خلف البنك الأهلى .

وكان يتمنى أن يموت فى الميدان كالبطل فى لمحة عين ، ولما شعر ذات يوم بتقلصات عضلية فى ساقه نتيجة تصلب الشرايين نظر إلى أحد تلاميذه من كبار الجراحين وقال : آه ! لقد بدأت النهاية . لماذا لا تفرغ رصاصات مسدسك فى صدرى لتريحنى كما يريحون حصان السباق إذا أصاب ساقه عرج ؟ فضحك تلميذه وواساه قائلاً : يا باشا هذه آلام روماتزمية ! .

ولكنها كما أدرك الباشا الحصيف كانت بداية النهاية ، واضطر بعد تلكؤ أن يلزم منزله ثم فراشه وطال المرض الأخير بعض الشىء فأخذ ينتظر النهاية فى صبر وشجاعة وكان يسلى نفسه بالعكوف على مجموعاته الأثرية يدقق النظر فيها ويدرسها فى شغف وحنان حتى جاءت الساعة المحتومة . فبعد أن تناول وجبة الغذاء بمنزله بجاردن سيتى ، دخل غرفة نومه واستلقى على فراشه الحبيب الذى آواه بعد تعب النهار خلال تلك السنين الطوال . ثم نام على جنبه الأيمن ووضع ذراعه الأيمن تحت رأسه ومضى فى نومة هادئة لم يصح منها أبداً . فقد انتابته الأزمة القلبية وهو نائم فى هذا الموضع فلم يشعر بأى ألم لأن هدوء سحنته وتقاطيع وجهه كما وصفها الذين شاهدوه عقب وفاته دلاً على

أن الله أكرمه حتى فى نهايته . . كان ذلك فى الساعة السادسة والنصف من ٢٨ يناير ١٩٤٧ .

وقفت فى ميدان التحرير فى اليوم التالى أنتظر وصول الجثمان لتشييعه إلى المقر الأخير ، وهل علينا عقب وصولى رجل ذو مقام كبير فى سيارته الفخمة الأنيقة وكان ممسكا فى إحدى يديه بسيجار نخم وكأنه بالكاد انتهى من تناول وجبة الغذاء ، وافتر ثغره عن ابتسامة عريضة كادت تصل أذنيه ببعضهما وكأنه مقدم على حفلة عرس . ولما فوجىء بمواجهة نجلى الفقيد يتقبلون منه العزاء انقلبت الابتسامة العريضة إلى بسمة متكلفة وتمتمات آلية تقال فى مثل هذا المقام . وتشاء سخرية القدر أن يشيع هـذا الشخص فى نفس المكان بعد أسبوعين بالتمام . وهكذا تذوب التفاعلات النفسية المختلفة فى التراب كما ذابت مثيلاتها منذ بدء الزمان . وكم من لاحق بكى سابقاً إلى المصير ثم إذا باللاحق يصبح سابقاً بدوره ، ولله فى خلقه شؤون .

وودعنا الفقيد عند جامع الكخيا بميدان الأوبرا ورجعت إلى ميدان التحرير حيث بدأت الجنازة لأستقل سيارتى التى تركتها . هنالك فوجدت أن الميدان قد استرد هـدوءه ولمحت السرادق وقد بدأ العمال يزيلونه والكراسى الخضراء التقليدية وقد حملت حملا إلى عربات متواضعة تجرها خيول كانت تضرب الأرض بأرجلها فى ملل وكأنها تتعجل الذين يقومون بتحميلها الأثقال التى احتوت منذ أقل من ساعة سادة البلد وعظماءها وقد هبوا جميعاً لتوديع راحل كبير . وكانت الأبسطة والسجاجيد قد طويت هى الأخرى استعداداً لشحنها ، فبدأ السرادق أجدب كقبر مهجور ، فصحت فى نفس : أهذا كل ما بقى من الشعلة الدائمة التى كانت على إبراهيم .

حدث هذا فى يوم الأربعاء ٢٨ من يناير عام ١٩٤٧ أى بعد مضى

حوالى عشرين عاما على اليوم الذى رأيته فيه ينحنى مرفوع الرأس فى حياد الطبيب البالغ الأهمية المستقل الرأى ، الحر النفس والضمير ، وهو يشير بيده اليمنى موجهاً الملك فؤاد نحو مكان وضع الحجر الأساسى لأكبر مفخرة فى حياة على ابراهيم . وقد توفى فى سن السابعة والستين حيث أنه ولد بحى العطارين بالاسكندرية فى ١٠ أكتوبر سنة ١٨٨٠ .

* * *

وأعود القهقرى ثانية ـ فما أسهل مايشط القلم عند ما تتزاحم الذكريات ـ إلى أيام التلمذة الحلوة وما فيها من مغامرات . فان أى تاريخ يكتب عن كلية الطب يعتبر ناقصاً اذا لم يُشرْ فيه المؤرخ إلى دبيب العذارى من التلميذات فى طرقات قسم الحريم واستجابة قلوب بعض الطلبة وصغار الأطباء إلى نداء الخطوة الرقيقة التى كانت تنبىء فى أغلب الحالات عن شخصية صاحبتها . وكانت تحكى لنا أساطير مثيرة عن حوادث غرام سابقة مما يدل على أن الشرارة التى تولدت بين آدم وحواء منذ بدء الخليقة تسرى حرارتها خلال العصور والأزمان ، لا يقف فى طريقها كبير أو صغير .

وكانت هذه العلاقات البريئة فى أغلب الحالات موضح تنادرنا ونحن طلبة ثم ونحن أطباء امتياز ، وكانت تقتصر على كلمة رقيقة أو بسمة عابرة تطفىء ظمأ الولهان ولا مانع من هدية صغيرة تترك عفواً على سرير المريض أو أى طاولة سعيدة يبهجها حلم من أحلام الشباب وهى التى لم تعتد قبل هذا غير احتواء قصرية متواضعة تنتظر فى أى لحظة فضلات المريض التابع لها . فما بالك بعلبة حلوى أو شيكولاتة أنيقة مغلفة تغليفاً معبراً عن أقصى درجات التقدير والاعجاب . وقد تلحظ المريضة هذه الحركات اللطيفة فتبتسم وهى تقاسى من أشد درجات الألم ، أو قد تكون فى دور الاحتضار فتغمض عينيها للمرة

الأخيرة وهى تصوب نظراتها إلى هذه الأنشودة الجميلة من أحلام شباب ولى إلى غير عودة وحياة تنطفىء أخر شمعة من سراجها . وقد تكون قد ضاعت هباء دون لحظة سعادة واحدة .

وكان مستوى الجرأة فى تنمية العلاقات يختلف من طالب إلى طالب ، فواحد يذوب من بعيد إذا رن فى أذنيه دبيب رقيق انبعث من نعل من شغلت قلبه ولبه ، وكأن لسان حاله يتمثل فى أغنية لعبد الوهاب من كلمات حسين السيد عند ما يقول :

من قبل عينى ما تشوفها روحى شافتها والقلب حس برقتها من خطوتها
والنسمة راحت سبقتها وجت وصفتها علشان كده قبل ما أشوفها أناحبتها

وهناك طالب تعجب إحدى الفتيات بجرأته فى التقرب سواء بالكلمات أو اللفتات . وقد يتبادل مع فتاة أو أكثر مداعبات جريئة ترفع الكلفة وتسقط أحد الطرفين فى الشباك ، ومع مرور الأيام ينتشر وباء غريب يسقط فيه نصف الطلبة تقريباً صرعى لكل من فى عينها نداء وفى شفتيها دعوة . ولا عجب فقد كان مجال الاختلاط فى مجتمعنا إذ ذاك فى حكم النادر والمستحيل . فكانت فرصة الاختلاط بين طلبة الطب وطالبات التمريض منفذاً كبيراً لحالة الكبت الذى قاسى منه معظمهم .

والغريب أن كلا منهم كان يعتقد أن أمره سوف يظل مكتوما ، ولكن الطرف النسائى كان أول من يقص التفاصيل المثيرة فتسرى كالنار فى الهشيم ويفتضح الأمر بما يجعل بطل القصة موضوعا للتنادر والفكاهة بين زملائه سواء المحرومين منهم أو الموعودين .

ومما لا شك فيه أن بعضهن كن ذوات جمال وإغراء محتشم . وهؤلاء نادراً ما يستسلمن للوحوش الهادئة من الطلبة أو صغار الأطباء لأن أملهن فى

الزواج كبير واعتدادهن بأنفسهن أكبر وأكبر ، ودولة الجمال أعظم دولة ورعاياها ذوات بأس شديد .

وكان هناك وسيط بين الطلبة والطالبات ، وهو ممرض مرح ولكن فى اتزان المتمكن من موقفه فى هذه الدرامة الخالدة ، يقوم بمهمته دون أن يخشى بأس الرئيسة أو الممرضة الانجليزية لأنه كان بارعا فى إخفاء تفاعلات وجهه . وكثيراً ما توسط فى إزالة خلاف بين حبيبين ، أو وصل حبل المحبة بين اثنين أعوزتهما الجرأة فى سبيل بدء الوصال وكان مكتب الحاج حسين يقع إلى يمين السلم المؤدى إلى جراحة ثانى حريم بالقصر العينى القديم ، وكان ملجأ القاصدين ورغم إتساع دائرة أعماله فإنك لم تكن تلمح زبونا واحداً يحوم حول البقعة المقدسة ، وهذا هو سر الصنعة .

والحديث عن مستوى التمريض أمر مفروغ منه . فقد كان دائماً موضع طعن فى مختلف الأجيال . ولو أن وجود الممرضات الانجليزيات كان عاملا مخففا فى الجو الخانق . وانعدام الضمير كان منتشراً بوجه خاص فى قسم الرجال حيث كان أعضاء هيئة التمريض من الرجال ، وبعضهم كان فظ القلب غليظ العاطفة فافسد جواً كان لا يعدم وجود الكثيرين من الأكفاء ذوى القلوب الرقيقة . وكانت العلاقة بين المريض والممرض ومدى العناية التى يضفيها الثانى على الأول مبنية على المادة ، وكان أحد العمداء المصريين عملياً فى تفكيره فقد ذهب يزور أحد رجال عزبته فى قسم الرجال ، وبعد أن حياه أعطاه بعض القطع الفضية قائلا . هذه للتمورجية إذا لزمك شىء ! ! وكان هذا العميد سليمان عزمى أطال الله عمره وهو موضع حبى وتقديرى دائماً ــ واقعياً فى تفكيره وكان عاملا كبيراً فى تطوير التمريض واستبدال العنصر النسائى بالرجال فى أقسام الرجال بالمستشفى .

وإذا سألت نفسى هل تقدم فن التمريض فى مستشفياتنا عما شاهدته أيام كنت طالباً أيقنت أن لانعدام الضمير عند الغالبية الكبرى من القائمين به سيظل العقبة الكؤود مهما تغير الجنس أو الملبس . فليست العبرة برداء أبيض أو قلنسوة أنيقة تضعها آنسة أو سيدة مهما بلغت درجة حسنها أو قبحها على رأسها . ولكن العبرة بما فى الرأس من دراية وما فى القلب من شعور حساس ، والأمل معقود على تعاقب الأجيال وتطور العلاقة بين المريض والقائم بأمره إلى الأحسن والله على كل شيء قدير !

* * *

وأخيراً جاء اليوم المشهود الذى تخرجنا فيه من كلية الطب . كان الدكتور على ابراهيم أول عميد مصرى بالكلية وقد انتخب بالاجماع عقب انتحار المستر مادن وقيل لنا أنه انتحر بعد أن أصيب بالسرطان ولما تيقن من صحة تشخيص المرض فضل أن يضع حداً لحياته بطلقة مسدس صوبه إلى رأسه .

كان يوم التخرج فى يونيو ١٩٢٩ . واجتمعنا عند باب مجلس الكلية . وكان واقفاً بيننا أبناء الدفعة التى تلينا فى الأقدمية والتى كان ميعادها مع القدر فى العام التالى ومن بينهم وقف بجوارى الطالب اسماعيل محرز والطالب محمد فتحى الصيفى والطالب محمد سليمان — ينظرون إلى الأبطال الذين أنصفهم الزمن وتاب عليهم من السهر الطويل بين الكتب والمذكرات . وأخذ مسجل الكلية المرحوم محمد المنجورى يتلو أسماءنا الواحد بعد الآخر مبتدئاً ببول غليونجى أول الدفعة ثم جميل فريد ثم أنا .

وكان على إبراهيم يصافحنا ويتمنى لنا التوفيق فى عطف أبوى بالغ ، فقد كنا أول دفعة تخرجت فى عهده وهو عميد وكنا أول دفعة منحت درجة البكالوريوس وكانت تسمى قبل ذلك بالدبلوم .

وبعد أن صافحنا جميعاً قال يجب أن تعرفوا أن البكالوريوس ليست نهاية المرحلة ، بل هى البداية فقط فهناك الدكتوراه والماجستير ودرجات تخصص أعلى يجب أن تجتهدوا فى سبيل الحصول عليها .

وخرجنا من قاعة مجلس الكلية ونحن نتنفس الصعداء . لقد زال الكابوس الجاثم لأننا قضينا ست سنوات كلها أهوال وسير طويل وحرمان من كل مباهج الدنيا .

وكان همنا الأول والأكبر أن نصبح أطباء يشار إلينا بالبنان ، ولم نكن ندرك إذ ذاك قبل أن يحذرنا على ابراهيم فى تلك اللحظة الحاسمة فى حياتنا . إن الطريق لا يزال طويلا بل طويلا جداً . ولكنا أصبحنا أطباء على أى حال !

بعد التخرج

تعينت طبيب امتياز بمستشفى قصر العينى بعد ثلاثة أشهر من تخرجى . وأذكر أننى عقب حصولى على البكالوريوس كنت جالسا فى محل المرحوم أحمد عبد الرحمن الترزى المعروف وكان محله ندوة يجتمع فيها بعض كبار البلد فى انتظار (البروفة) : وتصادف فى ذلك اليوم أن كان معى المرحوم الدكتور بطرس بك وهبه مدير المستشفيات إذ ذاك ـ فاخذ يحدثنى فى عطف زائد محاولا اقناعى أن أقبل تعيينى طبيب امتياز بمستشفى الاسكندرية على أن أتسلم عملى فى صباح اليوم التالى بدلا من الأنتظار شهورا طويلة حتى يأتى دورى فى مستشفى قصر العينى . وطلب منى أن أحضر إلى مكتبه ثانى يوم إذا وافقت على الفكرة . واذكر أن آخر كلماته لى كانت : عقلك فى رأسك ، اعرف خلاصك ! ولم افكر طويلا فى هذا العرض لأن تعيينى بمستشفى الإسكندرية كان معناه ابتعادى إلى الأبد عن مستشفى قصر العينى وبالتالى عن المستقبل الذى اخترته لنفسى منذ البداية ، وهو أن أصبح نائبا ثم مدرسا بكلية الطب ثم أتدرج ـ إذا قسم لى ـ نحو منصب الأستاذية . وكنت إذ ذاك فى حاجة قصوى إلى المال ولكن حبى لمهنتى المستقبلة كمدرس جامعى تغلب على كل شئ .

وبدأت دورة الامتياز فى أول أكتوبر من عام ١٩٢٩ ، وكان من حظى أن تسلمنى الدكتور إبراهيم شوقى فى مستهل حياتى .

ففى قسم الأطفال بدأت دورتى كطبيب امتياز ، وهى تستغرق فى العادة سنة بالتمام تقسم على أربعة أقسام كالجراحة وأمراض الأطفال والأمراض الباطنية وأمراض النساء مثلا . فشاءت الظروف أن تبدأ دورتى فى قسم الأطفال

فكأنني دخلت محضن الاختبار الذى يؤدى بالمتقلب بين أركانه إلى الصقل والنضج .

كنت ذاك عجينة غير مجربة فصورها الدكتورشوقى كما شاء هواه . علمنى فاحسن تعليمى ، وضرب لى كل دقيقة فى عظمة الرجولة مثلا . بقيت بجانبه منذ ذلك الوقت ، ووقع اختياره على نائبا ثم مدرسا ثم أستاذا مساعدا له . ثم مهد لى السبيل إلى جبل الأستاذية الأشمّ فشكرا الله وله .

علمنى هذا الرجل فلسفة الرئيس الذى ينسى ! فهو يكوّن عن مرؤوسه فكرة ويصدر عليه حكما ، فإذا اقتنع بصلاحيته شفع له هذا فيما يجد فى المستقبل من أحوال . فهو يدعوه مثلا إلى مكتبه ويأخذ فى تقريعه فى عصبيته المعروفة على ما يعتقده تقصيرا ، فإذا كثر الحديث والشد بين المتناقشين تكهرب الجو ، وبدا الأستاذ وكأنه على وشك الوصول إلى قرار خطير ، ولكنه يسكت بعد أن يكون قد أوسع مرؤوسه لوما ، ويطلب منه فى هدوء أن يذهب إلى عمله . وبينما هو على هذه الحال من الثورة المكبوتة يدخل الكاتب ليعرض عليه بريد اليوم فإذا بين الأوراق واحدة تخص صاحبنا بطل القصة يطلب فيها من رئيسه الشفاعة له فى بعثه دراسية أو درجة مالية ، فيتحمس فى التعليق على طلبه معددا فضائله وحسناته متناسيا سيئاته التى أهاجته إحداها منذ دقائق قلائل ! . . هذا هو النسيان العادل الذى يجب أن يتحلى بفضيلته كل رئيس .

وكانت لذاكرته ميزة فريدة . فهى تطرد الصغائر فى أنفة عجيبه . لا يحمل لمرؤوس ضغنا ما دام الذى بدر منه لا يتعارض ومصلحة العمل . فأنت تدخل عليه لتعتذر له عن سخف بدر منك منذ أيام قليلة فتجده قد نسيه تماما . وينظر إليك متسائلا : متى حدث هذا ؟ .

أما ما يتعلق بالعمل فهذا لا ينساه أبدا ! والويل لمن يتراخى فى هذا السبيل

فإنه يصدر عليه حكما لا يغيره أبدا ولا يشفع له مرور الأيام . وكان كبير الأخلاق جبار الذهن ، يغدق العطف على مرؤوسيه دون أن ينتظر منهم كلمة ثناء . فهو يرد على أحدهم فيقول مثلا . ـ لقد أرسلتك فى بعثة لأن مصلحة العمل بالقسم تقتضى ذلك . ولقد اتفق وجودك فى نفس الأوان الذى تقررت فيه البعثة ، فالمسألة لا تعدو مجرد المصادفة ! .

أما قدرته على رؤية البعيد المنظور وغير المنظور فقد جعلتنى أومن بأنه يرى المستقبل قبل الشخص العادى بخمس سنوات على الأقل . لذا كنت أرقب دائما الثورات تقوم ضد بعض ما يصدر من قرارات ، فأقول لنفسى : سوف يفهمون صواب ما فعل بعد خمس سنوات ! .

حقا لقد كان لوجودى بجانب هذه الشخصية الجبارة أكبر أثر فى حياتى . إنها دراسة قلما تتاح إلا لمن سعد بمراقبة تفاصيلها عن كثب .

لقد احتفظنا بهذه الدره ردحا من الزمن لا ينازعنا فيها منازع ، ثم اقتلعوه من بيننا اقتلاعا إلى العمادة ثم مديرا لجامعة القاهرة ثم وزيرا للصحة ومنها إلى الإعتزال المقدس عن أحبّائه ومرضاه .

وعند ما أودعته الثرى فى ذلك اليوم الخالد من حياتى ـ ١٤ إبريل ١٩٦٣ ـ تخيلت الشعلة الدائمة كيف تخبو والحركة التى كرست نفسها لخدمة الله والوطن ، والتى لم يتسع لمجالها فضاء الدنيا بأكمله وهى تتردى مختارة فى ركن من الأرض غير سحيق حيث يبدأ حساب المرء على ما قدمت يداه ، ويتسلم من الملكين مفتاح الجنة بإذن الله ، فهذه الروح الصافية وهذا الخلق النظيف وهذا القلب المفتوح الذى لم يكن يعرف رياء ولا مداهنة ، جديرة بأن يرقى صاحبها عند الديان إلى مستوى الأبرار فطوبى له وحسن مآب .

* * *

انتهت فترة الامتياز على خير . وكان علينا أن نقضى فى الريف حقبة من الزمن تتراوح بين العام والعامين قبل أن تخلو وظائف الأطباء المقيمين التى هى أول خطوة فى سبيل التخصص . وكنت قد قضيت فى قسم الأطفال ستة شهور من سنة الامتياز فكان من المؤكد تقريباً أننى المرشح الوحيد لوظيفة الطبيب المقيم التى سوف تخلو بسفر شاغلها إلى إنجلترا فى بعثة علمية . ولا زلت أذكر ذلك الصباح من شهر أكتوبر سنة ١٩٣٠ عند ما صممت عمتى أن تمر علىّ ابنتها وهى فى طريقها إلى مدرستها (الأميرة فوزية) — وكانت تقع فى حى شبرا — لتأخذنى أنا وعفشى المكون من قطعتين إلى محطة القاهرة لأستقل القطار إلى طنطا لأقضى فترة التمرين بمستشفى الانكلستوما قبل أن أتحمل مسئولية المستشفى المماثل بقويسنا وركبت معنا بالسيارة المرحومة سعاد السماع التى أصبحت طبيبة لامعة فيما بعد ، ولكنها ماتت فى شرخ الشباب .

وكانت سعاد تبدو فى زى المدرسة الخاص كزهرة يانعة زادها إشراقاً تعطرها بعطر البنفسج فزاد هذا من بهائها ورونقها . وكان العطر من النوع الأصيل الذى كان يستورد من الخارج ، فكان لسريانه فى خياشيمى أثر منعش جعلنى أقبل على التجربة الجديدة بقلب مفتوح .

ولما وصلت العربة إلى المحطة ودعتنى الآنستان وداعاً مهذباً جميلا وتمتمتا ببعض كلمات التشجيع ، وبينما أنا أتبع الحمّال فى تثاقل المقبل على تجربة جديدة نحو شباك التذاكر لأستبدل بالاستمارة تذكرة فى الدرجة الأولى ، سرح بى الخاطر إلى ما ينتظرنى عند الجانب الآخر من الرحلة . أن ما كان يؤنسنى وجود عمى الحبيب مهدى الديوانى بطنطا وكان يعمل فى المحاماه بنجاح كبير قبل أن ينضم إلى سلك القضاء . وكان هذا من حسن حظى لأن الشهر الذى قضيته فى التمرين كان موزعاً بعدالة بين عيشة مريحة بمنزل عمى بطنطا ، وجو ممتع فى مكان العمل ، فقد كان رئيس مستشفى الانكلستوما الدكتور صبحى حنا

نعم المعلم ونعم الرئيس . وقد ساعدته متانة خلقه على التدرج فى حيازة ثقة زملائه حتى ولوه وكالة نقابة الأطباء سنين طويلة . وقد تصادف وجود الدكتور فؤاد تادرس — وهو الذى عاصرنى منذ طفولتى الأولى بمدرسة عباس ثم التوفيقية ثم كلية الطب سنة بسنة — بنفس المستشفى فزادت سعادتى . وانقضت فترة التمرين وأنا لا أشعر بأنى فارقت والدتى وإخوتى بالقاهرة ، ولكن كان يحلو لى دائماً فى لحظات الاسترخاء بمكتب المستشفى ، وبينما يكون الدكتور صبحى حنا مشغولاً عنى بإمضاء البريد اليومى الذى يعرضه عليه الكاتب — أن أمسك ورقة وقلماً وأكتب بخط يدى الكلمات الأولى من أغنية أم كلثوم التى ملأت أجواز فضاء القطر بأكمله إذ ذاك وهى :

عينىّ فيها الدموع والجو رايق وصافى

والقلب بين الضلوع حيران على خل وافى

* * *

وأخيراً وصلت إلى قويسنا حيث قدر لى أن أستقر حتى تحين فرصة حياتى ، وهى أن أصبح نائباً لقسم الأطفال بقصر العينى وذهبت تواً إلى مستشفى الإنكلستوما وكان عبارة عن مجموعة من الخيام خصصت إحداها لحضرة (الحكيمباشى) فدخلتها وجلست إلى المكتب المخصص لى كمسئول للمرة الأولى فى حياتى عن إحدى وحدات الدولة وقدم لى الباشكاتب موظفى الوحدة وهم الباشتمورجى والتمورجية (حليمه) . وسألته عن اسم طبيب المركز فقال محمد فخر الدين السبكى . فتهلل قلبى فرحاً لأنه أحد أفراد دفعتى ، وقد جاء إلى قويسنا كطبيب بدل لحين تعيين طبيب المركز الجديد . وما كدت أنتهى من عملى حتى هرعت إلى مقر عمله فلما رأيت وجهه الصينى المستدير خيل إلىّ أن القمر فى يمينى وأحتضنته فى شوق وأخذت أسأله عن أحواله : كيف يُبيت

ليله فى هذا المكان غير السحيق ؟ فأجاب فى قناعة ورضا اطمأننت إليهما ، بأن هناك مقهى عند المحطة يملكه أخان يونانيان اسم أحدهما أرستيدى واسم الآخر سفوكلى ، وملحق به من الداخل غرفة بها سرير كبير يمكنه أن يسعنا نحن الإثنين إذا ما ألحت الحاجة . وبعد أن تناولنا غذاء متواضعاً ذهبت معه لمعاينة المكان فوجدت المقهى جميلاً ، وخيل إلى أنه جنة وارفة الظلال أو واحة أمان فى الصحراء القاحلة . ولما قادنى إلى الغرفة الموعودة التى قنع بها وجدتها متواضعة جداً رغم سعتها ، ورأيت على يسارى سريراً تدلت ناموسيته غير الشفافة على الجانبين استعداداً لوقاية الضيف الكريم من لسع الناموس وحط الذباب . وكانت رائحة البصل تفوح دون قذى ، ولم أعجب عند ما رأيت تلاً غير شاهق من البصل يقع فى ركن بعيد . وعجبت كيف يداعب النوم جفون صديقى كل ليلة فى مثل هذا الجو . ولكن فخر الدين السبكى قد سبقنى إلى الريف منذ تخرجه فاعتاد مثل هذا الجو وأصبح الفارق بيننا مثل الفارق بين فأرة البيت وفأرة الصحراء . ولم أعجب لاستغراقه فى النوم بعد أن أوينا إلى الفراش بقليل ، إذ سرعان ما علا شخيره ، وتخيلت فى الظلام السعادة المرتسمة على ملامحه وهو مستسلم لأحلامه الجميلة . أما أنا فلم يغمض لى جفن ، فبجانب هذا الشخير المنغَّم الهادىء ، كان هناك دبيب الفيران وحفيفها وهى تخترق أكوام البصل الكامنة فى ركن الغرفة . وطال علىّ الليل ، وتذكرت فى سخرية مُرّة لاذعة ، الشاعر الولهان ، إذ يقول :

يا ليـــل طل ، يانوم زل   يا صبح قف   لا تطلع

فأخذت أناجى الفجر قائلاً :   يا فجـــر   والنبى   تطلع

ورنت فى أذنى كلمات موال كان يغنيه عبد الوهاب ومطلعه :

* أمانة يا ليل تخلى الفجر يستنى *

ولكن ما ذنبى أنا والعاشق الولهان ينشد دوام الليل وزوال النوم حتى لا يحرم من دفء الحبيب ، أما أنا فحالى مختلف تماماً : الشخير عن يسارى ودبيب الفيران عن يمينى ورائحة البصل الهادئة تنخر فى خياشيمى فيضيق بها صدرى . وأخذت أنتظر تباشير الصباح بصبر فارغ . وأذكر أننى قفزت من فراشى قفزاً عند ما صاح الديك معلناً بدء النهار . ارتديت ملابسى فى سرعة ملحة ، وكنت أكتم أنفاسى بين حين وآخر كالسابح تحت الماء لأتجنب ما أمكن استنشاق رائحة البصل ، وجريت إلى خارج الغرفة نحو الباب المؤدى إلى المقهى الأصيل . فاستنشقت الهواء النقى لأول مرة منذ ساعات عديدة ووجدت الخواجه أرستيدى قد فتح محله وهو يرتدى بدلة أنيقة. فطلبت منه بعد تحية الصباح طعام الإفطار . فقدم لى طبقاً من الفول المدمس وجبناً من أفخر نوع ، وكوباً من الماء المثلج تكاد تدعوك إلى ارتشافها لفرط نظافتها ، فأكلت بشهية كبيرة ، وأنستنى نظافة الخدمة من هذا اليونانى كل ما قاسيته أثناء الليل واليوم الذى قبله ، ولكنى صممت على المبيت كل يوم فى بنها وأستقل القطار منها كل صباح إلى قويسنا ريثما أدبر مسكناً خاصاً بى .

وتوطدت الصداقة خلال أيام بينى وبين المرحوم الدكتور بطرس حنا صاحب صيدلية الحياة ، الذى يسر لى سبيل الحصول على شقة فوق صيدليته . وكان كريماً إذ أمدنى بالتيار الكهربائى من مولد خاص به . فتحولت الشقة المتواضعة إلى جنة صغيرة ، واستقر بى الحال وصممت على أن أجرب حظى فى عيادة خاصة أتعامل فيها مع الجماهير لأول مرة ، وفى حدود المبادىء القويمة البعيدة عن التهريج واعتماداً على أننى (حكيمباشى) له خطره وكبير أطباء الإمتياز بالقصر العينى سابقاً كما كتبت على يافطة كبيرة ثبتها على شرفة عيادتى. ولكن الأمور لم تسر على ما يرام فبالرغم من تمتعى بحب واحترام أهل المركز

إلا أن القرى المجاورة وهى العصب الأكبر للعيادات الخاصة كان قد غزاها من قبلى زملاء أعزاء سبقونى إليها بطريقتهم الخاصة، كاستعمال الوسطاء واعطاء الحقن بمبرر ودون مبرر . وقد تكون الحقنة أحياناً ماء مقطراً .ولجأ زميل ـ لا زال حتى الآن من أعز أصدقائى ـ إلى حيلة ظريفة جعلتنى أنكمش بعدها بين كتبى وشلة الأصدقاء نتسامر فى بيت أحدنا كل ليلة نقتل الوقت . كان الراديو فى ذلك الوقت اختراعاً جديداً ، فاحضر الزميل راديو بعيادته وفتح بابها على مصراعيه ، ورص الكراسى رصاً فى غرفها وكأنه فى عزاء لفقد عزيز أو حفلة عرس ، فيحضر الأهالى ويجلسون فى صمت ينصتون لهذا الإختراع الجديد . وبعد انتهاء الوصلة يقف صاحبنا عند الباب يودع الوافدين والراحلين فوجا أثر فوج وكأنه يقول شكر الله سعيكم .

وسارت الحياة على الوتيرة التى وصفها فيما بعد زجال الدفعة — بل شاعرها ـ الدكتور مكين عبد الملك بطريقة تنطبق على كل من عاش فى الريف المصرى فى هذه العهود المظلمة . قال مكين :

طويت الريف للرزق الحلال ... وقيل لثروة وجمع مال
وامضيت السنين وشاب شعرى ... وضاع العمر فى قيل وقال
فلا مالا جمعت ولا شباباً ... سعدت به بحب أو وصال
ففى الأرياف إغراء وكبت ... وحرمة عادة وقوى خصال
فتحت عيادتى وكتبت أجرى ... وقبل الكشف تحصيل الريال
ولافتة أقمت على جدارى ... يراها الناس فى ضوء الهلال
طبيب ثم جراح وادعى ... لوضع أو لحمل أو زلال
خريج الجامعات لكل طب ... أعالج بالسماع وبالسؤال

وبعـــد الظهر نذهب للتلاقى بناد للرياضـــــة والمجال

مع المـــأمور أجلس كل يوم لقرب الفجر إذْ يجب اتصالى

إذا لعب القمار لعبت أيضـــاً ولو شرب الخمور يتوه حالى

فإن ربحت يدى اليمنى جنيهـا خسرت ثلاثة بيدى الشمال

أطوف على حمــــارى كل يوم وتلك وسيـــلتى للانتقـــال

وأحمـــل عبر نهر أو غــــدير على الأكتاف أو فوق البغال

إلى هنا ينتهى كلام الدكتور مكين وقد انطبق على حالى باستثناء شرب الخمر ولعب القمار فقد كانا عدوان لدودان لى طوال حياتى ، ولم أولع بهما أبدا وتحصنت ضدهم منذ أيام شبابى .

ويجب أن أشيد فى هذا المجال بأهمية عمل الطبيب النـاشىء فى مستهل حياته بالريف المصرى ، لقد اكتسبت خلال إقامتى فوائد جمه ، ودرست عن كثب مشاكل الفلاح وما كان يرزأ تحته من جهل وفقر ، ممـا سهل استغلاله والإستبداد به ممن يفوقونه ثقافة وادراكا . وكان التغرير به هو القاعدة حتى أنه كان يشك فيمن سلمت طويته وعامله فى حدود الضمير المستقيم . وكان الأجنبى متغلغلا فى الريف يقرض بالربا ويحتكر التوكيلات من جميع الأنواع .

وكانت الأمراض المتوطنة متفشية والمستوى العـلاجى بالمستشفيات لا يرضى النفوس المرهفة الحساسة . فـكنا نرقب كل هذا وبالقلب غصَّة وفى العين دمعة تترقرق دون أن تسيل على الخدين . وكنت أرى الأرواح كيف ترخص إلى سعر التراب لتفشى الأمراض ولا من علاج واف . وكنت أرى بعينى رأسى كيف يعيش الفلاح على مستوى الحيوان الأعجم وهو قانع راض ، فتولدت فى نفسى كنتيجة لـكل هذه الأحاسيس رغبة ملحة أن أعيش إلى

اليوم الذى أرى فيه الفلاح أدميا مثلى ومثلك ، و الريف يعود إلى أهله دون أن يستغله مو اطن فما بالك الأجنبى .

لقد أنقذنى من هذا الجو الخانق أنى دعيت لشغل وظيفة نائب قسم الأطفال بقصر العينى وهناك قضيت عامين أو يزيد . سافرت بعدها فى بعثة للتخصص بانجلترا حيث حصلت على درجات عضو كلية الأطباء الملكية بلندن وأدنبره وجلاسجو . وكان هذا منتهى آمالى حتى هذه اللحظة وبداية الطريق الطويل الذى لم تكن لندرك نهاية لفرط ما اكتنفه إذ ذاك من ظلام دامس

زواجى

عدت من البعثة التى أوفدت فيها للتخصص فى طب الأطفال فى شهر نوفمبر ١٩٣٦ حيث قضيت سنتين فى انجلترا واسكتلندا . ولقد لقيت الأهوال فى هذه البلاد من البرد والصقيع وسهر الليالى بجوار المدفأة ، استوعب الكتب الضخمة التى تساعدنى على اجتياز امتحان عضو كلية الأطباء الملكية بلندن وهو من أصعب الإمتحانات التى يمكن أن يمر بها طبيب ، مثله مثل امتحان الزمالة بالنسبة للجراحين . وعدت من بعثتى وقد تطهرت نفسى من كل أثر من غرور الشباب . فمثل هذه الإمتحانات تصقلك وخاصة إذا فشلت فيها قبل أن ينصرك الله على أعدائك الثلاثة : غربة قاسية وبرد قارس وممتحن متنمر مستأسد لا يرحم .. وكنا خلال البعثة نتمتع بحياة اجتماعية لا بأس بها رغم الضيق النفسى الخانق وكابوس الاستذكار والإمتحانات الجاثم فوق صدورنا . فكانت هناك صحبة مرحة وأجازات آخر الأسبوع التى لا غنى لبريطانى عنها . فكنا نقتبس منهم تلك العادات التى روحت عن نفسيتنا وأحساسنا لدرجة كبيرة ، فكنا ننسى تعب الأسبوع أو نتناساه لأن الفرج لابد آت فى اليوم السادس والسابع من الأسبوع حين يتخلص الجسم من أدران الإجهاد التى تتراكم كأنها الصدأ بين تلافيف المخ ، فلا يزيلها إلا ضحكة خالصة مرحة ، أو آهه تنطلق دون خجل أو حياء .

عدت من الخارج بعد أن عشت فى جو متحرر فيه حياة اجتماعية واختلاط بين الأفراد افتقدته فى بيئتنا المصرية . وأنا من طبيعتى الميل إلى الحياة المنزلية الهادئة ، والإطلاع المستمر بجوار المدفأة دون أن أجز بأسنانى على الغليون التقليدى لأنى لم أقرب السيجارة أو السيجار من فمى طوال حياتى . وفكرت فى آنسات كثيرات من كرائم العائلات ، قبل أن يستقر قرارى

على زوجتى الحالية . وقد تتبعت تاريخ هؤلاء الآنسات وما صار إليه أمرهن بعد أن مرت السنو سراعاً ، وأصبحن أمهات أوجدات وقورات ، وزالت من أجسامهن كل أحلام الشباب . وكانت فى بعضهن نضارة جعلتنى أعجب إذ ذاك كيف يحدث فى بعض ساعات النهار أن ينخفضن إلى مستوانا البشرى من تجشؤ رقيق عقب أكلة ثقيلة أو تخلص من فضلات الجسم عندما تطلع الشمس على الدنيا النائمة .

ومنهن من هلهلها الزمان فترهلت لأربع أمثال ما كانت ، أو صفعها زوج إثر آخر وكأنّ أحداً لا يطيقها وهى التى كنت أخشى أن يجرحها هب النسيم إذا ما اشتدت وطأة الريح وعبثت بخصلات شعرها دون ما رحمة أو شفقة ، وكنت أضن أن يلفح النسيم خدها فما بال ابن آدم قد بلغت به غلظة الكبد أن يذل ذلك الكبرياء . هل تورث المعاشرة الملل والاستهتار إلى هذا الحد إذا بدا من أحد الطرفين ما يخيب ظن الطرف الآخر بعد الكمال السطحى الذى بدا قبل الزواج .

أو لعلها لم يرزقها الله بزوج صبور على المكاره ، فالزواج رحلة شاقة طويلة يجب أن يتقبل الطرفان حلوها ومرها ويخطىء من يظن أن الزواج كله شهور عسل ، بل هناك حقائق مؤلمة قاسية تتجلى بعد أن يمتد عمر الزواج إلى دور إنجاب الأولاد وتربيتهم . وقد تتطور أخلاق أحد الطرفين إلى الأصعب نتيجة للإرهاق أو الملل أو الشك . وقد يشتد الأخذ والرد والجذب لأتفه الأسباب مما يتطلب من أحد الطرفين مرونة ومطاطية وإلا انقطع الحبل المقدس إلى غير رجعة . فإذا وهبك الله هذه المرونة فقد انقذت حياتك أو بوجه أصح، قسم لك أن تعيش عدد السنين المكتوب لك فى اللوح المحفوظ سليما معافاً ، حتى يحين موعد الرحيل عن هذا العالم دون أن يعوزك الهم والكمد إلى من يعينك

على الحركة من فراشك إلى كرسى قريب تقضى فيه بقية وقتك فى القراءة أو التفكير فيما صار إليه مصيرك. ولو تمسكت بأهداف الصبر وبجنة الواقعية لما حصل لك ما حصل .

إن مصير السعادة الزوجية يتوقف على ذلك الرصيد الجميل الذى يترسب فى أعماق النفس فى سنين الزواج الأولى . وهذا الرصيد قابل للتكاثر مهما تألبت عليه الظروف . فلا الرعود والصواعق تنال منه ، ولا تغيرات الزمان والمكان تؤثر فيه . سيّان عنده فراق الجسدين ولو إلى حين ، ورب ليلة ظلماء يتبعها فجر منير مثير ولله فى خلقه شئون .

لقد كان الرصيد الذى ملئت به خزائن نفسى وروحى فى سنين الزواج الأولى كبيراً جداً وكان زواجى مجرد مصادقة سعيدة . وكنت أعرف زوجتى وهى طفلة صغيرة ، وكنت إذا ذاك طالباً بكلية الطب ، أتردد على منزل والدها محمد نبيه سعيد الشيخ فى الإسكندرية ، فهو شقيق لزوجة عمى المرحوم أحمد الديوانى المحامى الكبير وكنا فى أوساطنا العائلية نجمع على أنها كانت من أهم أسباب نجاح عمى الكبير ، لأنها وهبته جواً منزلياً هادئاً يستقر إليه فى آخر النهار بعد إرهاق العمل المضنى الذى تعرض له حتى نجح فى حياته هذا النجاح الكبير . وكان صهرى نبيه الشيخ حبيباً إلى قلبى منذ سنى المبكر ، وقد عاصرته طويلا بسبب علاقة النسب التى بيننا ، وكان يتردد كثيراً بين مصر والإسكندرية لانتسابه لكلية الحقوق حتى نال الليسانس ، وكانت إذ ذاك درجة مرموقة وخاصة إذا نالها شخص اشتهر والده بالثراء الواسع ، ولكنه لم يشأ أن يعتمد على جاه عائلته وصمم على التسلح بالعلم ضد عاديات الزمان ، واشتغل بالمحاماه بالاسكندرية مدة طويلة حتى اضطرته وفاة والده إلى التفرغ لإدارة مصالحه المتشعبة الأطراف. ولكنه ظل طول الوقت دائم الإتصال بالعلم والمعرفة ، لا يمل الإطلاع ، فزخرت

مكتبته بالمراجع التى لا حصر لها ، واندمج فى مدرسة الحياة كأروع ما يكون الإندماج . وكان احترامى لشخصه الذى لم تنل الأيام منه فتيلا من أهم أسباب تصميمى على الزواج من إبنته عندما رأيت صورتها عن طريق المصادفة فى منزل إبنة عمى وهى تقلب صفحات دفتر كبير (ألبوم) لصقت فيه صور صديقاتها وأقاربها وقريباتها . ولفت نظرى وجه آنسة بدا عليها الهدوء وحسن الرعاية ، فسألتها عنها فقالت هذه خيرية إبنة خالى نبيه . فتذكرتها فى الحال وتذكرت فيها الطفلة الوديعة المتناسقة التقاطيع التى سلمت ساقها وهى طفلة فى الثامنة من عمرها لأخى المرحوم الدكتور عبد المنعم ليفتح لها دملا صغيراً دون تخدير عام أو موضعى، فلم تفقد هدوءها المشهور عنها ولم تبد عليها أمارة من أمارات الألم أو الخوف . وفى أقل من لمح البصر كونت فكرة عما يجب أن تكون عليه زوجة الطبيب من هدوء الأعصاب وتحمل أثقال المعركة الدائمة بين الطبيب ومريضه ، والتى لا بد لاستمرارها من حصانة فى الطباع والخلق وإلا فالويل للطرفين من الفراغ القاتل الذى تقاسى منه الزوجة وهى فى انتظار زوجها الكادح ،الذى ليس أمامه إلا أن يلبى نداء كل جريح أو مريض ، وإذا تراخى نتيجة إرهاق نعت بالتقصير فى أداء واجبه وأشارت إليه أصابع الإتهام من كل جانب .

مرت هذه الخواطر فى تجاويف نفسى وأنا أنظر إلى صورة تلك الآنسة الهادئة ، وطلبت من إبنة عمى أن تخطبها لى دون أن أراها ، مكتفيا بالفكرة التى كونتها عنها وعن والدها ووالدتها التى توفيت منذ سنين قلائل بعد أن لاقيت منها طوال سنين زواجى من إبنتها عطف الأخت الكبيرة ورعايتها مما لن أنساه مدى الحياة

وعقد القران فى يوم ٣٠ ديسمبر من عام ١٩٣٧ بعد خطوبة سعيدة دامت تسعة شهور ، ولم يكن بينى وبينها بعد ذلك سوى سنين عسل تجلى خلالها معدنها الأصيل وهى تعيش معى مترقبة نجاحى الذى كان يتزايد فى بطء شديد وكانت المعيشة رخيصة هنيّة ، ولم نشعر بأى نقص فى حياتنا واحتفظنا بالمظهر اللائق من شقة فاخرة فى قصر الدوبارة إلى سيارة من أحسن طراز ، وكان والداها واسعى الأفق فساعدا على سد أى نقص دون أن يشعرانا بذلك حتى اشتد العود وسارت القافلة فى سهولة ويسر دون تقهقر والحمد لله .

ورزقنا بخليل — وهو الآن طبيب أطفال — فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩٣٨ ثم نبيه — وهو الآن طبيب أيضاً — فى ٣ أكتوبر من عام ١٩٤٠ ثم جاءت العزيزة مايسه فى عام ١٥ يونيو سنة ١٩٤٦ وعقبتها تهانى فى ١٥ مارس سنة ١٩٤٨ . ووقفنا عند هذا الحد واكتفينا بما رزقنا الله به ، ومضينا ندعم هذه البداية الجميلة سائلين الله أن يوفقنا على تنشئتهم وتربيتهم على الوجه الأحسن وأن يلهمهم جميعًا الصواب ويبعد عنهم خلان السوء ويهديهم سواء السبيل .

ويخطىء من يظن أن الحياة يمكنها أن تسير على وتيرة واحدة من حيث السعادة وهدوء البال . فلا بد لكل بيئة مهما بدت موفقة سعيدة — من كدمات نفسية ، سرعان ما تتغلب عليها سعة العقل والأفق من أحد الطرفين أو كليهما ، ومواجهة الواقع وهو الاحياة بغير مسؤوليات ، وأنه لا يمكن بحال أن تطفح السعادة حتى تكاد أن يشرق الحلق من فرط غزارتها ، بل يجب أن يطرأ على الجو الهادىء السعيد بعض الأزمات نتيجة الإرهاق ومشا كل الأولاد والملل والفراغ ، والزوج اللبق هو الذى يجنب زوجته شر هذه السموم التى تقضى على السعادة المنزلية .

ليس لهم الإمكانيات المادية التى فى متناول الطبيب الناجح ، فتمعن الزوجة فى المبالغة فى السعادة التى يغدقها عليها زوجها المتفرغ ومقدار الوقت الذى يخصه زوجها للترفيه عنها كاصطحابها إلى دار السينما والنادى الرياضى إلى غير ذلك من وسائل الإغاظة والتنغيص ، ومن تجاربى اليومية أن الزوج المتفرغ كثيراً ما يكون مثاراً للملل من ناحية الزوجة حتى إنها لتصيح فى وجهه أحياناً أن يبحث له عن عمل يقضى فيه فترة ما بعد الظهر . والمستمع فى حيرة مما يسمع ويرى . أهو نوع من العقوق النفسى ؟ فلا زوجة الطبيب قانعة رغم مايغدقه عليها زوجها من وسائل الراحة المنزلية واللمعان الاجتماعى ، ولا زوجة المتفرغ راضية عن نفسها لأنها تنقصها حاجات وحاجات ، ونصيحتى لكل سيدة على حدة ألا تغتر بابتسامة صويحباتها فهى فى أغلب الحالات سطحية لايراها إلا الغريب ، ولا تتعدى فى معناها سمك الجلد أو أقل ، وياليتها تغدقها ولو مفتعلة ومتكلفة — على زوجها المنهك على مختلف مستوياته ، فهو إما زوج لامع هرس تلافيف مخه فى تصريف الأمور المنوطة به أو زوج متواضع مكافح عائد إلى منزله فى يوم قائظ ، وقد حمل بطيخة أو شمامة تحت إبطه اليسرى ، وقد أمسك بيده اليمنى منديلاً يمسح به العرق المتصبب من صلعته أو جبينه الذى قد يبدو مقطباً نتيجة تقريع رئيس القسم الذى يعمل به ، أو تفكيره فى تلك الحسبة المعقدة التى قد تصل بمرتبه سليما معافى حتى آخر يوم فى الشهر .

بمثل هذه الفلسفة يجب أن تسير الحياة . وبدونها لن تكون الحياة أبداً رطبة هنية . وعلى الزوج العاقل أن يلتمس العذر دائماً لضيق طارىء يستحوذ على كيان زوجته ، وليذكر دائماً أنها سليلة أمنا حواء مهما طال الزمان . وأن مهمتها فى الحياة لا تقل أبداً عن مهمته . فهى مسئولة عن تنسيق البيت حتى يعود من عمله فيجده مرتباً نظيفاً ، وعن طبق اليوم تجهزه له فى حدود

إمكانيات ميزانية الأسرة . وهى التى تتعرض لنكد الأطفال ومشاكساتهم وترويضهم ، ثم هى التى تتعرض أيضاً لمخاطر الحمل والولادة ، فواجب عليك أن تطلب من الله أن يبقى لك هذه الشريكة التى قد لا تساوى شيئاً بدونها ما دام قد جمع بينكما ذلك الرباط المقدس الذى يجب ألا يفصم عراه إلا الموت . وعلى الشخص الثالث ألا يتدخل بين الزوجين إلا بالكلمة الطيبة ، لأنهما سرعان ما يتصالحان ، وقد لا يستغرق عقد هذا الصلح أكثر من ثوان معدودات نتيجة كلمة لطيفة رغم ما كان يبدو فى الجو بما يوحى بالاستحالة أو ينذر بالرعود والصواعق .

بهذه السياسة المبسطة يمكن لأى زوج أن يتمتع بالاستقرار المنزلى والحياة الزوجية الطويلة اللتين كان لهما أثر كبير فى نجاحى .

من صدمات حياتي

رزئت بفقد أخي محمود ذات يوم مشؤوم يسميه التاريخ بالثامن عشر من شهر نوفمبر عام ألف وتسعمائة وخمس وأربعين بعد الميلاد ، فخيل إلى إذ ذاك أن عالم المادة قد انتهى بالنسبة إلى ، وتخاذلت فى ضعف حسدت عليه نفسى وأكبرته منها ، فقد عكست شعورى على مرآه الزمان صافية لارياء فيها ولا تصنع . ولقد خانتنى قواى لدرجة اضطررت معها أن أغادر سرادق العزاء قبل انتهاء السهرة المشؤومة وبلغت دارى متعباً مرهقاً ، وهناك فاض بى الأسى وبكيت بالدمع الذى حبسته فى مقلتى معظم النهار ، ثم أمسكت ورقة وقلماً وكتبت بيد مرتعشة السطور الآتية .

أخي عرف الحياة وعرفته ! وأحبها وأحبته . وعركها وعركته . وضحك منها ولها ، وفى وقت الفراق بكته .احتواه الأثير الخالد أربعين عاما ، فرنت إليه الأرض الطيبة وجداً وغراماً . وتمنت أن تحوى هذا الملك العميم وتضم إليها هذا التراث العظيم ، وأى أرض لا تتمنى ذراتها وحباتها ، أن تأتنس به فى أحضانها ، يا ليتنى كنت ترابا !

ولد محمود قبلى بسنة ، ومالبثت الأيام أن محت هذا الفارق البسيط فاندمجنا روحاً ، وجسداً وحلت محل الرابطة الآلية بين الأشقاء صداقة ومودة وانسجام ، زادت توثقا وصلابة على مر الأعوام وها أنذا أعود بعد ألن وسدته اللحد لينعم براحته الأبدية ، ولا زالت ترن فى أذنى كلمات الملقن وهو يسر إليه نقاش الملكين ليجنبه الوقوع فى مأزق ، وهو الذى كان يجد لكل عقدة حلا ، ولكل حرج فرجا . ولا أذكر أننى قرأت الفاتحة من أعماق قلبى كما قرأتها

فى تلك الساعة عندما طلب منا صاحب الصوت الرهيب قراءتها فى ختام حديثه مع المسجَّى فى لحده ، صنو حجر وسكون وتراب !

وخرجت أتعثر وأنا أضن أن أنفض عن حذائى غباره الطاهر الذى أصبح فقيدى من جزئياته . وعرجت بنا السيارة فى دهاليز الأمام حتى ابتلعتها الحياة من جديد ، هذه الحياة التى لا تفتقد أحداً حتى الملوك والسلاطين . فالأنوار هى ، والضوضاء والجلبة لم يخرسهـا فقد عزيز ، وسائق عربة الأجرة ينهرنى كعادته لاعتقاده أننى خالفت تعليمات المرور وكأنَّ مظهرى الحزين لم يرفعنى فى عينه درجة ، وسائق سيارة التاكسى يتعجلنى لأفسح له الطريق حتى إذا ما حاذانى نظر إلىَّ نظرته المعهودة التى خلدتها مهنته ، وكأنه هو على حق دائماً والدنيا بأسرها فى جانب الخطأ وسوء تقدير الأمور . وكنت كلما ضغطت على بوق الســـيارة صرخ الصبية والرعاع فى وجهى وبودهم لو ألقمونى حجراً ، ووجهوا إلىَّ أقذع ألفاظ السباب . وأنا لا أستطيع عليها رداً ، فنى القلب غصة ، وفى الخلق سمو عن هذا المستوى الوضيع . أن أخلاق الشعب تتـكشف لعينى الحزين ذى الحسن المرهف ، فإن همسة الريح تجرحه وتؤذيه ، فما بالك بأخلاق سوقتنا . ودلفت بنا السيارة من حى الدهماء إلى الحى الراقى الذى كان أخى جزءاً متمما له ، لا تطرق شارعا به أو دهليزاً إلا ورأيته يخطر فيه بسيارته الأنيقة . وكنت كلما سرت معه حياه الناس يميناً ويساراً . وتعمدت أن أدقق النظر فى المحال التى إعتاد أن يرتادها فوجدتها فى بريقها العادى لا تـكاد تشعر بفقده الأبدى ، ولم تطفىء سراجاً واحداً من مصابيحها اللامعة حزنا على فقيد طالمـا أكرمها وأكرمته ، ورأيت أصدقاء له كانوا يحتضنونه عند اللقاء وكأنهم لم يسمعوا بعد نعيه ، يمرون فى تـكاسل وتراخ على المحلات مدققين النظر فى اللافتات ولعلهم سوف يبـكونه فى الغد عندما يقرؤن عن موته . ولـكن

هيهات ، لقد كنت أوثر أن تمتزج دموعى بدموعهم منذ اللحظة الأولى، فهنا العزاء والسلوى بحق .

وفاض الأسى بنفسى وأعصابى فسلمت قيادة السيارة لغيرى واستسلمت لأفكارى . وحز فى نفسى خاطر الرياء الجنائزى ، فبعد الدموع الأولى التى تعقب خروج النعش يتأبط كل شخص ذراع جاره ويتحدث معه فى سخافات الحياة من ترقيات وعلاوات وعائليات ودنيويات زائلة كان يجب طرحها جانباً إكراماً لحرمة الموت . لو علم الإنسان أن أعز أحبائه — غير أمه وزوجته وأشقائه — يبدأون فى التهامس حول سخافات الحياة بعد مغادرته مقره الفانى بلحظات قلائل ، وأن الإبتسام والإنشراح لا يلبثان أن يحلا محل الدموع التى تنهمر مرة واحدة ، ثم لا تتكرر ، وأن سحابة النسيان تبدأ فى التحليق من اليوم الثانى بعد الوفاة ثم لا تلبث أن تمحوا كل شىء تقريباً فى اليوم الثالث حتى إذا ما بدأ اليوم الرابع بشمسه ونسيمه وقمره أصبح الفقيد فى خبر كان .

لو علم الإنسان كل هذا لما فكر فى اتخاذ صداقات كبيرة أو كثيرة . من مشاهداتى فى الحياة أدركت أن التفانى فى الحب والصداقة لا يدوم بعد زوال أحد الطرفين . حتى الذكرى قد تمر مروراً عرضياً من آن لآخر دون أن يكوى لهيبها أو حتى يحس بحرارته القريبة أو البعيدة . وكم من أشخاص تنمروا لأبناء أصدقائهم إذا ما جدّ الجدُّ بهم ، وألجأتهم ظروف محرجة إلى أصدقاء أبائهم . .

لماذا لا يقتصر الإنسان فى معاملة الناس على عمل ما يرضى الله دون أن يتعلق تعلقاً خاصاً بزيد أو عمرو ، فيعرض نفسه للوعة أو حسرة عند الفراق

ويضحى تضحيات لا لزوم لها ولا يستحقها معظم الناس ! .

وهذه المظاهر التى يبديها بعض معارفك فى مثل هذه الظروف لمـــاذا لا تبطل ؟ فإنها والله تحز فى النفس حزاً يفوق ألم المصاب . يقبل عليك الصديق بعد المصاب بأيام وهو متجهم الوجه أما عن شعور بالتقصير أو خجل حقيقى ، ثم يتظاهر بالنظر إلى رباط الرقبة الأسود ويتساءل عن سبب هذا فتقص عليه ما حل بك فيتأثر حتى ليكاد يغمى عليه . ولو كان اعتذر من مبدأ الأمر لهون عليك وعلى نفسه ، فمــا أحلى فضيلة الصدق فى كل الظروف ، السار منها والمحزن ، وناهيك بمحاوراتهم التقليدية ، فإذا نشر النعى فى جرائد الصباح قالوا : نحن لا نقرأ إلا جرائد المساء . . . . وإذا نشر فى جرائد المساء قالوا : إننا نادراً ما نقرؤها . . . .

لماذا لا يبطل كل هذا ؟ والله لو علم الإنسان لا وصى بأن ينقل من دار الفناء إلى دار البقاء فى سيارة مقفلة دون تشييع أو احتفال ، فما أغنى أهل الميت عن أن يعيشوا فى جو هو خليط من المواساه والعزاء والرياء ، تمتزج كلها فى نفوسهم وقد تتغلب إحداها على الأخرى . وما أجمل طريقة ترك البطاقات أو العزاء عند المسجد فهى أقل إرهاقاً وأكثر موافقة لظروفنا العصرية الحــاضرة ، فنحن نعيش فى عصر سرعة لـكل دقيقة فيه قيمتها .

لقد عرف أخى الحياة وعاملها بما تستحق . جمع منها ما جمع ، ولم يحاول سبر أغوارها العميقة لأنها ، والله متعبة مرهقة عنيدة ، وتركها خفيفاً لطيفاً كما عاش فيها ، فبكته كل عين وحزنت عليه كل نفس ، وأكرمته الدنيا بالعز والجاه فى سنيه الأخيرة ، ثم انطفأ السراج فجأة فـكان الفرق بين النور والإظلام واضحاً لـكل ذى عينين .

سعادته لم تدم . يا ليتها لم تكن ، ولكن هى الحياة . . . .

***

ومضت أسابيع قلائل وجدت نفسى بعدها وقد انسجمت ثانية مع هـــذه الدنيا التى كنت أمقتها من كل قلبى . يا لها من خداعة لعوب ! تطعن بالخنجر المسموم ثم تمدك بالبلسم الشافى وهو النسيان لتضمد به جرحك المفتوح . ولذ لى أن أسجل تفاصيل إنتصارها علىَّ فى الكلمات الآتية من مذكراتى :

منذ سما أخى إلى الرفيق الأعلى ، وصعدت روحه إلى بارئها تسمى، وتجرد الجسد الفانى من كل نغم وحس ، وتخلصت الروح الطاهرة من كل دنيوى ورجس ، وسَعِدَتْ بعالم لا يغنى فيه الحقد فتيلا ، ولا تسمح فيه لغو ولا تأثيما ، إلا قيلا سلاماً سلاماً . . . منذ تلك الساعة وأنا أنظر إلى عالمنا نظرة أخرى ، لأنه تكشف أمام عينى بشعا لا أمان له . ولا عجب ، فلغتنا العربية الغنية السخية لم تجد لعالم الفناء هذا غير كلمة (دنيا) بما فيها من معنى السفلية والضعة . وقد لامنى الكثيرون على إفراطى فى الشجن واللوعة ، وشبهوا ما شهدوا منى عليه بحزن الخنساء على أخيها صخر . ولقد كان حزنى والله مكبوتا لا تصحبه دمعة إلا إذا خلوت إلى نفسى ، ولكن تقاسيم وجهى الباهت الذى شفَّ عن دم يغلى وقلب يتلظى ، وعينى الجامدتين وعودى الذابل ، كلها فضحت لوعتى التى كنت أتمنى أن أحبسها فى نفسى كى أنعم بها وحدى دون شريك ، فإننى والله لأغار عليه من دمع الغريب . ولا عجب فقد كان كما قيل :

أخ وأب بر وأم شفيقة — تفرق فى الأبرار ما هو جامعه
سلوت به عن كل من كان قبله — وأذهلنى عن كل ما هو تابعه

والواقع أن هذه اللطمة كانت أول صفعة حقيقية رمانى بها القدر ، فرنَّت فى محيطى وكيانى ، وأذهلتنى عما حولى أياماً بل أسابيع . لقد نشأت فى بيئة

سعيدة لم يشع فى جوها سوى الفرح والسرور ، ولم أعرف الموت وجلاله إلا معرفة عابرة عند مرور جنازة غريب أمام منزلنا ، فلا تهز فى طفل مثلى سوى حب الإطلاع والسؤال عما يتمتم به هؤلاء المعممون الذين يتقدمون الآله الحدباء .حتى كان عصر يوم من أيام مارس عام ١٩١٧ عندما رافقت أخى الفقيد إلى (سيرك) مجاور ، وكان ضمن برنامج الحفلة غناء سخيف مبتذل من سيدة بدينة شاءت أن تبالغ فى دلالها فلبست طربوشاً وحزمت وسطها بمنديل فاقع اللون . ثم أمسكت بعضا أحـــد المتفرجين ، وقبل أن تبدأ فى الغناء تنحنحت واعتذرت بأن صوتها متعب لبرد طرأ عليها ، فرد عليها (المصرى أفندى) بكل تقاطيع وجهه وأخصها الحاجبان والشفتان الغليظتان والأسنان الصفراء كما يبدى إعجابه اليوم وغداً ، ووالله لن يغير الله مابه حتى يغير هو مابنفسه .

وعند عودتنا إلى المنزل حوالى الخامسة فوجئنا بعمتى تقابلنا بصراخ تردد صداه فى المنزل لأول مرة أثناء طفولتنا . وتساءلنا عن السبب . فقيل لنا إن الجدَّة أصيبت بالسكتة المخية ، وأن وفاتها مرتقبة خلال ساعات . وقد امتد بى العمر حتى أرى عمتى هذه تموت بنفس الداء بعد خمس وعشرين عاماً . وأخى الطفل البرىء إذ ذاك يكبر وينمو ويلقى حتفه بالصورة عينها بعد ثمانية وعشرين عاماً وهو فى أبان مجده وقمة نجاحه . هل كان يتصور الطفل المسكين أنه سيرث هذا الإستعداد لتلك الميته المزيحة بالنسبة له والمفزعة لمن حوله ؟ ألست محقاً بعد هـــذا إذا سالت نفسى عندما أرى طفلا يانعاً غضا بضا : أى ميته قدرت وخبئت له إذا امتدت به العمر ؟

وفى أمسية باسمة من أمسيات شهر نوفمبر سنة ١٩٤٥ اتصل بى صديقى محمد عبد الوهاب ودعانى لأكون معه أثناء تسجيل أغنيته الأخيرة (الحبيب المجهول) وكنت فى هذه الفترة من الزمان مغمورا بشعور غريب كنت

أخشى معه العوادى الخائنات ، فتمنعت بادىء الأمر ، ثم لم ألبث أن وافقت لأنى لا أقدر على مقاومة فن هذا الرجل المؤدب الخجول الذى لكل حرف ينطقه نغم ورنين ، وذهبت معه إلى جو موسيقى بديع وراقبته فى غبطه وشعور من افتقد شيئاً فى الحياة جميلا ، وهو يتنقل بعوده بين أفراد تخته لافتا إنتباههم إلى تفاصيل اللحن . ثم وهو بنتحى جانباً بالفتيات اللاتى سيرددن كلمة واحدة هى (ما أعرفشى) منبها إياهن إلى ضرورة ترقيق الراء والشين ، ولم يتركهن حتى أحال هذين الحرفين إلى أرق حروف لغة الضاد . ثم بدأت الموسيقى يتخللها الغناء فى جو ملائكى شغل كل تفكيرى طوال اليوم التالى وأنا مسافر إلى الإسكندرية أقضى عطلة عيد الأضحى ، حتى إذا ما جاء مساء أول أيام العيد أذيع تسجيل الأغنية فاستعدت معها جو الأمس ، ولا أدرى لماذا طرأ على فكرى تلك المرأة البدينة وهى تغنى فى السيرك منذ أكثر من ربع قرن ؟ لعل عقلى الباطن كان يقارن بين فن اليوم فى عبد الوهاب ، وتبذل الأمس فى أغانى طفولتنا وذهبت إلى فراشى وقـــد اختلطت الذكريات وامتزجت ، وصحوت فى الساعة الأولى صباحاً وأنا أشعر بانقباض فى النفس وخفقان فى القلب ، وعلمت فيما بعد أن هذه الأزمة حدثت فى نفس الساعة التى بدأت فيهـا أزمة أخى القاتلة ، فعجبت لهذا الوعى الإيجابى بين نفسين شط بينهما المزار .

وحوالى ظهر اليوم التالى جاءنى على أسلاك البرق نذير من القاهرة أن أسرع بالحضور لحرج الحالة ، فركبت القطار الذى بذل جهداً كبيراً كى يخفف من مرارة الرحلة وطولها ، وكان يحاول تسليتى بأن يمر من حين لآخر بين مزارع لم تشعر بوجودها عينى الزائغة ونفسى الحائرة ، وخيل إلى أن الأربع الساعات التى قضيتها فى هذا القطار المظلوم هى أربعة أجيال ، ومرت خلالها

على ذهنى أشد الذكريات شؤماً وألماً ، وكانت تطرأ على فكرى خلال كل هذا كلمات أغنية عبد الوهاب الحزينة فأرددها مع نغم القطار المتهادى فى حياد عجيب .

منذ هذا الحادث أصبحت لا أشعر بمرارة الإنتظار مهما طال ، وكنت قبله أبرم إذا تأخر قطار عن موعده بضع دقائق ، فماذا عاد يعنينى مادام هو يحملنى إلى حيث لا شجن ، أو يحمل إلى عزيزاً يتمتع بدفء الحياة . ولماذا انفجر غيظاً إذا أرغمت على انتظار صديق مدة أطول من الميعاد الذى حدده ؟ أليس فى أى جريدة أو مجلة متسع لقتل فترة الإنتظار مهما طالت ، وما دامت نهايتها سليمة من الضر ؟ إن أى إنتظار يهون فى نظرى أمام تلك الساعات الأربع التى قضيتها فى رحلتى المشؤومة .

والغريب أننى كنت أنقبض حتى أسابيع قلائل لرؤية السواد فى رباط الرقبة أو ثياب المرأة ، وكنت أضن على حُسْن أن يطفئه لون قاتم ووجه أخلاه الحزن اضطراراً من وسائل التزين والتعطر ، وعينين تقرحتا من عزيز البكاء وخدين تسلخا من هطل الدمع الهتون . وأعجب أحياناً كيف يضحى بكل هذا فى سبيل مقرب إلى عزيز ، ولكننى أصبحت أخيراً أتعزى برؤية السواد وأشعر بحنان عجيب إلى لابسه ، وأميل إليه أحياناً مستفهماً عن السبب فيجيبنى فى حزن أطرب له ، لأننى أتيقن إذ ذاك أننى لست فى الهم وحيداً . وكنت أطرق باب الفناء فى جريدة الأهرام كل صباح بقلب واجف مضطرب حذراً من أن أقرأ نعى عزيز أو صديق ، أما الآن فإنى أتخطى عتبته السوداء بجنان ثابت وقلب لا يرتجف لاعتقادى أن الموت حق على الجميع وخاصة بعد أن رأيت الحياة والحركة التى كانت كلها أخى تنزوى فى ركن من الأرض صغير . وهل هناك صدمة يمكنها أن تنال منى بعد ما رأيت ؟

فما أنا من رُزْء وإن جلَّ صارخٌ   ولا بسرور بعد فقدك فارح
كأن لم يمت حى سواك ولم تقم   على أحد إلا عليك النوائح

وهذا الشيء الذى يسمونه النسيان ، أهو فضيلة أم رزيلة ؟ إنه — وحق السماء — كلتاهما . لن أنسى ما حييت تحجر وجهى فى مبدأ الصدمة ، وكيف كانت أساريره ترفض بعناد أن تنفرج لتشرق منها بسمة عابرة خلال حديث تعمد قائله أن يمزجه بالفكاهة قصد تسليتى . ثم أخذَتْ عضلات الوجه تلين نوعا ما ، فكانت يسبق البسمة الهزيلة عبسة طويلة تأخذ فى الإنفراج فى تدرج بسيط حتى إذا ما أطلت الإبتسامة على الوجه الحزين هطلت من العينين دمعة الندم على ما فرط ، ثم أخذت الإبتسامة تلوح وتختفى مع الظروف دون أيلام أو ندم ، ولا بد أن يأتى دور الضحك والقهقهة يوماً ما عندما يلتئم الجرح ولا يبقى منه إلا ندوب الذكرى البعيدة .

ولن أنسى يوم ذهبت إلى عيادتى بعد الحادثة بيوم كى أخلو لنفسى ودموعى وأدركت الممرضة من حالتى إننى لن أنهض لفحص أى مريض .

ودق جرس الباب ودخل أول طفل فى سكون وهدوء ، وكأنه لم يشأ أن يقطع حبل دموعى وشجنى ، ثم يلبث أن تتابع فوج مرضاى الأطفال وكلهم بين صارخ ومعول وصاخب . والحوا فى حركاتهم وضجيجهم وكأنهم يتعجلوننى ، والممرضة خلال كل هذا تنظر خلال باب غرفتى من آن لآخر وهى فى تردد ظاهر ، وأخيراً تشجعت وفتحت الباب ووضعت أمامى قائمة بأسماء المرضى المنتظرين ، فنظرت إليها من خلال دموعى وقلت لنفسى :

« وما ذنب هؤلاء » ؟ وبدأت الحياة من جديد ولسان الحال يقول : —

إن المساءة للمسرة موعد   اختان رهن للعشية أو غد
فإذا سمعت بهالك فتيقّنِ   إن السبيلُ سبيلُه وتزوَّدِ

* * *

ولاحظ جميع من حولى أن كل محاولاتى للسلوى والنسيان كانت عبثاً ، فقالوا : لماذا لا تذهب إلى ذلك الوادى السحيق : وادى الملوك ، لتدفن فيه ذكرياتك المؤلمة وتعود إلينا كما عهدناك من قبل سالماً باسماً مرحاً ، فسافرت إلى الأقصر . وكتبت أقول بعد عودتى من هناك :

دفعنى موج الذكريات إلى أرض الذكريات . فذرعت الرمال والسهول بين وادى الملوك ووادى الملكات ! واستلهمت الوحى مما مضى وولى وترحمت على من قضى ومات ، وهتفت فى جنبات نفسى هيهات نحن من هؤلاء هيهات! وعجبت لشعب ورث ذهباً ضخماً فأحاله إلى تراب وذرات ، ومن قوم نسوا الماضى وانغمسوا فى عبث وملذات . فكفروا بنعمة خالق الأرض والسموات ، وحقت عليهم الذلة حتى يوم تبعث من قبورها الرفات !

ولا تظن يا أخى أننى ذهبت إلى هناك لأننى كدت أنسى افتقادى إياك لعالم الأبرار منذ ثلاثة شهور قصار،وأقسم لروحك أنه لم يكن النسيان وإنما هو نشدان السلوى فى موج غامر من الأسى يبلغ الجبال طولا ، ولو شئت لبقيت مغمورا دون أن يطفو منى الرأس أو الجسد ، ولكن هى الأمواج ترفع وتخفض، فكنت أجد نفسى أحياناً على الشاطىء زاحفاً دون وعى وسط ظلام دامس ، ولكننى على الأرض على أى حال ، أدبّ كأى مخلوق يسعى وراء الحياة والرزق ، ثم لا يلبث الجزر أن يجرنى إلى الأعماق ثانية ، فأغوص فى خضم اليأس والإستسلام . وكنت أنتصر حينا وأهزم حينا حتى دفعنى فيض الكأس إلى الهجرة إلى وادى سحيق قيل لى عنه أنه خير مكان لدفن الذكريات . ووالله ما غبت عن خاطرى ولا ناظرى لحظة ، فكنت كلما تبعت الدليل إلى داخل قبر فى وادى الملوك ، هتفت من قلبى محيياً الأرواح الحائمة حولى عسى أن

تكون روحك بينها تتبعنى فى عتاب ورجاء ، وكنت كلما أشار الدليل بأصبعه المحايدة إلى تابوت حجرى تخيلتك مسجى بين طيات الثرى جسداً هامداً ورفاتاً لا يؤنسها فى وحدة قاتلة سوى حجر وسكون وتراب ، وياليتك جلت فى خاطرى وأنا أنظر إلى صورة عجل منقوشة فى حجر كبير بأحد المعابد ، فتخيلت العجل الصغير الذى ضحينا به وأنت تغادر الدار . وتذكرتنى وأنا جالس على مقربة منه أنظر إليه وينظر إلى نظرات كلها تضرع وعتاب ، وكأنه يقول لماذا تذبحوننى ومحمود معى ، أطلقو سراحى وأنا أشفع له عند من يفهمنا جميعاً بلسانى وعقلى وكل قطرة من دمى الذى سوف يراق عبثا ، وتذكرتنى وأنا أنظر إليه شزراً وأقول وأنا أزم شفتى فى تصميم ضعيف الحيلة الذى وجد للإنتقام من قسوة القدر منفذاً ، هيهات لك هذا ، من ذا الذى يشفع لك عندى وفى يدى روح أقبضها متى شئت لأربط مصيرها بمصير من أحب . يالى من قوى فى ساعة ضعف ومغرور فى لحظة انهيار وهوان . والحقيقة أيها العجل أننى راجعت نفسى فيما بعد وندمت على مجرد خاطرى نحوك ، فكنت كلما زرت والدتى الثاكلة ورأيت آثار دمك عند عتبة الدار وقفت عندها وتأملت كثيراً وترحمت على من ذبحت فداءه ، وقرأت الفاتحة التى لا بد أن ينالك منها نصيب ، فقد خلقك الله كما خلقنا ولا بد أن لكم حياة أخرى كالتى وعدنا بها ، ألسنا نستوى جميعاً أمام الله : الحشوه الحقيرة والحيوان الأعجم والإنسان المغرور ؟ والله أعلم أينا المفضل عند الديان الذى لا يعرف عند الحساب عزوة ولا جاهاً ولا مالا ولا ملكاً ، وهو الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما .

وأقسم لك يا أخى أننى كنت ذات يوم أستمع إلى الدليل (عبد السيد) وهو يشرح صورة موكب جنائزى ، فلما أشار بأصبعه إلى الكهنة وهم يرتلون صلاة الجنازة تذكرت نفسى وأنا جالس فى الصيوان على بعد أمتار من غرفتك ،

وكيف غاصت روحى إلى قدمى وأنا أسمع الذين يقومون بواجباتهم الأخيرة نحوك وهم يرتلون الصمدية أى (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) بصوت كان يعلو وينخفض ويسرع ويبطىء لم أدر لماذا ، ولكنهم لما قرأوا الفاتحة أدركت أنهم انتهوا من صب الماء الساخن ثم ألباسك الرداء الأخير الذى كان كل ما خرجت به من هذه الدنيا الزائلة . ولا بد أن روحك قد رأت كيف تهادت آلتك الحدباء بمثل الروعة التى كنت عليها أبان حياتك . معذرة يا حبيبى على جريمة نشدان السلوى بين الوديان والرمال فما كان هذا والله بنسيان بل مجرد محاولة لنقل صورة طيفك التى لا تود أن تفارقنى ، من العقل الظاهر إلى العقل الباطن الذى تدفن فيه أعز الذكريات وأحلاها .

* * *

إذا شئت أن تسافر إلى جهات بعيدة كالأقصر أو اسوان مثلا فلا تستعمل من مهمات سكة حديد الحكومة المصرية إلا القضبان والقاطرة ، أما عدا هذا فارهاق وكلال وملل . إن الفرق بين تكاليف عربات النوم التابعة لشركة أجنبية[1] والعربات التابعة لمصلحتنا الحكومية لا يعدو بضعة جنيهات لا ترهق المقدم على رحلة طويلة كثيرة النفقات . إن المسافة بين العربتين لا تعدو بضع الخطوات ، ولكنك تشعر بانتقال غريب من جو إلى جو . فموظفو عربة النوم من طينة أخرى مشبعة بطابع اللياقة واحترام الغير ونظافة المظهر ، وكلها طباع لا تكلف صاحبها شيئاً ، ولكنها هداية من الله أسبغها على هؤلاء الأجانب بسخاء فاستغلوها أحسن استغلال حتى بزوا غيرهم فى تأدية الواجب على الوجه

---

(١) كان هذا وما بعده فى عام ١٩٤٥ .

الأكمل . لو علم الشرقى أن من أسهل السهل عليه أن يكون مؤدبا لبقاً فى معاملة الناس ، لزالت من سحنته غبرة التحدى التى تلحظها فى صغار المحتكين بالجمهور من موظفين فى أول درجات السلم ، ينصبون من أنفسهم آلهة ويعاملونك بطريقة لا يمنعك من صفعهم إلا الأدب الذى لا يكلف شيئاً .

* * *

تصل مدينة الأقصر فيستقبلك الضجيج المصرى العادى على الأرصفة وفى الطرقات ، وتحملك عربة الأجرة حملا إلى الفندق خلال شوارع من أقذر ما شاهدته العين حتى تصل إلى الجنة الموعودة وهى شارع البحر وهناك تبتهج نفسك بعض الشىء إذ تجد الفنادق ترحب بك ترحيباً عظيما وتغدق عليك من حسن المعاملة ما يجعلك تنسى أنك غريب فى بلدك ، وهذا هو فن الاستعمار المدنى الذى يأسر القلب ويسلب مافى الجيب وأنت قانع مسرور . وفى الأقصر عدة فنادق من الطراز الأول تشرف على النيل الذى تململ من فرط ما اعتززنا بطينه الأسود وانسيابه الخالد بين الشاطئين ، ويلفت نظرك معبد الأقصر بأعمدته الضخمة التى يمكنك أن تميز خلالها تمثال رمسيس الثانى جالسا وقد وضع يده على ركبتيه بحيث يتجه نحو الرامسيوم على الشاطىء الغربى ، ويقع معبد الأقصر على الشاطىء الشرقى بين الفنادق ومنازل الأعيان من أهل المدينة ، فتعتاد العين رؤيته لأنك تمر عليه فى الذهاب والإياب ، حتى أنه لا يكاد يلفت نظرك فى الأيام الأخيرة من رحلتك وما أرخص الشىء اذا اعتادته اليد والعين والنفس وما أعزه إذا ترفع وشح وندر . وفى هذا الموكب بالذات بدأ موكب الشعلة وكان لى حظ سماع خطبة ضابط عظيم اقتبس فيها بضع كلمات من دعاء نصف شعبان المعظم ليضفى عليها من السحر والجلال ما يتناسب مع فخامة مظهره وروعة المناسبة .

وبجانب هذا المعبد العظيم يوجد مقام متواضع لشيخ يتبرك الناس به ولا يعدم كل صباح زيارة سيدتين أو ثلاث يخلعن نعالهن فى خشوع ويجلسن تحت قبته المتواضعة يتحدثن ويتسامرن وقد وضعت كل منهن يدها على خدها تشكو للأخرى عوادى الزمان ودلال الزوج ، فلا تنس أن تقرأ الفاتحة على روحه عند زيارتك للمدينة ، فلعل فى قراءتها عزاء وسلوى لروحه التى تحمل كل هذا وهى صاغرة .

* * *

وفى الفندق قابلت صديقاً لعله المتزوج الوحيدفىالعالم الذى لم تخنه ابتسامته منذ أن تزوج ، وكان أول مارأيت منه ظهره الذى تضخم نتيجة ترهم معقول وأقسم أننى رأيت الابتسامة المرتسمة على ظهره قبلأن يستدير بوجهه فى اتجاهى وقلت لنفسى لا بدأن هذا هو الدكتور صلاح الدين ناضف الطبيب الشرعى ، وقد صدق حدسى وجلست معه أتأملفىتلك التى روضت هذا المتمرد القديم ، فوجدت أدبا وخلقاً جديرين بالاحترام ووجهاً ارتسمت عليه نصف ابتسامة دائمة أعتقد أنها تلازمه فى الصحو والمنام . وكنت أينما أراهما مفردين فى أية ساعة من ساعات اليوم أدهش للبســمة العريضة على وجه الزوج مقرونة بدعابات مستمرة يسرها فى أذنيها من فوق كتفها فيتحول إشراقها الدائم إلى ضحك خافت مكتوم يهتز له الزوج طربا ، وقد مضت على هذه الحال عشر سنوات ، فيالها من زوجة وياله من زوج .

* * *

ولا بد تقودك قدماك إلى معبد الكرنك ، وإذا كنت ممن يترنمون بأغانى عبدالوهاب فإنك لابد مردداً أنغام أغنيته الجميلة وأنت تسير بين أرجائه مأخوذاً مدهوشاً لعجائب أجداد نحن بهم جديرين ، وعند ما يفسر لك

الدليل الرموز المنقوشة على الجدران وتفاصيل المعارك ورجوع المنتصر تتساءل بينك وبين نفسك قائلا :

أين يا أطلال جند الغالب   أين آمون وصوت الراهب

والواقع أن هذا المعبد فخر للأولين والآخرين ، ويا ليتنا نرى ونتعظ ونثبت للعالم أننا بأجدادنا جديرون ويكفى أن تسير فى طريق الكباش وتدخل فى بابه لتدرك أنك مقبل على زيارة مجد غابر لأمة كانت عظيمة . ولو حافظت على تراثها لكان لها شأن أى شأن .

أما زيارة وادى الملوك فتستلزم منك رحلة نيلية إلى الشاطىء الغربى ، وهناك تخرج من مقبرة لتدخل أخرى . وفمك فاغر من فرط الدهشة ولا سيما لجمال ألوان الطلاء التى يخيل إليك أنها من صنع الأمس القريب رغم مرور أربعة آلاف سنة عليها .

ويدهشك أثناء كل هذا أن العنصر المصرى بين الزائرين نادر حقاً ، بينما إقبال الأجانب يدعو إلى الدهشة والاستغراب .

ولن أنسى وأنا أغادر الفندق فى اليوم الأخير فى ساعة مبكرة ، إذ كان بعض السادة والسيدات من السائحين على وشك بدء رحلة إلى الشاطىء الغربى وكنت أود أن ترى علامات المرح والانشراح على السيدات منهم ، وكأنهن مقبلات على غزو كبير مضمون ، وخيل إلى لفرط نضارتهن أن عشر ساعات على الأقل قد مضت منذ استيقاظهن الذى لم يكن قد مضى عليه سوى ساعة أو أقل . ووقفت بجانبهن أربع سيدات مصريات قضين الوقت فى تثاؤب وتثاقل وكأنهن مقدمات على واجب غير مرغوب فيه ، مع أن الأجداد جدودنا والآباء آباؤنا ، وكنت تسمع الانجليزيات يترنمن بأغنيات رقيقة ،

عجبت كيف طاوعتهن حناجرهن على إخراجها فى هذه الساعات المبكرة ، ورنت ضحكاتهن ونغماتهن فى أذنى وأنا أبتعد عن الفندق فى عربة تربع الكسل على راكبها وسائقها وخيلها واختلطت فى ذهنى ذكريات الرحلة الممتعة الحلوة ولم يخطر على بالى سوى بضع كلمات من أنشودة الكرنك التى يغنيها عبد الوهاب .

أنا هيمان ويا طول هيامى صور الماضى ورائى وأمامى

* * *

وأخيراً وجدت فى دراسة الروحيات مهربا من أطياف الأحزان والذكرى ، أن ما يحزن النفس عند فقد عزيز هو هـذا الخاطر الذى يجول فى نفوسنا : هل انتهى كل شىء ؟ هل السجن الأبدى فى تلك الحفرة الصغيرة هو نهاية الدنيا ؟ وكان مما قرت كتاباً فيه كلام عجيب تمنيت لو كان صحيحا .

وقبل أن أجول مع القارىء فى عالم الروحيات . أود أن أؤكد له أننى لست فى هذا الميدان إلا عابر سبيل محايد ، اجتذبته الأنوار فتأمل فيها هنية دون أن يأخذه بريقها ، أو سائر على الشاطىء رأى الأمواج على بعد تعلو وتنخفض حتى إذا ما اقتربت من الشاطىء لتسر فى أذنه قصتها التى لن تنتهى رغم بدئها مع الزمان ، حاد عن طريقها فلم تمس له ثوباً أو تبلل له حذاء ، حتى إذا تضاءلت وتلاشت وعادت منسحبة إلى حيث أتت عاد يتأمل من جديد كيف يتفادى أمواجه التالية ، ويا ليته يفلح . . ولقد كنت أفلح فى معظم الأحايين متعمداً أن أخرج من المناورة محايدًا كما بدأتها لأقص عليك يا قارئى العزيز أمتع القصص وأحسنها دون محاباة أو مغالطة ، لعلك واجداً فيها السلوى على غصن ذوى وحبيب مات وقضى ، ويا ليتنا نعرف ونحن نقترب

من خريف الحياة أو نجتازه لأى غرض نعيش ونكافح ، وماذا بعد تلك الحفرة التى فيها تودعون .

وفى أمسية باسمة كنت أسير فى شارع من أكبر شوارع القاهرة فاجتذبتنى لافتة إحدى المكتبات الكبرى ، وكانت منسقة فى بساطة وإبداع ، فأخذت أتأمل محتوياتها فلفت نظرى كتاب بعنوان « قصتى الكبرى » لهانن سوافر . وكنت أثناء إقامتى بانجلترا أطلب العلم ، أقرأ لهذا الكاتب فى كبريات الصحف والمجلات . وكنت أعلم أنه من عمالقة (فليت ستريت) وهو حى الصحافة فى إنجلترا . ومن طبيعة هذا الكاتب الهجوم والهدم والتدمير والنقد المر والسخرية اللاذعة فى كتاباته حتى أصبح الكل يخشونه ويعملون له ألف حساب . وكان لا يقبل كل ما يقال ولا يستسيغ إلا ما يعتقده الحقيقة التى لا مرية فيها . لذلك كانت دهشتى عظيمة عند ما وجدت كتابه يبحث فى عالم الروح . ولم أكن أظن أن هذا الملحد — وكان يعترف علناً بإلحاده — يسمو فى بحثه وتفكيره إلى عالم ما بعد الموت ، وهو الذى كنت أتخيله يهتم بيومه دون غده . وعجبت عند ما قرأت أن هذا البحث قد شغل تفكيره خلال العشرين سنة الأخيرة ، وبدأه ساخراً متحدياً كعادته ، ثم دخل قلبه الإيمان رويداً رويداً حتى اتخذ من الروحانيات ديناً فبدأ كتابه بالكلمات الآتية : —

« أنا لا أعترف إلا بديانتين — الروحية والاشتراكية ؛ أنا أؤمن بوجود إله فوق الجميع يدفعنا إلى الخير والشر حسبما تقتضى مصلحة العالم . وإنى أعتقد بإخلاص أنه إذا آمن الناس بديانتى وجعلوا منها أساساً للمعاملة لزالت الأحقاد ولدفنت الخلافات الدينية إلى الأبد ، ولبدأ عالم جديد يعيش الكل فيه كأفراد عائلة كبيرة لا يمتاز الواحد فيها عن الآخر إلا بما يسديه من

خير للمجموع ، لقد ثبت لى بصفة قاطعة وبعد تجارب مرهقة طويلة أن الحياة لا تنتهى عند القبر وأن هذه الدنيا بكل ما فيها من مصاعب ومتاعب ما هى إلا روضة أطفال تهيئنا لمهمة أكثر روعة واكتمالاً فى عالم آخر ، سوف تتاح الفرصة فيه لمن قصر فى أداء مهمته فى هذه الدنيا أن يصل ما انقطع ويجرب حظه مرة أخرى ليسدى بعض الخير لمن حوله » .

كلام جميل ياليته يصح . ألفاظ تستسيغها نفس كل من فى قلبه جرح لم يحن بعد ميعاد التئامه . معان يتقبلها بترحيب هائل كل من فقد حبيباً فيتعزى بتخيله سعيداً فى جوه الجديد بين السابقين ممن عرفهم ومن لم يعرفهم ، ويتيقنه أن يوم اللقاء لا بد آت إن عاجلًا أو آجلا . عقيدة تتفق مع مختلف الكتب السماوية التى أنزلها العزيز الحكيم ، والتى أجمعت على وجود الروح ويوم الحساب ، يوم تجزى كل نفس ما عملت ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

ولهؤلاء الروحيين منطق لطيف كالنسيم العليل ينزل على الجرح العميق فى النفس الحائرة الحزينة كالبلسم الشافى فيلتئم على غير ميعاد . وقد اعتنقوا منطقهم كدين لا يقبلون فيه نقاشاً ، وهو يتلخص فى أن هناك جسداً أثيرياً يفارق جسد الإنسان عند الوفاة ، ويتكون من مادة اسمها الأكتوبلازم توصل العلماء إلى تحليلها ميكرسكوبيا وإلى تصويرها بالأشعة تحت الحمراء فوتوغرافيا وسينمائياً . والروح حسب اعتقادهم خفيفة لطيفة مهما بلغ ثقل دم صاحبها وسماجته أثناء رحلته فى العالم الفانى ، إذ يبلغ وزنها بضع عشرات من الجرامات . وهذه المادة هى التى تنبثق من جسوم الوسطاء لتصول وتجول مخترقة الحجب ومتعدية الأميال فى ثوان ودقائق ، فتصل إلى أماكن قاصية ، فتمكن الوسيط وهو جالس أمامك من وصف منزلك أو الاتصال بشخص آخر فى قارة

بعيدة كأمريكا مثلا . وهم يفسرون إسراء النبي محمد صلى الله عليه وسلم بأنه طرح روحى لا جسدى ، ويصفون محمداً فى مختلف الكتب التى تبحث فى هذا الموضوع بأنه من أعظم الروحيين الذين وجدوا على سطح البسيطة منذ بدء الخليقة ويفخرون بهذا .

وهم يعتقدون أن الأنبياء والرسل قد أغدق الله عليهم ميزتين عظيمتين : أولاهما الجلاء البصرى أى القدرة على الرؤية بشكل يخالف العرف ودون استعمال الحواس العادية ، وثانيتهما الجلاء السمعى ، أى القدرة على إدراك التأثيرات الصوتية بما يخالف العرف دون تقييد بالزمان أو المكان . ويفسرون نزول الوحى على الرسل بأنه قد تعتريهم — كوسطاء روحيين من الدرجة الأولى — غيبوبة تصحبها تغييرات فسيولوجية كتبس الجسم مثلا ، تغادر خلالها الروح الجسد مع بقائها متصلة به بحبل أثيرى . وفى الوقت نفسه تكون روح أخرى قد هيمنت على الجسد فتنطقه بالإعجاز المبين ، ويقول المؤرخون الإسلاميون أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه الوحى مضى فى شبه غيبوبة وانتابته رعدة وتيبست منه الأطراف ، وفى خلال نوبات الغيبوبة هذه أنطقه الله بالقرآن الكريم الذى هو الإعجاز بعينه ، والذى لو حاول الإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بمثله لعجزوا وارتدوا خاسرين . والذى يقرأ القرآن يدرك دون إجهاد ذهن أنه فوق طاقة البشر ، وأنه لا يمكن إلا أن يكون تنزيل العزيز الحكيم على لسان نبيه الكريم .

وهم يدللون على إمكان وجود الغيبوبة الوساطية بأمثلة كثيرة لا حد لها منها : أن الوسيطة الشهيرة ، مرجرى عقيلة الدكتور كلاندون أستاذ الجراحة بجامعة هارفارد ، كتبت وهى واقعة فى هذه الغيبوبة تسعة موضوعات مختلفة بتسع لغات مختلفة ، ومن بينها اللغة الصينية التى لا تعرف منها حرفا . ويذكر

الدكتور كلاندون أن زوجته ، وهى وسيطته ، تكلمت فى إحدى الجلسات بست لغات مختلفة مع أنها لا تعرف غير اللغتين الانجليزية والسويدية . وكل هذه الأمثلة تدل على استحواذ شخصيات غير منظورة على هؤلاء الوسطاء تنطقهم بما لا يعلمون فى حياتهم الجسدية وهم يعتقدون أن النوم طرح للروح وأن الأحلام سياحات بالروح . فالروح تغادر الجسد خلال النوم وتمضى فى سياحتها فتجوب فى عالم المادة وعالم الروح وينعدم لديها الزمان والمكان بالمعنى المفهوم لدينا ، وتبقى متصلة بالجسد خلال ساعات النوم مما يهىء لها الحصول على تقوية وتغذية روحيتين خلال استيطانها المؤقت فى عالم الروح . والغريب أن هذا ينطبق مع قوله تعالى فى كتابه العزيز (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) أى أن النوم طرح روحى مؤقت والموت طرح روحى مستديم ، كما يقول أصدقاؤنا الروحيون . والغريب أنهم يدللون على صحة هذا بصور فوتوغرافية مأخوذه بالأشعة تحت الحمراء تبين بجلاء ووضوح إنسلاخ الروح من الجسد فى حالات الغيبوبة .

وهناك أشخاص عندهم ميزة الجلاء البصرى ـ أى رؤية ما وراء الحجب ـ تمكنهم من رؤية أرواح الموتى وأرواح أرواح الأحياء المطروحة .

والطرح الروحى فى عرفهم نوعان : إجبارى ، وهذا يمارسه الناس كلهم عند النوم ، واختيارى وهذا لا يقوم به إلا الموهوبون . ويقال أن هذه الموهبة تولد مع الشخص ولا توجد إلا فى أشخاص معينين قد يعثر عليهم بطريق المصادفة وهم لا يعلمون أن الله قد أغدق عليهم نعمة الاتصال بالعالم الآخر .

وقد تتجسد الروح بعد طرحها فتشعر أهل المسكان الذى وصلت إليه بوجودها فيرونها أحيانا ويسمعونها تتكلم . وأحيانا يحسون بها وهى تلمس

أجسامهم أو يرونها وهى تكتب أمامهم كتابة تبقى ظاهرة بعد انصرافها . أى أن هناك جسداً ثانياً مؤقتاً له نفس ميزات الجسد القديم من حيث الشكل والتكوين يمكّن الشخص العادى من رؤية الروح بعد طرحها .

وروى أن سير كارن راش رؤى فى مجلس النواب البريطانى بينهما كان طريح الفراش فى داره ، وأن سير جلبرت باركر وسير آرثر هينز قد رأياه بوجهه الشاحب وجسمه الذى أضناه المرض ثم اختفى فجأة . ويروى أيضا أن الدكتور مارك ماكدونيل قد ظهر فى المجلس بينما كان مريضاً طريح الفراش فى داره ، وقد رآه زملاؤه أعضاء المجلس فى يومين متتاليين وهو يعطى صوته .

والطريف فى هؤلاء السادة أنهم لا يعترفون بوجود كلمة مات ومشتقاتها فى قاموسهم فيقولون أن فلانا انتقل ، وإذا اضطرتهم الحاجة إلى ذكر كلمة الموت وضعوها بين قوسين وكأنها كلمة أجنبية أو عامية على معجمهم . وهم لا يحزنون لموت أحد بل يغبطونه لانتقاله إلى عالم سوف يجد فيه مجالا واسعاً لتحقيق الرسالة التى خلق من أجلها . كنت أقرأ أخيراً مجلة انجليزية وردت من الخارج ، فاسترعى نظرى عنوان ضخم عن انتقال المستر ويليام باريش الطبيب الروحى المشهور الذى يقولون أنه عالج أربعمائة ألف حالة مستعصية دون سلاح أو دواء وذكر كاتب المقال أن وسيطتين معروفتين وهما استل روبرتس وكاثلين باركل — بما حباهما الله من قدرة الجلاء البصرى — شاهدتا روحه أثناء صلاة الجنازة التى كان يقوم بها موريس باربانيل . وكانت الروح جالسة على كرسى بالقرب من النعش المغطى بالأزهار . وكان (الميت) — ولنضع الكلمة بين قوسين حتى لا يحتج علينا إخواننا الروحيين — يبدو سعيداً مرحاً ينظر إلى جثته من آن لآخر حتى إذا ماحان ميعاد حرقها وذر

رمادها فى حديقة داره حسب وصيته ، انسحب وهو يبتسم ولوح بيديه مودعاً جسده المادى . وكان مظهر زوجته أثناء الجنازة وحرق الجثة داعياً إلى الدهشة والإعجاب . فلم تكن هناك دموع أو ملابس سوداء أو حزن أو شجن ، بل ابتسام ومرح وملابس زاهية ازدهرت بأحلى ورود الربيع . وكانت تبتسم فى وجه كل من يحدثها وكأنها فى حفلة عرس . وكتبت على البطاقة الملصقة بباقة الزهور التى وضعتها على نعشه (عيد ميلاد سعيد فى بيتك الجديد . أزهار على طول الطريق) وطلبت من عازف الأرغن أن يعزف القطع التى يحبها زوجها . وعند ما عادت إلى المنزل مع أصدقائها مدت لهم موائد الشاى كالعادة ، وصبت الشاى فى فناجينهم ، وأخذت فى تسلية ضابط لم يتمكن من ضبط عواطفه فانهارت الدموع من عينيه ، فربتت على كتفه مشجعة طالبة منه أن يكون مرحاً كباقى المدعوين ، لأن ما حدث أثناء النهار مدعاة للفرح والإنشراح لا للحزن والإنقباض .

والله أن هذا لهو الإيمان بعينه مهما كان الدافع إليه . ألسنا فى طريق الفناء سائرين مهما طال بنا المقام فى هذا العالم ؟ وما الذى يدفعنا إلى الغرور والاعتقاد أن عالمنا هو الأول والأخير ؟ قد تكون هناك كواكب أخرى يتضاءل بجانبها شأن عالمنا الذى قد لا يزيد عن كونه حقل تجارب يهىء لمرحلة أخرى أكثر جمالا وكمالا فى عالم يسع آلاف الملايين من الأرواح التى صعدت إليه منذ بدء الخليقة حتى يومنا هذا وحتى يوم تبعثون . ألم يأتك نبأ الأسطورة الخرافية التى لا تخلو من طرافة وعظة ؟ قيل أن روحا نزلت إلى الأرض لترى ماحل بأهلها منذ أن تركتهم ، فوجدت مالا يسرها ، فصعدت ثانية تشكو إلى شخصية اسمتها الأسطورة (حكمدار العالم) فلما رأى الروح سألها عما تريد فقالت : — إنى نزلت إلى الأرض حيث كان موطنى قبل

انتقالى وأريد أن أبث لك شكواى مما رأيت فهل أنت مستمع إلىّ ؟ . .
فتأمل فيها مليا وقال بعد تفكير طويل : تتحدثين عن شىء اسمه الأرض ؟
دعينى أتذكر . . . . . الأرض ؟ اسمحى لى بمهلة أرجع فيها إلى خرائطى
لأتحسس موقع هذا الكوكب الذى غاب عنى موقعه . . . ثم غاب عنها
مدة ساعتين ورجع بعدها يقول : أف لك ! لماذا لم تقولى أنك تقصدين
تلك الرقعة المظلمة التى تتطفل على الشمس لتضيئها فى النهار ، وعلى القمر
ليهتدى به أهلوها أثناء الليل ، وعلى السحب تروى أرضها لتخرج منها
أرزاقهم . إذهبى عن وجهى وأحمدى ربك أنك انتقلت من هذه الرقعة الدنسة
المظلمة المجهولة إلى عالم النور والفضيلة الذى تنعمين فيه الآن ، تنتقلين من
كوكب لآخر وأنت آمنة مطمئنة ، والويل لك إذا أزعجتنى مرة أخرى
بترهات عالمك الأرضى . . .

بعد هذه المقدمة المرحة الطريفة دعنى أنتقل بك إلى كتاب هانن سوافر
الذى افتتحت كلامى لأحدثك عما أعجبنى فيه وأطربنى .

* * *

يحدثنا المستر سوافر فى أحد فصول كتابه الأولى عن الوساطة الروحية
وكيف توهب . فيقول أن هؤلاء الوسطاء الروحيين ينبتون فى كل الطبقات
والألوان والأجناس كالزهرة النادرة فى الصحراء القاحلة . وقد يكون اكتشافهم
مجرد مصادفة أو يكون مفاجأة للشخص نفسه الذى وهبه الله مقدرة الوساطة
وهو لا يدرى . وضرب لذلك أمثلة عدة لعل أمتعها ما حدث لمسز ليليان
بيلى ، وقد دعيت لحضور جلسة روحية فى منزل وليم هوب المصور الروحى
المعروف — عند هؤلاء القوم على الأقل — فلاحظ الموجودون أنها راحت
فى غيبوبة بعد بدء الجلسة بقليل ، ورأت فى غيبوبتها ضابطاً شاباً تمكن المستر

هوب من أخذ صورة فوتوغرافية له (وقد فصلنا من قبل كيف أصبح تصوير الأرواح ممكنا بالأشعة تحت الحمراء) ولم تلبث أن تناست ما حدث ، لأنها خشيت أن يؤدى بها التمادى فى هذا الطريق إلى الجنون ، ولـكن قدماها قادتاها إلى جلسة روحية عند الوسيطة المشهورة هيلين دنـكان ، وهناك تجسدت روح نفس الضابط . وكأنه يتعقبها — ورأته بوضوح وجلاء وهو يقول لها : (أريد أن أجعل منك وسيطتى ، فأنت موهوبة وأنا فى أشد الحاجة إليك لتأدية رسالة هامة ، ولن أتمـكن من إتمامها إلا بمعاونتك) ولما وعدته بذلك أخبرها أن إسمه الـكابتن وليم ورتن ، وقد قتل فى الحرب العالمية الأولى ، وأن والدته لا زالت على قيد الحياة ، وأعطاها عنوانها فى أمريكا . وذهبت مسز بيلى فى اليوم التالى وراجعت السجلات فى وزارة الدفاع وتيقنت من صحة الإسم ، ثم كتبت إلى والدته على عنوانها بأمريكا فوصلها رد جاف قالت الأم فيه أنها تفضل لو ترك ولدها دون إزعاج بعد أن استشهد فى سبيل الوطن ، وهذا يدل على الأقل أن العنوان الذى أعطته الزوج كان صحيحاً . ومنذ ذلك الحين أصبحت مسز بيلى من خيرة الوسطاء الذين عرفهم المؤلف . ويقول أنها كانت ذات يوم تنتظر القطار المسافر إلى بلدة كرو حيث تقطن ، فرأت رجلا رث الثياب مبللها جالساً على مقعد ، وبينما هو يحاول أن يفسح لها مكاناً بجانبه تجلت مواهبها الروحية فجأة ، فرأت روح سيدة تحاول إحاطة الرجل بذراعيها معزية مواسية ، ونظرت إليها الروح وقالت (قولى لهذا الرجل أننى چين) فحارت مسز بيلى كيف تخاطب شخصاً غريباً لا تعرفه ، وأخيراً تشجعت وقصت عليه ما رأت ، فعجب الرجل وقال ولـكن هذا إسم زوجتى ، ولقد ماتت منذ حين . ثم طلبت الروح منها أن تقول له ألا يقلق على إبنته لأنها سوف تسير فى طريق الشفاء رغم شـــدة

حالتها . فهز الرجل رأسه غير مصدق ، وأخبرها أنه مسافر إلى حيث توجد إبنته التى أجمع الأطباء على اليأس من حالتها لأنهـا مصابة بالتدرن الرئوى والدفتريا معاً والأمل ضئيل فى إنقاذها فأكدت له ما رأت وما سمعت ، وطلبت منه أن يتصل بها بعد عدة أيام ليخبرها بما وجد ، وما كان أشـــد دهشتها عندما جاء لزيارتها بعد بضعة أيام وأخبرها أنه قيل له أن حالة الفتاة تحولت إلى الأحسن فى نفس الساعة التى ظهرت فيها روح زوجته فى المحطة تواسيه وتطمئنه ومنذ ذلك الحين سارت الفتاة فى طريق الشفاء بخطوات سريعة .

من هذا المثل ندرك أن الوسيط شخص موهوب يتمتع بجلاء بصرى وجلاء سمعى يجعلانه يرى ويسمع مالا يمـكن للشخص العادى رؤيته أو سماعه ، وأن هذه الموهبة قد تـكشف عن طريق المصادفة وأنه لابد لـكل وسيط من روح مرشدة يقع اختيارها عليه لتؤدى رسالتها ، وهى وصل العالم الفانى بالعالم الثانى عن طريقه .

ويقول المؤلف أن روحاً أخبرتهم فى إحدى الجلسات أن هناك آلاف من الأرواح تتحرق شوقاً للإتصال بالأهل والأحباب فى عالمنا ، ولا يمنعها من هذا سوى قلة الموهوبين من الوسطاء فعلى كل روح أن تنتظر دورها أو الفرصة المناسبة ، وضرب لذلك مثلا بالطيارين الشبان الذين لقوا حتفهم فى معركة بريطانيا الجوية الـكبرى وهى المعركة التى أنقذت الإمبراطورية والتى كانت نقطة تحول فى الحرب العالمية الأخيرة .

فقد عقدت جلسة كبيرة حضرها اللورد ردنج الذى قاد بريطانيا وكانت الوسيطة إستل روبرتس وكانت تتـكلم بلسان أربعة شبان قدموا أنفسهم الواحد بعد الآخر ووجه أحدهم الخطاب إلى والديه وكانا ضمن الحاضرين

فعرفا صوته ، ولماسئل عن الاسم الذى كان يدلل به وهو حى ذكره دون تردد مما أزال كل الشك فى شخصيته ، وتقدمت بعده روح أخرى وذكرت إسم صاحبها وهو دافيد هوايت الذى حيي والدته — وكانت ضمن الحاضرين — وسألها عن أقاربه الذين سماهم واحداً بعد الآخر ، وأخبرها أنه يتمتع الآن برفقة والده الذى يرسل إليها أطيب تحياته وتمنياته . وهكذا تتابعت الحوادث المثيرة فى تلك الجلسة لدرجة أقنعت اللورد ردنج وهو العسكرى الذى يتأثر إلا بالوقائع الثابتة ، فكتب بتوقيعه فى بعض كبريات الصحف عن إقتناعه التام بما رأى وسمع ولعل ما تأثر به هو ذلك الحديث الذى دار بين روح طيار والده إذ قالت الروح : — لا تتعبوا أنفسكم فى البحث عن حقيقة مصيرى فقد انتقلت إلى هنا بعد أن تحطمت طائرتى ، وأنا أعرف أنهم عثروا على بضع قطع من لباس الطيران الذى كنت ألبسه فى رحلتى الأخيرة . فقال الوالد : نعم يا والدى وأنا أحتفظ بقطعة منه فى المنزل فضحك الشاب وهو يقول : أعرف ذلك يا والدى وهذه القطعة من ذيل السترة أليس كذلك : فقال الوالد : نعم يا ولدى وسأحتفظ بها ما حييت . ثم ختم الشاب رسالته بقوله : حاول يا والدى أن تقنع والدتى بأننى لم أمت وأن أشد ما يؤلمنى وينغص حياتى وسعادتى فى العالم الذى أنا فيه هو رؤيتكم على هذا الحال من الحزن والشجن . إننى لست الوحيد هنا بل معى الملايين الذين يتلهفون للإتصال بأحبائهم فى عالمكم لو سنحت الفرصة . حاول يا والدى أن تحضر والدتى معك فى المرة القادمة . وكانت دهشة اللورد ردنج كبيرة عندما تكلمت روح طيار آخر إسمه ستيفنز كان اللورد يعرفه جيداً وكانت زوج هذا الطيار جالسة بجانب اللورد أثناء الجلسة ، فوجه كلامه

أولا إلى اللورد قائلا : هل تذكرنى ؟ أرى زوجتى وهى جالسة بجانبك فقال اللورد : — أننى أذكرك تماماً . وأذكر جرأتك وشجاعتك . ثم وجه الشاب الكلام إلى زوجته ذاكراً تفصيلات كثيرة ليثبت لها شخصيته .

وكان مما قاله : — هل لا يزال ولدنا مولعاً بالكتابة على الحائط بقلمه الرصاص ؟ وكان هذا فعلا من عادات ولدهما السيئة التى كثيراً ما عاقباه بسببها .

واستمر المستر سوافر فى سرد الأمثلة الممتعة التى تحدثت فيها أرواح ضحايا الحرب الأخيرة وكلها مجمعة على أن الموت ليس النهاية بل البداية لرحلة أكثر روعة ونقاء من الحياة المادية التى نغبط أنفسنا عليها . . وكانت تجاوبه فى هذا الميدان مما أدخل العزاء على قلوب الملايين من الأرامل والثاكلات ، فشكراً له على أى حال .

* * *

ويظهر أن رابطة صداقة متينة كانت تربط المستر سوافر باللورد نور ثكليف ملك الصحافة فى بريطانيا الذى مات فى عام ١٩٢٢ فقد بدأ المؤلف أبحاثه الروحية بعد وفاة نور ثكليف مباشرة وأراد أن يثبت للعالم أن هذه الجذوة المتقده لا يمكن أن تموت إلى الأبد ، وأنها لابد واجدة أفقاً بل آفاقا واسعة تستأنف فيها نشاطها ، ويقول : أنه بدأ يؤمن بوجود الروح عند ما اتصل بنور ثكليف فى جلسات روحية متعددة . فهو على علم تام بآرائه وطرق تعبيره الفكاهية اللاذعة أثناء المناقشات الحادة ، ولا يمكن أن تخفى عليه نبرات صوته الساخرة التى لن تخطئها أذناه أبداً ، وهو يقول أيضاً أن صديقه بدأ إتصالاته بالعالم فى نفس الليلة التى مات فيها ليثبت أنه لم يختف ، إلى الأبد .

وكان ذلك فى جلسة روحية كانت منعقدة بمنزل قسيس فى (سوث نوروود)

فلم يشعر الحاضرون إلا وهو يقدم نفسه ويعد بزيارتهم من آن لآخر . وفعلا أعاد الكرة بعد أسبوعين وانتقد مقالا كتبته مجلة روحية ، وأشار إلى موطن الضعف فى مقال مكتوب فى العمود الثالث من الصفحة الثانية ولاحظ الموجودون أن شخصيته كانت تتطور مع مرور الأيام حتى أنه بعد عامين من موته قال أنه قد تجرد من شخصيته القديمة ، ويعتقد أنه ولد من جديد رغم ما مر به من تجارب هائلة إبان حياته الدنيوية ، وكان حضوره مقصوراً فى مبدأ الأمر على حلقة نوروود هذه ثم أخـذ بعد ذلك يتردد على كل حلقة روحية يحضرها المستر سوافر فيشبعه من نكاته اللاذعة وتعليقاته التى كان يتميز بها حديثه الدنيوى ، وقد قال له مرة أنه يشرف بروحه على اجتماعات مجلس إدارة جريدة (الديلى هرالد) وصاح مرة بأعلى صوته عند ما سمع كلاما لم يعجبه : أنتم مخطئون أنتم مخطئون ! ولكن أحداً لم يسمع صوته رغم إنه كان يراهم ويسمعهم يتكلمون فاضطر فى آخر الأمر إلى الانسحاب فى يأس وقنوط .

وكان من أصدقاء المؤلف أيضاً السير هنرى سيجريف بطل سباق الزوارق البخارية العالمى الذى كان معبود الأمة الانجليزية جمعاء ، حتى قضى نحبه فى محاولته الأخيرة لتعدى الرقم القياسى .

وكان هذا البطل صديقاً حميما للمؤلف ، وكثيراً ما زاره فى منزله ليأتنس به وليحدثه فى فلسفة الروحيات .

ويقص المؤلف فى خطاب أرسله إلى الليدى سيجريف بعد وفاة زوجها بأيام تفاصيل محاولة السير هنرى الاتصال به ، فيكتب إليها قائلا :

لقد عدت أنا وزوجتى إلى شقتنا فى المساء بعد أن شاهدنا على ستار (سينما البلازا) عرضاً سينمائياً مروعا لسباق زوجك الأخير وكان الخدم قد

انصرفوا ولم يكن بالشقة أحد غيرنا ، وكانت الأبواب والنوافذ محكمة الأغلاق وفكرنا أن نتناول عشاءنا فى المطبخ مادمنا وحيدين ، وقبل ذهابنا إليه تركنا جريدة (السنداى إكسبريس) فى غرفة الجلوس وكان بها آخر مقال كتبه السير هنرى قبل إنتقاله . وكان نور الغرفة مضاء ، وهذا ما أجزم به دون شك ، وبعد أن تناولنا العشاء كانت دهشتنا عظيمة إذ وجدنا غرفة النوم مظلمة ، فحاولنا إضائتها بادارة الزر الكهربائى فلم نفلح : فضغطت زوجتى على زر آخر يضىء مصباحا فى آخر الغرفة ، أمكننا على ضوئه أن نرى أن لمبة المصباح الأول قد أزيلت من مكانها ووضعت فى الموقد ولو كانت اللمبة قد سقطت من نفسها لوقعت على الأرض بعيداً جداً عن الموقد ، ولتكسرت إلى ألف قطعة أما نقلها من مكانها فى المصباح إلى الموقد فلا يمكن أن يتم إلا بوساطة أيد بشريه . ولشد مادهشنا عند ما وجدنا الجريدة التى تركناها فى غرفة الجلوس ملقاة على السرير ، فأخذناها إلى مكانها الأول ، وغفلنا عنها لحظة تناقشنا خلالها فى هذه الظاهرة العجيبة . وحال رجوعنا إلى غرفة النوم وجدنا الجريدة على الفراش للمرة الثانية .

إننى لا يمكننى أن أتسرع فى الحكم على ماشاهدته وزوجتى فى تلك الليلة وقد كنت على يقين من عدم وجود شخص خلافنا بالمنزل ، ومن أن أبواب الشقة ونوافذها كانت مغلقة ولكن هناك إحساساً داخلياً جعلنى أشعر بأن كل ما شاهدناه كان مجرد محاولة من زوجك العزيز ليشعرنا بوجوده بجانبنا ، وإن افتقادنا إياه لا يعدو فراق الجسد .

وبعد ثمانية أشهر بدأ سيجريف يزور دائرتنا الروحية وكانت أول مقابلة بينه وبين زوجته مشوشة لأن العاطفة غلبت عليهما ، فلم يكن النجاح كاملا ، فأخذها موريس باربانيل إلى حلقة (رد كلاود) الروحية ذات الصوت المباشر

وهناك تحدثت إلى زوجها فى وضوح تام ، وصار سيجريف يتردد كل أسبوعين على نفس الحلقات ليتحدث إلى زوجته ! وحضر إحدى الجلسات اللورد كوتنهام صديق سيجريف الحميم فأكد أن الصوت صوته ، والكلام كلامه . وكان السير هنرى يحضر أحياناً إلى حلقتنا الروحية ويتحدث إلينا ، وفى إحدى الجلسات سمح لنا بأخذ صورة له وفى جلسة أخرى وضع فى أصبع زوجته خاتماً صنعت حجارته فى العالم الآخر .

وفى جلسة ثالثة وضع على حجر زوجته وردة حمراء عليها قطرات الندى مع أن الوقت كان صيفاً ، وكانت الغرفة بمن فيها مغلقة تماما مدة ساعتين قبلها حتى لا يسمح بدخول هواء أو إنسان . فمن أين يمكن أن تأتى هذه الوردة المبللة بندى الربيع إلا من عالم آخر غير العالم الذى يعيش فيه الموجودون فى غرفة التحضير ؟.

والله إن هذا الكلام عجيب ، ولولا ما أعرفه من صدق المستر سوافر ومسحة الجد التى يأخذ بها احداث الحياة ، ودقة المحقق التى عرفت عنه فى أبحاثه الصحفية والعلمية لقلت أنه يهرف ويهذى ولقد استنتجت مما قرأت عنه احتمال تمتعه بمقدرة وساطية أو جلاء بصرى أو سمعى يميزه عن البعض منا ، فيمكنه الاتصال بالعالم الآخر وساكنيه .

والوساطة هبة نادرة كما أسلفنا . وقد يكون صاحبنا ممن كشف عنهم الحجاب . لكم الله أيها الروحيون ، إن كلامكم لذيذ وممتع !

* * *

لك الله يامستر سوافر ، جئت بى من فضاء واسع إلى ركن يضيق بى وأضيق به ، بوصفى طبيباً لا يرى إلا الواقع ولا يشعر إلا بالمحسوس . كيف

يطاوعنى قلبى أيها الروحيون على ترجمة ماتذكرونه عن العلاج الروحى فى أمراض مستعصية عجز فيها طبنا الحديث حيث أفلحتم ؟ وكيف أصدق وأنا الطبيب الذى درس مادته حتى قاعها المظلم أن السرطان يمكن علاجه باللمس والجس والنفخ حين يعجز المبضع والراديوم والأشعة السينية . لقد كدت والله حين وصلت إلى هذا الباب بالذات أن أهمل قراءته واطرده من أمام نظرى بهزة كتف كلها استخفاف وعدم تقدير ، ولـكنى راجعت نفسى بعد أن تغلبت على روح الحياد التى صممت على التشبع بها وأنا استعرض قضية هؤلاء القوم المجتهدين الطامحين الذين يريدون إقناع العالم بأسره برسالتهم التى لا تخلو من طرافة ممتعة ، وياليتها تصدق فى يوم سعيد مقبل أشرقت شمسه وازدهرت .

يتحدث مستر سوافر عن صديقه وليم باريش فيقول عنه أنه أكبر معالج روحى ظهر على وجه الأرض ، وقد تعرف إليه منذ اثنى عشر سنة عالج خلالها مالا يقل عن اربعمائة ألف حالة مستعصية بعضها فى جهات نائية كالصين واليابان وسيام والألاسكا وفنزويلا .

ولقد كان باريش قبل اكتشاف موهبته الروحية موظفاً بالسكة الحديد بانجلترا ، وكان لا يعتقد فى الروحيات ، بل كان من أكبر المشككين فى صحة ما يروى عن عجائبها ومعجزاتها .

وقد نـكب فى زوجته الأولى التى ماتت بالسرطان ، ثم أصيبت زوجته الثانية بنفس المرض ، وقرر الأطباء أن وفاتها مرتقبة خلال ستة أشهر .

وفى ذات مساء ألحت عليه زوجته فى أمل اليأس أن يصحبها إلى اجتماع روحى دعيت اليه عسى أن يظهر بصيص من النور فى اللحظة الأخـيرة . فنزل على إرادتها إرضاء لخاطرها ، فلما أطفئت الأنوار وراح الوسيط فى

غيبوبته ، وتقمصته الروح المهيمنة على الحلقة لم يشعر باريش إلا والروح تناديه وتقول له : ـ (انك وجدت فى هذا العالم لتكون معالجاً روحياً ، وستعالج زوجتك حسب الإرشادات التى نمليها عليك) وكانت الروح لطبيب مات منذ عهد بعيد ، فاعطت باريش التعليمات بدقة ، فنفذها هو الآخر كما أوحيت إليه من صلوات معينة ، ولمس باليدين بطريقة خاصة . وبعد تسعة شهور حدثت المعجزة ! لقد شفيت زوجته من السرطان ، وهى الأن مساعدته الأولى فى رسالته الجليلة . وكان قد عاهد نفسه ـ إذا شفيت زوجته ـ على تكريس بقية حياته للعلاج الروحى ، فلما تحقق الأمل أوفى بالنذر ، فكان يعالج المرضى فى بيته أو يذهب إليهم فى المستشفيات وفى منازلهم دون أن يتقاضى على كل هذا مليما واحداً .

ولما ضاق به المنزل ، أُوحى إليه أن ينتقل إلى بقعة معينة حددتها له الروح المسيطرة عليه ، فلما ذهب لمعاينتها وجد أنها من أملاك المستر هور بليشا وزير الحربية البريطانى الأسبق ، ولم تكن معروضة للبيع ، ولكن المستر سوافر توسط له عند الوزير الذى تنازل له عن قطعة الأرض عن طيب خاطر لما علم بالغرض الذى من أجله ستشيد المصحة . وكان يتردد عليه مرضى من جميع بقاع الأرض . ويؤكد المستر سوافر أن المعجزات كانت تتوالى فى سرعة عجيبة ، وشفى على يديه كثير من الأشقياء التعساء ، فالعجزة تركوا وراءهم عكاكيزهم ، والعمى أبصروا ، والسرطان قهر فى حالات كثيرة ، وكثيراً ما أحال عليه الأطباء حالاتهم المستعصية التى فشل فيها طبهم ، وكان كل ما يفعله هذا الرجل هو أن يصلى صلاة خاصة ثم يهب نفسه للروح العليا ويروح فى غيبوبة ، ثم يضع يده على المرضى واحداً بعد الآخر . ويقول المستر

سوافر أن معجزات يسوع عليه السلام كانت تتكرر يومياً فى المصحة ، بل لقد فاق باريش كثيراً من الأنبياء بمقدرته على علاج مريض فى مكان يبعد عنه مئات الأميال أو آلافها . فقد وهب المقدرة على طرح روحه ، فيصل جسده الأثيرى إلى أى بقعة على سطح الأرض ، وبعد أن يقوم بواجبه يعود إلى حيث كان ، ويعطيك وصفاً دقيقاً لغرفة المريض والبيئة التى يعيش فيها بتفصيل لا يدع مجالاً للشك فى أنه عاش فيها برهة من الزمن . وكان لبعض المرضى البعيدين هبة الجلاء البصرى فشاهدوا جسمه الأثيرى وهو يقوم بعلاجهم ووصفوه وصفاً دقيقاً . وقد قال سيلفر بيرش ، وهو صاحب أكبر روح مرشدة فى عالم الروحيات ويهيمن على كثير من الجلسات : إن باريش أعظم معالج روحى وجد منذ بدء الخليقة . فسأله كاهن صديق كان حاضراً الجلسة :(وأكبر من يسوع أيضاً ؟) فقالت الروح : هل تظن يا ولدى أن العالم لم يتقدم منذ تلك الأيام الغابرة ؟ . إن الإشعاعات الروحية التى نرسلها خلال جسمه تكفى لقتل أى شخص آخر ، وعلى هذه القوة الخارقة تتوقف نتائجه العظيمة . . . .

ولقد توفى هذا الطبيب الروحى أخيراً ، ويذكر القارىء التفاصيل التى سردتها فى بداية الحديث عن حفل جنازته ، وكيف أن وسيطتين معروفتين شاهدتا روحه أثناء الصلاة جالسة على كرسى بالقرب من النعش تنظر إليه من حين لآخر حتى إذا جاء ميعاد حرقها وذر رمادها فى حديقة المصحة حسب وصيته ، انسحبت الروح وهى تبتسم وتلوح بيدها مودعة الجسد المادى . ووصفنا ملك زوجته المرح أثناء الحفلة وبعدها وكيف استبدلت بالسواد ملابس زاهية مزدهرة بأحلى ورود الربيع . ولقد عادت روحه أخيراً فى جلسات

روحية عديدة واعدة بإتمام الرسالة التى بدأتها أثناء الحياة المادية ، وهى تخفيف آلام المرضى التعساء .

وليس لى وأنا الطبيب الواقعى أن أجزم بصحة ما ذكر إلا بعد أن أراه رأى العين . ولست إلا ناقلاً أميناً لما يقال عن حدوثه فى بلاد تبعد عنى آلاف الأميال ، ولولا احترامى لراويها لما عنيت بترجمتها . ولقد سمعت كثيراً عن مصرى وهب وقته وحياته لخدمة الرسالة الروحية ، وهو المرحوم الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير ، فذهبت إليه ذات مساء فى سبيل محاولة تطبيق ما قرأت على ما قد أراه فى حلقته الروحية ، واصطحبت معى زميلا طبيباً كان يشكو من حالة مرضية فى ساقه تعتريه من آن لآخر ، شخصها كبار الأطباء على أنها حالة حمرة متكررة لأن التهاب الساق واحمرارها كانت تصحبه حرارة مرتفعة قد تصل إلى الأربعين درجة أو أكثر . ورحب بنا صاحب المنزل ، وأعجبنى فى شخصيته مرح رزين وثقة لا حد لها فيما يبشر لأجله ، وبعد عن الادعاء والمبالغة ، فلم يقل وصلنا إلى الكمال بل اعترف بأن حلقته الروحية لا زالت فى طريقها إلى النضج الذى لا يأتى إلا بمرور الوقت وطول المران .

والغرفة التى تعقد فيها الجلسات صغيرة أنيقة ، صفت فيها الكراسى ووضع فى ركن منها حاكى (جراموفون) جلس بجانبه مضيفنا . وعلى أحد جدران الغرفة صورة سيلفر بيرش وهو صاحب الروح المهيمنة على الجلسة الروحية التى تعقد فى هذه البقعة من عالمنا الفسيح . وتغلق الأبواب جيداً ، وتطفأ الأنوار إلا من نور أحمر خفيف . وتبدأ الجلسة بقطعة موسيقية على الحاكى تكرر المرة بعد الأخرى حتى يروح الوسيط فى غيبوبته ، فتطلب الروح المهيمنة عليه إيقاف الموسيقى وتبدأ الجلسة العلاجية التى تتكرر كل أسبوع وقبل انتهائها توجه إلى الوسيط بضعة أسئلة ليجيب عليها إذا أمكن فخطر لى فى تلك الساعة أن أهمس فى أذن الأستاذ أبو الخير أن أسأله عن الحالة الغامضة

التى تنتاب صديقى فى ساقه من حين إلى حين . ولم أزد على هذا حرفاً واحداً .
فوجه الأستاذ إلى الوسيط الكلمات الآتية : ما رأيك يا سيد ايجل فى ساق صديقنا الطبيب الموجود معنا فى الغرفة ؟ ولم يزد على هذا حرفاً واحداً . وكان الظلام لا يزال سائداً . فتريث الوسيط قليلا وقال بعد دقيقة أو دقيقتين : — (قل لصديقك أنها ليست حمرة ؟) وقد سبق أن قلت أن هذا هو المرض الذى شك فى وجوده كبار الأطباء ولم يكن معروفاً لأحد من الحاضرين ، ولم يكن يعرف بمرضه وطبيعته غيرى ، فلا بد أن هناك روحاً رأت ما وراء الحجب وكشفت ماجال فى السرائر فى قوة أعلى من البشر بكثير ، وكانت هذه تجربتى الأولى فى هذا الميدان .

* * *

ويمضى مؤلف الكتاب فى سرد النادرة تلو النادرة ، والقصة تلو القصة ، مدللا بالبراهين الدامغة أن ما يقوله هو الحق والقضية التى لا شك فى نهايتها السعيدة ، يوم تعلو كلمة الروحية وتصبح واقعة يأتى ذكرها على الألسنة فى نفس البساطة التى تتداول بها عجائب الزمن الأخير كالراديو واللاسلكى والطاقة الذرية وخلافها .

واسترعت انتباهى قصة شارلس بنيت الكاتب المسرحى المعروف . يقول المؤلف أن خطاباً وصله من الكاتب عقب انتحار شقيقه فى ظروف غامضة ، وقد جاء فى خطابه ما يلى (أنت تعلم أننى فى حالة نفسية مروعة . لقد شنق أخى نفسه ليلة أمس ، وكأنى بعد الحادث المروع ، أشعر أن العالم قد انتهى بالنسبة لى ؛ قد أصمد للصدمة لأننى رجل ، ولكن كان الله فى عون والدتى . إنها تكاد تجن وأريد منك أن تعمل شيئاً فى تهدئة روعها . أنا أعلم أنك مغرم بالدراسات الروحية عليم بخفاياها ، فهلا فعلت شيئاً بعين والدتى فى محنتها القاتلة ؟ سأتصل بك تليفونياً فى الساعة الخامسة مساء لأحدد معك ميعاد لمقابلتك) .

وعندما تقابلا قص على المؤلف تفاصيل الحادث الذى يتلخص فى أن الأخ المنتحر دخل الحمام ليغتسل وكان على أحسن حال من المرح والصحة ، ولكنه شنق نفسه بعد قليل دون سبب أو دافع . واستمع المستر سوافر إلى القصة ثم قال : (سيكون عندنا جلسة روحية بعد قليل ويمكنك الإنتظار لحضورها إذا أردت) وبعد ساعة كان الوسيط نويل جاكوين قد مضى فى غيبوبته وأدار دفة الحلقة بإرشاد روح ناظر مدرسة اسكتلندى إسمه ماكدونالد ثم ما لبث أن تحدث بلهجة اسكتلندية على لسان الوسيط قائلا : — أشعر بوجود شخص قلق حزين بينكم يا سادة . ثم وجه كلامه إلى بنيت منبئاً إياه أنه يدرك مقدار حزنه هو ووالدته بسبب فقد أخيه ، وطلب منه أن يؤكد لوالدته أن إبنها ليس مسئولا عما حدث له فى تلك الليلة . ثم قص عليه قصة من أغرب ما سمعه المؤلف طوال اشتغاله بالمسائل الروحية : أنه قد ارتكبت جناية بواسطة أحد أفراد عائلة بنيت منذ أجيال عديدة ، ويمكنهم التثبت من هذا بالرجوع إلى تاريخ العائلة . ومنذ تلك اللحظة وروح القتيل تحوم حول هذه العائلة لتنتهز أول فرصة للانتقام . واستمر الوسيط فى حديثه قائلا : ولما دخل أخوك الحمام فى تلك الليلة كان الدولاب الذى فى الحمام مفتوحاً ، فلما شرع فى تعليق ملابسه فيه انتهزت الروح فرصة النور الخافت وعملت عملها فى نفسية أخيك فشنق نفسه فى نفس الدولاب دون أن يدرك أو يعى ما هو مقدم عليه . قل لوالدتك كل هذا عسى أن تبعث التفاصيل السلوى إلى قلبها . لقد تعرفنا على هذه الروح وأمسكناها ووضعناها حيث يأمن الجميع شرها ولا خوف عليكم منها بعد الآن. يبدو أنكم لا تصدقون ما أقول. هل تريدون الدليل على صحة قولى ؟ سآتى إلى منزلكم فى الساعة الثانية بعد منتصف هذه الليلة وسأدق

على الحائط مرتين هكذا (ثم دق بيده على الكرسى مرتين) ، ويقول بنيت أنه بقى مستيقظاً فى منزله حتى هذه الساعة . وقد كانت والدته معه ، وقد تعمد ألا يخبرها بما حصل فى منزلى وما قالته له الروح عن طريق الوسيط ، لأنه كان غير متيقن من صحة ما قيل له فلم يشأ أن يزعج والدته دون مسوغ . وفى تمام الساعة الثانية سمع دقا على حائط الغرفة ودهشت له والدته أيضاً وتساءلت عن سببه ، فطمأنها ولم يقص عليها حقيقة التفاصيل إلا فى اليوم التالى .

حدث هذا عام ١٩٢٨ . وفى عام ١٩٤٤ كان المؤلف سائرا فى شارع شارنج كروس بلندن ، فسمع شخصاً يناديه باسمه ، فلما التفت نحوه وجده شارلس بنيت وكان عائداً لتوه من هوليوود بعد رحلة فنية ناجحة ، وبادره بقوله : — يسرنى أن تكون أول صديق أصادفه بعد عودتى ، هل تذكر يا سوافر تلك الليلة التى قضينها فى شقتك عقب وفاة أخى : ؟ أننى أعجب أحياناً إذا كان ما رأيته وسمعته حقيقة أو حلماً . .) فأجابه سوافر : لقد كان حقيقة وقد كتبته مفصلا فى مذكراتى .

عجبى لابن آدم ينشد السلوى عند هؤلاء الروحيين وجرحه يقطر دما . فإذا بردوا من لوعته شكرهم وأشاد بهم ، وإذا ما أندمل جرحه وطعت على جوه فضيلة النسيان بدأ يسأل نفسه : هل كان ما رأيت وسمعت حقيقة أم خيالا . يا لنكران الجميل . . .

* * *

يا روح بيسىماننج ! كلما تخيلت تفاصيل محاولتك الإتصال بعالمنا اهتزت منى المشاعر واختلطت فى ذهنى ذكريات لا بد أنها كانت عزيزة على من حولك . أم تحب ، ووالد يرعى وإخوة تمرحين معهم ، ثم إذا بالذى نتصوره عدواً لدوداً ذا مخالب دونها مخالب النسر يختطفك من جو كله سعادة

ونشوة ، إلى عالم نتخيله سواداً ووحشه وسكوناً . لابد إنك كنت بنتاً حبيبه شفافة الجمال ، فتحت صدرها للعالم بما فيه من خير وشر فرحبت رئتاك بجرثومة الداء الوبيل وسمحتا لها أن تسرح وتمرح حتى امتصت آخر قطرة من دمك ، وحتى سدت منك منافس الهواء فرحت مبكياً عليك إلى العالم الذى تصفينه بلهجة تشوق السامع وتريح النفس الحائرة .

بدأت هذه القصة الرائعة فى حلقة استل روبرتس ذات الصوت المباشر ، وكانت هذه الوسيطة القديرة تتكلم بروح (ردكلاود) التى قالت : هناك فتاة طلبت منى اليوم أن أحاول مساعدتها على الاتصال بوالدتها ، وستقدم نفسها إليكم الآن . ثم سمع بعد ذلك صوت الفتاة وهى تقول : (حسناً حسناً . هانذا معك) وعقب هذا سمع صوت يشجعها على الاقتراب من الحلقة لأنها على وشك بعث رسالة فقالت : (حسناً دعونى أخبركم يا سادة أن رجلاً طيباً قادنى إلى هنا . ان اسمى بيسىماننج ، وأود أن أبعث برسالة خاصة إلى والدتى ولا بد أن أرشدكم إلى عنوانها . دعونى أفكر وأحاول . انها تسكن فى المنزل رقم ١٤ بشارع كانتربرى فى بلاكبورن . ان اسمى بيسى ماننج وقد توفيت فى عيد الفصح الماضى نتيجة إصابتى بالتدرن الرئوى . لقد اصطحبت معى إلى هنا أخى الذى مات قبلى نتيجة حادث سيارة . فقال أحد أعضاء الحلقة : (سوف نرسل فى طلب والدتك غداً) وعند ذلك أضافت بيسى : (قولوا لها أن جدائل شعرى لا زالت طويلة ، وهى مسترسلة على ظهرى كما عهدتها ابان حياتى . إننى أبلغ الآن الثانية والعشرين من عمرى ، ولى عينان زرقاوان . خبروها إننى جد مشوقة إلى التحدث إليها ، ولكن كيف تأتى إلى هنا وهى فقيرة لا تساعدها مواردها المالية على تحمل نفقات السفر ؟ فقال لها المستر سوافر : ـ (سوف نعمل كل ما فى وسعنا لاحضارها إلى هنا) فقالت الفتاة :

(جزاك الله خيراً . إنها تعسة وتتحدث دائماً عن الصدمة التى تلقتها نتيجة فقد إبنها وفقدى . أشكركم أشكركم) .

وفى اليوم التالى أرسلنا البرقية لوالدتها على العنوان الذى أعطته لنا الفتاة . وكان نص البرقية ما يلى : — (تحدثت إبنتك إلينا فى حلقة ردكلاود) . ولم نتلق رداً على البرقية فاعقبناها بأخرى وتسلمنا خطابين قالت الأم فى إحدهما : لا يمكننى أن أعبر عن سعادتى وسرورى لما قرأته برقيتكم . لقد كدت والله أقفز من شدة الفرح ، وكنت أضحك وأبكى فى آن واحد كلما استعدت كلماتها .. ان هذه الوريقة لتساوى عندى ذهب الأرض كله ولكن هل أخبرتمونى ماذا قالت إبنتى العزيزة فى تلك الجلسة ؟ .

وقالت فى خطابها الثنى : أنى آسفة لكونى كلفتكم مشقة إرسال برقية ثانية ، ولكن ضعف موازدى المالية هو الذى حدا بى أن أرد عليكم بالبريد العادى — لا يمكنكم أن تتصوزا كم أنا مدينة لكم — ان إبنتى قد ماتت فى يوم عيد الفصح الماضى وسبقها إبنى إلى نفس المصير منذ تسع سنوات نتيجة حادث سيارة . وان اتصالى بإحدهما يلهمنى العزاء الجميل فشكراً جزيلاً أيها الأصدقاء .

يتبين من هذا أن جميع المعلومات التى أدلت بها بيسى كانت صحيحة ، بما فيها ضيق ذات يد والدتها الذى حال دون الرد على المستر سوافر تلغرافيا . وقد قدرت الجماعة هذا الظرف الخاص فاحضروا الوالدة على نفقتهم إلى لندن ، ومن هناك أخذت إلى منزل الوسيطة فى تدنجتون وهناك حدث الاتصال بين الأم وابنتها . وكانت كلمات الفتاة الأولى : ان بيسى تتكلم إليك ياما . (وهكذا كانت تناديها أثناء حياتها) فأجابت الأم فى هدوء : نعم يا بيسى وأنا مصغية . ولكن الفتاة كانت فى حالة اضطرب شديد لدرجة أن سقط البوق من يدها . فشجعتها الأم قائلة : ان هذا رائع يا بيسى تشجعى ،

فأنت تعلمين كم أحبك فقالت الفتاة : نعم يا ما ، أنه رائع جداً . كيف حال والدى أن أخى تومى معى الآن ويود أن يتحدث إليك . أن هذا شىء عظيم . إننى مضطربة جداً ولا أقوى على التعبير عما يخالجنى . فشجعتها أمها قائلة : كونى رابطة الجأش يا حبيبتى . تكلمى إلى وخبرينى هل تأتين إلى منزلنا أحياناً ؟ فأجابت الفتاة : بالطبع يا أماه وأنت تعلمين هذا وتحسينه إننى أذهب إلى هناك وأحاول التحدث إليك ولكنك لا تجيبين . إنى أراك دائماً تتحدثين إلى صورتى ، وكم شاهدتك واقفة أمامها تنظرين إليها فى عبادة وولع ثم تأخذينها بين يديك وتقبلينها . ولقد كنت هناك اليوم ورأيتك تبدين ملحوظة لوالدى عن حذائه وتقولين إنه فى حاجة إلى الاصلاح ، أليس كذلك فقالت الأم : لقد حدث هذا تماماً يا عزيزتى .

وختمت الفتاة حديثها قائلة : إنى أذكر ياما كيف كانت صدمة فقد أخى شديدة عليك . انه هنا معى فلا تجزعى ولما انصرفت الفتاة قالت الروح الوسيط : لقد أحضرت أخاها معها . ان اسمه تومى كأسم أبيه . ولقد رأيته معها .

ان المستر سوافر رجل صادق ، وليس بالساذج الذى تخيل عليه العوبة أفاق ، وليس هو بالدجال الذى يحاول غش الآخرين وخداعهم . والواقع انه تخصص فى التحقيق الصحفى لكبريات الجرائم ، فكان يعهد إليه دائماً فك طلاسمها بكتابة التقريرات الوافية عنها فى كبريات الصحف الإنجليزية . فليس من المعقول أن نتهمه بتلفيق حادث بيسى ماننج هذا ، ولقد تتبعه من أوله لآخره ولو شك فى صدقه لما أورده فى كتابه ولما وصفه بقوله . أنه من أروع عجائب تحضير الأرواح ، وأنا شخصياً أنصح بتصديقه لما أعهده فيه دائماً من تحرى الصراحة والصدق فى كل ما يكتبه .

* * *

ويحدثنا المؤلف فى أحد فصول كتابه عن حديث جرى بينه وبين برنارد شو بدأه بالسؤال الآتى : هل كونت فكره صحيحة عما ينتظرك بعد الموت ؟ فأجاب شو ـ فى صراحة وبساطة : كل ما أعرفه إننى بعد الموت أذهب إلى غير رجعة . إننى لا أعتقد فى خلود الروح ، ولا أظن أن هناك عاقلا يمكنه قبول مثل هذه الفكرة أو هضم الأسس التى بنيت عليها . ان خلود شخص مثل برنارد شو يبدو مروعاً مخيفاً . وإنى أهب خمسة جنيهات لمن يطلق على رصاصة ويريحنى من نفسى ويريح العالم منى . ان جسمى الذى تراه الآن ما هو إلا خليط من أملاح الكربون والبوتاس وبعض المواد الكيماوية الأخرى تسبب بتفاعلها قوة الاندفاع التى نسميها الحياة ، وسيأتى اليوم الذى تقف فيه الآلة فجأه وينتهى كل شىء . تفنى الأشخاص والدنيا باقية . نموت نحن ويعقبنا آخرون يتولون إدارة عجلة الحياة الدائمة ويعيشون كما عشنا ثم يأتى غيرهم وهكذا . قد أسمح لك أن تعتقد أن روحاً أخرى تقمصتنى وقضت معى كل عمرى لتنتقل بعدها إلى جسم آخر ، وهكذا ، ولكن ليس معنى هذا خلود الشخص نفسه بعد الفناء . . . وليكن فى علمك إنى أتحدث فى موضوع لا أفقه فيه شيئاً .

وجرهما الحديث إلى موضوع مفارقة الروح للجسد بعد الموت ، فقال سوافر : ـ ان الروحيين يعلمون من رسالات وصلتهم من عالم الروح ان روح الإنسان لا تفارق جسده تماماً إلا بعد الموت ببضعة أيام . وهم لذلك يصممون على الا تحرق الجثة أو تدفن إلا بعد الموت بأيام) وعند ما قال سوافر : (إننى على يقين انك ستحضر بعد أسبوع من وفاتك إلى حلقتى الروحية وتقول أنا برناردشو خبر العالم إننى لم أمت) أجابه شو فى سخرية : (هل جربت خداع أحد قبل الآن ؟) فقال المؤلف (أبداً . أنت تعلم إننى صحفى

ومخبر أمين ، تعقب قضية خلود الروح ولما تيقن منها نشرها على الملا . ما رأيك فى إننى رأيت أخت زوجتى تمشى أمامى فى إحدى الجلسات الروحية بشعرها الطويل المسترسل على ظهرها ؟) وعندها قال شو : هذا لا يثبت لى أكثر من كونك رأيت أخت زوجتك لمقدرة بصرية وهبت أياها تمكنك من رؤية أرواح الموتى . ويعلق المؤلف على هذا الجواب فى سخرية لاذعة قائلاً :
– إن من الأسف أن كاتباً عظيماً مثل برنارد شو لا يعرف أن الجلاء البصرى نوع من الوساطة .

جرى هذا الحديث فى عام ١٩٢٤ ، ويقول المؤلف انه لم يحاول مناقشته ثانية فى هذا الموضوع رغم مقابلتها العديدة منذ ذلك التاريخ لأنه عنيد لا سبيل إلى اقناعه وسوف يقنعه الواقع عندما يحس بروحه تصعد من الأرض بنفس الحماسة والغيرة والنضج التى عرفت عن المستر شو .

* * *

ويمضى المؤلف فى سرد ما يمتع نفس القارىء العادى ويشبع رغبة البحث والاستقصاء فى الباحث المدقق ، ويغرى بغزو هذا الميدان الشائك الذى يضل فى أرجائه الفسيحة أمثالنا . ويا ليتنا نوالى ضغطنا عليه حتى ينجلى السر الأكبر أو نعود مدحورين مقهورين : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) صدق الله العظيم .

* * *

عودة إلى روح أخى

وزارنى طيف أخى فى المنام معاتباً ذات ليلة ، فحز هذا فى نفسى ، إذ كيف يعاتب من كان يود لو يفتديه بما ملكت يمينه ويساره . وتكررت زياراته الليلية فهتفت من قلبى قائلا :

يادنيا الأحلام ارحمينى ، وياأطياف الذكرى فكى قيدى وأطلقينى ، ويا أيتها الروح أعفى عنى وسامحينى ، ويامن رحل عنى أقسم لا الذكرى عفت ولا انساب عنى موج الحنين ، كل لحظة مرت منذ انتقالك زادتنى شوقا إلى ما كنت أصطفيه وكان يصطفينى ، ولولا رجولة فرضت لما بخلت عليك بدمعى وأنينى ، رب مقلة جافة أهطل من دمع هتون ، وشعور مكبوت أشد فيضاً من سيول الحزين ، ياروح أخى هل سمعت نجواى أم لم تسمعينى ؟

زرتنى فى منامى بالأمس معاتباً لا أدرى لماذا ؟ والحقيقة أنك لم تنبس ببنت شفة ، ولكنك وقفت تنظر إلى النائم فى فراشه دون أن تتكلم ، وكنت مجسما فى زيك الأنيق ، وكانت تتجلى فى عينيك مظاهر عتاب هادىء لم أدرك بعد الدافع إليه ، والغريب أن زياراتك الليلية هذه وافقت وفاة جارتى المسكينة فى الشقة الملاصقة ، والظاهر أن روحها قبضت فى نفس اللحظة التى هلت على فيها طلعتك . لأنى حال استيقاظى بعد الرؤيا مباشرة سمعت بكاء خافتاً ينبعث من شقتها وعجبت لحدوثه ، ثم استغرقت فى النوم ثانية حتى استيقظت فى الصباح حين علا الصياح وبدأت الاستعدادات لما يجرى فى مثل هذه المناسبة . إنى أحاول أن أفسر توافق زيارة ملاك الموت للشقة المجاورة وزيارتك لى فى منزلى فى نفس اللحظة والدقيقة . لعلكم فى عالم الأرواح تعلمون أولا فأولا عن السعداء الذين سوف يحظون بقربكم . فلما علمت أن الملاك

أو أحد أعوانه سيزوو عمارة معينة فى الشارع الذى أقطن به وجف منك القلب فاستفسرت وألحفت ، فلما علمت أن الدور على غيرى تنفست الصعداء ، ثم طلبت أن يكون لك حظ المرافقة لتلتقى روحك الهائمة بروح أخيك المطروحة أثناء نومه . ويظهر أنك أتيت للرؤية فقط لأنك نظرت إلى ولم تتكلم . فما الذى يؤلمك منى ياترى ؟ .

أنت تعلم أننى أفرطت فى الشجن بعد انتقالك ، وهانت فى ناظرى كل مصائب الدنيا . ولقد صقلنى فقدك ، وياله من ثمن غالٍ دفعته لأصبح الشخص الذى أنا عليه الآن .

كنت أظن أن الابتسامة لن تعرف تقاسيم وجهى بعد هذه الصدمة ، فإذا بفضيلة النسيان تطغى تدريجياً كعادتها ، فسرعان ما تربعت البسمة الحائرة على عرش الغضون والتجاعيد ، ثم تبادر الأصدقاء من حولى ليسروا عنى فضحكت وبالغوا فى التنادر والقهقهة فقهقهت ، وأقسم أنها قهقهة من طرف اللسان وثنايا الحنجرة .

أما القلب فقد جفت موارده وشحت مباهجه وأصبح آلة تدق لتغدق على الجسم الدفء والحياة . والواقع أن النسيان هو المصير المحتوم لعزيز الصدمات ، ولكن هناك شخص ينسى فى يوم ، وآخر ينسى بعد شهور أو سنوات والنتيجة واحدة اذا استعرضنا سجل الحوادث بعد مضى الوقت الطويل . أم ترى ياأخى قد ساءك منى تصرفى عند ما ذهبنا إلى المقابر فى الأسبوع الماضى لنستودعها ابنة عمك التى قضت فى ذلك اليوم ؟ ولا بد أنك علمت أنها توفيت فى الاسكندرية وكان علينا أن ننتظر وصول جثمانها بجوار مقبرة فغرت فاها لتستقبل الضيف الجديد . وطال انتظارنا لعطل أصاب السيارة التى نقلتها من الاسكندرية عن طريق الصحراء ، ذلك الطريق الذى طالما خطرت فيه بسيارتك

الأنيقة . وأراد حفاو القبور أن يرفه عن أخى الأصغر وصديق له ، فسار بهما إلى جوار القبر المفتوح وأخذ يشير بأصبع جامدة محايدة إلى الأبرار الذين سبقونا وسبقوك ، وأخذ يسميهم واحداً فواحداً ، وعد منهم ثمانية عرفتهم جميعاً أثناء حياتهم ممتلئين صحة وقوة وشبابا ، وكنت أخشى أن يختم السلسلة باسمك لولا لطف الله ، لأنك لازلت حياً فى قلبى ، وعزيز على أن أخيب ظن القلب بمواجهته بدليل قاطع دامغ على زوالك من العالم المادى .

أقلقنى الانتظار لا عن ملل ولكن لأن الأسى فاض بى . ولم أطق أن أتخيلك صنواً لهذه الأحجار والعظام البالية ، فقمت من كرسىّ وانصرفت دون استئذان إلا من روحك التى قرأت لها الفاتحة فى كل خطوة خطوتها نحو سيارتى التى ملأها غبار طاهر أصبح جسمك من جزئياته .

* * *

استعرضت هذه الخواطر وأنا استعد لتصفح كتاب عن الطرح تأليف مولدن وكارنجتون . ولم يكن بينى وبين هذا الكتاب استلطاف فى بادىء الأمر ، فتركته على مكتبى حوالى شهرين دون أن أمسه ، حتى جاشت فى نفسى هذه الذكريات ، فامسكت به فى ثقل وحملته حملا إلى السيارة لأحاول تصفحه وأنا جالس فى مقعدى لا رقيب على سوى السائق وعابرى السبيل . وأردت أن أجد فيه مايفسر اتفاق حدوث زيارة أخى الروحية فى الحلم مع قبض روح جارتى المتوفاة ، فراجعت فهرس الكتاب بسرعة آلية حتى وقفت عند كلمة (النوم) فقلت لنفسى ـ ترى مذا يقول هؤلاء الروحيون عن هذه الظاهرة الطبيعية من حياتنا اليومية . فوجدت اعتقاداً راسخاً بأن الروح تغادر الجسم أثناء النوم وتبقى متصلة به بحبل أثيرى يستطيل وينكمش حسب مقتضيات الرحلة التى تسبح الروح فيها فى عالم المادة والروح ، فترى من الأحداث مانسميه بالأحلام

ويحدث هذا الطرح الروحى أيضاً خلال الغيبوبة الوساطية أو السبات العميق الذى ينتج عن مخدر كالكلوروفورم مثلا ، أو خلال ما يسمى تعليق الحيوية عند ما يدفن فقراء الهنود أنفسهم أياماً أو أسابيع .

ويصف المؤلفان بعض عجائب الظاهرة الأخيرة فيقولان أن أحد فقراء المصريين وهو (حامد بك) أبدى فى هذا الميدان مهارة عجيبة ، فبقى مدفوناً مدة ساعة فى (اتلانتا) ، وثلاث ساعات فى (نيوجرسى) وسبع ساعات فى (سان دييجو) ، والغريب فى حالته أن التراب أهيل على جسده فى حفرة عميقة دون أن يوضع فى تابوت مغلق كعادة فقراء الهند ، وذكرا مثلا آخر لفقير هندى ظل مدفوناً فى قبر محكم الأغلاق مدة ثلاثين يوما بالتمام بعد وضعه فى صندوق أحكم اقفاله تحت رقابة محايدة من كبار موظفى المنطقة ، منهم الأمير رانجيت سنج والسير كلود ويد . والفرق بين كل هذه الحالات والموت الحقيقى هو بقاء الحبل الأثيرى سالماً يصل الروح المطروحة بالجسد المادى . فإذا أفلت هذا الحبل من الجسد حدث الطرح الروحى الدائم أى الموت .

أما النوم فهو طرح مؤقت للروح وما الأحلام إلا سياحاتها فى عالم المادة والروح فترى المنظور وغير المنظور ، وتقابل الأحياء والأموات على حد سواء . وهذا الاستيطان المؤقت فى عالم الروح يهيىء لأرواحنا فرصة الحصول على تغذية وتقوية روحيتين لا تلبثان أن تنعكسا على الجسم عامة فيصحو الإنسان من نومه منتعشاً متجدد النشاط .

ماهذا الحبل الأثيرى الذى يفرق بين الحياة والموت ؟ يجزم الروحيون أنه فى حالات النوم والغيبوبة تفارق الروح الجسد ، ولكنها تظل مرتبطة به بحبل أثيرى مطاط يطول ويقصر ويخترق الحجب والحواجز والجدران مع الروح الهائمة .

ويقولون أنه يبدأ فى مكان حيوى فى المخ المادى حيث تجتمع جميع المراكز الحيوية التى تسيطر على القلب والتنفس ، وينتهى فى نفس المكان من الروح الأثيرية ، فاذا كان الشخص مستلقياً على ظهره ووجهه إلى أعلى طرحت الروح ووجهها إلى أعلى أيضاً وبرز الحبل الأثيرى من الجبهة لينتهى فى مؤخرة الرأس من الجسم الأثيرى . وتكون الروح فى مبدأ الأمر موازية فى اتجاهها للجسم المادى ، ثم تتخذ بالتدريج وضعاً عمودياً قبل أن تبدأ سياحتها فى عالم الروح . وعند الاستيقاظ نتيجة ضجة أو انفعال شديدين تعود ثانية إلى وضعها الأفقى ، ثم تقترب من الجسم بينما يقصر حبل الاتصال حتى تحل الروح فى الجسد مرة ثانية .

ويقول أحد المؤلفين (مولدن) ـ وقد أوتى القدرة على النوم الاختيارى أنه جرب هذه الظاهرة فى نفسه فشعر أولا برأسه ينثنى حتى لامست ذقنه صدره ، ثم راح جسمه فى استرخاء النوم ، بينما صعدت روحه الأثيرية تدريجياً نحو سقف الغرفة . وكان يشعر بما يشبه نبضات القلب عند مؤخرة رأسه مما أثبت له أن الحبل الأثيرى يبدأ هناك . ثم لم يلبث جسمه الأثيرى أن تحول تدريجياً من الوضع الطبيعى الأفقى إلى الوضع العمودى وعند ما أراد إنهاء التجربة أخذت الروح تعود تدريجياً إلى الوضع الأفقى ثم تقمصت الجسم مرة ثانية .

وهو يصف التفاصيل بدقة الذى يعتقد أنه رأى شيئاً محسوساً ملموساً ، ولا تشعر وأنت تقرأ السطور أو ما بينها بأن فى الأمر ابتداعا أو خيالا .

* * *

ويقول المؤلفان أنه متى انقطع الحبل الاثيرى فلا أمل مطلقاً فى عودة الميت إلى الحياة ويقولان أن معجزات يسوع عليه السلام عن إحياء الموتى

لا يمكن تفسيرها إلا اذا افترضنا أن الذين بعثوا إلى الحياة لم يكونوا موتى بل كانوا فى غيبوبة شديدة . وضربا لذلك مثلا معجزة المسيح عليه السلام فى إحياء صديقه اليعازر . فان يسوع بوصفه وسيطاً روحياً من الدرجة الاولى يرى غير المنظور لما كان له ميزة الجلاء البصرى ـ أدرك أن اليعازر لم يكن ميتاً إذ قال عليه السلام أن اليعازر لم يمت ، أنه نائم . وسأذهب إليه وأحاول إيقاظه .

ثم ذهب إلى المقبرة وأمر بإزالة الحجارة قائلا : (قم يا اليعازر) فهب الاخير من نومه وتقدم إلى يسوع . أى أن المسيح عليه السلام قرر وهو يتقدم نحو القبران أن صديقه نائم فقط وليس بميت . وضرب المؤلفان مثلا آخر من معجزات المسيح وهو نفخ الحياة فى ابنة الحاكم الميتة ، فانه دخل بيت الحاكم بين أصوات العويل والنحيب ، ولما اقترب من فراش الميتة نظر إلى من حولها وقال (إن الفتاة ليست ميتة . لماذا تبكون اذاً ؟) ثم أمر بأخراج جميع من بالغرفة إلا والدة الفتاة ووالدها ، وأمسك بيد الفتاة وصاح فيها قائلا (قومى يا فتاة قومى) فوقفت الفتاة لتوها ومشت إلى خارج الغرفة .

ويقول المؤلفان أن المسيح أقر فى هذين المثلين أن بطل الحادث لم يكن ميتاً بل كان نائماً فقط ، وإلا لتكررت المعجزة فى مئات أو آلاف من الحالات الأخرى ، الشيء الذى لم يحدث إلا فى حالتين أو ثلاث . ويخرج المؤلفان من هذا القول بأن عودة الروح إلى جسم الميت شيء مستحيل ما دام الحبل الأثيرى قد انقطع ، إذ عندها ينطلق الجسم الأثيرى ـ أى الروح ـ ويترك الجسد المادى بكل دنسة وموبقاته . فالموت عبارة عن طرح روحى دائم . أما النوم فطرح روحى مؤقت تكون الروح خلاله متصلة بالحبل الأثيرى ، فتصول وتجول وتتمتع بالاتصال بأرواح الموتى السابقين والأحياء

المعاصرين ، وهذا منطق معقول ينطبق على قوله تعالى « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » صدق الله العظيم .

مضى عام

وأخيراً . . .مضى عام على وفاة أخى . وما كان أشده على النفس لولا حنين الذكرى .

نعم مضى عام وأى عام ، تباطأ خلاله زحف الساعات فما بالك بالأيام ، ولولا فضيلة النسيان لما حل على قلبى الهدوء والسلام . فقد إنتابنى عند فقد أخى يأس وضعف واستسلام حتى خيل إلىّ أن عالم المادة بالنسبة إلىّ قد انتهى ، فتجردت النفس من كل شائبة ورجس ، وصهر الجسم فى آتون مشتعل خرج منه أشد ما يكون نقاء وصفاء . ولما خمدت جذوة النار بدأ الصدأ يتراكم من جديد ، فعاد الإنسان إنساناً كما كان ، له أطماع ، وله آلام وأوجاع ، يحس بالألم بعد أن كانت الجمرة المحترقة لا تنال منه منالا ، ويهتز لطفيف الصدمات بعد أن أتى عليه حين من الدهر كان يهز فيه كتفيه استخفافا بأقسى هجمات الزمان على أخيه الإنسان ، فأى حادث يمكن أن ينال منه بعد أن رأى الحركة والحياة التى تركزت فى عزيز تنزوى فى ركن من الأرض صغير .

والواقع أننى منذ صدمتنى الهزة الكبرى عند فقد أخى هانت فى نظرى قيمة الحياة وأحداثها وأصبحت أترنم بالبيتين الآتيين كلما جد فى عالم الأحزان جديد .

وما أنا من رزء وإن جل صارخ ولا بسرور بعد فقدك فارح

كأن لم يمت حى سواك ولم تقم على أحد إلا عليك النواح

فتشعر بالبلسم الشافى يوضع على غريب الجروح فيسرع فى بُرْئها ويبقى للجسم والنفس جرحهما الوحيد القديم يحتضنانه فى محبة وحنان حتى ينتزعه

منهما حكم الزمان القاسى الذى يحكم دائماً بالتفرقة بين الجرح العزيز والجسد المحترق فى أتون الذكرى ، إذ لولا حكمة القاسى فى عدالته والعادل فى قسوته لما سار دولاب الحياة . ولله فى خلقه شؤون .

لا زلت أتذكر كيف طغى على موج من انقباض النفس قبل حادث أخى بأيام ، ولكنت أفكر فى شتى الاحتمالات إلا فقد أخى ، لأنه كان جذوة لا تخمد . وكانت عدالة القدر تقضى باستمراره على مسرح الحياة ينعم بثمرة عزيزة اقتطفها بعد جهد طويل ، وكان حصمه فى النضال عظيما مسناً تعجبت كيف سمح له القدر — ذلك الحكم المحايد — أن يمد له الحبل ليرى خصمه الشاب يتردى مضرجا بدمه . وما قيمة الأعوام فى عمر الزمان وفى نظر القدر ، سوف نتقابل جميعاً فى عالم سعيد لا نسمع فيه لغواً ولا تأثيماً إلا قيلا سلاما سلاما ، وسوف تعجب كيف سمحنا لأجسادنا المادية أن تتدهور إلى مستوى المهاترات والمشاحنات ، ونعيش فى عالم كله حب ووفاء وإخلاص وصفاء .

وبينما أنا فى هذا الخضم الهائل من الانقباض النفسى دعانى صديقى محمد عبد الوهاب لأكون معه أثناء تسجيل أغنيته المعروفة (الحبيب المجهول) فلبيت فى غبطة الذى فقد شيئاً فى الحياة جميلا ويود لو استعاد كله أو بعضه ، وعبد الوهاب يبدو أثناء التسجيل ضئيلا وهو يحتضن (الميكروفون) ويهمس إليه أنغامه فى صوت يكاد لا يسمع ، فيخيل إليك أن الموسيقى الطاغية العنيفة التى تملأ الفضاء المحيط به قد ملكت الموقف وغلبت على الصوت الحنون ، ولكنك عند ما تسمع التسجيل نفسه يعلو صوت عبد الوهاب على كل ماعداه ولا تشعر بالموسيقى إلا عند ما يتوقف عن الغناء ليعطى للآلات الصماء التى أنطقها بالبديع والمطرب ، الفرصة لإثبات وجودها . وكنت استمع إلى كلمات أغنيتة فى نشوة ، لأنها ضربت على الوتر الحساس منى فى ذلك الوقت خاصة عند قوله :

من كتر فكرى ما عاش وياك   أغـــير عليك منه وأدارى
أخاف يكون لى شريك فى هواك   حتى لو كان أفـــكارى
فين انت . . . .   مين انت . . . .

نعم أين أنت ومن أنت . أين انت يا من أشعر بأنى على وشك فقده . ومن انت يا من استحوذ طيفه على عقلى وحواسى فامتص من جسمى حيويته وأصبح يجر نفسه جراً فى موكب الحياة يكاد لا يعى بما يجرى حوله .

ولما وصل بأغنيته إلى مقطع (يا هلترى الأيام حاتحقق الأحلام ، وإلا تكون أوهام واتجمعت فى منام) كانت الكاس قد فاضت بى ، فغادرت المكان مصمماً على النزوح فى اليوم التالى إلى الإسكندرية لأروح عن نفسى . ولم أمضى فيها سوى يومين أحضرونى بعدهما على عجل إلى القاهرة بإشارة برقية مشؤومة ، تفتحت بعدها أمام عينى الحقائق التى أخفاها عنى عقلى الباطن فى قسوة لا زلت أؤاخذه عليها كلما خطرت أحداث تلك الأيام ببالى .

لا زلت أذكر يا أخى كيف حملونى حملا وأنا اشيعك إلى مقرك الأخير ، وكيف صممت بينى وبين نفسى ألا تقع عيناى على نعشك وهو يتهادى خلال المائة متر الأخيرة من رحلتك فى العالم الأرضى ، ولكنك غلبتنى مرتين ، مرة عند دخولك بيت الله ليتمتم بعض الفقهاء بالصلاة الأخيرة عليك ، والثانية عند وصولنا إلى الدار لا يداعك كنزاً غالياً بين ذرات التراب . فلقد تلكأت متعمداً فى سيارتى وتباطأت لدرجة لفتت نظر عمى مهدى وجعلته يمد يده إلى ليساعدنى على النزول فى نفس اللحظة التى أنزلوك فيها من سيارتك ، فتقابلنا وجهاً لوجه ، وكانت لحظة رهيبة كدت أهوى على أثرها لولا أن أمسكت بى يدان قويتان قادتانى إلى كرسى قريب تعمدت أن يكون بعيداً

عن منظر اسدال الستار على المأساة ، وأخذت أنصت من بعيد إلى كلمات الملقن وهو يسر إليك نقاش الملكين ليجنبك الوقوع فى مأزق عند استجواب الملكين ، أنت الذى كان يجد لكل عقدة حلا ولكل مأزق مخرجاً . وعند ما انتهى كل شىء خرجت أتعثر وأنا أضن أن أنفض عن حذائى غباره الطاهر الذى أصبحت من جزئياته .

ومضت على فترة من الزمن تحجرت فيها عضلات وجهى وصرت أعتبر البسمة زلة كبرى والضحكة جريمة لا تغتفر ، ثم أخذت الإبتسامة الهزيلة الحائرة تتربع تدريجاً على عرش التجاعيد وكانت تسبقها فى أول الأمر دمعة ندم على ما فرط ثم أخذت تظهر وتختفى دون أيلام أو ندامة ، ثم تنادر الأصدقاء من حولى ليرفهوا عنى فضحكت ، ثم بالغوا فى التنادر والقهقهة فقهقهت وأخذت تغمرنى أمواج النسيان الذى هو المصير المتوم لعزيز الصدمات ، ولم تبق إلا الذكرى الحلوة بوخزها الرقيق الذى يعاود من آن لآخر كلما حان الميعاد ، فينفتح الجرح المندمل وتنساب منه أعذب الآلام على النفس — ألم الذكرى البعيدة القريبة .

ووجدت فى دراسة الروحيات عزاء وسلوى . وفتحت لى (مجلة الثقافة) صدرها لا سجل نفثاتى ، وكان تصرفها المتسامح نحوى أكبر عامل لما تحليت به من الصبر الجميل على ما ابتليت به من عزيز الصدمات . وناقشنى الكثيرون فيها كتبت عن عالم ما بعد الموت وهم بين مصدق ومكذب ، ولما ضاقت بى الحيل معهم قلت لهم — على كل منا أن ينتظر دوره ويرى بنفسه ، فأما الحقيقة الكبرى أو النكبة الكبرى .

نعم مضى عام وأى عام . مضى عام منذ رجعت إلى منزلى ذات ليلة معفر الثياب أغبر الوجه أشعث الشعر ، وجلست إلى مكتبى وأمسكت ورقة وقلما

وكتبت أولى نفثاتى وكان ذلك بعد انتهاء مراسم اليوم المشؤوم . كتبت أقول . — (أخى عرف الحياة وعرفته ، وأحبها وأحبته وضحك لها ومنها وفى وقت الفراق بكته ، احتواه الأثير الخالد أربعين عاماً فرنت إليه الأرض الطيبة وجداً وغراماً ، وأى أرض لا تتمنى ذراتها وحباتها أن تضمه بين أحضانها يا ليتنى كنت ترابا !) .

* * *

بعد عامين

كتبت هذا الخاطر فى اليوم الرابع من عيد الأضحى المبارك ؟ أى بعد مضى عيدين منذ وفاة أخى . وما زلت أذكر تلك الليلة المشئومة عند ما أيقظنى جرس التليفون من نوم مصطنع نلته بعد أن تجرعت منوماً قوى المفعول وسمعت من الطرف الآخر صوتاً يقول لى . كن شجاعاً ؟ لقد انتهى كل شىء . فألقيت السماعة فى يأس وقنوط وارتميت على مقعد مريح إعتاد أخى أن يجلس عليه كلما أسعدنى بزيارته فشعرت وكأن روحه تحتوينى إليها وتصعدبى إلى سماء لا يطار إليها على جناح . وإنما هى من نصيب الأولياء والصديقين . ورحت فى نوم لم أدر إذ ذاك كيف جرؤ على أن يزور جفونى ولكننى تمنيت ألا أصحو منه ، حتى لا أواجه الحقيقة المؤلمة . ولكن هناك فجر لا بد من طلوعه ، ولا يهمه على أى حال يراه الناس ، وقد طلع على الحطام الذى بقى منى ، وما كادت تباشيره تبدو ، حتى قفزت من فراشى ، لأنى لم أكن إذ ذاك لا تصور أن أفوت على نفسى فرصة الاكتواء بنار الجوى والفراق ولو لبرهة قصيرة . ونظرت فى المرآة ويالهول ما رأيت . لقد أخذت روح أخى معها كل منابع الحيوية من جسمى ، فغارت منى العينان وبرز الخدان وكستهما صفره ، جعلتنى

كالأموات سواء بسواء . ولبست ثيابى فى ثاقل لمحكوم عليه بالإعدام ، وهو يجر رجليه جراً أثناء مسيرة المائة متر الأخيرة ، وهم يسوقونه نحو المشنقة ، مع فارق واحد ، وهو أن آلام المحكوم عليه تنتهى بوصوله إلى الغرفة السوداء ، أما رحلتى الطويلة فتبدأ بوصولى إليها . أخذت أبحث عن رباط رقبة أسود ، فعثرت على واحد كنت أشتريته فى لندن سنة ١٩٣٦ . وكنت كلما رأيته فى دولاب ملابسى خلال هذه السنوات الطوال انقبض صدرى وهتفت فى تضرع وتوسل . اللهم أكفنى شر هذه الرباط الممقوت . وأكاد ألقى به بعيداً .

كان أخى يعتقد فى طبى ومقدرتى إعتقاداً كبيراً ، وكثيراً ما كان يتحدث بهذا إلى أصدقائه ومعارفه ، ولكنى تخليت عنه أثناء مرضه الأخير فى خسة ونذالة غير مقصودتين . فبالرغم من أنى أحضرت إلى فراش مرضه أو موته فحول الاخصائيين من زملائى ، إلا أنى لم أجرؤ على الدخول عليه منذ بلغنى خبر مرضه حتى أتانى نعيه . وكان لحسن حظى ـ أو من سوئه ـ فى غيبوبة بدأت مع مرضه المفاجىء فلم يكن يشعر بما يجرى حوله ، ولكن لا بد أن روحه أحست بما احتوته روحى فى ذلك الوقت — ومنذ ذلك الوقت — من الحب واللوعة والفداء المتبادل بين روحين امتزجتا فى الحياة وبعد الموت بالرغم من فراق الجسدين ، ولا بد أنها انتحلت لى الأعذار قبل أن أنتحلها لنفسى .

حدثونى عن تفاصيل غرفة موته فقالوا : لقد كانت الغرفة مكللة بالسواد وكان الفقيد يشغل ركنا منها وهو مسجى على فراشه ، وكان جسمه فى كامل بنيانه الفخم لأن المرض لم يمهله سوى يومين ، وكان وجهه أبيضاً كالشمع ، بعد أن كان تورد الوجنتين من أبرز هم مميزاته . ووقفت الأم الثكلى بجانبه

تنادى كالعادة ولا من مجيب ، والأرملة الشابة تنظر إلى السماء طالبة الشفاعة من الله عساه أن يرد إليها حبيبها ، ولكن لم يحدث قط أن تقض الديان حكمه العالى .

وبالاختصار كان كل شيء فى الغرفة ينطق بذلك المعنى الرهيب : الموت ! الموت! الموت !

وبالأمس — أى بعد مضى عامين — خطر لى أزور نفس الغرفة لأرى كيف هلهل ذكرها مرور الزمان ، ولأقرأ الفاتحة على الروح التى صعدت فيها فوجدت كل شيء بها ينبض بذلك الينبوع الأزلى: الحياة ! الحياة ! الحياة ! فقد وفدت على القاهرة منذ عام إبنة شقيقى الأكبر لتتم دراستها فى مدرسة معينة . وكان من نصيبها أن شغلت نفس الغرفة التى كان يشغلها أخى ، فأحالتها بذوقها اللطيف إلى جنة صغيرة ، ووضعت فى إحدى أركانها راديو أنيقاً ينقل لها من حين إلى آخر ما يطيب لها سماعة من الأغانى والأنغام . وكان جو الغرفة فى تلك الدقيقة بالذات مشبعاً بأغنية لأم كلثوم طاب لى أن أتتبعها على الرغم من حنين الذكرى . وكانت الشابة اللطيفة تتزين أمام مرآتها فى عجلة ، لأن خطيبها كان ينتظرها بالخارج لترافقه فى زيارة لأهله بمناسبة العيد . ولم يبد على جدران الغرفة الصماء أى انفعال لتطور الطبيعة البشرية ، ذلك لأنها قد اعتادت تقلبات الزمان والإنسان أكثر منى ومنك ، وما أعظم تجارب الجدران الأربعة فى هذا المجال .

ونظرت إلى ساعتى التى أهداها إلى أخى قبل وفاته بأيام ، وكان مجرد النظر إليها فيما مضى يهيج فى قلبى الذكريات ، وكنت كلما أحسست بها حول معصمى لذعنى لهيبها وكأنها قدت من نار كاوية ، واعتاد جسمى تدريجاً هذا المصدر الحرارى الدائم ، حتى لم يعد يشعر بوجوده إلا من حين إلى آخر

عندما يريد صاحبه معرفة الوقت . وعندما نظرت إليها ترا كمت الذكريات العزيزة مصحوبة ببسمة اشفاق على نفسى التى أصابها النسيان عن غير عمد . فالنسيان جرثومة تصيبك وأنت غافل ، وقد تتعمد تحصين نفسك ضده ولكنه يراوغك حتى ينال منك ويقهرك ، ولكن حاشا لى أن أسمى ما انتابنى نسيانا . إننى أعده مجرد اندماج فى خضم الحياة ومسؤلياتها الجسام ، يلهيك لاعن الماضى بل على من حولك أيضاً . وهناك عجلة الزمان قبل كل شى : أين أجدادى الأولون والآخرون . أين الملوك والفراعنه ، وأين الأنبياء المرسلون .

ما الدنيا إلا فندق كبير ينبذ أقواما ليستقبل آخرين . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وهو السميع المجيب المعين .

أخى الثانى

فى منتصف ليل يوم ٣١ مارس من عام ١٩٤٨ تحدث إلى بالتليفون صوت الناعى من الاسكندرية يخبرنى بوفاة أخى الأكبر فجأة نتيجة السكتة القلبية . وكان أخى الدكتور عبد المنعم يشغل منصب رئيس قومسيون طبى الاسكندرية فى أخريات أيامه . ولما انتهى اليوم الحزين بكل تفاصيله عدت كسير الفؤاد بعد أن وسدت أخى الأكبر رطيب الثرى بجانب أخيه الذى افتقدته منذ سنين قلائل . وها أنا ذا أودع بين ذرات التراب كنزاً أثر كنز ، ولكن متى قنع الأديم وهو منذ بدء الخليقة لا يرتوى ولا يشبع يضم الفرائس فى غير حنان ويحيلها إلى أقل من رماد حتى تندمج فى حياته اندماجا ولا يكاد يفرق بينهما شىء . وما أصعبها على النفس أن تمد هذا الاتون دائم الاشتغال بوقوده ممن تحب . وسبحان من جعل لنا من سطح الأرض مجالا للسعى والرزق . ومن باطنها مرقداً أبديا بعد طول الجهاد ، نأوى إليه كما نأوى إلى فراشنا الوثير

بعد تعب النهار . وما أحلى الفرق بين رقدة لا تصحوا منها أبداً ، وأخرى تنتهى مع بدىء النهار لنستأنف من جديد حياة مليئة بالعراك والمسئوليات .

جرت عادتى فى مثل هذه الظروف أن أشاهد الرواية عدا منظرها الأخير . إذ كيف تطيق الوقوف على حافة الحفرة العتيدة لترى بعينيك عزيزاً يوارى إلى جانب أعزاء سبقوه إلى نفس المصير .

وبينما استمع من بعيد إلى صوت الملقن وأنا أغالب الدمع وهو يغلبنى أخذت أستعرض حياة ذلك الذى عاش خفيفاً ومات خفيفاً . وعجبت لنفسى عند ما تصورت أن الدمع السخين الذى سكبته على قبره هو التحية الوحيدة التى أمكننى أن أقدمها إلى هذا الأخ العظيم . وكانت الفاتحة التى طلب منى الملقن قراءتها هى تحية الوداع .

وكان كل مدمعى وتفكيرى محصورين فى هذا الجرح الجديد ، بينما رقد بجانبه رفات جرح قديم هو أخى محمود الذى فقدته إلى دار البقاء منذ سنين قلائل . وكان حزنى عليه أشبه بحزن الخنساء على أخيها صخر ، وتخاذلت أمام الصدمة لدرجة أخجلتنى من نفسى . وكنت أظن أن الابتسامة الباهتة لن تعرف تقاسيم وجهى ، وحقدت على كل مبتهج أقبلت عليه الدنيا ، ووجدت السلوى فى مصائب الآخرين ، لأنها أقنعتنى أن كل من عليها فان . وأن دوام الحال من المحال ، حتى تبدلت حالتى تدريجياً . وأقبلت فضيلة النسيان كعادتها تتهادى فى ثقة وألبستنى من لدنها ثوبا مزركشاً سرعان ما بدأت به الحياة من جديد ، وبدأ الصدأ الجميل يترا كم فعدت إنساناً له أطماع وآلام وأوجاع ، يحس بالألم بعد أن كانت الجمرة المحترقة لا تنال منه منالاً ، ويهتز لطفيف الصدمات بعد أن كان يهز كتفيه استخفافاً لأقسى هجمات الدهر .

تخيلت حفار القبور وهو يزيح برفق هذه الرفات العزيزة جانباً ليفسح مكاناً لجرحي الجديد الذى مازال يتمتع بطراوة الدنيا الفانية .

وتذكرت خلال دموعى أننى يجب أن أقرأ الفاتحة على ما تبقى ممن شغل عقلى وفكرى وشعورى فترة من الزمان ، ثم صحت فى نفسى قائلا ، وأبوك الحبيب .. هل نسيته ؟ أبوك الذى له عليك فضل الوجود فى هذا العالم ،والذى رباك وعلمك وسهر عليك حتى أصبحت شيئاً ، والذى كان فى حياته أعز شىء فى الوجود عندك . والذى كدت تلطم الخد وتشق الجنب لفقده الفجائى منذ خمس وعشرين عاما : ياللماضى الجميل !!

كانت دموعى على أبى حلوة المذاق لذيذة على النفس ، شهية على القلب ، فقد كنت أحبه بحق . وكنت أشعر عند بكائى أنى أقوم بواجب مقدس نحو ذكراه . ثم طوتنى الأيام وهادنتني مدة طويلة نسيت خلالها طعم الدمع الغالى حتى رزئت فى أول أخوتى فعاودتنى لذة البكاء من جديد . ثم اندمل الجرح ولم يبق إلا حنين الذكرى يلوح من قريب أو بعيد حتى اضطرنى الحادث الأخير أن أقف فى بيت الذكريات لأودع عزيزاً غاليا بين أحضان من سبقوه وأمسكت بلجام الشجن حتى لا أفرط فى حزنى ، فقد أوصانى فقيدى وأخذ على عهداً منذ وفاة أخى الأول أن أكوا رجلا إذا مسه ضُرٌ لأنه على يقين أن الدور الآتى دوره . وقال لى ذات يوم : (لقد أخطأ القدر هذه المرة إذ أخذ محمودا قبلى ، ولكن يندر أن يخطىء القدر مرتين ، لا تعجب لجمودى إزاء الصدمة فأنى لابد ملاقيه ولا تظن أننى أقل منك حزناً عليه ، ولكن الواقع حقيقة مؤلمة يجب مواجهتها بصبر وشجاعة . وأنك اذا توقعت الموت دائماً فقد رهبته من نفسك ، وجابهته كأنه حدث عادى أو رحلة لا بد منها .)

كان أخى عبد المنعم طبيباً نابغاً فذاً ، يكفى أن أقول أننى اتخذته مثلا أعلى

فوصلت إلى الحالة التى أنا فيها بحمد الله ، وليس أدل على القدوة من حال من اتخذ منها مقياساً ونبراساً . وقد احتضننى بعد وفاة والدى فأدبنى وعلمنى فأحسن تعليمى وتأديبى . وقد لازمته وأنا طالب طب ، وكان مقر عمله إذ ذاك ضاحية حلوان . وراقبته عن كثب سنين عديدة . وتعلمت منه كيف يمكن كسب القلوب بالإخلاص فى العمل والسهر على راحة المرضى ومجاملة الناس فى الأفراح والأحزان ولو علم الناس أن الأدب فى معاملة الغير لا يكلف شيئاً بينما هو يجلب الكثير من الخير ويدعم صلات المودة والتعاون ، لاستغلوا هذه التجارة الرابحة فى علاقاتهم اليومية .

علمنى أخى أن الكلمة الحلوة خير عند الناس من ألف دينار . وأن التبسُط فى معاملة الناس خير مائة مرة من التعقيد . ولا داعى إلى التظاهر بالجد المبتذل عند مواجهة مريضك . فمن السهل عليك أن تكون لطيفاً ليناً دون أن يفقدك هذا حقوقك المادية .

أخذ أخى يتنقل من محافظة إلى أخرى وبالتالى من نصر إلى نصر ، وكان يحتل مركز الصدارة فى كل مكان يرسو فيه ، وكانت كفايته العلمية حديث القوم أينما حل .

واذكر على سبيل المثال أنه كان يعمل عملية الفتق فى خمس دقائق والمصران الأعور فى سبع دقائق . وكان يقرأ كثيراً ويطبق ما يقرؤه على مرضاه فيعطيهم ميزة الانتفاع بكل ماجد فى الطب أولا فأولا .

وكان يلتهم المجلات الطبية التهاما ، ويستوعب ما فيها بشغف زائد ، ثم يلقِّنه لمرؤوسيه من الزملاء فى اليوم التالى . أى أنه كان يبدأ مدرسة فى كل مكان يحل فيه . ولازال الكثيرون من أطباء وزارة الصحة النابهين يذكرون له هذا الفضل .

لقد كانت حياة أخى شريطا سينمائياً طويلا لا يتطرق إلى النفس الملل من رؤيته مثنى وثلاث ورباع . وليس هذا لكونه أخى ، ولكن لأنها حياة طبيب عرف كيف يكسب الثقة والقلوب فى وقت واحد .. فكثيراً ما اضطر الناس إلى الثقة بطبيب رغم كونهم لا يحبونه ، أى أن يكون الطبيب من الصنف الذى تحب أن تكرهه أو تكره أن تحبه . وهذه هى أضعف العلاقات بين المريض والطبيب

أن لطبيب الريف ميزة كبيرة ، وهى قدرته على التغلغل بذكراه فى القرى والدساكر . وقد كون أخى لنفسه نواة هائلة من الأصدقاء والأحباب فى أنحاء القطر . وما الحياة إلا نعيم زائل ، وخير ما يترك المرء وراءه مثلا يقتدى به وذكرى تنفع المؤمنين .

* * *

أسرار النجاح وأسرار السعادة

كان من عادة نابليون بونابرت إذا عرضت عليه كشوف الترقية لكبار ضباطه وأمام كل منهم مؤهلاته وطرفاً من تاريخ حياته — كان يؤشر بخط يده أمام من يريد ترقيته، هل هو سعيد الحظ ؟ وما مدى توفيقه فى حياته الخاصة ؟ والواقع أن الحظ يلعب فى حياتنا الدور الأول . وإذا كانت كلمة الحظ لا ترضى كبرياءنا فلنسمه التوفيق ، وما التوفيق إلا من عند الله ، وما دام ما بينك وبين الله عامراً فإنه يضفى عليك بركة تلهمك الصواب وتملأ نفوس مرضاك بثقة لا تنال بكثرة القراءة وكثرة التمرين فقط . بل أيضاً بتلك الموهبة السحرية التى تولد فى شخص ويحرم منها أشخاص لغير ما سبب إلا إرادة الله وهو على ما يشاء قدير ، وهى موهبة اكتساب الثقة ، وفى مهنتنا بالذات تلك اللمسة السحرية التى تؤدى إلى الشفاء .

أن النجاح فى الحياة يتوقف على دعائم ثلاث : كثير من الهداية والتوفيق ، وذكاء يكفى أن يكون متوسطاً ، ومثابرة تصل بك إلى نهاية الطريق دون أن تلهث . وهناك عامل رابع وهو لا يقل أهمية عن هؤلاء جميعاً ، وهو أن يهبك الله فسحة من العمر تتيح لك الفرصة كاملة لتأدية رسالتك فى الحياة . وهذا العامل بيد الله سبحانه وتعالى . كل هذه العوامل مجتمعة توصلك إلى ما تبغى من نجاح ولمعان . وليست الفكرة أن تلمع لمعاناً خاطفاً سريعاً لايلبث أن يخبوا ولكن العبرة أن تحافظ على هذا اللمعان . إن الطبيب يتعرض أثناء عبوره الجسر الموصل بين الموت والشفاء ليقوم بمستلزمات مهنته من تخفيف الآلام وانقاذ الأرواح لأنواع شتى من نكران الجميل يجب أن يؤهل نفسه ليتلقاها صابراً من كل جانب . والويل له إذا واتاه

الحظ وأقبلت عليه الجماهير ، الويل له من نفسه ومن مريضه ومن زميله المنافس . فهو من جهة يعتز بثقة أسبغها عليه بسخاء جمهور لا يرحم ، يقبل عليه لدرجة تجعله عاجزاً عن اختلاس سويعات قلائل يقضيها بين أهله وخلانه ، فإذا ما أراد أن يريح قلبه وأعصابه ، ويعطى فى الوقت نفسه الفرصة للناشئين من زملائه أضطر أن يرفع أجره ولو بقدر قليل ، فتشير إليه أصابع الإتهام قائلة ياله من تاجر جشع . . مع أنه فى الواقع يثبت على نفسه أنه أبعد الناس عن تفهم أصول التجارة التى أساسها عرض البضاعة الجديدة بثمن معتدل . فالطبيب اللامع الذى وصل إلى قمة النجاح يجب أن يرعى قلبه وأعصابه ليعيش لمحبيه من المرضى أطول مدة ممكنة ينعم خلالها بثقتهم ويستفيدون هم بطبه وفنه .

والأستاذ الأصيل يريد فى الوقت نفسه أن يعطى الفرصة للناشئين من تلاميذه الذين ينتظرون فرصتهم وهم على أحر من الجمر . لا زلت أذكر كيف طال انتظارى لمريضى الأول الذى وضع أول لبنه فى صرح الثقة الهائل الذى يتوء كاهلى به الآن .

فبعد بضعة أسابيع من بداية صحراوية قحلاء جرداء بدت على زجاج النافذة القاتمة المتطلعة نقطة من رذاذ لم تلبث أن تبخرت مأسوفا عليها من كل محتويات العيادة الإنسان فيها والجماد . فقد وفد على العيادة وافد كريم سمعت حفيف قدميه وهو يطأ عتبة الباب فقلت لنفسى أى ريح طيبة أرسلته فى هذا الإتجاه . ثم دفعنى حب الاستطلاع إلى تعرف ملامحه ومميزاته من خلال الباب وأنا جالس إلى مكتبى أقرأ آخر المجلات الطبية فى برود غير متكلف ، فقد أليت على نفسى منذ البداية ألا أتعجل الكسب المادى ، وكان همّى الأول قبل فتح عيادتى عمل الصداقات واكتساب الثقة ومجاملة الصديق وأولاده دون أى مقابل مادى . ولم أكن أبغى من وراء هذا أن يكونوا نواة أو خميرة لمستقبل قريب

أو بعيد فى العمل الحر ، بل كان مبدئى منذ بداية حياتى أن مهنة الطب وسيلة مباركة لكسب الصداقات قبل أى شى آخر . . .

أعود إلى وصف مريضى الأول ، فلم يكن والله ذهبى الشعر شرقى السمات على قول الشاعر ، ولكنه كان عريض المنكبين يميل إلى البدانة ، ولم يكن يلبس سترة بل كانت الحمالة التى تشد سرواله إلى أعلى لا تؤدى مهمتها على الوجه الأدق ، لأن السروال كان مشدوداً أكثر مما يجب ، فبدا وكأنَّ به استدارة نتيجة مقاطعة الكواء مدة غير قصيرة قبل أن يزور عيادتى . وكان يحمل طفلا ألقى برأسه فى وهن على كتف والده ، وكانت تجلس بجواره زوجته بدت مستسلمة قانعة بهذا العتل الضخم الذى أراده الله لها شريك حياة . ثم رأيته يتلفت حوله ويشير إليها أشارة خفيفة وهى تتطلع إليه فى طاعة واستسلام ، ورأيته يطلب من التمورجى أن يحضر للطفل كوبا من الماء ، فما كاد التمورجى يوليه ظهره ليلبى طلبه حتى قام من مقعده ومشى فى صمت على أطراف أصابعه حاملا طفله تتبعه الزوجة المستسلمة . ولمحت ظهره العريض وقد تشابكت عليه حمالة السروال الذى بدا أكثر من ذى قبل قصيراً مستديراً فأدركت أنه شعر بالوحشة القاتلة عندما وجد نفسه وحيداً فى عيادة أثثت على أحسن طراز . ولم يشأ أن يلعب بطفله على حصان مجهول كما تقول لغة هواة سباق الخيل. ولا بد أن هذا المريض المجهول قد وفد فيما بعد على عيادتى مع عشرات الألوف الذين توجوها بثقتهم ، مجهولا مغمورا فى الخضم الكبير الذى كان أفراده أكثر شجاعة منه فى منح ثقتهم لطبيب ناشىء قطرة بقطرة فغمرونى بها حتى قمة الرأس فشكرا لهم وله على أية حال ! ! :

هكذا ترى أن الطبيب يكاد يستجدى الثقة عندما يبدأ وحيداً فى الصحراء القاحلة ، حتى إذا ما غمرته حتى الناصية يجد نفسه على وشك الإنهيار فيحاول

أن ينجو بالبقية الباقية من عافيته فينعته مريدوه قبل حاسديه بنكران الجميل يأتيه الخير طائعاً مختاراً فيركله ركلا . . . ولا بد للنجم اللامع أن يكون دائماً على أهبة الإستعداد للنهاية المحتومة عندما تخبو جذوته من كثرة الارهاق ، فضلا على مر السنين ، فى الوقت الذى ترتفع نجوم أخر تجذب الجماهير التى لا تبقى على أحد فتنتزع الثقة العزيزة من صاحبها الذى يصبح تدريجياً من الأساطير الفانية ويولى الكثيرون من أحبابك وجوههم نحو الأفق الجديد وكلهم أسف وذكرى . إياك أن تقول لنفسك : أهذا نصيب الطبيب من ولاء المريض لأن هذه هى سنة الحياة . . . . . .

* * *

أن الطبيب منا يعتز إيما اعتزاز بثقة مريضه ويخاف عليها من الخدش فما بالك بالفقد والضياع . ويعز عليه جداً أن يتخيل أنه فى ذات يوم قد يكون قريباً أو بعيداً إذا خانه التوفيق ذات مرة — قد تتحول البسمة الكبيرة إلى عبسة قاتمة تتربع على عرش العين والحاجب عند اللقاء . ولا زلت أذكر أمثلة حية ، وهى لحسن الحظ قليلة جداً فى ذاكرتى ، وشعورى نحوها مجرد رثاء لأن عمل صداقة جديدة مع طبيب جديد تستلزم بعض الجهد وكثيراً من الوقت . والويل للطبيب من الام إذا لم يوفق فى علاج طفلها من أول تذكرة طبية كما اعتادت من قبل أنها تنتقل به من عيادة إلى أخرى عارضة على الزميل ما قدمت يد زميله فى الكفاح ، والكثيرات من الأمهات يعلقن أثناء عرض القضية تعليقات لا تخلو من السخرية والاستخفاف بمن كان فى يوم من الأيام موضع ثقتهن وعنوان المهارة فى نظرهن...والطبيب منا يستمع فى ألم هائل لهذه الحملات الظالمة فى معظم الحالات ، بل قد تتزعزع ثقته فى الأم التى أتت إليه كمرجع أخير أو قبل الأخير..والطبيب اللبق هو الذى يستمع فى حياد تام ، وليكن على يقين

أن دوره فى الهلهلة آت عما قريب ، وإياه أن يراعى شيئاً خلاف مصلحة الطفل ، فإذ أشار بتعديل فى التشخيص أو العلاج فليكن ذلك بالإضافة إلى ما كتبه زميله ، أما ما يتبعه بعض الزملاء من كتابة نفس الدواء بأسماء أخرى بعد أن يسخفوا آراه زملائهم ليرتفعوا على أشلائهم ، فهذا ما يتنافى مع آداب المهنة ولنكن على علم بأن المريض مخلوق ذكى ، فإذا قيل له من طبيب صديق للعائلة أو طالب طب من أفراد العائلة أن الدواء هو نفس الدواء فإن الآية سوف تنعكس عليه ، وقد يناله من لسانه أكثر مما نال صديقاً له من قبل .

وفى اعتقادى أن الأم تكون أكثر انصافاً لو جمعت طبيبها مع أى طبيب آخر تختاره ليتناقشا فى مشكلة طفلها لعلهما يتوصلان إلى حلها بطريقة أكمل وأكثر فائدة للمريض مما لو اختلى كل منهما بالمريض على حدة . . . بهذه الطريقة فقط يمكن للأم الإحتفاظ بطبيبها الذى نال ثقتها الأولى ، والثقة الأولى تحتل المكانة الأولى من النفس المرهفة . والطبيب منا يتمتع بثقه الآلاف فلن يضيره أن يعوضه الله عن ثقة بثقة أو حب قديم بحب حديد ، وما عيادته إلا فندق كبير تخرج منه كل بوم عشرات ليستقبل عشرات آخرين . أما الأم فقد اختارت واحداً من بين مئات ومنحته ثقتها فى استسلام التى أثبتت لها الأيام والتجارب أنه الوحيد الجدير بها ، فيجب ألا تتخلى عنه إذا خانه التوفيق ذات مرة فليس هناك بشر منزه عن الخطأ . . .

* * *

ويسألنى الكثيرون من زملائى الشبان الذين بدأوا عياداتهم الخاصة ، كيف السبيل إلى إرضاء المريض ؟ وردى على هذا السؤال أن أعطه الشفاء لطفله فى أقصر وقت ، وهذا لا يتأتى إلا بالتمكن من العلم وخباياه ، ومداومة القراءة وتطبيق كل مستحدث فى عالم الطب . وكن كالسيف القاطع ، فلا تتردد

ولا تتراجع مادام الحق فى جانب الطفل الذى أودعه الله بين يديك لتأخذ بيده إلى بر الشفاء . لا تكن عبوساً فينفر منك أهله ، فلا مجال للعبسة وسط هذه المنافسة الشريفة بين إخوان لا يقلون عنك كفاءة . ولا تسرف فى مرحك وملاطفتك فقد تصبح ابتسامتك رخيصة مع مرور الأيام ، وقد يسىء الزوج الغيور فهمها . وما أبدع منظر الجبهة المحايدة والعينين يشع منهما حنان موجه للطفل وللطفل وحده . واعلم أن الأم تنتظر منك أن تكون ملاكا ، فإذا قابلتك فى غرفة نومها بثوبها الشفاف فهى لا تعير إلى وجودك أهمية وجودية أكثر من كونك جئت لتعطى الشفاء لطفلها ، وهى تنساك تماماً بعد أن تودعك عند الباب كما تنسى الكهربائى وقد أتى لاصلاح عطب فى أحد الأجراس ، أو الفاكهى وقد حضر إلى عتبة بابها يبيع لها الفاكهة وما تيسر من الخضراوات ولا تنزعج إذا تركتك الأم إلى طبيب آخر رغم نتائجك الحسنة معها . فهى تنظر إلى عيادتك كأى محل عام مثل شيكوريل وعمر أفندى وشملا مثلا . فهى تحترم محل شيكوريل وتعجب بمستواه ، ولكن إحدى صديقاتها توعز إليها أن تجرب أو كازيون فى شملا فتذهب معها مع أنها لا زالت شديدة الإعجاب بشيكوريل . واعلم أنها عائدة إليك طال الزمان أو قصر . وأن فى الدورة الزمنية لمرضانا الأعزاء أراحة لأجسامنا عندما يشتد ضغط العمل مع انتشار الإسم وشدة الإقبال . فلو تراكم الجميع عليك دون مهادنة فعليك العوض .. وكما أقول مؤاسياً لزملائى الشبان أن حلاوتهن فى اقبالهن وإدبارهن .

واعلم بأن للعائلات أسرارا يجب التكتم عليها حتى مرض الطفل نفسه ، وإذا كانت أصول اللياقة الطبية تحرم عليك البوح بسر المريض البالغ فاعلم أن للطفل نفس الحقوق . فكثيراً ما تتصل بك إحدى السيدات وتطلب منك

أن تطمئنها على ابن فلانة هانم دون سابق معرفة ، ففى هذه الحالة يمكنك أن تحتج بالنسيان فى ظرف بالغ دون أن تشعرها بالحرج ، إذ نادرا ما يحدث أن تكون المستفهمة ضرة للأم أوعدوة لها ، وتريد التشفى منها فى شخص طفلها البرىء ، فيجب أن تعمل كل حساب لهذا الاحتمال رغم ندرته . أما بقية المستفهمات فهن فى الغالب محبات للاستطلاع ، تباهين بأنهن اتصلن بالطبيب مثلا ، وأنه أخبرهن بأن الأمل ضعيف أو منعدم مثلا ، ثم يعقبن والدموع المصطنعة تنهمر من عيونهن : لهفى عليك يا عليه أو يا فاطمة مثلا . . . منذ متى كان حظك حسناً ! فواجبك أن تجنب الطفل هذا الموقف الحرج أزاء الذين يستغلون مرضه لإظهار عاطفة مصطنحة لا تتعدى فى عمقها جلودهن الرقيقة .

واعلم أن الله وهبك ميزة دخول كل البيوت من أبوابها والخروج من أبوابها بوصفك طبيباً حفيظاً على السر، وفى أطراف أصابعك لمسة السيد المسيح عليه السلام ، وعليك أن تحتفظ فى دفينة نفسك بكل خبايا العائلة التى ائتمنك عليها .

فإذا جاءت سيرة فلان ، وخاصة إذا كان معروفا بعض الشىء ، فلا تبدأ فى سرد أسماء العائلة من الزوجة ثم الأولاد ثم حليمة المربية للتدليل على شدة اختلاطك واندماجك ، وقد يكون بين الموجودين طبيب أو أكثر اندمج بهذه العائلة نفس الاندماج ،ولكنه يتمتع برزانة وتمسك بمبادىء اللياقة تمنعه من الافاضة بهذه الأسرار التى قد تبدو تافهة ولكنها تجرح الأذن المرهفة الحساسة . واذا تدعمت العلاقة بينك وبين الزوجين فكن دائما ناصحاً نصوحاً وحمامة سلام إذا حدث فى الجو العائلى حادث . ولا تتدخل إلا إذا طلبا منك المشورة . والطبيب اللبق هو الذى يغمض عينيه عما تحس به نفسه من حدوث انفصال عاطفى أو عقلى بين الطرفين الحبيبين . إن الذين يرفعون الكلفة مع

الطبيب لا يتعدون الواحد فى الألف . أما الباقون فيودون لو تركوا وشأنهم للزمن يصلح ما أفسده .

وأنى أقول بكل أسف أن الجو العائلى الذى أرتضيه لكل زوج وزوجة غير كائن على الوجه الأكمل ، وأن فن المشاركة فى الحياة الزوجية — كما هى الحال فى جميع أنحاء العالم — يكاد يكون منعدماً فالزوج يعمل فى سبيل الابقاء على الوحدة الاجتماعية المتواضعة المكونة من زوجة وأولاد وجدران تضمهم فى حنان لتقيهم من عاديات الزمان . والزوجة تشكو لك أن الوحدة تكاد تقتلها ، وتكاد تبكى على أيام الزواج الأولى المليئة بالحب والحنان والكلمة الحلوة ، غير عالمة أن الحب فى الحياة الزوجية حب ناضج واقعى عميق مبنى على أساس قديم من الغزل والمتعة ترسبت حبيباته فى قاع الإناء الجميل الذى يسمونه تجربة الحياة ، وهو لا يموت أبداً كما تتصور الزوجات ولكنه يتخذ أشكالا مختلفة قد لا تكون فيها اللهفة الأولى والمناجاة والغزل ، ولكن فيها الحنان الواقعى الذى يدفع الزوج أن يبذل المهجة والروح فى سبيل المحافظة عليها وعلى من وهبتهم له من بنين وبنات . والزوج خلال تلك المعركة الطويلة تكفيه الكلمة البسيطة لترفعه إلى السموات العليا ،ويترنح طربا فى داخلية نفسه للفتة الرقيقة التى تجعله يشعر أنه لا يجاهد عبثاً فى سبيل من حوله ، وتدفعه إلى مزيد من التضحية والإيثار ، بل قد تخلق فى نفسه حباً صحيحاً لم يكن موجوداً عند بداية الحياة الزوجية . ونصيحتى أن تتخلص الزوجة من الفكرة المتأصلة فى أعماق نفسها عن أنانية الزوج وأنه لا يهتم إلا بنفسه ثم نفسه فقط ، فهذه الرغبة فى الامتلاك لا تدل على الحب اطلاقا بل هى بداية فجوة قد يدخل منها دخيل تنشد فيه عاطفة العذراء والعياذ بالله ، ثم تعود نادمة فليس هناك من يصلح أن يكون بديلا عن السعادة فى مملكة الزواج . واستمرار سعادة الأيام الأولى

فى يدها تماما إذا تجردت من الأنانية وحب الامتلاك ، واذا قضت أوقات فراغها فى البحث عن جديد يرضيه ، لا عن كلمة أو جملة تحاول العثور عليها من بين ثنايا ذاكرتها تجرحه بها وهو عائد من عمله يلهث من شدة التعب والارهاق . وياليت الزوجة تعلم أن هذا التآمر مع نفسها ضد زوجها الكادح خير منه وأفضل المصارحة ، فهى فى أغلب الحالات تنجح فى إصلاح ذات البين بينهما وخاصة إذا كان بالمنزل فلذات أكباد تجرى غير عابئة بما يدور فى خلد الزوجين ، فعندها يجب أن يتنازل كل من الطرفين عن بعض تصرفاته أو حقوقه كما قد يسميها لأن الانفصال جريمة مابعدها جريمة .

وكثيراً ما يقارن الزوج ـ وهو فى ثورته النفسية زوجته بأخرى من زوجات أصدقائه ، ويتحدث عن وجهها الباسم المشرق دائماً ، وحسن مقابلتها لزوجها ، وكذلك تتحدث الزوجة عن زوج صديقتها الذى يدللها ويداعبها أمام الناس فى غير تكلف أو حياء .

ومن تجاربى الطويلة يمكننى أن أقول أن هذه الابتسامة بكل أسف طلاء كاذب لا يراه إلا الغريب . أما داخل المنزل عند ماتغلق الأبواب فكلهم فى الهواء سواء . ولكن هناك شخص تبدو على سحنته خبايا نفسه بكل سهولة ووضوح وهناك آخر لديه القدرة على الظهور بمظهر الرضى رغم مابنفسه من ثورات مكتومة ، وكان الله فى عون الاثنين . . .

هذه بعض ملاحظات صدرت من قلب حنون أحب تلاميذه ومرضاه كما أحبوه ، واحتضنهم كما احتضنوه ، ولا عجب ياأحبابى فقد قضيت معكم نصف حياتى .

كفاحى مع فيروس شلل الأطفال

صورة من الحـــاضر

كنت أزور مدينة براج عاصمة تشيكوسلوفاكيا فى شهر أغسطس ١٩٦٣ وتعجبت عند ما أخبرنى صديقى الأستاذ هوستك رئيس قسم الأطفال أن مرض شلل الأطفال قد اختفى تماما من تشيكوسلوفاكيا فلم يصب طفل واحد بهذا الداء الوبيل خلال السنوات الثلاث الأخيرة. ويرجع هذا بالطبع للوعى الصحى والثقافى بين أفراد الشعب وتعاونهم المكين مع أولى الأمر منهم فى سبيل رفع مستوياتهم فى مختلف الاتجاهات.

أما هنا فوزارة الصحة تعمم التطعيم بمختلف الطرق ويقبل أفراد الشعب على الجرعة الأولى، ثم يأخذ عددهم النقصان حتى تصل إلى الثلث فى الجرعة الثالثة وتطفح المجارى وتملأ الشوارع بالمواد البرازية التى تحللت إلى درجة من السيولة حتى ليحسبها الغافل ماء، وهى السم الزعاف .. فهى تحمل جراثيم التيفويد، والدوسنطاريا وشلل الأطفال وغيرها مما يقدمه حامل الجراثيم فى طعام الطفل كل يوم.

ومن أشد ما يعصر القلب أسى منظر هؤلاء الصغار ينظرون إلى الطبيب فى تضرع وأمل .. وكانت آخرهم عندى تلك العزيزة « رنده » التى لم تكد تتم الشهر التاسع من عمرها. وقد أحضروها من دمياط على عجل، فقد اكتسح المرض جسمها كله فلم تمض عليها بضع ساعات حتى وصل الشلل إلى عضلات الرقبة والتنفس ولم يبق منها جزء يتحرك غير شفتيها تتمتم بهما فى همس: ماما ..ماما! كما اعتادت من قبل .. وهى إذ تفتح عينيها تنظر إلى الواقفين حولها فى شجاعة البرىء الساذج الذى تغدر به الدنيا أول مرة، ولعلها كانت تنظر إلى الدموع

الحائرة فى عيوننا فى دهشة وعجب ! .. وخيل إلىّ أيضاً أنها تنظر إلى فى امتنان قاتل . . وأنا أنقلها بيدى بعد منتصف الليل بقليل من منزلها إلى الرئة الصناعية بمعهد الشلل .. ولقد ظلت عيناها مصوبتين نحوى وكأنها تودعنى وأنا أنسحب تدريجياً من هذا الجو المقبض البغيض .. ومضت المسكينة إلى ربها بعد ساعات !

اللهم احفظ أطفالنا وهب الوالدين منا مزيداً من اليقظة والتعاون مع الدولة فى سبيل المحافظة على سلامة فلذات الأكباد .

وفى مناسبة أخرى ، وفى ساعة متأخرة من المساء استقبلت بعيادتى ضحية عزيزة من مدينة طنطا تتمثل فى طفل جميل لا يعدو عمره العامين وقد اجتاح شلل الأطفال جسمه فى ساعات معدودات . .

وطاب لى — كما أفعل أحياناً — أن أصحب الطفل المهلهل إلى معهد الشلل الذى أشرف عليه ، وكأنى أشيعه إلى مقره الأخير أو لعلى آخذ بيده وهو متعلق بالعشب الأخضر النامى على حافة الهاوية .

لقد خيل لى وأنا أجتاز باب المعهد أننى أسير فى موكب جنائزى . فهاهى الأم تحتضن حملها الغالى وقد علا نحيبها والزوج المثقف يتمتم متسائلا فى ندم بالغ كيف فاتنا أن نحقنك بالطعم الواقى ياحبيبى ! .. وأنا بين الاثنين لا أسمع إلا حشرجة تقطع نياط القلب .

ولكننى ما كدت أصعد درجات السلم إلى القسم الداخلى حتى شعرت باطمئنان عجيب ..

هذا الهدوء الشامل المخيم على هذا المبنى الذى يشبه أثناء النهار خلية النحل لفرط ما فيه من ضجيج وصخب . وشعورك أنك مقبل على قلعة أمان رغم مافيها من نقائص . والحكيمة السهرانة وزميلاتها من تلميذات

ومساعدات ممرضات يستقبلان الموكب الحزين بابتسامة شرقية فيها ترحيب وأمل ثم نظرة إلى الأطفال النائمين فى هدوء واستسلام .. لقد خاضوا نفس المعركة مثل زميلهم القادم الجديد . وقدر لهم أن ينجوا بأرواحهم بعد أن فقدوا القدرة على تحريك أجزاء من أجسامهم . .

ورأيت أطفالا آخرين قابعين فى طمأنينة عجيبة وصبر جميل فى جهاز الرئة الصناعية ينتظرون مصيرهم فى هدوء .. وأودعت الطفل العزيز فى أحد الأجهزة فنام على ظهره مستسلماً وربت على خديه مشجعاً وفى العين دمعة تترقرق .

ونزلت أسأل نفسى إلى متى وإلى أين يافيروس شلل الأطفال ! ! وإلى متى يضعنا الأباء والأمهات فى هذه المواقف القاسية بأمعانهم فى إهمال تطعيم أطفالهم ضد هذا المرض اللعين .

إن هذا الموكب الجنائزى الحزين الذى سرت فيه مع الصغيرة الحبيبة « رنده » وغيرها يتكرر بين الحين والحين بل لا بد أنه قد لازم التاريخ منذ عهد أجدادنا الفراعنة . . فقد شوهدت فى إحدى المعابد صورة منقوشة على جدار تمثل كاهناً اسمه « روما » عاش فى أيام الأسرة الثامنة عشر ، أى منذ ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد ، وقد بدا واضحاً من ساقه اليمنى الضامرة المشوهة أنه قد أصيب بمرض شلل الأطفال فى طفولته ، ويظهر أن جرثومة الشلل كنت منذ ذلك التاريخ فى أجسام سكان هذا البلد ، تمر خلالها محدثة مجرد وعكة بسيطة قد تشبه الانفلونزا أحيانا ، والنزلة المعوية حينا آخر . ولكنها نادراً ما تسبب شللا فى الأطراف وان تركت فى الجسم مناعة دائمة بدليل أن ثمانين فى المائة من المصريين توجد فى أجسامهم مواد مضادة لفيروس الشلل .

والمعروف حتى وقتنا هذا أن هذه الجرثومة لاتترك جسماً أدمياً إلا دخلته ، إما عن طريق الأنف أو الفم . محدثة هذه الوعكات البسيطة . ولكن الشلل

نفسه فإنه يحدث فقط فى حالة واحدة من كل عشرة آلاف حالة تدخل الجرثومة فيها جسم الإنسان . . ولولا لطف الله وحكمته فى ذلك لاستعان نصف سكان العالم بالعكاكيز والأطراف الصناعية فى تنقلاتهم اليومية .

فاعلم — حفظك الله من كل سوء — أن هذا الفيروس اللعين قد يزور المرء ذات يوم ويجثم على الصدر فى صورة مبسطة متواضعة كأن يصاب بزكمة ملحة أو اضطراب معوى لمدة يومين أو ثلاثة ثم لا تلبث الموجة العابرة فى غير جموح أن تنحسر تاركة وراءها ظاهرتين متناقضتين ، أولاهما مناعة دائمة مدى الحياة . وثانيهما أنها تجعل من المرء مصدر خطورة لمن حوله من أطفاله وأطفال غيره . لأنه يبقى مدى شهرين حاملا للجرثومة فى فضلات جسمه . وتظل هذه الحالة مدى الشهرين بالتمام لا تنقص يوما ، بل قد تزيد . وكثيراً ماتلطم الام صدرها عند ما يفاجىء المرض طفلها العزيز متعجبة كيف وصلت الجرثومة إلى عتبة دارها وهى التى تعنى بنفسها بكل ما يخصه ، غير عالمة أنها قد تكون هى نفسها مصدر العدوى خلال هذه الفترة اللعينة ، فترة الشهرين التى تعقب الوعكة الطارئة التى جعلت منها حاملة للجرثومة وهى السليمة المظهر دون أن تدرى .

أذكر عند ما كنت نائباً بقسم الأطفال فى مستشفى قصر العينى منذ نحو ربع قرن أن أستاذى المرحوم الدكتور ابراهيم شوقى كان يوصينى أن أفتش عن حالة شلل أطفال ليعطى عليها درساً للطلبة ، فكنت أجدّ فى البحث لمدة شهر فى العيادة الخارجية قبل أن أعثر على حالة واحدة .. وهذا دليل كاف على ندرته . ففى خلال عام ١٩٣٩ لم يتردد على العيادة الخارجية المكتظة أكثر من ٣٩ حالة .

ثم جاءت الحرب الكبرى وامتلأت البلاد بجنود الحلفاء ومن بينهم

كثيرون من حاملى جرثومة الشلل — وخاصة الأمريكان منهم — فقد كان المرض وبائياً حتى ذلك الحين فى الولايات المتحدة . . فاخذ الرقم يرتفع رويداً رويداً حتى وصل إلى ٨٨٩ حالة فى قسم الأطفال بقصر العينى . . وإذا تخيلنا أن مثل هذا العدد قد تردد على العيادات الأخرى لوصل العدد إلى ١٨٠٠ حاله وأصبحت نسبة الإصابة عندنا تتعدى نسبة الولايات المتحدة حتى فى أشد السنين ذعراً لديها بين عامى ١٩٣٢ ، ١٩٤٦ قبل اكتشاف الطعم الواقى حين كانت النسبة هناك ٢٦ر٧ حالة لكل مائة ألف من السكان بينما بلغت عندنا ٩ حالات لكل مائة ألف من السكان !!

واشتدت حدة الوباء فبلغ عدد الإصابات بمعهد شلل الأطفال التابع لجامعة القاهرة — والذى أتشرف بادارته — ١٤٧٦ فى عام ١٩٥٧ ، ٢٠٣١ حالة فى عام ١٩٥٨ ، ٢٥٤٨ حالة فى عام ١٩٥٩ ، ٢٤٤٣ حالة فى عام ١٩٦٠ ثم أخذت الحالات تقل إلى ١٦٦٨ فى عام ١٩٦١ ، عند ما بدأ استعمال الطعم الواقى عن طريق الحقن « سولك » ثم زفت البشرى بأن الرقم هوى إلى ١٣٧١ حالة فى عام ١٩٦٢ عند ما بدىء فى تعميم طعم الفم « سابين » ويالها من بشرى ! .

إن ظهور إصابتين فى بريطانيا بأكلها من أقصاها إلى أقصاها قد تسبب فى مشكلة قومية فى العام الماضى وأجريت بسببها تحقيقات عديدة لتلافى هذا مستقبلا ! . .

وفى الولايات المتحدة كان ظهور (٢٥) حالة فى العام الماضى موضع استغرات وأسى !! ولم تظهر حالة واحدة خلال الخمس السنوات الأخيرة فى البلاد الاسكندنافية . وترجع هذه الندرة إلى عوامل شتى أولها نضج الوعى الصحى بين أفراد الشعب فهم يأخذون أطفالهم فى الأعمار والمواعيد التى تحددها الدولة إلى مراكز التطعيم ويدركون عظم المسئولية الملقاة على كاهلهم إزاء فلذات أكبادهم .

أما هنا فنظرة واحدة إلى الأرقام التالية تبين لنا إنعدام روح المسئولية بين كثيرات من أمهاتنا فى خلال الحملة الكبرى التى نظمتها وزارة الصحة بقيادة وزيرها اللامع النبوى المهندس الذى أطلقت عليه طوال حياته معى لقب « الجبار »، وبعد الدعاية الضخمة الواسعة التى لم تترك عذراً لمقصر فى حق نفسه وولده ،أقبلت الأمهات على الجرعة الأولى من الطعم المضاد فتقدمت لمراكز التطعيم ١٤٧ر٩٤٨ر١ حالة . ونقص العدد تدريجياً حتى وصل إلى ٣٥٣ر٣٢٩ر١ فى الجرعة الثانية . ثم إلى ٤٩٣ ر ٩٣٨ فى الجرعة الثالثة أى إلى النصف تقريبا

وماذا حدث نتيجة هذا .؟ تأتى الأم إليك باكية وقد حملت طفلها المصاب بالشلل وتقول لك أنها أعطته جرعة أو جرعتين ونسيت الباقى لمشاغلها المنزلية! ويعز عليك أن تعاتبها بعد وقوع المحظور فتكتفى بابداء الأسف .

وفى القاهرة مثلا تردد على مراكز التطعيم ٣٥٠ر٠٠ طفل أصيب منهم بالمرض ٥٨ عقب الجرعة الأولى ، و٣٦ خلال شهر من الجرعة الثانية و ١٥ خلال شهر من الجرعة الثالثة .. أى أنه حتى الذين واظبوا قد تعرض خمسة عشر منهم للمرض . فما بالك بالمقصرين المتخلفين ؟!

ومما لا شك فيه أن الحالات التى أصابها المرض رغم أخذ الجرعات الثلاث تشفى إلا قليلا مما يدل على مناعة متأصلة فى الجسم نتيجة الطعم . ويعلم الله ماذا كانت تكون النتيجة لو اجتاح الفيروس جسما خالياً من المناعة لا قدر الله .

إن طعم شلل الأطفال بنوعيه أصبح حقيقة واقعة فى جمهوريتنا ، وما تبقى من مسئولية الرسالة يقع على كاهل الفرد ووعيه واستماتته فى سبيل إبعاد هذا الغول عن عتبة داره .

* * *

صور من الماضى

راعتنى كثرة حالات شلل الأطفال التى كانت ترد على عيادات الأطباء وعلى عيادة مستشفى الأطفال بالمنيرة عقب الحرب الكبرى الثانية .

وقد كان ذلك بطبيعة الحال نتيجة كثرة وجود حاملى الجرثومة بين قوات الحلفاء وخاصة الأمريكان منهم ، وأردت أن أدق ناقوس الخطر لأول مرة . ولم يكن فى ذلك الوقت قد تم اكتشاف الطعم المضاد فكتبت الآتى فى أهرام يوم ١٢ يوليه سنة ١٩٥٢ (أى قبل قيام الثورة بأحد عشر يوما) .

«المدينة فى فزع والناس حيارى يتسألون عن الغول الجديد الذى لمع اسمه فجأة وأعنى به شلل الأطفال . والطبيب منا غارق لقمة رأسه فى بحيرة من الدماء الغالية لحماية فلذات الأكباد يحاول الأخذ بيد الضحايا الذين ابتلعتهم دوامات أليم أو كادت ، وما كان أغناه عن هذه الدوامة الجديدة التى جاءت من عالم الغيب لتعوق جهوده فى سبيل انتشال الضحية من قاع اليم وقد شرق منها الحلق أو سدت منها المنافس .

وأنى أقول والاسى يملأ نفسى أن هذا المرض أصبح وبائياً فى مصر بعد أن كان حدوثه فى حكم النادر فيما مضى . وقد لوحظت زيادة كبيرة فى نسبة عدد الإصابات فى الأعوام الأخيرة .

وتكتم الطبيب أنباء المعركة حتى لا يسرى الفزع بين الآمنين العزل .

ولكن آن الأوان أخيراً أن يرفع الستار عن هذه المعركة الطاحنة بين ابن آدم المصرى وهذه الجرثومة الجديدة عليه فأصبح من حقه أن يعرف بعض التفاصيل التى قد تعينه على تجنب شرورها .

إن هذا المرض إذا تمـكن واستحكم لا يعرف جاها ولا مالا ، يدخل القصور والأكواخ ليصيب الغنى والفقير على حد سواء . ويدهش ساكن القصر الشامخ كيف تطاولت الجرثومة على عتبة داره وهو المنزه عن تهمة الإهمال أو التراخى فى أتباع أصول النظافة فى المأكل والملبس والمشرب .

وقد تدهش معه أنت الآخر فتضرب كفاً على كف مواسياً متعجباً . ولسوف تزول دهشتك ويتلاشى عجبك إذا علمت أن هذه الجرثومة البهلوانية تتبع فى انتشارها نفس الطريق الذى استنته لنفسها أختها التيفود ، أى عن طريق الذباب والبراز واللبن ومياه الشرب وحامل الجرثومة . وقصة حامل جرثومة شلل الأطفال عجيبة طريفة فلقد ثبت أن هذه الجرثومة تعيش فى براز المريض بعد انتهاء الدور الحاد لمدة طويلة قد تصل إلى أربعة شهور . ولو اقتصر الأمر على حالات شلل الأطفال الصريحة لهان الأمر .

ولـكن هناك حالات خفيفة لا تتعدى فى مظهرها البرىء أمراض الانفلونزا العادية دون أن تصل إلى دور الشلل فتبدأ بأعراض رشحية فى الأنف والحلق مع ارتفاع فى الحرارة ثم تختفى الأعراض بعد يومين أو ثلاثة دون أن يصاب الطفل بالعلامة المميزة للمرض وهى الشلل ، فينظر إليه وكأنه ناقه من انفلونزا حادة أو رشح بسيط .

كل هذا والجرثومة كامنة فى سراديب الأمعاء تنطلق منها على دفعات فى البراز ناقلة العدوى إلى كل من تجده فى طريقها إما عن طريق اللمس والأدوات المنزلية كالملعقة والـكوب والفنجان أو بواسطة الذباب بعد ما يحط على البراز الموبوء . هذه الحالات الخفيفة هى المسئولة عن نسبة كبيرة من حاملى الجرثومه ، وهم الذين يندسون بين الأصحاء ناقلين المرض بلا رحمة ولا هوادة .

وقد تنتقل الجرثومة عن طريق الرذاذ المتطاير من الأنف والفم ، ولقد ثبت أنها لا تبقى فى هذه الافرازات إلا أيام قلائل بعد انتهاء الدور الحاد ثم تختفى بعدها تماما .

وقد تبدأ أعراض هذا المرض فجأة ، فيذهب الطفل إلى فراشه سليما معافى فإذا به فى الصباح قد فقد القدرة على تحريك أحد أطرافه . ولكن العادة أن يبدأ المرض بارتفاع فى الحرارة وصداع ورشح والتهاب فى اللوزتين ، وقد يصاب الطفل بقىء واسهال أو امساك وهذا يشير إلى وصول الجرثومة إلى الأمعاء ومن هنا تنتقل إلى النخاع الشوكى فيحدث تأثيرها شللا فى الاطراف.

أما الحالات القليلة التى تنتقل فيها إلى المخ حيث تغزوا مراكزه الرئيسية كمركز التنفس والدورة الدموية فتقضى على الطفل فى ساعات أو أيام والمسأله لا تعدو القسمة والنصيب والمصادقة المحضة .

وتشخيص المرض فى دوره الأول الذى يسبق الشلل يكاد يكون فى حكم المستحيل وكثيراً ما يندهش أهل المريض لأننا لم ننذرهم بالحقيقة المرة قبل وقوعها ، فالغالب أن يشخص المرض على أنه التهاب فى اللوزتين أو انفلونزا معوية إذا صحبه قىء أو إسهال .

ولم يكتشف العلماء حتى الآن أى وسيلة للوقاية على هيئة مصل أو طعم مضاد وكل مانشر عن هذا لا يعدو دور التجربة . ولا حيلة لنا فى هذا السبيل إلا عزل المريض وإعدام افرازاته سواء الأنفية منها أو البرازية .

وقد أشرنا إلى أهمية الذباب واللبن ومياه الشرب فى أحداث الأوبئة المحلية أو العامة لذا تجب مكافحة الذباب بنفس الشدة التى نتبعها فى أوبئة التيفود والكوليرا . كما يجب أن يغلى اللبن جيداً ولمدة عشر دقائق على الأقل .

أما علاج شلل الأطفال فأهم عناصره الراحة فى الفراش حتى تختفى الأعراض

الحاده ، ووضع الساق أو الذراع فى وضع مناسب يقلل من تمدد العضلات المشلولة التى تعالج بالكهرباء والتدليك لتنشيط الدورة الدموية فيها ثم التذرع بالصبر وترقب الحوادث عن كثب حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا » .

انتهى مقال شهر يوليو عام ١٩٥٢ .

* * *

وما كاد المسئولون عن الصحة والوقاية بوزارة الصحة يقرأون هذه الكلمة حتى أوجسوا خيفة من أن يشيع الذعر بين المواطنين ، فصدر بيان من وزير الصحة إذ ذاك يقول فيه : لا يوجد شلل أطفال فى مصر . ولكنهم أرسلوا فى نفس الوقت مسئولا من قبلهم فلما اطلع على الإحصائيات التى تحت يدنا بالمستشفى اقتنع تماما ، ولكن لم يكن لدينا فى ذلك الوقت السلاح الواقى أى الطعم إذ كان لا يزال فى دور التجربة بالولايات المتحدة الأمريكية ولم ينضج إلا خلال عام ١٩٥٤ ، ومن هناك تغلغل إلى أنحاء المعمورة إلا أن ولاة الأمور لم يقتنعوا بضرورة استيراده واستشرى الداء واستفحل وأطاح برؤوس عزيزة وكنت أترقب الفرص للفت الأنظار لأهمية هذا المرض والوقاية منه بوساطة الطعم المضاد (سولك) وكان قد ثبت مفعوله بطريقة جازمة وكانت جريدة الأهرام هى منبرى طوال أيام كفاحى ضد هذه الجرثومة اللعينة وفتحت لى صدرها فى ترحاب عجيب .

فعند ما عدت من كوبنهاجن فى عام ١٩٥٦ كتبت أقول :

« عند ما كنت فى كوبنهاجن فى شهر أغسطس ١٩٥٦ أثناء انعقاد المؤتمر الدولى الثامن لأمراض الأطفال استرعت نظرى اللافتات المنتشرة فى كل مكان فى الترام وفى الأتوبيس والشوارع العامة وفيها اعلان للجمهور أن يتوجه كل من لم يتجاوز سنه الأربعين عاما إلى أقرب مكتب صحة ليحقن بالطعم المضاد

لمرض شلل الأطفال فعجبت للشوط البعيد الذى قطعه هؤلاء القوم فى ميدان الطب الوقائى .

فهم قد بدأوا فى تطعيم الأطفال بين السنة الأولى والخامسة ثم زحفوا فى سبيل الوقاية من شلل الأطفال نحو مختلف الأعمال حتى وصلوا إلى سن الأربعين، وهم يأملون الوصول إلى سن الستين عام ١٩٥٧ . أى أن كل مواطن فى الدنمرك سيصبح فى مأمن من هذا المرض الوبيل . كل هذا ونحن نغط فى سبات عميق ! وإصابات الأطفال تتراكم أمام أعيننا كل يوم فى العيادات والمستشفيات ونحن مكتوفو الأيدى لأنه لا حيلة لنا إلا أن ننتظر فتات المائدة من الغرب . وقد وصل الفتات أخيراً . . . ولكنه فتات قيمته كالذهب الأبريز ، وقد كانت الأخبار تصل تباعاً عن تباشير الخلاص ويتناقلها الآباء والأمهات فى سرور كبير وكلهم متلهف أن يصل الدواء قبل أن تطأ الجرثومة عتبة دارهم .

لقد أجمعت كل المصادر على سلامة مفعوله حتى قيل أن التحدث عن خطورة قد تنتج من استعماله أصبح فى ذمة التاريخ ، وكل ما يجب أن يشغل بالنا الآن هو الارتفاع بنسبة نجاحه فى منع المرض من ثمانين فى المائة إلى مائة فى المائة . والحالة الوحيدة التى يخشى فيها على صحة الطفل هى وجود حالة شلل حديثة فى نفس المنزل فقد يكون طفل المخالط التقط العدوى وأصبح فى دور التفريخ فيتعرض لإصابة شديدة ويحدث نفس الشىء مع أى مرض آخر له طُعْم خاص كالتيفود والدفتريا وغيرها .

وقد لوحظ أن طعم شلل الأطفال يخفف جداً من شدة الإصابة اذا حدثت ، وأن الحالات التى تنتهى بالوفاة نتيجة شلل الجهاز التنفسى أصبحت نادرة أيضاً فى الأطفال الذين حقنوا بالطعم الواقى .

وقد عقد فى العام الماضى مؤتمر ضم كبار المسئولين فى الولايات المتحدة فوصلوا إلى قرار إجماعى فى١٨ يونيو سنة ١٩٥٥ يتضمَّن الآتى :

أولا — أن مفعول الطعم الواقى من شلل الأطفال أصبح فوق مستوى الشك وأنه قلل من نسبة الأصابة بدرجة كبيرة .

ثانياً — إن نسبة معينة من الأجسام المضادة تظهر فى جسم الأطفال فى خلال الأيام العشرة الأولى بعد الحقن بالطعم الواقى . وهذه الكمية تكفى لمنع خطر الإصابة بالمرض نتيجة الحقن بالطعم الواقى — وهو الشىء الذى يخشاه الجميع .

ثالثاً — أن خطر الإصابة بالمرض نتيجة الحقنة قليل جداً ولا يستدعى التردد فى حقن الطفل أثناء وجود وباء قد يكلفه حياته أو واحداً أو أكثر من أطرافه . فيجب تجاهل هذا الخطر عند ما نواجه مشكلة مكافحة الحد من حدة الوباء فى منطقة موبوءة .

ولقد استعمل هذا الطعم لوقاية ملايين الأطفال فى كثير من البلاد المتحضرة ولمست هذا بنفسى أثناء رحلتى الأخيرة فى أوروبا . فلم أسمع أحداً يتحدث عن خطورته أو عدم كفايته . والدول التى استعملته تحرص الحرص كله على سلامة أطفالها فالحياة عندهم غالية ثمينة . ومسئوليتهم أمام المواطن كبيرة ، والويل لهم إذا أخطأوا . والشركة التى أبدت استعدادها لإحضار الطعم الواقى لإنقاذ الطفل المصرى شركة كبيرة مضمونة تحافظ على سمعتها العالمية .ورغم أن الاتجاه العامى هو تجربته فإنى أناشد وزير الصحة الدكتور نور الدين طراف — وهو الثورى الذى أعرفه — أن يعمم استعماله دون تجربته فقد نضج وثبتت أقدامه — وأن يصدر قانوناً يجعل التطعيم إجباريا لجميع أطفال القطر المصرى

الذين تتراوح أعمارهم بين الشهر السادس والثانى عشر . وقد أثبتت التجارب أنه لا ضرر من حقنه فى نفس الحقبة من العمر التى يحقن الطفل فيها ضد الدفتريا والسعال الديكى ، أو حتى فى نفس الوقت .

ويفكرون الآن فى استنباط طعم يجمع بين الثلاثة ليحقن الطفل بها دفعة واحدة ، ولو أنه لا توجد حاجة ملحة إلى هذا .

ولو رأى زملائى أقطاب الطب الوقائى فى مصر ما أراه يومياً فى مآسى هذا المرض الوبيل لضموا أصواتهم لصوتى ورحبوا بعرض هذه الشركة الكبيرة وكتبوا بخطوط عريضة تاريخاً جديداً فى سبيل صحة الطفل المصرى ».
انتهى مقال عام ١٩٥٦

* * *

ثم حالت ظروف الاعتداء الثلاثى الغاشم عام ١٩٥٦ دون اتخاذ خطوات إيجابية فى هذا السبيل .

وكان صيف عام ١٩٥٧ فاصلا فى المعركة فقد سافرت إلى جنيف لحضور مؤتمر شلل الأطفال الدولى الرابع ووضعت النقط فوق الحروف عندما كتبت هذه اليوميات فى جريدة الاهرام بتاريخ ١٩٥٧/٨/٨ .

اليوم الأول : لا تظفنى آت لك بجديد فى علاج شلل الأطفال . فلا يزال العلم فى هذا الاتجاه قاصراً على التدليك وتعليم المريض البائس اليائس كيف يستعمل العضو المصاب بتمرين يجريه أو آلة صناعية يلبسها متثاقلا وهو يلعن المسئولين عن صحته وسلامته ، والذين كان يجب عليهم منذ البداية العمل على تجنيبه هذا الداء الوبيل ، لقد تركت ورائى فى مصر أشلاء متناثرة تنشد الخلاص من غير أمل ، وضحايا أوصلتهم بيدى إلى الرئة الحديدية حتى اللحظة الأخيرة قبل سفرى لأنقذ منهم الانفاس الأخيرة . والمعركة فى مصر ما زالت

على أشدها ، ولجرثومة الشلل اليد العليا فيها ، فهى ما زالت تطيح بالأجسام وتقطع الأوصال فى سهولة ويسر وكأنها معركة من جانب واحد .

إن السلاح الوحيد الذى يمكننا أن نرد به كيد هذه الجرثومة إلى نحرها هو الطعم المضاد الذى أفاد منه العالم المتمدين إلا مصر ، فإنها ما زالت متراخية فى برود عجيب ، فى استيراده ولو لبيعه فى الصيدليات لمن يريد من أفراد الشعب ، ولمن تمكنه حالته المالية من الإفادة منه ، وهو النظام المتبع فى بلاد أوروبا جمعاء . وهو لا يصرف من الصيدليات إلا بروشتة طبيب .

إن بلاد العالم المتمدين جعلت التطعيم إجبارياً حتى سن الأربعين ، ويأملون إيصاله إلى سن الستين قريباً ، والسياسة المتبعة فى الولايات المتحدة هى العمل على إبادته كلية وقطع دابره من أمريكا قبل نهاية عام ١٩٥٨ . تصور !

خطرت لى هذه الأفكار وأنا أغادر فندق (دى رون) حيث المقر المؤقت لسكرتارية المؤتمر ، وكنت مشدوهاً من فرط النظافة والنظام وأدب المعاملة التى لاقيناها جميعاً من القائمات بالعمل والمشرفين على راحة الأعضاء ، وفى فورة المقارنة بين ما عندنا وعندهم ، وبين مؤتمراتنا الطبية ومؤتمراتهم هاجت فى نفسى السطور الأولى من اليوميات .

اليوم الثانى : ذهبنا إلى قاعة فيكتوريا لحضور حفلة الافتتاح . وبينما أصعد درجات السلم أحسست بيد تمسك بذراعى فى عطف وشوق . فنظرت خلفى فوجدت الأستاذ (دبريه) أمام أساتذة الأطفال فى فرنسا . وكانت معرفتى به ترجع إلى العام الماضى عند ما رأس مؤتمر دائرة مستديرة فى استوكهلم لبحث موضوع تدريس مادة طب الأطفال فى كليات الطب . وكنا خمسة عشر أستاذاً من جميع أنحاء العالم ، فتمكنت بيننا جميعاً صداقة أكيدة مَبْنيّة على العلم والتقدير الشخصى . حاول أن يعاتبنى على عدم تلبيتى

لدعوته لحضور مؤتمر الأطفال الذى عقد فى باريس فى أواخر يونيو الماضى ، ثم استدرك قائلاً : أنا أعرف السبب (يقصد الاعتداء الثلاثى الذى وقع فى عام ١٩٥٦) .

أحسست وأنا جالس فى هـذه القاعة أننى انتقلت إلى عالم آخر ، عالم تحررت فيه من عبودية المهنة ، ولجأت تائباً كالإبن الضال إلى صومعة العلم من جديد ! صومعة تنسى فيها متاعبك وخاصة عند ما تتأمل كيف ضحت هذه الآلاف المؤلفة بما مجموعه آلاف الساعات والدولارات والجنيهات فى سبيل الانضمام إلى القافلة الخالدة . أن العلم حلو ومر معاً ومن ذاق حلوه لا يسلى مُره .

وذهبت بعد انتهاء حفلة الافتتاح إلى قاعة المحاضرات بالمبنى الجامعى وهناك وجدت اللافتات الضخمة على أكشاك شركات الأدوية التى تنتج الطعم الواقى وتحريت عن إمكان تصديره إلى بلادى ، فـكان الجواب بالنفى إلا شركة بارك ديفز فقد أخبرنى ممثلوها أنهم يسمحون بتصـديره للخارج بناء على طلب الحـكومات . أى أن الحـكومة المصرية مثلا أو الجهة المختصة منها تـكتب إلى الشركة رأساً ، وتطلب أى كمية من الطعم فترسل فى الحال مقابل خمسة دولارات وعشرة سنتيمات للأنبوبة التى تحوى ١٠ سنتيمترات مكعبة وهى تـكفى لتطعيم ثلاثة أشخاص . وآفة هذا الدواء غلو ثمنه . ولـكن هذا لا يمنع الحـكومة من استيراده ليـكون تحت تصرف المستهلك العادى ليشتريه من الصيدليات العامة . أما تعميمه فيأتى مع الوقت ، فقد أخبرنى الأساتذة من مختلف البلدان أن الطعم سوف يصبح رخيصاً بعد عام واحد وسيغمر الأسواق كأى طعم واق آخر يشتريه كل من هب ودب . وحتى يحين هـذا الوقت يجب ألا نترك القادرين على شرائه من أفراد الشعب يعيشون فى جحيم القلق على فلذات أكبادهم . وهناك أيضا شركة إيطالية كبيرة تنتج هـذا الطعم بكميات كبيرة وتصدره للخارج .

ودخلنا قاعة المحاضرات وبدأت كلمات رؤساء وفود الدول ، وكان لى شرف إلقاء كلمة وفد مصر عن مشاكل شلل الأطفال فى بلادنا وكان فيها إحصائيات لفتت النظر . وكان وفد مصر مكوناً من الدكتور شفيق عباسى ومنى ، ولم يتنازل طبيب مصرى آخر بالحضور . لا زال بعض الناس يظنون أن حضور المؤتمرات عبث وضياع للوقت ، وهذا خطأ لو يعلمون عظيم ، ولقد كان مندوب إسرائيل يباهى فى تواضع أنهم أنشأوا معملا لإنتاج الطعم المضاد لشلل الأطفال وقد بدأ إنتاجه منذ شهر يونيو سنة ١٩٥٦ وأمكنهم ـ بفضل إنتاجه مضافاً إليه ما يستورد من الولايات المتحدة ـ من تطعيم ٩٨ فى المائة من الأطفال بحقنة واحدة ، و ٨٥ فى المائة من الأطفال بحقنتين فقلّت عدد الإصابات إلى ١٣ إصابة خلال عام بعد أن كان يتجاوز الألفين سنوياً .

ولقد تكلم جوناس سولك صاحب الطعم المسمى باسمه . فقوبل بهتاف وتصفيق بعد الانتهاء من كلمته . ولابد أن القارى يريد منى أن أصف له هذا الرجل الذى هز العالم باكتشافه . أنه رجل ضئيل الجسم يعلو وجهه الشاب المنسّق منظار أنيق ، أسود الشعر شرقى السمات ، فى نظراته عمق وفى كل كلمة ينطقها معنى ، حتى ليصعب عليك أحياناً تتبعه ما لم تنصت إنصاتاً تاماً ، يوجد منه فى كل بلد مئات بل آلاف ، ولكن الفرصة الكبيرة التى تأتى مرة فى العمر وقد لا تتكرر أبداً — سنحت له بفضل الإخلاص فى العمل والمثابرة بلا كلل فى معمل مجهز تمده الدولة بملايين الدولارات ، لا تقف فى سبيله عقبة وما أكثر العقبات التى تعترض الباحث نحو أفق منشود ، منها ما هو مادى وما هو أدبى أو نفسى ، والويل للعالم من ضيق ذات اليد وعدم الاستقرار النفسى .

اليوم الثالث : جلست فى فترة الاستراحة مع مجموعة من العلماء تضم الدكتور جارد العالم السويدى ، والأستاذ أولين السويدى ، والدكتور ماجنس

الدنمـاركى والدكتوره دوررثى هورتسمان الأمريكية ، وكان حديثنا يدور عما حدث فى جلسات الأمس وغيرها من مناقشات . وتمثـل الدكتورة هورتسمان التخصص العالمى بأجلى معانيه . فهى تجيب على كل سؤال يوجه إليها إجابة مسهبة مدعمة بالأرقام والأسماء والمراجع وكأنها تقرأ فى كتاب مفتوح .

وفى المساء نظمت هيئة المؤتمر رحلة فى بحيرة جنيف ومدت على الباخرتين أسمطة فيها مالذ وطاب من أكل وشراب ، وكان الجو بارداً فقبعت أنا والدكتور شفيق عباسى فى ركن دافىء ننتفض من البرد بينما رقص الجميع من شيوخ وشباب . وقد راقبت الدكتور سابين العظيم صاحب فكرة الطعم عن طريق الفم وهو لا ينقطع عن الرقص طوال الرحلة فى نشاط كبير دون أن يلهث وكأنه ابن العشرين مع أنه جاوز الستين ! فهمس الدكتور عباسى فى أذنى قائلا : لا عجب إذا استيقظ هذا الرجل فى صباح اليوم التالى نشيطاً مكباً على البحث وراء المجهول فى نشاط ومثابرة .

اليوم الرابع : اختتم المؤتمر جلساته فى الساعة الرابعة مساء .

ثم نهض رئيس الجلسـة وقال فى تأكيد وثقة أن معركة لا شك فيها قد كسبناها ضد هذه الجرثومة بفضل طعم سولك . ويجب الا يعلق بأذهاننا بعض حوادث مؤسفة حدثت فى بدء استعماله ، فكلنا يذكر الكارثة التى حدثت فى (لوبيك) عند بداية استعمال طعم البى سى جى المضاد للدرن . ولـكن هناك بعض نقط يجب أن يوضحها البحث فى المستقبل وهى مدة مفعول هذا الدواء ، والـكمية التى تحقن ، وعدد الحقن ، وتـكرار الحقن لغرض استمرار المناعة والبحث وراء الفيروسات المشابهة لفيروس الشلل مثل الـكوكساكى والايكو ، فقد أثبتت الأيام أن كثيراً من الحالات التى تشخص على أنها شلل أطفال تنتج عن إصابة المريض بالفيروسات الأخرى المشابهة . ثم قال اننا طرقنا بابحاث شلل

الأطفال بعض الزوايا التى قد تفيد فى البحث وراء سبب السرطان والتى قد تكون بداية أفق جديد أو طريق جديد .

ثم دق على المكتب معلناً انتهاء المؤتمر فتنفسنا الصعداء . فليست المؤتمرات ملهاة انها إرهاق ومسئولية وعذاب .

وبعد هذا المؤتمر اهتمت الدوائر الحكومية باستيراد الطعم المضاد واتخذت التدابير فى سبيل تعميمه حتى ظهر النجم الجديد ، طعم سابين الذى يعطى بطريق الفم وبزغ فى لماعية كبيرة حتى كاد يكسف طعم سولك الذى يعطى عن طريق الحقن . ولما سافرت إلى كوبنهاجن لحضور المؤتمر الدولى الخامس لشلل الأطفال كانت الأبحاث بخصوص فاعليته قد ثبتت تماماً وسار الطعمان جنباً إلى جنب فى سبيل خير الانسانية جمعاء والطفولة بصفة خاصة . وخطر لى أن أكتب اليوميات أثناء وجودى بالمؤتمر ونشرتها الأهرام يوم ١٩٦٠/٩/٢ وإذا كنت أشير إلى الأهرام دائماً فان ذلك على سبيل الاعتراف بمساهمتها الحقة فى جهادى المتواضع ضد مرض شلل الأطفال .

المؤتمر الدولى الخامس لشلل الأطفال

اليوم الأول : عندما حضرت المؤتمر الرابع لشلل الأطفال فى جنيف عام ١٩٥٧ لم يكن هناك روسى واحد بين العلماء الذين اشتركوا فى البحث والمناقشة . ولم يذكر إسم روسيا إلا مرة واحدة عندما ذكر أحد الحاضرين أن الروس ادعوا اكتشاف نوع رابع من فيروس شلل الأطفال ثم أثبت البحث بعد هذا أنه فيروس نوع آخر هو كوكسا كى ب ٧ . وقد اعترف الروس بالخطأ الذى وقعوا فيه فعلاً فى المؤتمر الحالى الذى كان اليوم الثانى فيه يوم العلماء الروس بحق ، إذ تغلغلوا فى أفاق البحث بما لا يترك زيادة لمستزيد . وانتصروا على طول الخط فى أبحاث طعم الفم (سابين كوكس

كوبروفسكى) وكان علماء الغرب يصفقون لهم محيين معجبين ووضعوهم فى قلوبهم والتهموهم بعيونهم . فليس للسياسة مجال بين العلماء .

كان اليوم الأول يوم العلماء الإنجليز والامريكان لا ينازعهم فيه منازع ، ففى الصباح كانت الموضوعات كلها تخلب اللب وتقصم الظهر ، لعلو كعبها ، فقد تغلغلت فى حياة الفيروس الخاصة وأظهرت لنا كيف تعيش وكيف تتوالد . فهى كائن له رأس وذنب وللذنب زعانف كأنها أشواك السمكة . وفى وسطه قناة تمكنوا من حقن مادة خلالها بابرة خاصة وهى الكائن الذى لا يراه المجهر العادى ويظهرها بوضوح المجهر الالكترونى . وإنى ما زلت أحاول تخيل قطر هذه الابره التى يمكنها أن تدخل هذا الذى لا تراه العين ولا يدركه المجهر العادى .

سأل الدكتور سيدنى فى هذا المجال فى تؤدة وثقة شأن أبناء الانجليز ، ثم أخلى مكانه لزميليه هيرست ودليكو الامريكيين ، ثم ليفون الفرنسى ، وتكلموا عن تأثير عوامل خاصة تؤثر على حيوية الفيروس ومقاومته لمفعول الميسينات ، ومركبات السلفدريل وارتفاع حرارة الجسم وزيادة حموضة الدم على نمو الفيروس ثم تدخلوا فى هوادة فى موضوع الحمض النووى (حمض النيوكوليك) ذاكرين أنه أهم عنصر فى الفيروس من حيث نقله من خلية إلى أخرى . وبرز النجم الجديد المسمى (حامض الربونيوكليك) واثبت دلبوكو وهو العالم الكبير بحق أن كل جزء منه يتكون من سبعة آلاف جزء وعلى أجنحة هذه الجزيئات تنتقل إشارات العدوى على مختلف المستويات فى الجهاز العصبى .

وانفجرت الوقائع من فيه وممن تلوه مثل العلماء شيفر وكولنر وستوكز ونيفين ، فالقوا القول غير جزاف مفندين مفسرين مرتفعين بالعلم إلى

السماكين . والكل منا مرهف السمع ثابت البصر فى غير ملل زائغه أحياناً ، على ما يثبتونه لحظات على شاشة بيضاء ، وكنت أغبطها لسعادتها فهى التى تتلقى الصفعات الرقيقة يصوبها نحوها من بُعد فانوس كهربائى دقيق يشرف عليه متخصص لم يخطىء أبداً خلال الأيام الثلاثة الطوال .

وفى آخر جلسة الصباح ، وفى أفاق قاعة المحاضرات الفاخرة المريحة المجهزة بكل وسائل التهوية والتكييف والترجمة إلى لغات أربع ، زفت بشائر نجم جديد قد يكون له أثر كبير فى الوقاية والعلاج فى عالم الفيروسات وضمنها شلل الأطفال أسموها المادة الحائلة Interferon وقد تمكنوا من عزلها وأثبتوا أنها تبدأ فى الظهور فوضويا بعد يوم من الإصابة وتستمر لمدة أسبوع كما ظهر فى التجارب العلمية على رئة الفيران نحو فيروس الانفلونزا والعلماء يأملون أن يتمكنوا من عزل هذه المادة واستعمالها فى وقف سير الحالات الحادة وكذلك الوقاية منها . وهذا فضل على الإنسانية كبير . فإننا حتى الآن نقف حائرين أمام حالات شلل الأطفال الحادة وهى تزحف زحفاً نحو المراكز الحيوية العليا دون رحمة من الفيروس القاسية .

كذلك تحدث العلامة ماندل عن اكتشاف لا زال فى دوره التجريبى المعملى وهو احتمال الافادة من عزل الأجسام المضادة للفيروس لوقف سير نشاطها وهى تتلكأ على سطح العصب حال دخولها .

وتنفسنا الصعداء هذا اليوم الذى استغرقت جلساته ست ساعات متوالية لم يسمح لنا خلالها إلا بخمس دقائق مرتين ، الأولى بجلسة الصباح والثانية فى جلسة بعد الظهر ، وقد حذرنا رئيس الجلسة فى دعابة من مغادرة قاعة المحاضرات إلا لأسباب تتعلق بحياتنا وسلامتنا . وقال : إنى أسمح لكم بالوقوف والانثناء قليلا إلى الأمام ثم إلى الخلف ثم إلى الجانبين ، وأشكركم على حسن انصاتكم .

اليوم الثانى : وفى فترة الصباح توقعنا شراً مستطيراً . فإن كل الموضوعات كانت تتعلق بطعم سولك وكفاءته للوقاية من شلل الأطفال . وكنت أدقق النظر فى هذه العلامة طول جلسة الصباح وهو جالس فى الصف الأول يعلو وجهه بعض الكآبه وقد نحل وجهه وخف شعره الأسود الفاحم ، وكان يبدو كشخص يتحفز للدفاع عن كيانه ، فهو مهدد بالانهيار التام بعد أن كان ملىء السمع والبصر فى الخمس سنوات الأخيرة وكان يجلس بجانبى مباشرة ويفصلنى عن غريمة فى العلم الأستاذ سابين أحد مكتشفى الطعم الذى يعطى عن طريق الفم واكتفيت هذه المرة بالتعرف عليه . فكان ظريفاً مجاملا مبتسماً على طول الخط وأصبحنا أصدقاء بقية أيام المؤتمر ، وما المؤتمرات إلا وسيـــلة للتعارف والتآلف فى سبيل العلم والمجتمع .

وكان سولك يستمع إلى الخطباء الواحد بعد الآخر كالمحكوم عليه إذ يستمع إلى شهود النفى والإثبات ليحكم له أو عليه . وكان العلماء يتكلمون فى حياد تام وبروح عدالة مطلقة فيوردون الأرقام . وكان أولهم الأمريكى لانجمور ، وهو من ذوى الكلمة المسموعة جداً فى هذا المجال . وقد أكد أن النتائج أثبتت أن المناعة المكتسبة من حقن طعم سولك تبلغ ٩٠ ٪ بعد الحقنة الرابعة . وهذه نتيجة لا يرقى إليها الشك وما سبب هذه الانفجارات الوبائية إلا أن الطعم لا يعطى بطريقة منظمة تضمن عدم ترك أى طفل فى المجموعة دون تطعيم فإن بؤرة حساسة واحدة تكفى لأشعال النار من جديد .

وأجمع العلماء على أنه لو أمكن تعديل تحضير طعم سولك بحقنة واحدة بدلا من أربع ، وخفض ثمنه حتى يتيسر اعطاؤه لكل طفل ولكل بالغ فى المجموعة الواحدة دون تمييز أو تفريق ، فإن هذا الطعم لن يموت أبداً ، ولا بأس عليه أن يزامل طعم الفم فى سبيل الوقاية . وعلقت بينى وبين نفسى (مثل

الـكوكا كولا والبيبسى كولا تماماً) وانتهت الجلسة على خير ، وبدا على وجه سولك بعض الارتياح وقد أمن مستقبلة .

وفى جلسة بعد الظهر نوقش موضوع طعم الفم الذى اخترعه سـابين وكوكس وكوبروفسكى . وهم يعملون فرادى فى الولاية أو الجهة التى ينتمى إليها كل منهم . فسابين مثلا يعمل فى سنسناتى وكوكس فى معامل ليدرل ، ولذا يسمون طعمه كوكس ليدرل . وكابروفسكى فى فلادلفيا . وقد ثبت أن هذا الطعم قد جرب على نطاق واسع جداً . فمثلا جرب طعم سابين فى مائة مليون طفل . وطعم كوكس فى سبعة ملايين طفل. وطعم كابروفسكى فى مليونى طفل. وقد طبقت التجربة على أطفال بعض الولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية والمـكسيك وروسيا وألمـانيا وبولندا . ولا أظن أن دواء جديداً جرب على هذا النطاق الواسع من قبل . وكانت النتائج باهرة باجماع الأراء . وتجلى فى هـذا الاجتماع العلماء الروس .فتحدث شوماكوف ووقف بقوامة الفارع يلقى كلمته نيابة عن نفسه وعن أستاذه زادانوف ، وكانت الـكلمة بالروسية ولـكنا سمعناها مترجمة إلى الإنجليزية كلمة كلمة وفى دقة تامة ، والفضل فى ذلك لهيئة المترجمين الذين يتكلمون ويتقنون اللغات المختلفة كأبنائها تماماً . وكان الـكلام يتفجر من فمه كالبركان الهادىء ذاكراً الأرقام والاحصاءات بلهجة المقتنع الذى لا يقبل نقاشا لا عن عناد ، وإنما عن ثقة فيما يعتقده حقاً وصواباً . وكان طبيعياً فى القائه بسيطاً فى حركاته حتى أنه لـكى يقنع الحاضرين بصحة كلامه عن سلامة الطعم وكفايته أخرج من جيبه كيساً به بعض أقراص الحلوى . وابتلع منهـا واحداً ، ثم ترك الـكيس لرؤساء الجلسة وعددهم عشرة من فطاحل العلماء وابتلع كل منهم قرصاً وهم يبتسمون مأخوذين بسحر حديثه وقوة إقناعه ، مما أشاع البهجة بين الحاضرين ، وقد قال رئيس الجلسة مداعباً بعد أن انتهت

موجة التصفيق الحاد — وهو العالم الفرنسى ليفوف — يمكننى أن أوكد للزميل شوما كوف أن طعم الأقراص لذيذ وأنه بحمد الله لم يحدث لنا حتى الآن وفاة مباشرة .

ثم أعقبه الخبير الروسى سموروودنتف الذى أقام بمصر مدة شهرين هذا العام ألقى خلالهما بضع محاضرات عن طعم الفم وغيره ، فتحدث عن تجاربه فى ثلاثة ملايين طفل فى لننجراد . والحديث عن طعم الفم دائماً بالملايين لرخص ثمنه وسهولة تعاطيه .

ثم أعقبته العالمة الروسية مارينا فوروشيلوفا . وهى زوجة شوما كوف الذى سبق الحديث عنه . لم أر فى حياتى العلمية إنساناً يتكلم بمثل هذه الثقة وقوة التعبير . كانت الوقائع تخرج من فمها كالهدير ، وإن كانت غير هائجة ، كاملة منمقة وفى سرعة كنت أخشى منها على المترجمة المسكينة ، وكان الحاضرون يصفقون لها من قلوبهم المفعمة بالاعجاب ، وكانت تتلو الوقائع من مذكرتها . لم تنظر أبداً إلى ما هو أمامها من مذكرات مطبوعة وكأنها البحر المتدفق . . وكانت هذه المعجزة خير دعاية لبلادها وظهرت للملأ مفخرة لا تقل روعة عن الصواريخ الروسية . وكانت إذا عقبت على المتشككين تكلمت بصوت كله عتاب رقيق كالذى توجهه الأم إلى أطفالها الأشقياء ، وكأنها تقول لا تحاولوا خلق المتاعب والشكوك (كفاية شقاوه) الطعم سليم وكفء مائة فى المائة . ثم تبدأ فى سرد أدله جديده حتى ينبهر المعارضون وتنهار مقاومتهم .

ثم تعاقب الخطباء وكلهم يحبذ طعم الفم دون نقاش . حتى إذا اقتربت الجلسة من نهايتها قام الأستاذ سابين وصاح بلهجة المنتصر : ماذا تنتظرون بعد هذا وقد جرب الطعم فى أكثر من مائة مليون طفل دون حادث يذكر ودون

أن يفشل فى حالة واحدة أو يؤدى إلى حالة وفاة واحدة ؟ نصيحتى ألا نناقش كفايته ، بل نفكر من الآن : كيف نمهد السبيل لإعطائه لكل سكان العالم سواء الأطفال أو البالغين ، وبهذا نقضى على هذا الداء الوبيل إلى غير رجعة ؟.

وعند ماركبت الترام عائداً إلى الفندق مع زملائى الدكتور على سالم والدكتور إمام زغلول التفت إليهما قائلا ، وهما العالمان الخبيران : ما رأيكما ؟ أجابا باقتضاب : اكتساح لا شك فيه .

اليوم الثالث : مال على الأستاذ الروسى سموروديتسف وقال مبتسما : انظر إلى كوكس . .إنه كسير الفؤاد ، لأن الفيروس رقم ٢ من طعم كوكس ليدرل ضعيف ويجب أن يجد طريقه لإنقاذ نفسه . واتجهت نحو كوكس بعد أن تركنى العالم الروسى ، وبينى وبينه معرفة وطيدة منذ قابلته فى نيويورك فى العام الماضى، وابتدرنى قائلا : ما رأيك فى كل هذا ! ألا توافقنى أن مقدار الكلام الذى يقال عن طعم شلل الأطفال أضخم من مرض الشلل نفسه . . ؟ وبدأ يتحدث مداعباً وفى بساطة أمريكية طريفة . . وحدثته عن نقطة الضعف فى طعمه . فأكد أن العمل يجرى بلا هوادة فى تدعيمه وتلافى مواضع الضعف منه .

وفى فترة الاستراحة فى الصباح تقابلت مع سولك ، وكان يبدو كسير الفؤاد فجلسنا على مقعد مريح فى الصالة الملحقة بقاعة المحاضرات . فنظر إلى وهو ساهم شارد الذهن . وأردت أن أحرك أشجانه ، فقلت له : لقد كنت موجوداً أثناء مؤتمر عام ١٩٥٧ بجنيف ؟ فقال لى على الفور . لقد كانت الظروف مختلفة تماماً . . أما اليوم . .

فقلت له مواسيا : أن الأرقام التى أوردها الباحثون عن طعمك مقنعة مذهلة فليس رقم ٩٥ ٪ للمناعة بعد الحقنة الرابعة بالرقم الهين فى عالم الاحصاء الطبى . لى ملحوظة واحدة ، وهى أن يجرى البحث مستقبلا عن تبسيط

طريقة تعاطى طعم سولك بقصره على حقنة واحدة بدلاً من أربع ، وعلى العمل على خفض سعره .

فقال الا تذكر البنسيلين فى أوائل عهده ؟ وكيف كان غالى الثمن . وهو الآن بلا ثمن . . أن مرور الأيام والاستمرار فى البحث عن وسائل تعديل الطعم كفيلان بحل هذه المشاكل التى حدثتنى عنها . وإنى واثق بأنى سأصل إلى ما أريد وما نريد .

وقابلت الدكتور الكندى فيرجسون الأستاذ العالمى فى الاقربازين ، ورئيس معامل كونوت بكندا وكنت قد قابلته فى تورنتو فى العام الماضى فقال بلجهة انجليزية متئدة رصينة . . إننا قد حضرنا طعم الفم . . ولكننا لا نريد طرحه فى السوق بسرعة . واعتقد أن هذا الطعم الجديد سوف يمضى قدما .

فكانت الجملة مقتضبة وحماسية . وكان القول الحق لأنى أثق فى رزانة هذا الرجل وحسن تقديره للأمور .

وتقابل أعضاء الوفد العربى مصادفة مع سابين فى فترة الاستراحة . فأخذ يستعيد ذكرياته عن القاهرة عند ما زارها سنة ١٩٤٣ . وقام بإبحاث فيها ، أخذ يعددها لنا الواحد بعد الآخر ، وقال ، انه كان يقطن فى شارع فاروق . وقال له أحدنا . أن طعم سابين يجرب الآن فى مصر . فما كاد يسمع كلمة (يجرب) حتى انحنى عليه متسائلا : ماذا تقول ؟ يجرب ؟ اذهب يا عزيزى إلى بلادك وقل لأولى الأمر أن يطعموا به كل مصرى دون خوف أو تردد . ألم تقنعك كل هذه الأرقام وخاصة أن البلاد التى عمم فيها تتشابه مع مصر من حيث الجو والمستوى الصحى . .

كان اليوم الثالث من الصباح حتى المساء عبارة عن انتصارات متوالية لطعم الفم . كان النقاش يدور — لا حول مفعوله أو سلامته — بل حول طريقة تعميمه حتى لا يبقى فرد واحد فى البلاد الموبوءة دون تحصين ، وحول السن المناسب لإعطائه للفرد . . . هل يعطى بعد الولادة بأيام أو بأسابيع أو شهور ؟ وهل يفضل نظام الجرعة الواحدة أو نظام الثلاث جرعات . وغير هذا من التفاصيل التى لا محل لها عند القارىء العادى .

وعند ما غادرت فندق (الترى فلك) الفاخر ، حيث عقد المؤتمر لآخر مرة يصحبنى زملائى على سالم وامام زغلول من مصر وصبيح الجزار من سوريا التفت خلفى لأودع الدار التى اصطليت بنارها وتمرغت فى نعيمها ، فالعلم جنة ونار طوال أيام ثلاثة مليئة بالإرهاق وبذل الشحم واللحم والعرق . وإن كانت هناك دموع فهى دموع الفرح على ما تصل به ركاب العلم من أسباب التقدم والنهوض . وقى الله ابن آدم شر الغرور فإنه سبحانه لم يهبه حتى الآن من العلم إلا قليلا . . وفوق كل ذى علم عليم .

* * *

ولم تعقد مؤتمرات دولية عن شلل الأطفال بعد ذلك فقد أصبح الطعم المضاد حقيقة واقعة وكل ما يحاولونه الآن هو اكتشاف أنواع منه تتحمل الجفاف مدداً طويلة ، وبذا يُستغنى عن ضروة وضعه فى الثلاجات ، ويحاولون زرع الفيروس على الأجنَّة الآدمية بدل كلية القردة ، وبذا تقل نفقات تحضيره إلى درجة كبيرة ، فيرخص ثمنه .

من وحى الروضة الشريفة

كانت زيارة أراضى الحجاز المقدسة من أبدع أمنيات حياتى ، وقد سعدت بهذه الزيارة عام ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٤. وكان وصولى لجدة أول مرة فى يناير عام ١٩٥٩ من أسعد أيام العمر . وما لاحت أنوارها والطائرة تقترب منها حتى أخذتنى تلك الرهبة الخالدة مع الزمان ، التى استحوذت من قبل على آبائى وأجدادى وكل مسلم سعد بزيارة هذه الأراضى المقدسة التى هى أمنية كل مسلم ، ولم أتخيل وأنا أسير على أرض المطار قاصداً باب الخروج ، إنى وصلت أخيراً إلى أرض المحبة والسلام ، إلى البلاد المقدسة التى اشتاقت نفسى من قديم إلى التمتع بشميم عرارها وعبيرها .

وما كاد يستقر بى المقام ساعة أو أقل حتى دعانى الهاتف الأزلى أنْ قم وأدِّ واجب الطواف حول الكعبة والسعى بين ربوتى الصفا والمروة . وقمنا بالسيارة قاصدين بيت الله الحرام الذى أقامه إبراهيم وإسماعيل ، وتذكرت كيف تركت هاجر ابنها إسماعيل وقد اشتد به العطش تبحث عن ماء لتروى ظمأه ، وكيف سعت بدورها سبعاً بين ربوتى الصفا والمروة جزعة هلعة ، ثم عادت لتجد طفلها ينعم بماء النبع الخالد الذى اشتقت الأوض عنه نعمة من الله وكرماً . وتذكرت أيضاً وأنا أقبل الحجر الأسود كيف اختلفت قبائل قريش أيهم يضع الحجر ، ثم تصادف دخول النبى وهو بعد شاب يافع من باب الصفا ، فحكم بحمل الحجر على ثوب رفعه أهل القبائل جميعاً وبذلك حسم الخلاف بينهم .

وبعد أن طفنا سبعة أشواط حول الكعبة مكبرين مهللين (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) زرنا مقام إبراهيم وصلينا

فيه ركعتين ، ثم حجر إسماعيل ، ويقال إن ثواب الصلاة فيه كثواب الصلاة داخل بيت الله .

وبعد إتمام طواف العمرة خرجنا سائرين إلى ربوة الصفا حيث أعلنا نية السعى سبعاً بين الصفا والمروة .

وسعينا سبع مرات بين الصفا والمروة مرتلين مختلف الأدعية ، وأولها قوله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكرٌ عليم) .

وبعد السعى تقص بعض شعرات من جانب الرأس الأيمن ويبارك لك الحلاق على أنك أتممت عمرتك ، وقد قام بهذه المهمة المباركة زميلنا فى الرحلة الدكتور على مطاوع إخصائى الأشعة وعميد كلية طب الأزهر ، وقد أحضر معه مقصاً لهـذا الغرض صوناً لرءوسنا من أى عدوى خارجية .

وفى مكة قابلت شيخاً مصرياً تقياً ورعاً ، وهو الشيخ عبـد المهيمن أبى السمح ، إمام المسجد الحرام وهو يؤذن ويؤم المصلين فى العتمتين على حد قوله (يقصد الفجر والعشاء) وقد نعمت برفقته فى صلاة العصر ثم تركته إلى لقاء قريب .

أما عن المدينة المنورة فإن القلم ليعجز عن وصف الشعور والأحاسيس التى تغمرك عند ما تهـل عليك من بعيد المآذن الأربع التى ترتفع من المسجد النبوى ، وعند ماتدخل المسجد بعد طول غياب تقف مشدوهاً أمام قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى يأخذ المطوف بيدك لتحية الرسول ثم صفيه أبو بكر الصديق وحبيبه عمر بن الخطاب المدفونين بجانبه ، ثم إلى مهبط الوحى حيث تقرأ الفاتحة وتطلب من الله ماتريد وتفضى إليه بما يجول فى سريرتك فتتخلص من أدران الماضى وتبدأ حياة جديدة بإذن الله ، قوامها الإستقامة والتعاون

والمحبة مع الناس — وعند ما تجلس فى الروضة النبوية تؤدى فرائض الصلاة يقشعر جسمك فى هـذه البقعة الحبيبة ، حيث اعتاد الرسول أن يجلس مع أعوانه وأنصاره يدعو الله أن ينصر عبده ليهزم الأعداء وتنتشر الرسالة فى أرجاء الأرض .

وكان يحلو لى دائماً أن أجلس بجوار القبر عند ركن الأغوات ، وهم السعداء المتخصصون فى العنـاية بقبر الرسول وصحبه ، وكنت أجلس على الأريكة العالية وهى مفروشة بالسجاد الأنيق وقد عقد لسانى فلا يكاد يقوى على الإجابة ولو بكلمة واحدة على ما يوجهه إلى صديقى الجالس بجوارى من أسئلة دنيوية لا تمت للمـكان المقدس بصلة ، وكان أبدع ما عمله هذا الصديق الذى يقضى بجوار القبر الطاهر كل عام شهراً ،أن قدمنى للشيخ بخيت وهو (الأغا) المنوط به العناية بقبر الرسول لا يلمســه سواه ، وقد خيل إلىّ وأنا أصافحه ألا أترك يده البضـة أبداً ، وكيف أتركها وهى الطاهرة من فرط ما تلمس أطرافها تراب القبر الطاهر .

ليتك كنت معى وأنا جالس فى الروضة النبوية الشريفة يغمرنى خليط من الخشوع والحب والتدله فيمن أنعم بجواره . فقبر محمد وصاحبيه الفاروق عمر والصـديق أبو بكر على يسارى ومنبر الرسول إلى يمينى ، والقبلة أمامى ومهبط الوحى يبدو لناظرى عن قرب ممثلاً فى جدار نقشت عليه الآيات البينات وإذا نظرت إلى أعلا قرأت عـلى لافتة أنيقة الحديث النبوى الشريف (مابين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة) ومن هنا سمى هذا المـكان بالروضة الشريفة .

فى هذا المـكان بالذات كنت أرابط معظم يومى . . وأى شىء أروع وأبدع من أن تجلس بين يدى الله فى حضرة رسوله سيد المرسلين وصاحب الشفاعة عنده .

كنت أتخيل الرسول وهو يخرج من بيت زوجته عائشة — حيث دفن فيما بعد — متجهاً نحو باب جبريل ليسعى بين الناس ناصحاً مرشداً آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، حتى إذا عاد من تجواله انحرف يساراً نحو مهبط الوحى إذا كان بينه وبين أخيه جبريل ميعاد ، ثم تخيلته بعد إذ عاد من تجواله لآخر مرة وقد أنهكته الحمّى ورقد رقدته الأخيرة فى منزل عائشة ، حيث دفن ووضع فى لحده على جانبه الأيمن ووجهه إلى القبلة ، ثم تذكرت كيف لحق به أبو بكر (والد عائشة) فدفن بجوار حبيبه ورأسه بمحاذاة كتفى الرسول . ثم جاء دور الفاروق عمر فتذكرت مقتله على يد أبى لؤلؤة المجوسى الذى حقد على عمر منذ حكم عليه عند ما شكاه مولاه لعمر — فحفظها فى نفسه وأحضر سكيناً حامياً وظل اثنى عشر يوماً يحميها فى النار ثم يغمسها فى السم ، حتى إذا حل اليوم المشهود انتهز فرصة استسلام عمر لربه أثناء الصلاة فغمد السكين فى قسوة وغلظة فى جسم الشهيد فصال فيه وجال ، وعند ما فحصه طبيبه ووجد اللبن ينزل من أحشائه طلب منه أن يوصى بخليفته ، وعند ما شعر عمر أن منيته قد دنت استأذن عائشة أن يدفن فى منزلها بجوار صفيه وحبيبه ، ولا عجب فهو غريب عليها ، فأذنت عائشة ودفن ورأسه حذاء كتفى الرسول .

وعند ما تأملت القبلة المباركة أمامى تذكرت تجوالى في أطراف المدينة ذات صباح جميل أشرقت شمسه وازدهرت ، ووقوفى عند بناء أثرى يطلق عليه اسم « القبلتين » حيث تحول النبى مع الصحابة أثناء الصلاة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ، فقالوا له : ماذا فعلت يا رسول الله ؟ فقال لقد جاءنى أخى جبريل وأوحى إلىّ أن أولى وجهى شطر المسجد الحرام . ومن هنا نزلت الآية الكريمة (قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) .

وقد سعدت بصلاة ركعتين فى مسجد أقيم فى هذه البقعة تمجيداً لذكرى هذا الحدث التاريخى الكبير .

وتذكرت كيف أخذنى صديقى حسن الحلوانى مدير المدرسة الحربية بالمدينة بعد ذلك إلى مسجد قباء وقد بنى فى المكان الذى نزل فيه النبى بالمدينة أول مرة ، وهناك صلينا ركعتين . ثم اقتادنى فى سيارته إلى مكان أثرى على بعد خطوات من المسجد يطلقون عليه بنات التجار تخليداً لذكراهن لأنهن كن أول من رحب بالرسول مغنيات منشدات :

طلع البـــدر علينـــا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينـــا   ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينـــا   جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة   مرحباً يا خـــير داع

وتخيلت الناقة التى سعدت بحمل النبى تتهادى نخورة مختـالة على هذه الأنغام المنطلقة على السجية والفطرة ، بل لقد تخيلت الرسول بهيئته المهيبة وبنيانه الفخم يبتسم لهن شاكراً محيياً بعد إذ أنس إلى أنغامهن بعد طول رحيل فى سبيل الهجرة إلى المدينة .

وقبل أن نصل إلى المسجد النبوى أشار الصديق إلى مسجد يطلقون عليه مسجد (الغمامة) تخليداً لذكرى معجزة الغمامة التى ظللت النبى لتقيه من القيظ فى ذات يوم اشتد لهيبه ، وقد أقيم هذا الجامع فى مكان اسمه (المناخ) حيث اعتادت الإبل أن تستريح بعد حمل الحجاج إلى قبر الرسول ، وذلك قبل أن تستعمل وسائل النقل الحديثة .

وصحوت من رحلة خاطرى لأجد نفسى مرة ثانية بجوار الرسول أرتل آيات الذكر الحكيم من مصحف كريم . . يا لها من سعادة .

* * *

ووافقت الزيارة الثالثة يوم مولدى فبدأت أكتب فى الطائرة العربية أحاسيسى ومشاعرى ، وواظبت على ذلك يومياً هكذا :

١٩ يناير ١٩٦١

اليوم التاسع عشر من يناير فى بداية كل عام هو يوم مولدى يمضى فى معظم الأعوام دون أن أشعر به ، ولا عجب فأنا مثقل بالتزامات مهنة قد تئن من أثقالها البعير ، ومهمتى فى الحياة كطبيب لذلك المخلوق الضئيل الذى يسمونه الطفل تخلق فى نفس الناقد شعوراً بالتهاون نحوه ونحو مسئولية من يدأب على العناية به ووقايته من مفاجآت الزمان . والحال ليس كما يتصور الناس ، أن مريض الطفل مشحول بالعجائب والمتناقضات ، إنه يرى الأفق من بعيد فيخاله فى قبضة يده ، ويعيش للسَّاعة التى هو فيها من غير مفرق بين أمسه وغده . . إنه يخدع نفسه أحياناً ولكن يخدع طبيبه كثيراً وكثيراً جداً . . كم من مرة تركته فى الصباح عند عيادتى له فى حالة تشجع على بث الطمأنينة فى جو القلق الذى يحيط به . . أقسم أنه يبتسم فى وجهى ويشد على يدى بيده الصغيرة مشجعاً مقدراً ، فإذا ما أتى المساء استدعيت على عجل ، فأذهب إليه مسرعاً ويا للهول ما أرى ! مريض يخادعك دون قصد فهو ساذج برىء تغدر به الدنيا أول مرة ولم يعهد منها من قبل غير عطف الزمان والرقة والحنان ، لا تكاد تدخل عليه حتى ينظر إليك نظرة عتاب قد تكون الأخيرة ، وتظل هذه النظرة تتعقبك أياماً وليال حتى تطغى عليها أحداث جديدة لا تخلو منها حياة الطبيب ، بل هى جزء مكمل لبرنامجه اليومى ، لسعة إثر لسعة ولفحة تعقبها نسمة ، وكل جرح بميعاد .

ولا عجب وأنا فى هذا الخضم المتلاطم أن أنسى يوم مولدى ، ولعل هذا من فضل الله فليس أكثر هدماً لكيانك من رصد الشهور والأعوام وهى

تنهش فى صخرة بنيانك الذى خلقه الله وسوّاه ، وكلما تقدمت بنا السنون عزت علينا رؤيتها وهى تتناثر من حولنا كأوراق الأشجار المتهالكة إذ عضتها صفرة الخريف ، فما أبدع فضيلة السهو غير المقصود والنسيان غير المتعمد ، إذا كان فيهما تماسك نفسى تنبثق منه ينابيع السعادة والسلامة ، وله فى خلقه شئون . ولكننى فى هذه المرة أترقب يوم مولدى منذ أسبوع دون قصد أو تعمد ، إذا ما كدت أعرف ميعاد سفرى إلى البلاد المقدسة حتى صحت فى نفسى مغتبطاً : ياالسعادة الصدفة ! .

هكذا قدرت لى زيارة الرسول والتبرك بمقامه الطاهر ، والوقوف ملياً عند مهبط الوحى والجلوس فى خشوع واشتياق وعشق وهيام فى الروضة الشريفة ، ومتى ؟ فى الأيام القلائل من العام الجديد من عمرى ، وإذا لم يسعدنى الزمان من قبل بمثل هذا ، أليس من حقى أن أسائله : أين عمرى ، أين عمرى . ؟

وفى نفس هذا اليوم توج الزمان مجهود سنين طوال فزفت إلىّ بشرى نجاح خليل ولدى الأكبر فى الامتحان النهائى لدراسة الطب ، فتخرج طبيباً ليضع قدمه على أول درجة السلم المؤدى إلى حصن الآلام والتنهدات والزفرات . وعند ما زفت إلىّ البشرى تخيلته فى الحال وعمره بضع ثوانٍ عند ما تلقفته يداى الواهتين ، بعد إذ لفظته أمه فى ضجر وارتياح بعد أن حملته فى بطنها المضيافة السمحة تسعة أشهر طوال ، وعجبت كيف مرت السنون بمثل هذه البساطة غير عابئة بآلامنا وأفراحنا وأحزاننا وأتراحنا وهى بكل تفاصيلها تمتزج فى عجينة منسجمة يسمونها العمر ، قد تلفظه الذاكرة فى أقل من ثانية إذا تراءى لها أن تستعرضه وهو الذى تكلفنا فى سبيل صنعه السنوات الطوال .

٢٠ يناير ١٩٦١

وصلت جدة فى الساعات الأولى من الصباح ، وهرعت إلى الفراش الوثير ألتمس فيه بعض الراحة . وما كادت تظهر تباشير أشعة الشمس وهى تطلع على الدنيا النائمة حتى قفزت من فراشى لأبدأ رحلتى إلى مكة المكرمة كعادتى كل عام وصادفتنا فى الطريق عاصفة ملحة لم نأبه لها فقد كانت كل شعورنا وأحاسيسنا وأرواحنا قد سبقتنا إلى هنا . . . . إلى البيت العتيق لنتمرغ فى جوه القدسى وتسبقنا فى طلب الشفاعة لعلها تجد لنا عند الديان قبولا .

حتى إذا ما هل علينا المسجد الحرام هرعنا إلى ساحته فى غير وعى وطفنا حول الكعبة مع الطائفين مهللين مكبرين (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) وتعجب وأنت تطوف كيف استقبلت الكعبة آلاف الملايين من المسلمين منذ فجر الإسلام ، وهى واقفة كالطود الشامخ بغطائها الأسود المزركش وبابها المنسَّق الذى يتعلق به طالبو الشفاعة ، وهى حانية مرحبة دون كلل أو ملل لا تبغى جزاء ولا شكوراً . لا تقول بالله أنها جماد لا يحس ولا يشعر ، فإنهـا من عند الله قد باركها منذ بدء الزمان ، وسبحانه واهب الروح وخالق الجسد ، وفوق كل ذى علم عليم .

وعند ما نتجول فى مكة المكرمة يدهشك تطورها العمرانى الضخم حتى أنك لا تعرفها بين العام والعام ، والطريق إليها من جدة يضارع ما شاهدته فى جولاتى بين أوربا وأمريكا ، وسور الحرم قد جدد وطور بحيث أصبح آية من آيات الفن ، ولو سعدت عيناك برؤية (المسعى) بين الصفا والمروة وما بدا عليه من روعة وجلال بحيث أصبح المسعى متعة لا إرهاق فيه ولا تعب ، لسعدت فى داخلية نفسك ، ويزيد من غبطتك أن القائمين بكل هذه الأعمال الإنشائية مصريون عرب . وختمت المطاف بالجلوس فى فندق مصر ، وهناك

التقيت بالعالم التقى الورع حسن الملطاوى وكيل وزارة الخزانة ، ويروعك فى الأخ حسن حديثه المدعم بالأحاديث والسُّور ومقدرته القصصية التى ليس لها حدود .

وعلى سلم الفندق وهو يودعنى قال لى إن أروع ما سمعه قبيل مجيئه كان عند زيارته للسيد محمد عبد الرحمن والد الدكتورة عائشة بنت الشاطىء ليسأله إذا كان يزمع مرافقته إلى الأراضى المقدسة للزيارة ، فأبدى له فى حزن عميق أن هناك ما يمنعه هذا العام ، فأراد الأخ حسن أن يواسيه قائلا : خليك مرتاح السنه دى ، فكان الرد السريع : « وهل تسمى هذه راحة ؟ » وهذا أعمق الإيمان ! .

تعمدت بعد يومين أن أذهب إلى مكة وأبقى بها يومين كاملين . لأصلى صلاة العَتْمَويْن (أى الفجر والعشاء) لأحظى بثوابهما ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو علم الإنسان بما فيهما من الخير لأتاهما حبواً .. وفى رواية أخرى : أثقل على المنافقين صلاة الصبح والعشاء . ويؤم المصلين فى هاتين الصلاتين الإمام المصرى الورع عبد المهيمن أبى السمح خلال السنوات العشر الأخيرة . وإنك لتطرب وتشعر بنشوة وأنت تستمع إلى ترتيله المتزن المرتب ، وعند ما اقتربت منه بعد صلاة العشاء ظهر الفرح فى عينيه لسابق معرفتى به فى الأعوام الماضية ، وصمم على اصطحابى إلى منزله حيث غمرنى بكرم وبركة لا مزيد عليهما . .

إن الرهبة تغمرك عند ما تدخل الحرم لصلاة الفجر ، والدنيا بعد ظلام فى ظلام ، فترى الكعبة وهى تبدو عن كثب شامخة رهيبة فى كسائها الأسود المزركش ، وترى الناس يطوفون حولها فى خشوع ودون ملل مبتهلين إلى الله أن يغفر ذنوبهم ويأتيهم من أمرهم رشدا . وكلما جلست فى ركن إبراهيم أصلى

ركعتين كنت أتذكر قول عبد الله بن عمر عند ما كان ينظر إلى الـكعبة الشريفة ويقول مخاطباً إياها : « ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والمؤمن أعظم حرمة منك . لأهون على الله سبحانه وتعالى أن يأتى إنسان بمعول ويهدم هذه الـكعبة المشرفة حجراً حجراً من أن يكسر خاطر مؤمن . وعند ما كنت أنظر نحو باب السلام كنت أذكر دائماً كيف دخل النبى صلى الله عليه وسلم منه بينما اشتد النقاش بين القبائل الأربع على من يحمل الحجر الأسود ليضعه فى مكانه من البيت العتيق ، وكانوا قد اتفقوا على تحـكيم أول من يدخل من هذا الباب ؛ فما كادوا يرونه حتى صاحوا : إنه الأمين ! فوضع صلى الله عليه وسلم الحجر على ثوب ذى أطراف أربع ، وأمسك كل زعيم بطرف فأرضى الجميع .

وفى صلاة الفجر رتل الإمام المصرى ببعض آيات سورة الجن (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً — إلى آخر الآية — وإنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً) .

وفى طريق العودة من المسجد الحرام أشار صديقى ومضيفى العالم الورع الحاج عبد الوهاب عرب إلى مسجد صغير طليت جـدرانه باللون الأبيض والأخضر ، وقال هذا هو مسجد الجن حيث نزلت الآية التى سمعتها بالتو من سيدنا الإمام ، ياله من مكان ملىء بالذكريات !

الأربعاء ٢٥ يناير :

ودعت مكة وبودى أن لا أودعها . إنك لتشعر بعد أن أديت مراسم السعى والطواف أن الرسول صلى الله عليه وسلم يناديك فتهرع إليه بكل أحاسيسك رغم بعد المزار، ويسرح بك الخاطر وأنت فى طريقك إليه بتجارب

الزيارات الماضية . . المآذن الأربع تهل عليك من بعيد وأنت مقبل على المدينة . . قبر الرسول عليه الصلاة والسلام ، مهبط الوحى ، والروضة الشريفة التى قال عنها النبى صلى الله عليه وسلم : « ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة » ، ركن الأغوات ، وساحة المسجد الشاسعة ، وأسراب الحمام الآمن المطمئن بجوار رسول الله تسرح فيها وتمرح فى ثقة واتزان غير عابئة بابن آدم الذى يدب على الأرض بجوارها فى روعة تنسيه كل ما حوله . وفى الطريق إلى المدينة وقفت السيارات بعض الوقت عند موقع معركة (بدر) ، فقد اجتاحت السيول الطريق الصحراوى قبل وصولنا بأيام ودمرت منه حوالى الثمانين كيلومتر ، وذهبت ضحية السيول أرواح عزيزة على أهليهم وعلى المسلمين جميعاً. وتخيلت أرواح الشهداء تلتقى فى عليين بأرواح شهداء معركة (بدر) الذين سبقوهم إلى مرتبات الشرف العليا منذ أكثر من ألف وثلاثمائة عام ، حين هلك من المشركين سبعون منهم أبو جهل وغيره من أقطاب قريش ، واستشهد من الصحابة ثلاثة عشرة . وقد تخيلت الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن انتهى من تحية الشهداء يعرض الرأى على الصحابة فيما يجب عمله إزاء الأسرى . وتذكرت كيف بدا بأبى بكر الذى قال نحن فى حاجة إلى المعونة فلو شئت أخذنا الفدية ، ووافقه على هذا معظم الصحابة إلا عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى طلب قطع أعناقهم . ولكن الرسول رأى ما رأى أبو بكر والصحابة وهنا نزلت الآية (ما كان للنبى والذين آمنوا معه أن يكون له أسرى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب أليم) وإذا بالرسول صلى الله عليه وسلم يبكى فسأله أبو بكر ما يبكيك يا رسول الله فنظر صلى الله عليه وسلم إلى عمر وقال : لو نزل عذاب لما نجا منه إلا أنت يا عمر (يعنى لزهده فى المادة) .

* * *

وفى إحدى جولاتى حول المدينة المنورة شاهدت قبر حمزة عم الرسول ويرقد بجواره عبد الله بن جحش ابن عمة رسول الله . وحال بخاطرى ما حدث فى هذه البقعة المقدسة عند سفح جبل أُحد عندما أوعز إلى وحش أن يتعقب حمزة ولا يتركه إلا صريعاً فصوب إليه سهماً دحل فى مقتل من بطنه فمشى رضى الله عنه تسع خطوات بالتمام ثم وقع بلاحراك فهجمت عليه هند بنت أبى سفيان (أم معاوية) وبقرت بطنه ومضغت كبده فى تشف وانتقام . ودفن حمزة فى مكان مصرعه فى بدء الأمر ، ولكن المطر كشف عن جسده بعد أربعين عام من وفاته فنقل إلى مدفنه الحالى الذى يبعد قليلا عن المكان القديم . والقبر عبارة عن بضع صخور على هيئة مربع تتوسطه صخرة صغيرة تشير إلى مكان حمزة وصخرة أخرى تشير إلى مكان قبر عبد الله بن جحش .

* * *

وبينما أغادر المدينة ألقيت على الجامع النبوى نظرة أخيرة هاتفا من أعماق قلبى كعادتى كل عام : وداعاً إلى لقاء يا محمد يا سيد المرسلين : . . .

وبينما السيارة تنهب الأرض نهباً أخذت أستعرض هذا المقام الطاهر الشريف الذى يحوى جثمان أطهر أهل الأرض جميعاً ، والأدوار التى مرت به منذ رست الناقة بالرسول عند قباء يوم الهجرة فأقام بها أربعة أيام أسس خلالها مسجد قباء الذى تبركت بالصلاة فيه خلال زياراتى العديدة له ، وكان آخر الأيام الأربعة يوم جمعة .

وقد سار ومعه أبو بكر وعلى ابن أبى طالب حتى دخل المدينة وكان أهلها فى انتظاره يتحرقون شوقا لمشاهدته . وبعد أن صلى الجمعة معهم امتطى ناقته وتركها تسير على رسلها وأهل المدينة من حولها . حتى بركت أمام مربد اليتيمين سهل وسهيل ابن عمرو ، فقال رسول الله هذا إن شاء الله المنزل وتلا « اللهم

أنزلنا منزلا مباركا وأنت خير المنزلين » ورجاه معاذ بن عفراء الوصى على اليتيمين أن يتخذ منه مسجداً فقبل النبى صلى الله عليه وسلم مشترطاً أن يدفع ثمنه . . . . وبدأ أصحابه يبنون المسجد والرسول يبنى معهم ينقل اللبن والبناؤن يبنون ، وتخيلت النبى صلى الله عليه وسلم عند ما لقيه رجل وهو يحمل لبنة فأراد أن يخفف عنه بأن يحملها فرفض الرسول فى لطف ورقة قائلا : اذهب فخذ غيرها فلست أفقر إلى الله منى . ولما رآى كبار الصحابة إقبال النبى على العمل أقبلوا عليه جميعاً ، حتى اكتمل المسجد : فناء فسيحا ، جدرانه الأربع من الاجر والتراب وسُقِّف جزء منه بالجريد وترك الجزء الآخر مكشوفا ، وصنعت من خشب النخل .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يخطب الناس إلى جذع فى المسجد حتى شعر أن القيام قد شق عليه فلما عرف أصحابه ذلك منه ، قال له تميم الدارى أنا أعمل لك منبراً كما رأيت يصنع بالشام . . . . وكان المنبر الأول فى الإسلام عبارة عن درجتين ومجلس ثم تطور مع الأيام إلى المنبر الحالى الذى يعد آية فى الفن والجمال .

ومن هنا بدأت الرسالة الخالدة تنمو وتتضخم ، وازداد المسجد على الأيام والعصور ضخامه وروعة ، ورقد الرسول بين جدرانه فى قبره المتواضع وبجواره أبو بكر وعمر ، ينعم الجميع بجوار الله وبالاشراف من أعلى عليين على انتشار الإسلام بين مشارق الأرض ومغاربها وبالناس يدخلون فى دين الله أفواجا

* * *

أديت فرائض حجتى الأولى فى أبريل من عام ١٩٦٤ وكانت تجربة كبيرة . ولا زلت أذكر كيف ألقيت نفسى على المقعد الوثير الذى كان ينتظرنى بالطائرة الكومت الكويتية التى أقلتنى إلى الكويت بعد أن أديت فرائض الحج ، وتساءلت بينى وبين نفسى المعذبة المرهقة : هل حقيقة تطهرت من أدرانى حتى

أصبحت فى نقاوة المولود ساعة مولده ؟ وهل أصبح مفتاح الجنة فى يمينى حقاً ؟ وهل نال عفو الرب كل مسلم وفد إلى البلاد المقدسة خلال هذه الأيام القلائل وأغلبهم لا يعرف إلا الطفيف من تقاليد الإسلام . فمنهم العتل الذى يدفعك بكوعه أثناء طوافك حول الكعبة أو سعيك بين الصفا والمروة فيكاد يكسر منك الضلع لولا لطف الله ومنهم الذى يشدك من أزارك ليبعدك عن طريقه فى غلظة وسوء أدب . حتى أن أحدهم — والله — قد كسر الدبوسين الكبيرين الذين ثبّت بهما أزارى فجذبته الأيدى وأصبح نصفى الأعلى عاريا، حتى تمكنت من استعادته بكل صعوبة من خلال هذا الخضم غير المنسجم . وهل يستحق عفو الله من يتخذ من المسجد الحرام بمكة مقراً دائماً خلال فترة الحج فيأتى بزوجته وأولاده وأغطيته ووابور الغاز ليطبخ طعامه ؟ وهل أنبئك بما يفعل الأطفال فى أرض المسجد الحرام إذا انتابتهم مغصة ملحة أو راودهم ميل إلى التبول . إنك لترى أثرها على أرض الحرم دون أن يحاول الوالدان إزالة هذه الآثار . وما بالك بالقوالب البرازية التى رصت فى أحكام عجيب عند سفح جبل الرحمة بعرفات ، وأنك لن تعدم أن ترى فى أى لحظة بطل إحدى الأهرامات الصغيرة جالساً يرتكب خطيئته فى علنية مخزية ، وقد كشف عن عورته فى غير خجل حتى إذا نال المشتهى عصر آخر نقاط البول بأصابعه الخمسة صاغطا حينا ، وهازا ذات اليمين وذات اليسار حينا أخر على مرأى من الرجال والنساء . ولكى يزيل آخر أثر للبراز من شرجه السخى يمسك حجراً يمسح به موضع النجاسة من جسمه معتقداً أنه بذلك يكون قد لوث الجبل المقدس فى حدود الدين والشريعة .

لقد صدق الأمير فيصل عندما قال فى خطبته فى احتفال غسل الكعبة إننا مسلمون جغرافياً وباللفظ فقط . وأشاد بفكرته الصائبة أن يكون الحج

فرصة لاجتماع النخبة من جميع الأقطار فى هذه البقعة المقدسة لدراسة أحوالها والارتفاع بها إلى المستوى العالى الرفيع الذى يؤهلها لتصبح مزاراً مقدساً للمسلمين فى الدول الإسلامية وفى الدول غير الإسلامية . وصدق الحاج عبدالقادر نائب الحرم عند ما تفضل بزيارتى فى محل إقامتى بمكة المكرمة ، وجرنا الحديث إلى بعض مآسى الحج فقال ليس الإسلام فى شىء أن يأتى الكهل ليموت هنا ، وقد قال سبحانه وتعالى : ولله على الناس حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا . وقد حدثنى فضيلته بلهجة غلب عليها التأثر أن الحجاج لا يعنون العناية الكافية ببيت الله الحرام . فإن قشور اللب والبرتقال وما شابههما متناثرة فى أنحاء الحرم ، وأن المجهود الذى يبذل فى سبيل التخلص من هذه الحالة المزرية لضخم حقاً . ثم ما العمل مع هؤلاء الذين اتخذوا من المسجد الحرام مقاماً ينامون فيه ليلاً ونهاراً فيعيقون طريق القائمين بالمراسم من الحجاج فضلا على ما علق بأجسامهم من حشرات وافرازات تبعث فى الجو رائحة غير محببه للنفس .

أما وزير الصحة السعودى الدكتور يوسف الهاجرى ـ وهو خريج كلية طب جامعة القاهرة وأخبرنى أنه كان أحد تلاميذى ـ فقد كان لى معه جولات حول الناحية الصحية . وأنا أوافقه على وجهة نظره أن معظم الفوضى الضاربة بين الحجاج نتيجة لدرجة ثقافتهم ووعيهم، وما لم يرتفع مستواهم بتوجيههم وتثقيفهم محلياً فى موطنهم الأصلى فلا خير يرجى فى المستقبل القريب .

والواقع أنك عندما تتأمل فى وجوه الغادين والرائحين فى مكة ومنى وعرفات وما بدا على الكثير منها من البدائية والحياد المزريين لهتفت فى أعماق نفسك كما كنت أفعل دائماً : اللهم يا واسع الرحمة ! إن كان رحابك قد اتسع لكل هؤلاء فاحشرنى فى زمرتهم واعف عنى ، فإنا مثلهم تماماً : عبدك وابن عبدك ! !

وإذا كنا نلتمس العذر للسلطات المحلية لوقوفها حيرى أمام هذه الجموع الغفيرة ذات الثقافات المتفاوته والأمزجة المتنافرة ، فإننا لا زلنا نأمل أن يشدد المسؤولين الرقابة على الحاج نفسه عن طريق الإرشاد والزجر والشدة معا عسى أن تصل بموسم الحج إلى المستوى الذى نبغيه . ولعل ما يدفع الحاج إلى التمسك بقانون الغابة فى كل تصرفاته هو انعدام توافر وسائل الراحة ، فليست هناك فنادق كافية يأوى إليها فيضطر للالتحاف بالسماء وافتراش الغبراء وأروقة المساجد ومساحاتها ، واذكر أننى فكرت ذات ليلة أن أسير فى طرقات (منى) بعد أن انتهيت من تناول وجبة العشاء ، ولما وصلت إلى مسجد (جيف) وهو أكبر مساجد المملكة - فكرت أن أدخله لأصلى ركعتين فإذا بى أفاجأ بآلاف الحجاج يغطون فى نومهم وقد شغلوا كل أرضيته بحيث لم يتركوا فيها موضعاً لقدم . أما عن وسائل تصريف فضلات الجسم فحدث عنها ولا حرج . إن أقصى درجات الرفاهية للحجاج حفرة فى العراء تأنف نفسك من الاقتراب منها . واعرف صديقاً حبس فضلاته داخل أمعائه مدة أربعة أيام لا يجرؤ أن يطأ بقدمه مكان ما سمى على سبيل المبالغة بالمرحاض . أما المياه فهى مشكلة المشاكل فى مكة ومنى وعرفات . فإن الضغط شديد على موارده المحدودة فى الأيام العادية فما بالك بأيام الحج وملايين الناس تتدفق دون رحمة على رقعة من الأرض محدودة الأطراف .

ولا بد أن أعترف — بكل أسف — أنه ثبت لى أن معظم الشعوب الإسلامية التى يفد سكانها إلى الأراضى المقدسة لقضاء فريضة الحج شعوب متخلفة ، فاستجاب أهلوها فى الحال إلى هذا النقص الفاضح فى أهم مصادر الحياة مثل المياه وتصريف الفضلات فى الأرض ، وتبولوا وتبرزوا فى الطرقات دون

رادع ، وبقوا أياما عديدة دون استحمام ففاحت رائحـة بعضهم حتى زكمت الأنوف . وبرز الحاج المصرى كعادته بنظافة مظهره ، ولكنه تميز هذه المرة بنظافة الجيب .. فلقد سمح له بثمانين جنيه فقط ليدبر نفسه ، استوعبت الإقامة عند المطوف ثلثيهما على الأقل وكان عليه أن يأكل من الباقى ، وهو مبلغ عشرون جنيهاً على وجه التقريب ، ويكتفى بالمشى خلال الأسواق وفى لعابه سيولة وبنفسه ظمأ إلى الشراء . ولكن كيف السبيل إلى الورود والجيب خال إلا من دراهم معدودات .

والواقع أن الحاج المصرى كان فى هذه المرة فى موقف لا يحسد عليه وأرجو أن تعامله الدولة فى الأعوام المقبلة بطريقة أكثر سخاء . فليس أشد وقعاً على نفس المغترب عن وطنه من ضيق ذات اليد .

كل هذه النقائص سوف تصبح من الأساطير الفانية عما قريب باذن الله مع التوجيه والإرشاد وارتفاع مستوى الوعى بين الحجاج وهى لا تشوه أبداً الروحانية التى تطغى على كل ماعداها والتى يعيش فيها الحاج خلال تلك الأيام السعيدة .

* * *

لقد بدأت رحلتى الرابعة إلى الأقطار الحجازية لإداء فريضة الحج فى فجر يوم ١٦ أبريل من عام ١٩٦٤ وخرجت من منزلى بملابس الاحرام . وعليك أن تقول - وأن تبدأ فى خلع ما عليك من الثياب المخيطة لتلبس الأزار فوق كتفيك وظهرك وصدرك والرداء تستتر به بقية جسمك وتثبته بدبوسين كبيرين - لبيك بعمرة ، إذ نويت العمرة وحدها ثم التحلل من الإحرام حتى يحين موعد الحج لتحرم مرة أخرى وأنت تستعد للذهاب إلى منى وعرفات ويسمى هذا (أفرادا) وفى هذه الحالة يجب أن تذبح كبشاً للفقراء والمساكين ، وقد أخذت هذا الطريق رغم ضيق ذات اليد لأن معنى هذا أننى أتمتع بملابسى العادية مدة ثلاثة أيام قبل الصعود

إلى عرفة . ولا زلت أذكر كيف صحونا فجر ذات يوم لنؤدى فريضة الصلاة بالحرم المكى وبعد أن عدت إلى الفندق مع الدكتور سعد الدين التاودى قابلانا عند الباب المستشار محمود عبد اللطيف والدكتور عبدالحميد بدوى يتأهبان للذهاب إلى المذبح لإختيار الهدى لنفتدى به إفرادنا ، أى التحلل بعد العمرة بكل تفاصيلها من طواف حول الكعبة إلى السعى بين الصفا والمروة .

وكان علينا إما أن نشترى شاة لكل منا ـ وهنا حالت الأزمة المالية القاسية التى كنا نقاسى منها دون ذلك . فاشترك سبعة منا فى عجل يبلغ ثمنه ثمانية عشر جنيهاً وتنفسنا الصعداء لهذا الحل السعيد ، فوقف رائدنا المستشار محمود عبد اللطيف يساوم ويجادل محاولا الحصول على تنزيل آخر . ولما لم يوفق سار بنا فى طابور جنائزى وراء العجل المسكين الذى كان ينظر إلى الأرض بعناد وخبث محاولا غرس حوافره فى طينها الممزوج بدماء زملائه الذين سبقوه إلى نفس المصير . ولمح ضعفى نحوه فخيل إلى أنه ثبت نظرته على معاتباً وأنا لا أملك من أمرى شيئاً فقائدنا محمود عبد اللطيف طالما أصدر أحكامه بالإعدام على بنى البشر فما أسهل عليه أن يقود عجلا إلى الجلاد ، وزملائى يقبلون أيديهم ظاهراً وباطناً ويهتفون من أعماقهم بينما تقطع سكين الجلاد رقبة العجل المسكين قائلين . الحمد لله الحمد لله ! لقد صحت حجتنا !! وأنا أقول لنفسى وأنا أتأمل بركة الدماء من حولى . ربى أما لهذه المآسى من آخر ؟ وكيف يوضع حد لأقسى عملية لإبادة الثروة الحيوانية على ظهر البسيطة ؟ وهل تصل هذه اللحوم إلى الفقراء حقاً أن تترك جانباً حتى ينتابها العفن .

* * *

ولقد قاسينا فى طواف العمرة عذابا شديداً مما اضطرنى أن أبتعد قدر إمكانى عن مركز الوسط فاتسع قطر الدائرة لحوالى النصف وهذا تطلب بطبيعة الحال مجهوداً يكاد يكون مضاعفاً ، ولولا تعمدنا أن يكون الطواف حوالى منتصف الليل والجو عليل لاضطررنا إلى الرجوع إلى منازلنا مكتفين من الغنيمة بالإياب . وكنت أقول لنفسى وأنا تائهة بين هذه الأمواج البشرية المتلاطمة وبقدر ما سمحت لى الظروف المزهقة : ترى ما الحكمة فى هذا التجمع بين ممثلى أهل الأرض جميعاً ممن يدينون بدين الإسلام وهم يلبسون ملابس الإحرام وكلهم سواسية لا فرق بين كبير وصغير أو غنى وفقير . لعل فى هذا تذكير بيوم الحشر الذى تروى الأساطير أن الشمس سوف تكون فيه دانية من الرؤوس والجو شديد الحرارة حتى ليتمنى الناس أن يقضى بينهم على أى شكل فأما إلى يمين وأما إلى يسار . ويقول سبحانه وتعالى ، « يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » وفى آية أخرى « وإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتسأءلون » .

ورغم كل هذا الضجيج المحيط بك أثناء الطواف والتدافع بالأجسام والأيدى فانك تجد نفسك منساقا فى تيار الذكريات . إن الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه الكريم « أن أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركا وهدى للعالمين وفيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً » .

وقد قامت بيننا مناقشات طريفة حول السر فى أن الله ذكرها بلفظ بكة (بالباء) بدل مكة (بالميم) ووقفنا فى آخر الأمر حيارى أمام إعجاز القرآن .

وتخيلت ابراهيم ينادى ربه « رب أنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى

إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . » أى أنه بعد أن اشتد ساعد إسماعيل وأمرهما الله ببناء البيت المحرم – وقد حرم فيه الصيد والقتال وقطع الشجر والحزب إلا للدفاع عن النفس – . وفى قوله تعالى « وإذ رفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا أنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مؤمنة لك » .

ثم جاء بعد ذلك أمر الله أن يؤذن فى الناس بالحج فقال إبراهيم ومن يسمعنى يارب قال عليك النداء وعلينا البلاغ .

ومن هنا نزلت الآية « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم .

والواقع أن موسم الحج فيه عبادة للوافدين وانتعاس تجارى هائل لجيران البيت الحرام من أهل مكة المكرمة .

كنت أتخيل الرسول صلى الله عليه وسلم وقد التحف بملابس الإحرام ، وقد رأى انتشار دين الله عند زيارته لمكة فى حجة الوداع ، وكيف حن إلى موطنه الأصلى قبل أن يهجره ليتجنب الأذى من كفار بنى قريش ، فأخذ يزور أهله وأحبابه بعد غيبة تسعة سنوات فدبت الغيرة فى قلوب الأنصار فأخذوا يتغامزون قائلين . والله لقد لقى رسول الله أهله . فجمعهم الرسول وقال يامعشر الأنصار ماقالة بلغتنى عنكم ؟ المحيا محياكم والممات مماتكم ، ولو كنت مختاراً شِعْبى (أى الدار) ما اخترت غير الأنصار . ألا تحبون أن يرجع الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله فى رحالكم (وكانوا يريدون نهب مكة فمنعهم فقالوا رضينا برسول الله قسْما وحظا .

وتذكرت أيضاً وأنا أنظر إلى باب الكعبة كيف أخذ عمر رضى الله عنه مفتاحها من كبير آل شيبة الذين لا زالوا يتعهدون الكعبة منذ فجر الإسلام وما قبل الإسلام ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ المفتاح من عمر وأعطاه لصاحبه وهو يقول : إن الله أمركم أن تؤدو الأمانات إلى أهلها . فبهر كبير آل شيبة بمـا نطق الرسول من آيات الذكر الحكيم وأعلن إسلامه .

* * *

غادرنا مكة فى التاسع من ذى الحجة من عام ١٣٨٣ وكان الجو محتملا ولم نشعر بأى مضايقة إلا عند مفارق الطرق حيث يحلو لشرطى المرور أن يتصرف ببطء زائد لا يتمشى مع اللماحية والألمعية التى تميز بها شباب المملكة العربية السعودية . وكان الوقوف يطول أحياناً إلى الساعة أو أكثر فى المكان الواحد . وكان زملائى فى الرحلة الدكتور محمد العروسى وكيل وزارة الصحة ورئيس البعثة الطبية والدكتور أحمد السيد درويش الأستاذ بجامعة الإسكندرية وكانت الأحاديث الشيقة التى يثيرانها عاملاً كبيراً فى قتل الملل الذى اجتاح نفوسنا ونحن نقف بالسيارة وسط صف طويل من السيارات التى لم يتورع سائقوها عن إطلاق آلات التنبيه متعجلين نقطة المرور البليدة . ولكن هيهات ، فقد أخذت الأمور سيرها الطبيعى حتى من الله علينا بالفرج ووصلنا (منى) بعد حوالى الثلاث ساعات واستغرقت الرحلة من البعض سبع ساعات ، والفضل فى ذلك أننا كنا نركب سيارة البعثة الطبية وكان عليها علامة الهلال الأحمر ، وكانت تفسح لنا الطرقات فى بعض المآزق مما وفر لنا جهداً ووقتاً كبيرين ، ومما خفف وقع حرارة الجو على أجسامنا إننا كنا قد لبسنا ثوب الإحرام قبل مغادرة مكة ، وكان ذلك فى التاسع من ذى الحجة كما أسلفت .

ولما استقر بنا المقام فى (منى) تركنا أمتعتنا فى خيمة رئيس البعثة الطبية وتقع أمام السبيل التابع لوزارة الأوقاف المصرية ، واستأنفنا السير إلى عرفة داعين مهللين : لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! مرددين الدعاء مع الدكتور التقى الورع أحمد السيد درويش الذى كان نعم الرفيق خلال هذه الأيام الجميلة التى لن تنسى والتى لا تحتسب من العمر . وعند الإقتراب من عرفة رأينا جامع نمرة (بفتح النون وكسر الميم) وقبل لنا هنا يصلى الظهر والعصر جمع تقديم ، ولكن إنا يتأتى لنا هذا ونحن فى يوم حشر ، كُلٌّ يحاول أن يسبق الآخر إلى خاتمة المطاف من الرحلة المقدسة إذا كان من غير المعقول أن يغادر الحاج سيارته ووراءه رتل لا ترى العين نهايته من سيارات صاخبة .

وقد صليناها حال وصولنا إلى عرفة فى خيمة مريحة ما كدنا نستظل برطبها النسْىّ حتى توضأنا وأقمنا الصلوات يؤمنا الحاج محمد سيد أحمد رئيس الإدارة المالية بوزارة الصحة ثم أخذنا نلبى ونذكر الله ساعات وساعات قائلين لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك ! ونعيد وراء الحاج محمد دعاء خاصاً استغرق أربعين صفحة من كتيب صغير وزع علينا ينتهى كالآتى : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، واغفر لنا ولوالدينا وذريتنا وإخواننا وأهالينا والحاضرين والغائبين من المسلمين أجمعين برحمتك ياأرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . .

وبينما نحن مندمجين بكل شعورنا فى تلاوة هذا الدعاء دخل علينا أعرابى من أهل المدينة وفى يده ورقة مكتوب عليها اسمى ، وحمل على يده ابنه المصاب بشلل الأطفال وقال فى صوت عال وكأنه يتعمد أن يعلو صوته على صلواتنا ـ يقولون أن هذا الطبيب يمكنه أن يشفى إبنى ! فابتسمت مرحباً خلال دعواتى وابتهالاتى واستمهلته حتى انتهى من التلاوة ، فلم يبالى برجائى ، وصمم على

أن أكشف على ابنه فى الحال ، فازددت أنا رجاء فى أن يمهلنى دقائق أخرى وحاول أحد الموجودين استدراجه إلى خارج الخيمة حتى لا يشوه جلال اللحظة التى كنا نعيش فيها جميعاً بكل مشاعرنا فانصرف غاضباً ، ولحقت به بعد دقائق وسألت عليه لأروى غليله ، فقيل لى أنه رفض الانتظار وأنه مضى وهو مصمم على أن يشكونا لجمال عبد الناصر .

وبقدر أسفى على أنه فوت على ابنه فرصته ، إلا أننى اغتبطت أشد الاغتباط لأن رائد العروبة أصبح أملا يداعب كل عربى ، وملاذاً لكل ذى حاجة أو مظلمة فى هذه الأقطار الشاسعة الأطراف .

ومشيت مع الدكتور العروسى وبقية الرفاق بين الخيام المنصوبة فى نظام وأحكام عجيبين نحو جبل الرحمة ، ولو أنه ليس من السنَّة الذهاب إلى الجبل . وعند سفحه قابلت شابا مصريا من أروع ما قابلت تقى ونبلا . . صحبنى خلال صعودى الجبل ليحمينى من أذى المسلمين الذين لا يتورعون عن دفعك من طريقهم بكل الوسائل التى قد تؤدى أحداها إلى سقوطك على أم رأسك ، وكنت أسخر من نفسى وأنا أتخيل أن أم رأسى قد تصيب أحد القوالب البرازية التى تكرم بعض الحجاج ورصوها رصاً حول قاعدة الجبل المقدس كلما ألح بهم داعى التخلص من فضلات أجسامهم . .

كان الشاب هو الدكتور عبد الرحمن أحمد عبد الرحيم الأستاذ المساعد المنتدب لجامعة الرياض من كلية آداب القاهرة . وقد أشفق على من هذا التدافع فاصطحبنى ثانية إلى الأرض الآمنة . ثم استأذننى فى الصعود ليقرأ الدعاء عند القمة العليا للجبل . ولما عاد إلىَّ كان لا يزال يتلو الدعاء وهو يبكى بدموع غزيرة ، وأشحت بوجهى حتى لا يلحظ أننى خجلان أمام هذا الإيمان المتدفق وهذا التدين الذى أتمنى أن يتحلى به كل شاب يعرف ربه ويؤمن باليوم الآخر .

وفى هدوء حزين اصطحبنى إلى المكان الذى صلى فيه النبى صلى الله عليه وسلم حجة الوداع فصلينا ركعتين .

هذا النوع من الرجال المثقفين يمكن الركون إليه فى نشر ثقافة الإسلام أينما حل والدعوة إليه حيثما شاء . لقد لمست هذا الاستعداد الضخم فى كثير من أصدقائى الأساتذة الجامعيين مثل الدكتور محمد سليمان وكيل جامعة الأزهر والدكتور على مطاوع عميد كلية طب الأزهر والدكتور عبد المنعم أبو الفضل وزوجته التقية الورعة الدكتورة زهيرة عابدين وبماذا أحدثك عن الحاج عبد اللطيف مشهور والحاج عبد الرحمن أبو العينين وكيل الخزانة . لقد طفت حول الكعبة مرات عديدة فى سنين مختلفة ، ولكنى أقسم أننى لم تهز مشاعرى لدرجة سكب الدمع المدرار إلا فى المرات التى طاف معى فيها الحاج عبد المنعم أبو الفضل . أنه يتلو من الدعوات ما يبعث فى الناس الرهبة والخشوع، ويبزّ فى هذا المحترفين من المطوفين . هذه العناصر المسلمة المثقفة هى التى يجب أن تبعث من حين إلى حين لنشر الدعوة حيث وجد لنشرها سبيل ومجال .

وأقمنا فى عرفات إلى ما بعد غروب الشمس . والمعروف أن الزمان الذى لابد من قضاء بعضه فى عرفات هو من زوال يوم عرفة (أى الظهر) إلى طلوع فجر يوم العيد . فمن فاته الوقوف بها فى أى جزء من هذا الزمان فاته الحج . فمثلا من وقف بعرفة قبل الزوال ورحل عنها قبل الزوال أيضاً أصبح حجه غير صحيح . وقد غادرنا عرفات والليل يرخى سدوله على جبل الرحمة ووصلنا إلى مزدلفة وفيها يرى السائر إلى عرفة عن يمينه المشعر الحرام الذى قال الله فيه : « فإذا افضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام » وما كدنا نصل إلى هناك حتى رأينا الباعة قد سبقونا إليها وخاصة المقاهى المتنقلة التى تحضر لك كوبا من الشاى ، وبائعو الفاكهة والفول المدمّس والفواكه المعلبة وخاصة

الأناناس ، الذى أقبل عليه الحاج المصرى بشغف وشوق ، والجبن بأنواعه والعيش الساخن الشهى ، وكلها يقبل عليها الحاج ليزيد من دفء جسمه الذى هزه برد الليل الزمهرير فى هذه المنطقة الجبلية الصحراوية . فقد كان علينا أن أن ننقب عن الجمرات أولا ، وعددها تسع وأربعون ، من بين الرمال وقد جمعنا عدداً أكبر آملين فى الاحتفاظ بالفائض على سبيل التذكار . ثم أحضرنا البطاطين الصوفية من السيارة ونمنا على الأرض وغطينا أجسامنا المرتعدة المغطاة بملابس الإحرام المهلهلة التى ينفذ الريح الزمهرير خلالها فى سهولة ويسر . وحاولت النوم فلم أستطع وفضلت أن أغطى جسمى بالبطانية وأجوب الشارع الرئيسى للبلدة لأدرس فى هذه الساعة القليلة المقدسة الخالدة فى ذاكرة ابن آدم الذى كرمه الله بزيارتها . فرأيت بعض الحجاج يغط فى نوم عميق حسدتهم عليه ، والبعض الآخر جالسين على الأرض يتسامرون ويتنادرون بلغاتهم المختلفة التى لا يفهمها إلا الله . ولجأ الكثيرون منهم إلى المقاهى المتنقلة ليشربوا الشاى والقهوة ويقضمون بأسنانهم ما تبيعه من المأكولات . ودرست خلال تجوالى بينهم إحدى ظواهر أكبر حركة كشفية فى تاريخ البشر تبدأ فى عرفات وتنتهى فى (منى) كما سأحدثك فيما بعد .

وبدأنا رحلة الرجوع إلى منى حوالى الساعة الثانية من صباح العاشر من ذى الحجة (أى اليوم الأول من أيام عيد الأضحى المبارك) ووصلناها مع تباشير الصباح ، وما كاد يستقر بنا المقام فى الخيمة حتى دخل علينا أحد أعضاء البعثة الطبية يقص علينا بنبرات كلها حزن وأسى نبأ وفاة المستشار محمود حسن عمر عضو بعثة وزارة الأوقاف . فقد بدأ رحلته فى الصباح وكله نشاط وحيوية وانشراح لدرجة أنه تسلق جبل الرحمة أربع مرات لفرط نشوته بالوقوف بين يدى الله ثم واصل السير إلى مزدلفة ببردها وزمهريرها ، ويظهر أنه شعر بأثر هذه

الرحلة الشاقة . فعجل بالرجوع قبل أن تبدأ البعثة الطبية رحلة العودة بساعتين إذ المقول أن السنة تقضى أن يبيت الحاج بمزدلفة ويصلى بها المغرب والعشاء جمع تأخير وصبح يوم العيد فى بعض المذاهب ، فإذا أسْفر الصبح أفاض قبل طلوع الشمس إلى منى ، آخذاً معه حصى الرمى . والمفروض فى البعثة الطبية أن تكون أول من يصل وآخر من يترك مواقع المعركة ضد المرض والموت وخاصة نتيجة الحرارة المهلكة . ويظهر أن الفقيد شعر وهو فى مزلفة بوعكة بدت طفيفة ولكنها ألحت عليه فى التعجيل بالعودة إلى منى ولم تكن البعثة قد عادت بعد إلى مواقعها فقام باسعافه طبيب من أعضاء البعثة الباكستانية حتى إذا عادت البعثة المصرية كان الأوان قد فات ، وقد أوصى الفقيد أن يدفن فى بلده وبقيت جثته فى ثلاجة مستشفى منى حتى اللحظة التى غادرنا فيها البلدة

* * *

ذهبنا بعد طلوع شمس أول أيام العيد لرمى جمرة العقبة بسبع حصيات مكبرين مع كل حصاة نرميها قائلين « باسم الله والله أكبر ترغيما للشيطان وحزبه اللهم اجعله حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً وذنباً مغفوراً » . ثم انصرفنا إلى المعسكر حيث قام الدكتور أحمد درويش يقص قليلا من شعر رؤوسنا .
وبالحلق يحل للمُحْرم كل شيء كان محرما عليه إلا النساء .

وبعد ذلك عدنا إلى مكة وقصدنا المسجد الحرام حيث طفنا طواف الإفاضة سبعة أشواط وسعينا بين الصفا والمروة وهذا الطواف يحل للحاج امرأته . ولا تسل عن شدة الزحام والتدافع بالأيدى والأرجل أضف إلى ذلك حرارة الجو . فما كدنا نرجع إلى (منى) حتى رطبنا أجسامنا بالدش البارد وحلقنا ذقوننا ولبسنا الملابس العادية وصرنا آدميين من جديد .

وفى اليوم الثانى رمينا الجمار الثلاث مبتدئين بالجمرة الصغرى فرميناها بسبع حصيات مكبرين مع كل حصاه ثم رمينا الجمرة الوسطى بسبع حصيات أخرى ، وأخيراً جمرة العقبة . وفى اليوم الثانى عشر من ذى الحجة رمينا الجمار الثلاث للمرة الثانية ، وعملا بالآية الشريفة : أذكروا الله فى أيام معدودات فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه » شرعنا فى النزول إلى مكة .ولقد قص على التقى الورع الدكتور أحمد النواوى أستاذ الزراعة فى إحدى الأمسيات الجميلة التى اعتدنا أن نقضيها جالسين على الرمل أمام سبيل الأوقاف فى (منى) عن الحكمة فى رمى الجمرات وعن علاقتها برؤيا سيدنا إبراهيم أنه يذبح ابنه اسماعيل إذ قال له يابنى أنى رأيت فى المنام أنى أذبحك وكيف أخذ رأى ابنه فيما أمره الله به . وهنا بدأ إبليس يوسوس فى الصدور كعادته منذ بدء الخليقة ، فذهب إلى سيدنا إبراهيم يقول له هذه أضغاث أحلام ليثنيه عن طاعة ربه فرجمه بحجر وهذه هى الرجمة الكبرى أو رجمة العقبة ، أما الرجمة الوسطى فإنها ترمز للشيطان إذ يوسوس فى صدر هاجر أن كيف تسمح بذبح ابنها فرجمته بحجر ، والرجمة الصغرى رمز للشيطان إذ أتى يوسوس فى أذن سيدنا اسماعيل ليمنعه من الاستجابة لنداء أبيه فرجمه بحجر . أرأيتم إلى أى مدى وصلت طاعة الأبناء للآباء .

* * *

نزلنا إلى مكة قبل غروب الشمس اليوم الثانى عشر لنطوف طواف الوداع سبعة أشواط لا سعى بعده وصلينا ركعتين فى حجر اسماعيل ومثلهما فى ركن إبراهيم وأخذت أنظر إلى الكعبة باكياً متباكياً على فراق البيت داعياً اللهم هذا بيتك وأنا عبدك وابن عبدك فاصحبنى العافية فى بدنى والصحة فى جسمى

والعصمة فى دينى وأحسن منقلبى ، وأرزقنى طاعتك ما أبقيتنى وأجمع لى بين خير الدنيا والآخرة ، إنك على كل شىء قدير وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

وبينما كنت أنسحب خاشعاً ذليلا نحو باب الوداع فوجئت بثلاثة رجال من صميم صعيد وجه قبلى يحتضنون بعضهم البعض بالتبادل ويصيح أحدهم فى الآخر وهو يقبله بقوة : نلتها يابو محمود ! والنبى يابو محمود جبلته (أى قبلته) بشفايفى دول (يقصد الحجر الأسود) فيفك أبو محمود الحصار عنه ويفرد ذراعيه مرة ثانية إلى أقصى درجات الانفراج ثم يحتضنه من جديد وهو أشد قوة واغتباطا صائحاً : يابختك ياواد نلتها . نلتها ! ياريتنى أنا ياريتنى !

فهتفت من أعماق نفسى : لقد نلتها أنا أيضاً يابو محمود . . !!

* * *

مأساة محجر الطور

يظهر أن المهيمنين على الحج ما زالوا يعيشون بعقلية ما قبل السد العالى ، وهى العقلية التى لا تقبل التطوير مع الزمن . كان المحجر فيما مضى أمراً ضرورياً عند ما كانت الكوليرا أو الجدرى أحداثاً يومية عادية أما الآن فان التحصين يجرى للحجاج - رغم ندرة هذه الأمراض - ضد الجدرى والكوليرا والتيفود وفى بعض المناطق الموبوءة من بلدان العالم المختلفة فانهم يطعمونهم أيضاً ضد الحمى الصفراء والطاعون وبدون تقديم الشهادات الرسمية لا يسمح للحاج بالدخول للأراضى الحجازية .

بل إن الحاج المصرى المسكين ، وجد نفسه وهو ينتظر فى مطار جدة طائرة (الإفراج) ساعات عديدة وصلت أحياناً إلى يوم بأكمله وهو مستلق

على أقرب مقعد فى المطار قد وجد نفسه مضطراً لأن يشمر عن ساعده لطبيب البعثة الطبية المصرية ليطعمه ضد الجدرى مرة ثانية — ولم يمض غير أسبوعين على تاريخ تطعيمه بالقاهرة قبل الرحيل ! ولم يسمح لنا بمغادرة جده إلا بعد أن أعلن وزير الصحة السعودى نظافة الحج .

إن ما يلاقيه الحاج من أهوال وهو يحاول الرجوع إلى وطنه من تزاحم عند شبابيك الحجز بالمطار ثم استلقاؤه على أرض المطار أو على أقرب كرسى وحوله عفشه ينتظر الطائرة بالساعات بل بالأيام وهو قلق مكفهر الوجه خالى الوفاض ، قد يورثه الكفر أو على الأقل ينسيه الروحانية التى عاش فيها فى أيام الحج السعيدة . ولنتخيل المسكين وقد صمم طبيب البعثة الحصيف أن يسيل منه بضع قطرات من دمه فى سبيل تطعيمه ضد الجدرى مرة ثانية ياللمأساه !

وبعد كل هذا يخشون من إصابته بالجدرى فيرسلونه إلى الجحيم الأكبر الذى يسمونه محجر الطور أو بالأخرى معتقل الطور . إن مدة الحصانة للجدرى تتراوح بين أسبوعين وثلاثة . فثلاثة أيام أو خمسة فى جحيم الطور لا قيمة لها إذا تخيلنا أن الحاج قد تدخل الجرثومة فى جسمه فى أى وقت من ساعة وصوله إلى الدقيقة التى يغادر فيها المطار أو ميناء جدة . أما الكوليرا فقد تطعم الحاج ضدها وأعلن وزير الصحة السعودى نظافة الحج فلماذا تتمسك العقلية العتيقة بحشر الحجاج فى عنابر تجمع كل منها خمسة عشر شخصاً من سيدات ورجال (تصور !) ومن غير العائلة الواحدة . (أين التحشم ؟) ومن مستويات مختلفة هذا يعلو شخيره وذاك يرسل الأصوات عالياً من حيث تسمح فتحات جسمه . وإذا كنت أتحمل النشاز من شخص عزيز فلماذا أتحمله من غريب علىّ حشر بجانبى حشراً ؟ وهل من الكرامة فى شىء أن توزع

القصارى على الحجاج بهذا الشكل العلنى وكأنهم فى طابور الصباح بإحدى المعتقلات ويطلب منهم أن يملأوها ببرازهم بأى طريقة يرونها ثم يحملون القصارى بأيديهم إلى المعمل البعيد ويعرضون أنفسهم للتريقة والتنادر من الأصدقاء وغير الأصدقاء .

وهل أحدثك على ألوان أخرى من إنعدام وسائل الراحة ؟

أولا : قلة الأسرّة والويل للذى لم يتسابق ليضع يده على سرير قبل غيره وإلا كان نصيبه الأرض يفترشها فيعرض نفسه للرطوبة والنزلات .

ثانياً : قلة عدد المراحيض والويل للحاج إذا إنتابته حاجة ملحة فعليه أن ينتظر دوره .

ثالثاً : تفاوت المعاملة والجنة لدافعى البقشيش !

رابعاً : عدم توافر المأكولات : وعليك أن ترى كيف يهجم الحاج (يالهفى على الوقار الذى ذاب واختفى) على أسبتة الفاكهة والعيش . يتخاطفون محتوياتها قبل غيرهم ممن لا تسعفهم صحتهم وتمسكهم بهيبة الحج المهلهلة ، ويضطر الجميع فى آخر الأمر يعودوا دنيويون أكثر مما كانوا .

خامساً : انعدام وسائل الراحة العادية ، ومعاملة الحاج كأنه فى معتقل بالفعل ، فوسائل الاتصال بالخارج كالتليفون مثلا صعبة جداً ، وندرة الثلج والمشروبات الباردة ، ومنع الحاج من المشى على الشاطىء وكأنه مصدر وباء فعلى ، وسوء معاملة عمال المحجر للحاج وكأنه مجرم أتى ليعذبوه عذاب الآخرة وهو الذى نال عفو الله فى منى وعرفات . والأدهى من ذلك أنك بعد أن تنتظر أكثر من نصف يوم فى مطار المدينة لتستقل الطائرة إلى الطور ، (وأعوذ بالله من هـذا الاسم) تلاقى الويل أولاً فى سبيل نقلك من المطار

إلى المحجر ثم تجد نفسك محجوزاً حتى تستحم قسراً بالماء البارد فى عز البرد وتعفر مسحوق ا . د . د . ت إذا لم تجد من وسائلك الخاصة ما يجنبك شر هذه المذلة .

لقد حدَّثنى وزير الصحة السعودى الدكتور يوسف الهاجرى عن اندهاشه لانفراد مصر بهذا النظام العتيق البالى ، وخاصة أن الحاج يطعم ضد جميع الأمراض المحتمل إصابته به وسط الزحام ، وأن المملكة السعودية لا تعطى (الفسح) أى الإفراج إلا بعد أن تثبت نظافة الحج .

والواقع أننى كنت على علم بتفاصيل كل هذا العذاب ، لذا فضلت أن أقضى الخمسة أيام فى بلد الكويت الشقيقة ، وهناك ما على الحاج إلا أن يقدم نفسه إلى مكتب الصحة التابع له كل يومين مرة لغاية ثلاثة مرات حتى يتأكد الطبيب من سلامته . وكذلك الحال فى لبنان ..فلماذا لا تفعل فعلهم فإن الحجاج إذا وزعوا على مكاتب الصحة فى كافة أنحاء الجمهورية كل حسب محل إقامته لما أرهقوا الدولاب الصحى الحكومى ! .

إن فكرة المحجر من رواسب الماضى البغيض ، وإذا كنا قد قبلنا فى الماضى مثل هذا الإذلال الذى لا مبرر له إطلاقاً ، فإن أصوات السخط العالية التى سمعتها من كل حاج لا يرق الشك إلى كلامه ، لا بد أن تصل يوماً إلى آذان المسؤولين الذين فى يدهم تخليص أبناء الشعب من هذا العذاب الأليم .

رحلة إلى القدس الشريف

أحسنت الدولة صنعاً لسماحها لحوالى الستين عالم مصرى بالسفر إلى القدس لحضور مؤتمر اتحاد الأطباء العرب الذى عقد بهذه المدينة المقدسة من ٢٨ — ٣١ يوليو سنة ١٩٦٤ . إننى لا يمكننى أن أتصور مقدار الفشل الذى كانت ستمنى به النفس والروح والفكر مجتمعة إذا لم يقدر لى ارتياد هذه البقعة التى تلتقى فيها جميع الأديان ، والتى شعرنا فيها بالعروبة الأصيلة والحب المكين الذى يكنه الجميع هناك لبلادنا وزعيمها مما لا يمكن أن يصوره الخيال أو يطاوعك القلم فى وصف مداه . ولقد صال العلماء العرب وجالوا كل فى ميدانه ، وكان لى شرف القاء المحاضرة الإفتتاحية فى صالة سينما الحمراء بالقدس فى جمهور لا يقل عن ألف نفس عقب انصراف جلالة الملك حسين بعد أن ألقى كلمة افتتاح المؤتمر ، وكانت كلمة بليغة بارك فيها عمله وأهدافه وأشاد بفضل اليد العربية على الطب منذ الماضى البعيد عندما منح أمثال ابن سينا والرازى وابن الهيثم وحنين بن أسحق للبشرية خلاصة إنتاج عقولهم ولم تضع أوروبا أقدامها على طريق النهضة والحضارة إلا يوم أخذت تنقل اللاتينية فى كلياتها فى القرن السادس عشر كنوز التراث العربى المسطور بلغة القرآن .

ثم استطرد جلالته يقول بصوت ملؤه الأسى والحزن : « ولم تكد بواكير نهضتنا الحديثة تأخذ فى التفتح والأزدهار حتى أصيب كيانها بذلك الجرح الذى حملته الكارثة فى فلسطين ولكن أمتنا عرفت كيف تخرج من المحنة وهى أكثر ما تكون تصميماً على إزالة أسبابها ونتائجها ومن هنا تبلورت فى ضمائر أبنائنا رسالتها فى سبيل الحرية والوحدة والحياة الأفضل ! » .

ولم يكد جلالته يذكر مشكلة فلسطين حتى ضج المكان بالتصفيق ، وعندما غادر جلالته مكان الاحتفال وهم بركوب سيارته هجمت عليه الجماهير

تقبله وتصافحه وهو يقابل هذا الشعور بغبطة كبيرة فقد أصبح جلالته يتمتع بشعبية كبيرة خاصة بعد أن وضع يده فى يد عبد الناصر فى سبيل العروبة وفلسطين .

* * *

قلت لك أننا شعرنا ونحن فى الأردن بأننا بين أفراد شعب شقيق بحق ! لا يتكلمون عن مصر وزعيمها إلا والدموع تجول فى عيونهم ، وبلغة عربيه أقرب ما تكون إلى لهجتنا المصرية . ثقافتهم من ثقافتنا ، فما من عائلة صادفتها إلا ولها ثلاثة أو أربعة من أبنائها يدرسون بجامعات الجمهورية العربية . وأذكر أنه بعد انتهاء حفلة الإفتتاح دعانى الدكتور وليد النابلسى أحد تلاميذ كلية الطب المصرية وتربطه صداقة متينة بالدكتور الجراح إبراهيم بدران الذى نعمنا برفقيته فى هذه الرحلة الممتعة ، إلى مدينة نابلس موطن الدكتور وليد وهناك عشنا فى جو عربى أصيل ازدان بوجود وليد صلاح الدين نقيب المحامين وحرمه ، والدكتور مصطفى بوشناق المجاهد الكبير الذى يحتفظ بشباب النفس والقلب رغم سن الثمانين ، وإحسان العلمى مدير إذاعة الكويت ، وباقة من فضليات السيدات برزت من بينهن السيدة أم هلال حماة الداعى التى قامت بدور المضيفة على الوجه الأكمل وأدارت دفة الحديث إلى طريق الوحدة والعروبة ، وكانت إذا ذكرت إسم مصر فاض الحنين من كل تقاطيع وجهها ، وإذا ذكرت إسم جمال انهمرت الدموع من عينيها وثبتت فى خديها وكأنها تتارجح فى إعطاف حفرة غير عميقة دعمت جوانبها بخميرة عربية نقية .

وفى مناسبة أخرى أخذنى الدكتور نصوح نابلسى ببساطته المعروفة عنه عقب انتهاء جلسات اليوم الثانى فى المؤتمر إلى منزل شقيقته السيدة شهيرة زوجة المرحوم الأديب الكبير السيد حسن أبو الوفا الدجانى الذى حاور ربه

منذ شهرين ودخلنا منزلا أنيقا لم يبد عليه من مظاهر الحزن سوى الثوب الأسود الذى ترتديه أرملته ، ووجدنا هناك إبنه وفا الدجانى وفريده إبنة الدكتور نصوح وزوجها الطبيب الجراح المتخصص فى جراحة القلب والرئة الدكتور مروان محاسنى . ونعمت ومعى الدكتور عبد العزيز سامى بجلسة عائلية لن يزول أثرها من ذاكرتى ما حييت ، وكانت أحاديث العروبة وفلسطين الشهيدة هى الغالبة كما هو الحال فى كل شبر من أرض الأردن الحبيب . وكان الحديث عن أبى خالد والآمال المعقودة عليه مما يبهج النفس ويشعرها بالفخار والإعتزاز . ولما عدنا إلى فندق الانتركونتنتال كان حديث الدكتور عبد العزيز سامى معى عما لمسناه من روح التعلق السائدة دون استثناء بالجمهورية العربية ورئيسها والتى لولا أننا لمسناها بأنفسنا لما تخيلناها بهذه الدرجة من العمق ، حتى لتتخيل أنك تعيش بين أهلك وبنى وطنك أو أكثر قليلا ! وتحدثنا عن سائقى سيارات الأجرة الذين رفضوا أكثر من مرة تقاضى أجورهم عندما أدركوا من لهجتنا أننا من أبناء الجمهورية العربية على شرط أن نبلغ تحياتهم لأبى خالد . وقصصت عليه قصة الدكتور حسين طبوزاده وحرمه الدكتوره فضيلة عارف فى هذا الصدد وكيف عادا مندهشين من تصرف سائق السيارة أننى عندما تصرف معى سائق السيارة بنفس الطريقة منذ عامين فى بغداد وخلال انعقاد المؤتمر الأول لاتحاد أطباء العرب وكان عبد الكريم قاسم فى عنفوانه ، همست لنفسى همساً مقتضباً وأنا أصعد درجات فندق بغداد قائلا : الوحدة آتيه لا شك فيها ! .

وبعد مصرع قاسم ببضعة شهور كنت أسير فى شارع الشانزليزية بباريس مع أحد أساتذة كلية الطب ببغداد وهو خريج كلية طب القاهرة وأخذت أقص عليه ما لقيناه من بعض المتاعب فى مؤتمر اتحاد الأطباء العرب الثانى الذى عقد

فى الجزائر فى العام الماضى — وكان معى هناك — وقارنت بينه وبين ما لقيناه فى بغدادمن محبة وترحيب وضيافة متسقة منظمة تضافرت الحكومة والشعب على أبرازها فى أبهى حلة - وكيف كان سائق التاكسى يتنازل عن حقه والتاجر يجاملك ويكرم مثواك حبا فى (أبى خالد) خلال حضورنا مؤتمر اتحاد أطباء العرب الأول الذى عقد فى بغداد قبل عامين . وكان صديقى الطبيب يستمع إلى مبتسماً حتى إذا ما انتهيت من كلامى همس فى أذنى — دون أن يقصد همسا بل رغبة منه فى أن يصل بكلامه إلى مستوى الخواطر الجياشة — قائلا : أن الوحدة أقرب مما تظن ! : ثم ابتسم ابتسامة مرتاحة تشهد عليها أضواء باريس فى تلك الساعة المتأخرة من إحدى ليالى مدينة النور التى لا تنام أبداً .

* * *

وكيف أنسى تلك الرحلة التى نظمتها هيئة المؤتمر لارتياد منطقة الحدود الفاصلة بين إسرائيل والأردن ، إذ قامت قافلة مكونة من خمسين سيارة أجرة من آخر طراز ، وما كدنا نصل إلى قرية بيت صفافة حتى راعتنا نظافتها اللامعة رغم فقرها ، فلا ترى على الأرض ورقة أو فضلة قاذورات ، ويدهشك أن تتأمل كيف أن نصفها تابع لليهود ويفصلها عن القسم العربى سلك غير شائك ، وبين السلك والآخر مسافة عشرة سنتيمترات ، وبين بيوت الناحيتين متران فقط وقد يشطر السلك العائلة الواحدة إلى فريقين أحدهما بالقطاع الإسرائيلى ، والأتصال بينهما محرم تحريماً باتاً ، فإذا مات فرد من العائلة سارت الجنازة ونصف أفرادها فى القطاع العربى والنصف الآخر فى القطاع الإسرائيلى ويفصل بين الفريقين ذلك السلك القاتل ! .

أما القسم العربى فإنهم يقدسون عبد الناصر لدرجة العبادة ويعلقون عليه الآمال الكبار . والحال فى القطاع الإسرائيلى يختلف حسب شخصية المتكلم ، ودرجة إفادته من عمله مع اليهود ولكن الشعور العام هو الثورة على الوضع الحالى ، فهذه سيدة تنظر إلى المتفرجين فى تحد وتقول : كان أولى بكم - بدل أن تأتوا لتتفرجوا علينا وتشبعوا هوايتكم التصويرية - أن تكسروا هذا السلك الذى يفصلنا عنكم وتدخلوا فقد طال انتظارنا ستة عشر عامًا طوالا . وهذه سيدة أخرى ما كادت ترانا وتسمع لهجتنا المصرية حتى هاجت وماجت وطلبت من الواقفين أن يهيبوا بعبد الناصر أن يهم لإنقاذهم مما هم فيه . ولن أنسى تلك المرأة من القطاع الإسرائيلى عند ما أخرجت من جيبها مصحفاً مذهباً خبأت بين طياته صورة لعبد الناصر بحلة الميدان وقد بدت على وجهه أمارات القوة والصرامة والكراهية للأعداء ، وصاحت وهى ترينا الصورة : سلموا على أبى خالد ! نحن فى الانتظار ! .

وتركنا بيت صفاقة وقد شحنت نفوسنا بالأسى والحقد على هذه الأوضاع وقلت لنفسى يا ليت العرب جميعاً يحضرون إلى بيت صفاقة حتى يتضافروا على كسر السلك ودمج القطاعين من جديد ! .

وفى طولكرم رأينا الأراضى تستصلح والجبال تتحول إلى مزارع جميلة ، والمصانع تبنى وكلية للزراعة تنشأ رغم قرب المنطقة من الجبهة ، وكل هذا يدل — كما قال الدكتور وليد قمحاوى نقيب الأطباء ورئيس المؤتمر فى الحفلة الختامية للمؤتمر — على تصميم الشعب على الحياة واسترداد الحقوق ! .

وصلنا مطار القدس صبيحة يوم الاثنين ٢٧ يوليو من عام ١٩٦٤ وقوبلنا أحسن استقبال وحملنا حملًا خفيفاً لطيفًا خلال إجراءات جمركية لا أثر للتعقيد فيها فى سيارات فاخرة إلى أنخم فنادق المدينة وهو فندق

الانتركونتنتال ، وبالنسبة لارتفاع الأجور فيه اختار كل منا رفيقاً يناسبه ، فاخترت أنا ابن عمتى الجراح التقى الورع الدكتور إبراهيم بدران كشريك للغرفة ذات السريرين ، وانضم الدكتور محمد إبراهيم إلى الدكتور العميد عبد العزيز سامى وعثمان سرور إلى طه جمعه ، وعلى شعبان إلى جمال بحيرى ومحمد فطين إلى حسنى فريد ، أى أن كل غرفة حوت من الأحباب اثنين من الذكور إلا غرفتين أو ثلاثة حوت إحداها الدكتور إسماعيل السباعى وحرمه الدكتورة زينب السبكى ، وحوت الأخرى الدكتور على مرعى مخلوف وزوجته الدكتورة سعاد الهضيبى ، وحوت الثالثة الدكتور حسين طبوزاده وفضيلة عارف . أما الدكتورة تماضر النمرسى وهى الأنثى الرابعة والأخيرة فى وفد الجمهورية فقد شغلت منذ البداية غرفة ذات سرير واحد لا ينازعها فيها منازع .

وما كدنا نزيل عن أنفسنا غبار السفر — إن كان للسفر بالوسائل الحديثة غبار — حتى قيل لنا هناك رحلة لزيارة الأماكن المقدسة كقبر السيد المسيح عليه السلام والمسجد الأقصى وقبة الصخرة فتاقت النفس إلى هذا اللقاء مع أقدس تاريخ . وهتفنا فى صوت واحد ، هيابنا إلى منابع الذكريات ! .

* * *

تتمتع القدس بمكانة ممتازة بين مدن العالم لما لها من القدسية والاحترام فى نظر أصحاب الديانات السماوية ، وهى معروفة منذ أقدم عهود التاريخ ، ولقد شهدت كثيراً من المعارك التاريخية وتوالى عليها الغزاة والفاتحون ، تارة يحاصرونها ويدكون أسوارها وتارة يفتحونها ويؤمنونها ، حتى جاءها (هيرودوس) الكبير فعمرها وجدد بناءها ، وفى أواخر أيامه ولد السيد المسيح عليه السلام فى بيت لحم ، ونزلت عليها جيوش المسلمين فى أعقاب فتح

الشام وحاصرتها مدة أربعة أشهر وتم تسليمها سنة ١٥ هجرية (٦٣٦ ميلادية) على يد الخليفة عمر بن الخطاب ففتحت له أبوابها ودخلها وأمّن أهلها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وأعطاهم عهداً بذلك وهو المعروف بالعهدة العمرية . ولما زار كنيسة القيامة استقبله هناك البطريرك صفرنيوس وصادف أن حان وقت الصلاة وهو يزور الكنيسة فأشار عليه البطريرك أن يصلى حيث هو فأبى ذلك خشية أن يتخذها المسلمون فيما بعد حجة يتذرعون بها للمطالبة بحق فى الكنيسة ، ويقال أنه أمسك بحجر ورماه بالقدر الذى سمحت له به قوته وصلى فى المكان الذى رمى فيه الحجر وهو المكان الذى يقوم عليه الجامع المعروف (بجامع عمرو) على بعد خطوات من كنيسة القيامة . ويحلو لك عند وصولك إلى نهاية طريق الآلام الذى سار فيه السيد المسيح وهو يحمل الصليب نحو خاتمته الحزينة أن تتأمل مئذنة هذا الجامع مرتفعة فى الفضاء تظللها قبة الكنيسة وقد ارتفع عليها الصليب ، معلناً روح التسامح الدينى التى تسود بيت المقدس وما يجاوره من بلدان . فالمسلم أخ للمسيحى ، وبجوار كل كنيسة مسجد ، وتربط الكل أمنية واحدة هى أن تعود فلسطين إلى أهلها ، وتطهر الأرض المقدسة من تلك اللوثة الأزلية : اسطورة إسرائيل ! .

ولما جاء الأمويين أولوا القدس اهتمامهم وبنوا فيها أجمل مسجدين أثريين إلى يومنا هذا وهما مسجد الصخرة والمسجد الأقصى . ويطلق اسم الحرم الشريف على المسجد الأقصى ، ومسجد الصخرة وما حولها من مساحات ومنشآت لغاية الأسوار . وأذكر أن أحد الزملاء حاول أن يدخن سيجارة عقب خروجنا من مسجد الصخرة فمنعه المرشد السياحى وقال له : لا زلت يا دكتور فى المنطقة الحرام ! .

وقد كان لى شرف التبرك بزيارة مسجد الصخرة بعد ترميمه على أيدى الفنيين العرب ، وقد احتفل بهذه المناسبة فى يوم ٦ أغسطس سنة ١٩٦٤ فى مهرجان كبير رأسه جلالة ملك الأردن وحضره مندوبون من جميع الأقطار الإسلامية . وتروعك نخامة القبة سواء من الداخل أو الخارج وقد ارتفعت فى الفضاء حتى لتراها من مسافات بعيدة . وقد كان يلذ لى أن أقف عند باب الفندق الذى نزلت به ، وهو يقع على ربوة عالية ، وانظر إلى سفح الوادى التى تتكون منه القدس ، تتوسطه هذه القبة المذهبة وهى تلمع تحت أشعة الشمس خلال النهار وتبدو كأحد المعالم التى لا يمكنك أن تنساها ما حييت ! ويرجع إهتمام المسلمين بالصخرة إلى علاقتها الوثيقة بقصة الإسراء والمعراج . وتقع الصخرة نفسها تحت قبة المسجد مباشرة. ويبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب سبعة عشر متراً وسبعون سنتيمتراً ،وعرضها من الشرق إلى الغرب ثلاثة عشر متراً ونصف المتر ، ويتراوح إرتفاعها عن الأرض بين متر ومترين . وقبل مجىء عمر بن الخطاب كان هذا المكان عبارة عن أكوام من الحجارة والأنقاض . فأمر بتنظيف الصخرة وإظهارها وبنى فى ناحية منها جامعاً للمسلمين . ولما بنى الخليفة الأموى عبد الملك ابن مروان عام اثنين وسبعين هجربة الجامع الحالى بعد أن رصد لبنائه خراج مصر لسبع سنين ، عاد إلى المكان رونقه وصار الناس يزورونه والمسجد الأقصى من كافة الأقطار . وقد تبقى من المبالغ المخصصة لبناء مسجد الصخرة مبلغ مائة ألف دينار منحت جائزة للرجلين المشرفين على البناء وهما رجاء بن حياة الكندى أحد علماء المسلمين من بيسان ويزيد بن سلام من القدس فرفضا قائلين :

« نحن أولى أن نزيده من حلى نسائنا فضلا عن أموالنا » فأمر الخليفة أن تسبك ذهباً وتفرغ على القبة والأبواب . وفى عام ١٠٩٩ ميلادية حوله الصليبيون إلى كنيسة وبنوا عليه مذبحاً ، ولكن صلاح الدين جاء فأزال المعالم الصليبية

وزيّن القبة ، وستر الجدران بالرخام ووقف عليه داراً وأرضاً وأصبح منذ ذلك الحين موضع اهتمام الملوك والسلاطين سواء من العرب أو بنى عثمان الذين أغدقوا عليه الرخام والبلاط الصينى فى الجدران والقيشانى البديع الموجود فى مختلف النوافذ ، والسجاد العجمى والثريات المعلقة . وكانت القبة رصاصية كما تبدو فى جميع صورها القديمة التى تباع عند باعة التحف فى القدس ، وقد جرى تحويلها فى الترميم الأخير إلى قبة مذهبة فضلا عن تجديد الجدران وتثبيت الأعمدة الداخلية وزخرفتها بالقيشانى الجديد مما جعلها تحفة فى الفن الرفيع الذى قام به فنيون مصريون عرب . وقد كان لى شرف الصلاة فى رحبة هذا المسجد ، وشعرت وأنا أؤدى الصلاة برهبة عجيبة لعلاقة الصخرة بقصة الإسراء والمعراج. فأنت تتخيل النبى محمد صلى الله عليه وسلم وقد أسرى به الله من مكة إلى بيت المقدس ، فأوقف صلى الله عليه وسلم براقه عند جدار البراق وهو حائط كبير مبنى من حجارة ضخمة يبلغ طوله مائة وستة وخمسون قدما وهو يؤلف اليوم جزءاً من الجدار الغربى للحرم القدسى . وقد أقيم عنده مسجد صغير لصلاة النافلة بناه المجلس الإسلامى الأعلى أثناء الاستعمار البريطانى لفلسطين . وقد حاولت أن أصلى ركعتين فى الفضاء الكائن تحت الصخرة نفسها ولكنها الآن محاطة بسياج يتوسطه باب يمكنك من خلاله أن ترى الصخرة الخالدة وهى ليست معلقة فى الفضاء كما يعتقد البعض ولكنها متصلة بالأرض من أطرافها . وتبدو لك الصخرة خلال الإضاءة الهادئة بالأنوار الكهربائية لطيفة لامعة براقة تبعث فى النفس الخشوع وتعود منها القهقرى إلى أجيال مقدسة من التاريخ القديم .

أما المسجد الأقصى فإنه يقع فى الجهة الجنوبية من رقعة الحرم الشريف وقد شرع فى بنائه عبد الملك بن مروان الأموى وأتمه ابنه الوليد بن عبد الملك فى عام ٧٠٥ ميلادية . ويبلغ طوله ثمانين متراً وعرضه خمسة وخمسين متراً

ويقوم الآن على ثلاثة وخمسون عموداً من الرخام . ولما احتل الصليبيون القدس فى عام ١٠٩٩ ميلادية جعلوا قسما منه كنيسة واتخذوا القسم الآخر مسكناً لفرسان الهيكل ومستودعا لذخائرهم . وعند ما استرده صلاح الدين أصلح المسجد وجدد محرابه وكسى قبته بالفسيفساء . وأتى بالمنبر الخشبي ووضعه فيه . ومن مميزات هذا المنبر أنه ليس فيه مسمار واحد ، وقد كان لى شرف التبرك به وتأدية صلاة الظهر بجواره عند ما أذن الإمام خلال زيارتنا له .

وقبل أن يقودنا المرشد محمد هاشم إلى طريق الآلام وكنيسة القيامة مر بنا على جدار المبكى أو المبكى الذى كان اليهود يبكون عنده متضرعين إلى الله أن يعيد لهم موطنهم المزعوم ، ولما اغتصبوا زوراً وعدواناً أرض فلسطين الشهيدة بطلت شكايتهم وانقطع عويلهم وأصبح هذا الحائط ـ الذى هو فى الواقع جزء من جدران المسجد الأقصى ـ مزاراً للسائحين . ولما أخذت لنفسى ولصديقى الدكتور عبد العزيز سامى صورة تذكارية بجواره سبحت فى جو من الذكريات وعجبت للمستعمر الغاصب كيف يبنى من هذه الدموع الكاذبة حجة يطرد بها العرب من ديارهم ولكن عين الله ساهرة ولابد أن يعود الحق إلى أصحابه ذات يوم جميل أشرقت شمسه وازدهرت ! .

* * *

طـــــــريق الآلام

وبدأنا نصعد طريق الآلام ! لا تظنه جبلا مقفراً ، ولكنه طريق طويل اصطفت على جانبيه كل ما تتخيله من أنواع النشاط الدنيوى . بل أنه يعتبر من أكثر الأحياء التجارية نشاطاً ، به رواج وبه صخب ، وبالاختصار ليس له

من جلال الذكرى أثر يذكر ـ فواحد يتنذر وآخر يساوم وثالث يجلس إلى مقهى يحتسى شيئاً يرطب به بدنه ، ورابع يتأمل نوافذ الحوانيت لعله واجداً هوايته وهكذا . وهذا الطريق بالذات يعتقد أن السيد المسيح سلكها بعد أن حكم عليه بالموت حاملا خشبة الصليب الثقيلة على ظهره . وهو يبدأ عند بناء الروضة ـ المدرسة العمرية حالياً ـ حيث جرت محاكمته أمام (بيلاطس) وينتهى بالجلجلة فى كنيسة القيامة حيث جرى صلبه . وهو معلم بأربعة عشرة مرحلة تسع منها خارج كنيسة القيامة وخمس داخلها . وهى تدل على المواقع التى كان يقف فيها السيد المسيح عليه السلام حينما ينوء بحمله الثقيل ويجثو على ركبتيه، ويسلك المسيحيون هذا الطريق فى مواكب دينية حافلة متتبعين خطوات السيد المسيح متأثرين بآلامه ، فيقفون ويجثون ويتلون الصلوات .

ورأينا فى أول الطريق دير راهبات صهيون وآخر للفرنسسكان وقد بنيا على أنقاض قصر بيلاطس وهنا يعتقد أنه تم جلد السيد المسيح بقسوة بأيدى الجنود الرومان ، وهنا أيضاً يعتقد أنه جرت محاكمته أمام بيلاطس . ولما لم يجد موضعاً لاتهامه قام وغسل يديه بالماء براءة من دمه ، ثم سلمه إلى كهنة اليهود ليصلبوه وليكون دمه فى أعناقهم وأعناق ذرياتهم إلى الأبد .

ويسترعى نظرك وأنت تصعد طريق الآلام كنيسة القديسة فيرونيكا . وفيرونيكا هذه فتاة تطلعت إلى السيد المسيح وهو يسير حاملا صليبه والعرق يتصبب من جبينه ، فتقدمت مخترقة صفوف الجنود وقدمت له منديلها ليجفف به جبينه ، ويقال أنه لما فعل ذلك إنطبعت صورة وجهه على هذا المنديل وقد أخذ هذا المنديل (ابجر) ملك الرها فى بلاد الفرس وحفظه فى كاتدرائية عظيمة سميت باسم هذا المنديل . أما الفتاة فكان إسمها قبلا (برينكا) فلما قامت بهذه

الخدمة المنطوية على الشجاعة والمحبة سميت (فيرونيكا) وهو إسم مشتق من كلمتين لا تينيتين هما فيرا ومعناها حقيقى واونيكا ومعناها محبة .

وأنك حين تصل إلى مسجد القيامة وترى إلى يسارك جامع عمر الذى بناه صلاح الدين فى المكان الذى صلى فيه عمر بن الخطاب عندما حان وقت الصلاة وهو واقف مع البطريرك صفرونيوس فسأله عمر عن مكان يؤدى به الصلاة فأشار عليه أن يصلى حيث هو فرفض كما أسلفنا وهو يقول : أخشى إن أنا صليت داخل الكنيسة أن يتخذ من يجىء بعدى من المسلمين ذلك سابقه تبيح لهم الصلاة دائماً فى الكنيسة وربما استولوا عليها وأنا لا أرغب فى ذلك . وسطر عمر العهدة العمرية وهذا نصها :

العهدة العمرية

النص كما أورده (محمد بن جرير الطبرى) فى تاريخه

« بسم الله الرحمن الرحيم . هـــذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل (إيلياء) من الأمان . أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولـكنائسهم وصلبانهم . . أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينقص منها ولا من حيزها ، ولا من صلبهم ، ولا من شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بـ (إيلياء) معهم أحد من اليهود . . وعليهم أن يخرجوا منها الروم . . فمن خرج منهم فإنه آمن ، وعليه مثل ما على أهل (إيلياء) ومن أحب من أهل (إيلياء) أنه يسير بنفسه وماله مع الروم . . فإنهم آمنون حتى يبلغوا مأمنهم .

ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد ، وعليه مثل ما على أهل

(إيلياء) . . ومن شاء سار مع الروم . ومن شاء رجع إلى أهله . وأنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم . .

وعلى ما فى هذا الكتاب عبد الله ، وذمة رسوله ، وذمة الخلفاء . وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم . .

كتب وحضر سنة ١٥ (عمر بن الخطاب)

شهد على ذلك

(خالد بن الوليد) (عمر بن العاص)

(عبد الرحمن بن عوف) (معاوية بن أبى سفيان)

وتذكرت عندما هل عمر على الكنيسة وهو يقود الجمل بينما ركب خادمه فى الهودج فقدم البطريرك مفاتيح المدينة إلى الخادم الراكب ولما أدرك الخطأ سأل عن السبب فقال عمر : إننا نتناوب وكان هذا دوره فى الركوب . !

وعندما طلب عمر من البطريرك أن يدله على مكان مناسب يبنى فيه جامعاً للمسلمين اصطحبه إلى مكان الصخرة وإزال بيده القمامة من على الصخرة وغسلها عمر بماء الزهر وبنى مسجداً خشبياً فى ناحية من الحرم الشريف وصلى جماعة بالمسلمين وكان لعبد الملك بن مروان فضل بناء مسجد الصخرة عام ست وستون هجرية كما أسلفنا .

وأنى لأتخيل البطريرك العظيم صفرونيوس وقد رفض أن يسلم المدينة إلى أبى عبيدة الجراح قائد الجيش العربى الذى حاصر المدينة مدة أربعة أشهر وصمم على أن يسلمها لعمر نفسه ، وفعلا فتحت المدينة أبوابها لعمر فى ترحاب وإعزاز كبيرين .

ولما دخلت كنيسة القيامة أحسست برهبة التاريخ ، فهى قائمة بقبتها

على المكان الذى صلب فيه السيد المسيح والقبر الذى دفن فيه قبل أن يبعث ويصعد إلى السماء . . وقادنا الدليل إلى مكان المرحلة الحادية عشرة حيث صلب السيد المسيح ثم إلى المرحلة الثانية عشرة وهى التى تشير إلى مكان موته ثم إلى مكان المرحلة الثالثة عشر حيث أخذته والدته الثاكلة لتحضير جسده الطاهر للدفن . أما المرحلة الرابعة عشر فتشير إلى مكان القبر وقد كان لى شرف دخوله والتبرك به وناولنى كاهن وقور شمعة لا زلت أحتفظ بهـا كذكرى عزيزة مباركة . . ويبلغ ارتفاع المضجع — كما يسمى — ستون سنتيمترا فوق سطح الأرض وفوقه ثلاثة وأربعون قنديلا فضياً تضاء ليل نهار — وللأقباط منها أربعة ـ كما أن جدرانها مزدانه بايقونات القيامة يحيط بها أطارات من الفضة الخالصة . وإلى جوانبه يوقد الزائرون شموعهم ويقدسون ما يبتاعونه من أيقونات وصلبان ومسابح ولفائف بوضعها فوقه .

وهكذا نخرج من مكان القبر المقدس مأخوذاً لنسير بخطى وئيدة نحو باب الكنيسة لنرى عن يسار الداخل مخدع بوابى الكنيسة وهم من المسلمين من أفراد عائلتى نسيبة وعودة يتوارثون هذا العمل من أيام السلطان سليمان القانونى . وكانت مفاتيح الكنيسة قد سلمت إلى المسلمين منذ أيام صلاح الدين حتى لا يقع بين أتباع المذاهب المسيحية شىء من التناحر ، وبقى الوضع كما هو حتى يومنا هذا .

ولمـا وصلنا إلى أضواء النهار خارج الكنيسة مال على الدكتور على مطاوع عميد كلية طب جامعة الأزهر عندما رآنى مأخوذاً بما شاهدت وهمس فى أذنى قائلا : قل اللهم إنى أودعتك يا رب شهادة لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وتقبل يا رب زيارتى قبولا حسنا !

رحلة الخليل وبيت لحم

بعد أن أنتهت أيام المؤتمر فكرت فى إرتياد بعض الأماكن المقدسة الأخرى التى زخر الأردن الحبيب بها واقترح على تلميذى الطبيب الأردنى حكم توفيق أبو زهرة أن نزور مدينتى الخليل وبيت لحم وكل منهما مرتبطة إرتباطاً وثيقاً بالتاريخ البعيد الطويل . ففى الأولى الحرم الإبراهيمى الشريف وفى الثانية كنيسة الميلاد .

وكان اليوم جميلا والجو قطيفيا عند ما مر علينا الزميل العزيز وكانت صحبة سعيدة ضمت الدكاترة محمد ابراهيم وعبد العزيز سامى ورياض فوزى وعبد الحميد مصطفى ، ودلفت بنا السيارة فى ممرات جبلية ووصلنا بيت لحم حيث ولد السيد المسيح عليه السلام وزرنا كاندرائية المهد الكبرى ودخلناها من باب صغير فى ضلعها الغربى فوجدنا كنيسة فاخرة قائمة على أربعين عمود من الرخام الأصفر يبلغ ارتفاعها ستة أمتار وإذا سرت إلى الأمام صادفت بابين صغيرين يؤديان إلى سلم يهبط إلى مغارة بيت لحم ، فتجد مغارة الميلاد وفوقها ستة عشر قنديلا وفى وسطها نجم نحاسى مفرغ من وسطه يعين مكان ميلاد السيد المسيح وتخرج من هذا الجو الرهيب لتواجه الشمس من جديد ونركب السيارة ونحن مأخوذين من جلال الذكرى لنستأنف رحلتنا نحو مدينة الخليل (حيرون) لنزور الحرم الابراهيمى الشريف . ويذكر المؤرخون أنها أنشئت قبل تنيس عاصمة مصر السفلى بسبع سنوات ، وكانت فى الأزمنة الغابرة تسمى قرية أربع حيث كانت مبنية على تلال أربع إلى الجهة الغربية من المدينة الحالية ، وهى ترتفع عن سطح البحر ٩٢٧ متراً وتعتبر إحدى

مصايف الأردن الجميلة ، وتتمتع بهواء منعش ومناظر خلابة وأرض خصبة وعيون متدفقة تسقى حقولها وبساتينها وتتميز أعنابها بطعمها الحلو ونكهتها الطيبة . هذا فضلا عن أهميتها التاريخية لاستضافتها لجد الأنبياء إبراهيم عليه السلام الذى جاءها بأهله وهبط أرضها وضرب خيامة خارجها تحت غابة من أشجار البلوط (بلوطات ممر) وهناك بشرت الملائكة سارة بغلام وهى عجوز عقيم وفعلا ولدت اسحق . وقد ذهب ابراهيم مع زوجته الثانية هاجر إلى الحجاز حيث تركها وابنها اسماعيل وقصتها معروفة عند ما اشتد العطش بإبنها وهى تهرول بين الصفا والمروة باحثة عن عين ماء لتروى غليله ثم عودتها بعد أن سعت سبع مرات لتجد الماء وقد تفجر من الأرض بين يدى الطفل فى سخاء وبركة على أهل المنطقة جميعاً . ولا زالت عين زمزم من المعالم التى عاشت مع التاريخ . وقصة ابراهيم من ابنه إسماعيل عند ما أراد ربه أن يمتحنه الامتحان الأكبر فرأى فى المنام أنه يذبحه وفى الآية :

« يابنى أنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى . قال ياأبت أفعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم » . .

وقد ورد فى التوراة أن إبراهيم عليه السلام لما توفيت زوجته ساره اشترى مغارة (المكفيله) من صاحبها (عفرون الأدومى) بأربعمائة درهم فضة ودفنها فيها ، ثم دفن فيها الخليل عليه السلام بجوارها ثم اسحق وزوجته رفقه ويعقوب وزوجته لائقة وكلها تقع فى المسجد الكبير . ولكى تصل إلى قبر سيدنا يوسف عليك أن تجتاز بابا يؤدى بك إلى رواق مستطيل ويصادفك قبر يوسف إلى يسارك فتقف متأملا التاريخ البعيد عند ما قال يوسف لأبيه :

«ياأبت أنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين» فرجاه أبوه ألا يفضى بالرؤيا إلى أخوته حتى لا يكيدوا له . ثم تأملت كيف تآمر عليه أخوته وألقوه فى غياهب الجب ثم .

« جاءوا أباهم عشاء يبكون »

و « جاؤوا على قميصه بدم كذب ».

ثم كيف التقطته القافلة وكيف باعوه بثمن بخس دراهم معدودات للعزيز الذى سلمه لامرأته قائلا :

« أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » .

ثم بلغ أشده وبلغ من الحسن والجمال شأوا مما دفع امرأة العزيز أن تراوده عن نفسه وكيف رأى برهان ربه عند ما همت به وهم بها ثم :

«استبقا الباب وقدت قميصه من دبر والقيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ألا أن يسجن أو عذاب أليم » .

ثم كيف ثبتت لدى العزيز براءته فقال لامرأته :

« إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم - يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك أنت من الخاطئين . وقالت نسوة فى المدينة إمرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها فى ضلال مبين » .

فلما سمعت بمكرهن أرسالت إليهن وأعدت لهن متكئاً وأتت كل واحد كل واحد منهن سكيناً وقالت أخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشر إن هذا إلا ملاك كريم » .

« صدق الله العظيم »

وبقية قصة سيدنا يوسف معروفة إذ دخل السجن ثم خرج منه معززاً مكرما بفضل ما وهبه الله له من القدرة على تأويل الأحلام .

« يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأ كلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات » .

وكيف اعترفت امرأة العزيز أنها هى التى راودته عن نفسه إذ قالت .

« الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وأنه لمن الصادقين » .

فاستدعاه الملك وقربه إليه وجعله أميناً على خزائن الأرض ثم تعرف على إخوته دون أن يعرفونه ثم قال لهم .

« إذهبوا بقميصى هذا فالقوه على وجه أبى يأت بصيرا وأتونى بأهلكم أجمعين » .

واجتمع الشمل بعد طول فراق « فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبوه وقال أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين » .

تذكرت كل هذا وأنا واقف أمام القبر أتأمل مايكتبه التاريخ وتسجله الأساطير وتقصه الكتب السماوية عن هذا القابع فى ركن من الأرض صغير ! .

وتقع جميع مرافد الأنبياء فى الحرم الإبراهيمى الشريف فى غار موصد سفلى الحرم وما الأضرحة العليا إلا إشارات إليها . وللمغارة ثلاثة مداخل كلها داخل المسجد . ويظهر أن ذرية إبراهيم اتخذت من هذا المكان سكناً فأصبح على توالى العصور حرما مباركا وأثراً خالداً ، يتصل بعهد ابراهيم إلى نحو ٢٥٠٠ ق . م وتمتد إلى عهد الإسلام ثم إلى وقتنا هذا، وقد توالت عليه الأجيال وذكراه باقية رغم تعرضه مراراً لهلهلة الرومان . فلما فتح العرب

فلسطين أيام عمر بن الخطاب وجدوه خرابا بعد غارة الفرس عام ٦١٣ ميلادية فرمموا ماسمحت لهم الظروف بترميمه ولا سيما الأضرحة العليا . وشاد الأمويون سقف الحرم الحالى والقباب التى فوق مراقد إبراهيم ويعقوب عليهما السلام وزوجتيهما .

ولما احتل الصليبيون مدينة الخليل فى القرن الثانى عشر للميلاد جعلوا من الحرم وملحقاته قصراً لملكهم وثكنة لجنودهم وديراً لإحدى رهبانهم، بل أنهم كشفوا عن مقابر الأنبياء ورآهم كثير من الناس . ولما استخلص صلاح الدين مدينة الخليل من الصليبيين أعاد إصلاحه ووضع فى الحرم المنبر الفاطمى الذى جلبه من مشهد عسقلان ووضع له المحراب ودكة المؤذنين .

وتوالت الملوك والسلاطين والكل يبذل جهده فى سبيل الإبقاء على هذا المقام فى أبهى رونق وأزهى حلة .

وخرجنا إلى الشمس الزاهية وقد وجعت منا النفوس وركبنا من جديد سيارة الدكتور حكم أبو زهره وفى طريق العودة إلى القدس الشريف حدثنا عن حبه للعقاد فقد كان من أخلص أتباعه . وقلت له أننى إن ندمت على شىء فهو لأنى لمأتصل بالعقاد شخصياً أثناء حياته . فقد كان يبدو لى متعجرفا متكبراً حتى أننى كنت أتحاشى مطارحته السلام أو الحديث ولما شاهدت فى التليفزيون عقب وفاته اعادة لحديثه مع أمانى ناشد أدركت أنه إنسان عادى ، . يبتسم ويضحك ويلقى النكتة الحلوة فى أروع أسلوب وكنت وأنا أنظر إلى شاشة التليفزيون أقول لنفسى فى كمد وأسى : « ياليتنى عرفتك حيا » ! .

من وحي كربلاء

زُرْت بغداد فى عام ١٩٦٢ بمناسبة انعقاد المؤتمر الطبي العربى ، ولما استعرضت قائمة الرحلات التى نظمتها هيئة المؤتمر ليتسنى للأعضاء استجلاء المفاتن التاريخية التى تتميز بها بغداد ، والتى تتجلى فيها عظمة تاريخ الإسلام بحق - استلفتت نظرى رحلة أسموها (زيارة العتبات) ، والتى تشمل زيارة مسجد الحسين بن على ومسجد أخيه العباس بكربلاء ، ومسجد الإمام على بالنجف ، ومنزله ومكان مقتله بالكوفة وهى أسماء بلاد وأشخاص طالما داعبت خيالى .

وصلنا إلى أبواب مدينة كربلاء وما كدت استنشق عبيرها حتى تخيلته لا يزال ممتزجاً فى عبيق أبدى برائحة دم الحسين ومن معه من الشهداء . ولما نزلنا من السيارة وأخذنا نجوب شوارع المدينة الضيقة المزدحمة - وهى تشبه إلى حد كبير شوارع المراكز والبنادر فى بلادنا . خيل إلى وأنا أطأ أرضها أن مكان المعركة الكبرى قد عفى عليه الزمن وحل محله عمران لا يعجب النفس التواقة الذواقة لمباهج التاريخ والتى كان أحب إليها أن تحتفظ الأرض الطيبة بكل قطرة من دم كل طاهر شهيد فى معركة كربلاء . . . ولكن هذه سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ...

وما كنا نسير بضعة دقائق حتى لفت أنظارنا مسجد من أفخم ماوقعت عليه العين وقيل لنا أن هذا مرقد العباس بن على شقيق الحسين فدخلت لأقرأ الفاتحة على روحه وجلست بجانب المقام خاشعاً أهمس متمتماً « إيه ياعباس أيها البطل المغوار .. لقدنسيك الناس » ثم تذكرت مافعله عندما رأى كثرة القتلى من أهله

فى معركة كربلاء وخاصة بعد أن استشهد أخوته من أمه وأبيه عبد الله وعثمان وجعفر ، وبعد أن انقطع المدد وملأ سمعه عويل النساء وصراخ الأطفال من العطش. فتقدم إلى الحسين يستسمحه فى أخذ الثأر، وكان الحسين يرى فيه ذخيرة نفيسة تخشاها الأعداء لجرأته وإقدامه ، فعز عليه أن يفقده ، فسمح له أن يذهب فقط ليطلب الماء للأطفال ، فنادى بصوت عال : ياعمر بن سعد ! هذا الحسين ابن بنت رسول الله ، قد قتلتم أصحابه وأهل بيته ، وهؤلاء عياله وأولاده عطاشى، فاسقوهم من المـاء فقد أحرق الظمأ قلوبهم . . فرد عليه بأعلى صوته : ياابن أبى تراب ! لو كان وجه الأرض كله ماء وهو تحت أيدينا لما سقينا كم منه قطرة الا أن تدخلوا فى بيعة يزيد .. فرجع إلى أخيه بما سمع فوجد الأطفال يصرخون من العطش ، فثارت فيه الحمية الهاشمية وركب جواده وأخذ القربة معه ، ورغم رميه بالنبال من كل جانب فإن الله سلم ، فوصل إلى الفرات ونزل إليه مطمئناً غير مبال بالجمع المحتشد ، ولما اغترف من الماء ليشرب تذكر عطش الحسين ومن معه فرمى الماء وقال :

يانفسى من بعد الحسين هونى ... وبعده لا كنت أن تـكونى

ثم ملأ القربة وركب جواده وتوجه نحو المخيم مخترقا الحشود يضرب بسيفه يميناً وشمالاً وأكثر فيهم القتل ، ولـكن زيد بن الرقاد الجهنى وحكيم ابن الطفيل كمنا له وراء نخلة فضرب أولهما يمينه فقطعها ، فلم يعبأ بيمينه إذ كان همه إيصال الماء إلى أطفال الحسين وعياله . ثم أتى دور حكيم بن الطفيل ، فـكمن له وراء نخلة أخرى فلما مر به ضربه على شماله فقطعها ، وما كاد يفعل حتى تـكاثر الأعداء عليه وأمطروه بالنبال فأصاب القربة سهم أراق ماءها وأصاب صدره سهم آخر ، وضربه رجل بالعمود على رأسه ففلق هامته ، فسقط على الأرض ينادى : عليك منى السلام أبا عبد الله . . . فأتاه الحسين ولما رآه

على هذه الحال قال : الآن انكسر ظهرى وقلت حيلتى ! وأمر بتركه فى مكانه ليدفن فى موضع بعيد عن بقية الشهداء .. وهانذا أجلس خاشعاً فى نفس المكان فى رحاب مسجد من أروع وأفخم ما رأت العين ، تحت قبة تضاهى السماء سناء ورفعة ، ويزدلف إليه الناس من كل حدب وصوب يتزلفون بوساطته لدى المولى سبحانه وتعالى .

ولما استأنفت المسير نحو مسجد الحسين أدركت أن هذه المسافة هى نفسها التى قطعها الحسين سيراً على قدميه ليستجيب إلى الآهة الأخيرة التى خرجت من بين جوانح أخيه العباس الحبيب ليذرف عليه الدمع الهتون ويرجع بعدها إلى المخيم منكسراً حزيناً باكياً يكفكف دموعه بكمه . ولما أتته سكينة تسأل عن عمها أخبرها بمقتله فبكت النسوة وبكى الحسين وقال « واضيعتنا بعدك! » .

* * *

ما كدت أصل إلى مرقد الحسين حتى أحسست بالرهبة تلبسنى كلما اقتربت من قبره الطاهر المحاط بأروع مظاهر من العظمة والفخامة قل أن تقع العين على مثلها ، والناس من حوله بين باك وخاشع ومتضرع يطلب الشفاعة فى أصوات عالية تزيد من رهبة المكان ، وتدل على منزلة الشهيد الراقد تحت التراب . وجلست متربعاً بعد أن صليت ركعتين وبعد أن تجولت فى أنحاء هذا المسجد المليء بالذكريات . فالى يسار مقام فخم يضم جثث اثنين وسبعين من الشهداء فى معركة كربلاء ، وعن كثب فجوة بحجم جسم الحسين غطيت بغطاء من المعدن الثمين تشير إلى مكان مصرعه ، وقفت أمامها متأملا فترة من الزمن وحولى النساء يعولن ويبكين ، فلا زالت الحسرة على فقد الحسين تتوارثها الأجيال فى العراق . وتراكمت على الذكريات وأنا أنظر إلى هذه الفجوة فسرت فى تباطؤ إلى حيث جلست أستعيد الذكريات .

عادت بى الذكرى إلى سنة إحدى وستين بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، عند ما وصل الركب بالحسين وأنصاره إلى أرض كربلاء ، فوقف جواد الحسين ولم يتحرك فسأل عن الأرض فأجابه زهير بن القين : أن هذه الأرض تسمى الطف ، فقال فهل لها اسم غيره .؟ قال تعرف بكربلاء ، فدمعت عيناه وقال « اللهم أنى أعوذ بك من الكرب والبلاء ، ههنا محط ركابنا وسفك دمائنا ومحل قبورنا .بهذا حدثنى جدى رسول الله صلى الله عليه وسلم »

وكان نزوله فى الثانى من المحرم ، فجمع ولده وأخوته وأهل بيته . . . ونظر إليهم وبكى وقال « اللهم إنا عترة نبيك محمد ، قد أُخرجنا وطردنا من حرم جدنا ، وتعدت بنو أمية علينا ، اللهم فخذ لنا بحقنا وأنصرنا على القوم الظالمين . .

ثم اشترى النواحى التى فيها قبره من أهل نينوى والغاضرية بستين ألف درهم وتصدق بها عليهم واشترط عليهم أن يرشدوا إلى قبره ويضيفوا من زاره ثلاثة أيام . . .

وهكذا استقر فى مقام دلف إليه ثلاثون ألف من أمة جده محمد صلى الله عليه وسلم ينتمون إلى بنى أمية أجمعوا على قتله وسفك دمه وانتهاك حرمته وسبى نسائه وذريته ، وقد أرسل هذه العساكر ابن زياد إلى ابن سعد فوجا بعد الآخر حتى اكتمل العدد ثلاثين ألفاً . وأنزل ابن سعد بعض فرسانه إلى شاطىء الفرات ليحْمُوا الماء ويحولوا بينه وبين سيد الشهداء وآله وصحبه حتى أضرَّ بهم العطش، فأخذ الحسين فأساً وخطا وراء خيمة النساء تسع عشرة خطوة نحو القبلة وحفر فنبعت له عين ماء عذب ، فشربوا لوهلة قصيرة ثم غارت العين ولم يبق لها أثر ، وعلم ابن زياد بذلك فأرسل إلى ابن سعد يطلب منه تشديد الرقابة ، فبعث فى الحال بخمسمائة فارس وعلى رأسهم عمرو بن الحجاج لتدعيم

المرابطين على شاطىء الفرات ، وكان ذلك قبل مقتل الحسين بثلاثة أيام . . .

وفى اليوم السابع اشتد الحصار على سيد الشهداء ومن معه ونفذ ماعندهم من ماء ، وماذا يفعلون وبينهم وبين الماء سيوف مرهفة وقلوب غليظة أعماها الحقد والتعصب ؟ فطلب من أخيه العباس أن يستقى للحرائر والصبية وضم إليه عشرين راجلاً مع عشرين قربة ، وقصد الجميع الفرات بليل غير مبالين بالخطر فصاح فيهم عمرو بن الحجاج : من القادم ؟ فرد عليه نافع بن هلال : جئنا لنشرب فقال عمرو : اشرب هنيئاً ولا تحمل إلى الحسين منه ، فرد عليه نافع لا والله لا أشرب منه قطرة والحسين ومن معه عطاشى ، وبعد قتال تمكنوا من الحصول على بعض الماء لن يجدى فى أرواء غلة من يقرب من المائتين من رجال ونساء وأطفال . ومرت الأيام فى تباطؤ وتكاسل ، وتعددت المحاولات فى سبيل تقريب وجهات النظر ، ولكن أين الشجاعة من الكثرة ، وخاصة إذا بلغ الحقد والغلظة من جانب الكثرة منتهاها . . . وسمعت زينب أصوات الرجال من الجانب الآخر فقالت لأخيها : لقد اقترب العدو منا ..وكان عليه السلام جالساً أمام بيته متحلياً بسيفه ثم كانت ليلة عاشوراء ، وهى أشد ليلة مرت على أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، فما كاد ينبلج الصباح حتى صلى الحسين بأصحابه صلاة الصبح ، ثم صفهم للحرب وكانوا اثنين وثمانين بينما أقبل عمر بن سعد نحوه فى ثلاثين ألف ، فلما رآهم الحسين رفع يديه بالدعاء قائلا « اللهم أنت ثقتى فى كل كرب ورجائى فى كل شدة ، أنت ولىّ كل نعمة ومنتهى كل رغبة » ثم خطب فى الناس بين بكاء السيدات ووجوم الرجال . وفى مرة ركب فرسه وأخذ مصحفاً ونشره على رأسه ووقف بإزاء القوم المعادين وقال : ياقوم أن بينى وبينكم كتاب الله وسنة جدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم استشهدهم عن نفسه المقدسة وما عليه من سيف النبى صلى الله عليه وسلم ودرعه وعمامته فأجابوه بالتصديق فسألهم عما أقدمهم على قتله فقالوا « طاعة للأمير عبد الله بن زياد » .

وبعد أخذ ورد تقدم عمر بن سعد نحو عسكر الحسين ورمى بسهم وقال : اشهدوا لى عند الأمير أنى أول من رمى ، ثم رمى الناس من بعده فلم يبق أحد من أصحاب الحسين إلا وأصابه سهم من سهامهم . وبعد ساعة قتال صُرع منهم خمسون شهيد ، ثم أخذ عددهم فى النقصان وكانوا يخرجون بعد ذلك فرادى يقاتلون حتى الموت ، وكان كل من أراد الخروج يودِّع الحسين بقوله : السلام عليك يا ابن رسول الله ، فيجيبه الحسين : وعليك السلام ونحن خلفك . ثم يقرأ : « ومنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » وحدث أن وقف عمرو بن قرظة أمام الحسين يقيه من العدو ويتلقى السهام بصدره وجبهته ، ثم التفت إلى الحسين وهو فى الرمق الأخير وقال « أوفيت يا ابن رسول الله ؟ » فقال : أنت أمامى فى الجنة فاقرأ رسول الله منى السلام وأعلمه أنى فى الأثر . . . فابتسم وخر ميتاً . وكان له أخ اسمه على يقاتل فى صفوف الأعداء فلما شاهد مصرع أخيه صاح فى الحسين « ياحسين يا كذاب ! أهكذا غررت بأخى ، قتلنى الله إن لم أقتلك ، ثم حمل على الحسين يريد قتله فاعترضه نافع بن هلال فطعنه حتى صرعه فحمله أصحابه إلى معسكرهم وعالجوه حتى برىء .

* * *

ولم يبق مع الحسين إلا أهل بيته الذين عزموا على ملاقاة الموت بمزيج من اليأس والمرارة والإباء والشمم ، وكان أول من تقدم أبو الحسن على الأكبر وعمره سبعة وعشرون سنة ، فكان نصيبه أن قطعه الأعداء بسيوفهم إرباً إرباً فذهب إليه الحسين وانكب عليه واضعاً عضده على خده ، وأمر فتيانه أن يحملوه إلى الخيمة ، فاستقبلته الحرائر صارخات نادبات ، ثم تلاه عبد الله بن مسلم بن عقيل بن أبى طالب ، ثم أبو بكر بن الحسن

ابن أمير المؤمنين فقاتلا حتى قتلا ، ثم خرج القاسم وهو أخوه من أمه وأبيه وهو غلام لم يبلغ الحلم ، تقدم وكأن وجهه شقة قمر ، وبيده السيف وعليه قميص وإزار ، وفى رجليه نعلان فكان نصيبه القتل دون رحمة أو شفقة ، ثم تلاه أخوه العباس من أمه وأبيه وعبد الله وعثمان وجعفر ، ثم العباس نفسه ، إذ خرج ليملأ قربته ليروى عطش النساء والأطفال فكان مصيره الموت كما أسلفنا . وبعد مقتل العباس وجد الحسين نفسه وحيداً لا يسمع إلا عويل الأيامى وصراخ الأطفال من حوله فأمر عياله بالسكوت وودعهم ، وكان يلبس جبة دكناء وعمامة موردة أرخى لها ذؤابتين ، والتحف ببردة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولبس درعه وتقلد سيفه ، ثم ودع عياله وأمرهم بالصبر ، وبينا هو كذلك صاح عمر بن سعد بجنوده : هذا ابن قتال العرب ! احملوا عليه من كل جانب ! فحملوا عليه يرمونه بالسهام وهو ساهم ، ولعله كان لا يزال يفكر فى ابنه الرضيع عبد الله الذى أتى به إلى القوم منذ لحظات يطلب له ماء ، فرماه ابن كاهل الأسدى بسهم فذبحه دون ما رحمة وشفقة لطفولته البريئة . ولعله كان يتلقى السهام تصيب جبهته ثم قفاه وقلبه فى شجاعة وهو يقول ناظراً إلى السماء : « يا إلهى أنت تعلم أنهم يقتلون رجلاً ليس على وجه الأرض ابن نبى غيره . » وأعياه نزف الدم فجلس الأرض ينوء برقبته وجاء إليه وهو على هذه الحال مالك بن النسر فشتمه ثم ضربه بالسيف على رأسه ، وارتد عائداً إلى قومه ، وبعد برهة عادوا إليه وأحاطوا به وهو جالس على الأرض لا يستطيع النهوض ، وأخذوا ينظرون إليه ولو شاءوا لقتلوه ، إلا أن كل قبيلة كانت تكره الإقدام متكلة على غيرها حتى لا تدمغها الوصمة الأبدية ، حتى صاح الشمر : ما وقوفكم وما تنتظرون وقد أثخنته السهام والرماح ، أجهزوا عليه ! . . فانقضوا عليه الانقضاضة الأخيرة يثخنونه

ويطعنونه ، واستسقاهم وهو يجود بأنفاسه فأبوا . . والنساء من ورائه يصرخن . . أم كلثوم تنادى وامحمداه ويا أبتاه واعلياه واجعفراه واحمزتاه ! وزينب تقول واأخاه واسيداه ! حتى صاح ابن سعد بالناس انزلوا إليه وأريحوه ! فبادر إليه (شمر) فرفسه برجله وجلس على صدره وقبض على شيبته المقدسة وضربه بالسيف اثنتى عشرة ضربة ثم اجتز رأسه المقدس ، وهكذا انتهت حياة سيد الشهداء الحسين بن على .

أما قصة رأس الحسين فإن الأقوال تتضارب بشأنها ، والمقول أنه لما رجع ابن زياد من معسكره بالنخيلة ودخل قصر الإمارة وضع رأس الحسين عليه السلام بين يديه وجعل ينكث بالقضيب بين ثناه ، فقال له زيد بن أرقم : ارفع القضيب عن هاتين الشفتين ، فو الذى لا إله إلا هو لقد رأيت شفتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هاتين الشفتين يقبلهما ثم بكى ، فقال له ابن زياد : أبكى الله عينيك فو الله لولا أنك شيخ قد ذهب عقلك لضربت عنقك . . .

وبعث ابن زياد رسولا إلى يزيد يخبره بقتل الحسين ومن معه وأن عياله فى الكوفة وينتظر أمره فيهم — فعاد الجواب يحملهم والرؤوس معهم . وفى أول يوم من صفر دخلوا دمشق فأوقفوهم على (باب الساعات) وقد خرج النـاس بالدفوف والأبواق وهم فى فرح وسرور ، ودنا رجل من سكينة وقال لها : من أى السبايا أنتم ؟ .

قالت : نحن سبايا آل محمد .

وكان يزيد بن معاوية جالساً فى إيوانه ينظر مزهوًّا إلى السبايا والرؤوس على أطراف الرماح وقبل أن يدخلوهم إلى مجلس يزيد أتوا بحبال فربطوهم بها فكان الحبل فى عنق زين العابدين إلى زينب وأم كلثوم وباقى بنات

رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكلما قصروا فى المشى ضربوهم وأوقفوهم بين يدى يزيد وهو على سريره فقال على بن الحسين : ما ظنك برسول الله لو يرانا على هذا الحال ؟ فبكى الحاضرون وأمر يزيد بالحبال فقطعت ، ودعى يزيد برأس الحسين ووضعه أمامه فى طشت من ذهب ، وكان النساء من خلفه فقامت سكينة وفاطمة تتطاولان النظر إليه فلما رأينه صرخن بالبكاء . ثم أذن للناس أن يدخلوا وأخذ يزيد القضيب وجعل ينكث ثغر الحسين ويقول : يوم بيوم بدر . . . . فقال أبو برزة الأسلمى : أشهد لقد رأيت النبى يرشف ثناياه وثنايا أخيه الحسن ويقول : أنتما سيدا شباب أهل الجنة .. فقتل الله قاتلكما وأعد له جهنم وساءت مصيراً . ثم أخرج الرأس من المجلس وصلب على باب القصر ثلاثة أيام . وأمر ببقية الرءوس أن تصلب على أبواب البلد والجامع الأموى .

أما مصير رأس الحسين بعد ذلك فهو موضع الغموض . فمن قول أن زين العابدين طلب من يزيد الرءوس كلها ليدفنها فى محلها فأجابه إلى طلبه ، وقيل إن الرأس أعيدت إلى الجثة بعد أربعين يوماً ، ومن قول أنه دفن بالقاهرة ، ومن قول أنه فى سوريا ، والعلم عند علام الغيوب أولا وأخيراً . . .

وتنبهت فجأة على صوت الزملاء البربرى وحافظ موسى والظواهرى يتعجلوننى فى القيام لنستأنف السفر إلى النجف ثم الكوفة ويا ليتهم مافعلوا . أننى كنت أقوم برحلة فى خاطرى مع الشهيد وأهل بيته وصحبه ، ولم أكد أفيق من من غيبوبتى الروحية حتى لمست فى تبرك هذا السياج الفاخر الذى يحيط بقبر الحسين عليه السلام . وبينما كنت أنصرف فى خطى ثقيلة نظرت خلفى مرة ثانية وهتفت من الأعماق : إلى لقاء ياسيد الشهداء .

وأنك لا تملك وأنت تنصرف بخطى ثقيلة من المسجد الطاهر أن تنظر خلفك مرة ثانية هاتفاً من جديد من الأعماق بينما المآذن الفاخرة تختفى عن الأفق : إلى اللقاء ! إلى اللقاء !

* * *

والواقع أن معركة كربلاء هذه قد قضت فى بضعة أيام على معظم ذرية الإمام على ، ويندر أن تنكب عائلة فى أغلبيتها العظمى فى فترة وجيزة كما نكبت عائلة على . لذلك عند مااقتربت من بيته بالكوفة تخيلت أولاده يمرحون فى براءة الطفولة دون ما شعور بما يخبأه لهم القدر ، والمنزل كما رأيته مكون من ساحة متواضعة تصب فيها من اليسار غرفتان إحداهما كان ينام فيها الحسن والحسين عليهما السلام ، وهى مظلمة نوعاً ما وسمعت عن كثب بكاء سيدات العراق ونواحهن وقد جئن يزرن هذه العتبة دون أن يصيبهن الكلل أو الملل ، فهن لا يشبعن أبداً من زيارة بيت علىٍّ وأولاده وقبورهم الفخمة الشهيرة بقبائها ومآذنها المذهبة ، وإلى يمين الداخل لهذا البيت الأثرى غرفة جلوس تتصل بغرفة أخرى قال لنا الدليل أنها الغرفة التى غسل فيها الإمام وكفن عقب مصرعه على يد ابن ملجم . بل لقد تخيلت الإمام علىّ نفسه وهو طفل لم يتجاوز العاشرة من عمره عند ما أخذه محمد صلى الله عليه وسلم فكفله وقام على تربيته ، ولما نزلت عليه الرسالة كان عمره أكثر من العاشرة بقليل ، فنشأ مع الإسلام يوماً بيوم وعاماً بعام وأحبه الرسول صلى الله عليه وسلم حباً جماً وآثره على غيره ، فاستخلفه حين هاجر من مكة على ما كان عنده من ودائع حتى ردها إلى أصحابها ، ثم أمره فنام فى مضجعه ليلة ائتمرت قريش بقتله ، ثم لحق بالنبى فى المدينة . ثم زوجه ابنته فاطمة وتوثقت بينهما أواصر المحبة دون هوادة حتى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للمسلمين فى حجة الوداع (من كنت مولاه فعليه مولاه ، اللهم وال مَنْ والاه وعاد من

عاداه) وكان النبي يدعوه أخاه ، وقال له ذات مرة : أنت منى منزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى .

* * *

أخذت أجول ببصرى فى أنحاء الغرفة التى غسل فيها جسد الإمام ، وتخيلته إذ خرج لصلاة الغداة فى مسجد الكوفة وقد كان كنيسة قبل الإسلام (هكذا قال الدليل) — وبينما هو ينادى أيها الناس الصلاة الصلاة بعد أن دخل عليه ابن الذباح المؤذن قائلا الصلاة خرج على الناس من الباب — فإذا بعبد الرحمن بن ملجم يصيح الحكم لله يا على لا لك ولا لأصحابك ! ، وتقدم ومعه رفيقه وتلقياه بسيفيهما فأصابه سيف بن ملجم فى جبهته حتى بلغ دماغه ووقع سيف صاحبه فى جدار البيت وصاح على وهو يخر على الأرض : لا يفوتنكم الرجل وقبض على بن ملجم وقتل صاحبه وهو يحاول الفرار ، وحمل علىٌّ إلى داره وأدخل عليه بن ملجم فقال على : النفس بالنفس إن أنا مت فاقتلوه كما قتلنى وإن بقيت رأيت فيه رأى . . . وأمرهم أن يكرموا مثواه ويحسنوا طعامه حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

وبينما هو يلفظ أنفاسه دخل عليه أحد الناس وسأله : يا أمير المؤمنين إن فقدناك ولا نفقدك فتبايع الحسن فقال : لا آمركم ولا أنهاكم : أنتم أبصر . ثم دعى الحسن والحسين وقال : أوصيكما بتقوى الله وقول الحق ورحمة اليتيم وأغاثة الملهوف . كونا للظالم خصما وللمظلوم ناصراً ثم نظر إلى إبنه محمد بن الحنفية وقال : أوصيكما به فإنه شقيقكما وابن أبيكما . ومات على فى ليلة اليوم التالى وكانت ليلة الأحد . وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وصلى عليه الحسن وكان لعلى حين قتل أربع وستون سنة وقيل خمسة وستون وقيل سبع وخمسون وقيل ثمان وخمسون وكان له تسعه عشر سرية ولم ينفذ ولاة الدم

وصية عليّ فى أمر قاتله فمثلوا به أشنع تمثيل ، ولما مات حرقوه بالنار بعد أن قطعوا أطرافه .

* * *

ويختلف الرواة فى مكان قبر على والذى يزور مقامه الفخم بالنجف يأمت نظره ظبى داخل إطار وتقول الأسطورة أن أحد الملوك ويقال أنه هارون الرشيد كان خارجاً لصيد الغزلان فوصل أحدها إلى ربوة ووقف عليها ولم تجرأ الكلاب على الهجوم عليه ، فوقف مزهوا بحماية صاحب البركات المدفون على هذه البربوة فثبت أنهـا قبر على كرم الله وجهه . . . ولقد قيل فى إحدى الأساطير أنه دفن فى الرحبة بالكوفة وعُمىّ قبره حتى لا ينبشه الخوارج . . . وقوم يقولون أن الحسين نقله إلى المدينة لدفنه إلى جانب فاطمة زوجته . . والله أعلم .

* * *

ووراء مقتل علىّ طرائف عدة . فبعد أن بلغت الفتنة الكبرى مداها اجتمع ثلاثة هم ابن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمى فتذاكروا أمر الناس وعابوا على ولاتهم وصمموا على التخلص منهم ليريحوا البلاد منهم ويثأروا بهم إخوانهم الذين قتلوا ضحية لأطماعهم : قال ابن ملجم : أنا أكفيكم على بن أبى طالب ، وكان من أهل مصر وقال البرك بن عبد الله : أنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان : وقال عمرو بن بكر : أنا أكفيكم عمر بن العاص ! وتعاهدوا وتواثقوا بالله ألا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذى توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه . ثم أخذوا أسيافهم فسموها واتفقوا أن يكون يوم التنفيذ اليوم السابع عشر من رمضان سنة أربعين ، وحال القدر الفنان دون هذه الخاتمة ولم يمت من بينهم إلا على بن أبى طالب ، وقد روى أن البرك

ابن عبد الله قعد لمعاوية فى الليلة التى ضرب فيها على فلما خرج معاوية ليصلى الغداة ضربة بسيفه فأصابه فى إليته، فلما قبض عليه قال عندى خبر أسرك به — أن أخا لى قتل علياً الليلة، فهل ينفعنى ذلك عندك ؟ فقال معاوية : لعله لم يقدر على ذلك . . قال : بلى أن علياً يخرج وليس معه من يحرسه : فأمر معاوية بقتله فى الحال . ثم بعث إلى طبيبه فلما نظر إلى جرحه قال « اختر إحدى خصلتين . . . أما أن أحمى حديدة فأضعها موضع السيف وأما أن أسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرأ منها فأن ضربتك مسمومة فقال معاوية : أما النار فلا صبر لى عليها وأما انقطاع الولد فأن فى يزيد وعبد الله ما تقربه عينى : فسقاه تلك الشربة فيرىء . . . وأمر معاوية بعده هذه الحادثة بقيام الحرس والشرطة على رأسه كلما سجد .

أما عمرو بن العاص فلم يخرج فى تلك الليلة بسبب ألم فى بطنه فأمر خارجه ابن حذافة وكان صاحب شرطة — فخرج ليصلى بالناس بدله فقتله عمرو بن بكر ولما انطلقوا به إلى عمر نظر إليه (إلى عمرو بن بكر) وقال أما والله يا فاسق ما ظننته غيرك : فأجابه عمرو بن العاص (اردتنى وأراد الله خارجة) ثم أمر بقتله . . ومن هنا قول الشاعر :

فليتها إذ فدت عمراً بخارجة . . فدت علياً بما شاءت من البشر .

* * *

أما عائشة رضى الله عنها فلما بلغها خبر قتل على قالت :

وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالأياب المسافر

وكأنها أرادت أن تقول أن علياً أراح بموته واستراح . وهل ينسى أحد موقفها منه فى موقعة الجمل عندما استيأس على من طلحة وعرف أنه يصمم على إعلان الحرب ورأى على شباب البصرة وسفهاءهم يرشقون أصحاب على بالنبال ،

فيحملهم أصحابهم إلى على متعجلين إذنه بالقتال وهو مع ذلك صابر مشفق يحاول تأجيل سفك الدم الحلال إلى أبعد مدى ، حتى إذا ما أرسل للقوم فتى من أهل الكوفة وأعطاه مصحفاً ليقف به بين الصفين داعياً القوم إلى ما فيه ، فلم يلبثوا أن رشقوه بالنبل حتى مات ، قال على لأصحابه : الآن طاب الضراب! وبدأت المعركة صدر النهار ولما انهزم القوم مع غروب الشمس أقبل المتحمسون من أصحاب طلحة والزبير فأخرجوا أم المؤمنين عائشة من بيتها فى المسجد وأدخلوها هودجاً مصفحاً بالدروع وحملوها على جملها إلى ميدان المعركة. فما شاهد المنهزمون زوج الرسول وحبيبته حتى ثارت حميتهم ودارت المعركة من جديد ، يريد أصحاب على أن يبقوا على النصر الذى أحرزوه فى أول النهار ويريد أصحاب عائشة أن يحموا أم المؤمنين ويموتوا دونها ، فاقتتلوا فى كراهية وبأس شديدين ، ونادى مناد بالمقاتلين أن يُطَرِّفوا — أى أن يقطع بعضهم أطراف بعض ، وكان أصحاب عائشة على وشك الانهزام ، ولكن عائشة فى الهودج كانت تحرضهم فترد إليهم الحمية ، تتحدث إلى من عن يمينها وعن شمالها محرضة محمسة ، ورأى على بعينى رأسه هذا القتل الذريع فصاح فى أصحابه : أعقروا الجمل فأن فى بقائه فناء العرب ! فيهوى عليه أحد أصحابه بالسيف فيعقره فيخرُّ الجمل على جنبه وهو يزار زئيراً منكراً لم يسمع مثله من قبل ومن بعد . فتفرق حماة الجمل كما ينتشر الجراد ، ويقبل محمد ابن أبى بكر وعمار بن ياسر فيحملان الهودج وينحانه جانباً ، ويدخل محمد رأسه فى الهودج فتسأله عائشة من — أنت . . ؟ فيقول ، أبغض أهلك إليك ، فتقول : ابن الخشعمية ؟ فيقول نعم أخوك محمد ، ويقبل علىٌّ وقد تملك شعوره إلى أقصى الحدود ويضرب الهودج برمحه ويقول لها « غفر الله لك » وتجيبه عائشة « وغفر لك » ثم أمر محمد بن أبى بكر أن يدخل أخته إحدى دور البصرة فادخلها دار عبد الله بن خلف الخزاعى حيث أقامت فيها أياماً عديدة .

وهكذا انقضى يوم لم ير المسلمون يوما فى مثل بشاعته ، قتل فيه المسلم أخاه المسلم ، ومن بين القتلى نخبـة من خيار أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ومن خيرة فقهاء الإسلام ، وكان على يتعرف على القتلى من أصحابه ومن خصومه متوجعاً ومترحماً على أولئك وهؤلاء ، وقد أمن على الناس بعد سقوط الجمل وسحب عائشة ، وأمر أصحابه ألا يجهزوا على جريح ولا يتبعوا فاراً ، ولا يدخلوا داراً ولا يهتكوا ستراً ، وأمر بجمع ما ترك أهل البصرة فى الميدان وحمله إلى المسجد ونادى مناد فى الناس : كل من عرف عنه شيئاً فليأخذه . وقد بلغ عدد القتلى فى هذه المعركة ألوفا مؤلفة اختلف الرواة فى احصائها ولـكن المعروف أن معظم دور البصرة والـكوفة قد سكنها الحزن والثـكل والحداد .

* * *

داعبتنى هذه الخواطر وأنا أسير الهوينا خلال المائة متر التى توصل بين دار على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وبين مسجد الـكوفة ، ولما وصلت إلى فنائه الـكبير ذى الأرض القاحلة وجدتنى منساقا إلى داخـله لأتأمل المقام الفاخر الذى بنى فى نفس البقعة من المسجد التى قتل فيها بسيف عبد الرحمن ابن ملجم وقرأت الفاتحة على روحه الطاهرة ، ولما خرجت إلى الساحة القاحلة مرة ثانية ، لاحت منى إلتفاتة إلى الخلف فلمحت الـكلمات الآتية مكتوبة على باب المسجد :

« لافتى الأعلى »

أنور المفـــــتى

كان أنور المفتى أسطورة جميلة فى عالم الطب ، وقد أفل نجمه أفولا مبكراً فى يوم ١٦ يناير من عام ١٩٦٤ فترك فى كل مقلة دمعة وفى كل قلب غصة ، وهاجت الخواطر والأقلام تنعيه وتبكيه . ولقد قرأت كل ما كتب عن أنور المفتى بعد أن انتقل إلى العالم الآخر وكان كل ما كتب صادراً من قلوب مكلومة هزتها الصدمة من قريب أو بعيد ، وكنت أعجب ماذا يكون حالى وأنا الذى عاصرته طوال حياته العلمية ورافقته إلى بعض المؤتمرات ورأيته يناقش ويحاور العلماء على أعلى المستويات وعلى أساريره ابتسامة لا تغيب أبداً . واذا شرق حلق أحدهم فى الخضم الواسع من المادة التى تمكن فقيدنا منها كل التمكن من خفايا الكيمياء الحيوية والتمثيل الغذائى والهرمونى، أخذ بيده فى رفق حتى يصل به إلى بر السلامة دون أن يشعره أنه كاد يصل إلى قاع أليم لولا أن تداركته يده الحانية .

لقد راقبت (أنور) عن كثب وهو يعلو نحو السماء رويداً رويداً وفى تؤدة غير مقصودة ، بل لحكمة دفينة فى نفسه وجهته أحسن توجيه حتى رضى هو عن نفسه ورضى عنه الناس ، وما رضاء الناس إلا من رضاء الله .

بدأ هذا الصرح الشامخ صلداً من أساسه منذ كان مدرساً شابا يافعاً بكلية طب قصر العينى . فجلس بجوار سرير المريض ساعات طوال يبحث وراء المجهول فيما غمض من حالات ، وغالباً ما كان يصل إلى حل عميق لأعراض قد تبدو عادية للشخص السطحى التفكير .

واهتم بطالب الطب مدفوعاً باخلاصه لوظيفته فى الحياة وهى وظيفة (المعلم) فوهبها كل وقته وأعطاها روحه القوية وقلبه النابض . فاحبه الطلاب وأقبلوا

على دروسه العملية بجوار سرير المريض ولم أعجب لهذا بعد أن سمعته أول مرة وهو يحاضر فرأيت فيه المحاضر . الجذاب المتمكن الذى وهبه الله ذكاءاً خارقا يمكنه من رص الأفكار بين تلافيف مخه الناضج فى نظام عجيب ، ثم ينطلق بها حسب ترتيبها فى المراكز العليا بلسان فصيح معبر وأسلوب واضح تتكلم فيه الحروف قبل الكلمات وكانها النغم ينساب دون كلفة أو محاولة للتأثير الخاطىء على مستمع قد يكون ما سمعه من أمور جديداً عليه ، وهو الغالب .

قلت أن أنور قد وهب المريض وطالب الطب كل وقته وقلبه ، فنظر إليه المريض وكأنه المسيح تشفى منه اللمسة المباركة ، واكتشف فيه الطالب على مر الأجيال المعلم الذى طال انتظاره له ولأمثاله فرفعوه على أكفافهم حتى بلغوا به إلى درجة من التقديس والعبادة ، فلمع اسمه لأنه عامل مريضه فى العيادة الخاصة بنفس التعمق الذي تمتع به مريض المستشفى المجانى . وهذه أشد نواحى مدرسة أنور المفتى لمعانا والتى يجب أن نبثها فى المدرسين الشبان الذين تخطو بالكاد أولى درجات السلم . وتتلخص فى أنه يجب ألاّ ينسينا زهو النجاح فى الحياة مايجب علينا نحو جدران وطرقات المستشفى الذى نشأنا وترعرعنا فى رحابه . أن هذه الجدران والطرقات جماد جميل ، وقد شَعَرتْ خلال سنوات طوال بانور وأمثاله يدبون عليها فى حنان ورفق لا تحولهم عنها ثقة الجماهير من غير نزلاء المستشفى ، فأكرمتهم ودأبت على احتضانهم ودفعهم إلى الأمام نحو الهدف وإلى أعلى لتشفع لهم عند الديان الذى يجازى المرء حسب جهده ونواياه ، وقد رضى الله على أنور فمد فى عمره حتى زهد الحياة والمال ، ولكنه ــ وحكمه لا رد له وحكمه فوق مستوى تفكيرنا البشرى ــ أراد أن يختاره إلى جواره ونحن بحبه ورفقته وزمالته سعداء أيما سعادة .

واهتم أنور بالمعمل فقرأ كثيراً جداً عن خفايا الكيمياء والفسيفاء وكنت

إذا سمعته يتكلم فى إحدى موضوعاتها بتعمق لايتسنى للكثيرين رابطا أعراض الأمراض بأسس معلية قارئا معادلاتها المعقدة فى بساطة تحير المستمع العادى وغير العادى ، عجبت لهذا الذهن الصافى ، وإنى أتخيل الآن كيف ذاب كل هذا فى التراب فى طرفة عين .

هذا التدعيم المعملى هو الذى يجب أن يكون هدف كل طبيب عالم ، ويوحى بوجوب اهتمام الدولة بتدعيم المعمل المصرى الذى لا زال ينقصه الكثير ، ولو أن أنور فى نطاقه قد جعل منه شيئاً بفضل التعاون الوثيق مع صديق عمره شفيق الزيدى أستاذ الكيمياء الحيوية .

أما أدب أنور المفتى وتواضعه فانى أسجلهما على روحه التى تنعم الآن بجوار الرفيق الأعلى ، وكانا يزيدان بروزاً كلما زاده الله من فضله ورضاه . ولقد نعمت وسعدت برفقته قبل وفاته بساعات قلائل فى حفل خاص فما دخل حتى هب الجميع مقبلين عليه فى حب كبير خالص لا تشوبه شائبة رياء ، هذا يختطفه وهذا يقدم له من أصناف الطعام ما يروقه ، وهذا يصمم على بقائه بجانبه لأخذ صورة تذكارية ، وكانت معى آلة تصوير فأخذت لهم بعض اللقطات ومن أسعد لحظات عمرى منذ وفاته أن أطلع على هذه الصور بين حين وآخر فأرى كيف كانت صورة المفتى قبل وفاته بساعات .

ولما حان موعد العشاء ودخلنا غرفة امتد فيها سماط حوى مالذ وطاب من مصنفات المضيف المضياف الزميل الدكتور دمرداش أحمد ، تناول الفقيد طبقاً وأخذ يطوف متردداً بين هذه الألوان المغرية من الطعام ، وكان حريصاً فى تجنب المواد المهلكة لمن فى مثل سننا وهى الدهنيات على وجه أخص ، وبعد تردد إتجه نحوى مداعباً وقال أنى سوف أختار نفس الأصناف التى اختارها الأستاذ الديوانى ، فقلت له لا (رجيم) اليوم . . انظر إلى طبقى ترفيه من أصناف

التلوث الدهنى عجباً ، وأنظر إلى طبق الـكنافة هذا .. سوف ألغ فيه رغم طبقة السمن الطافية والقشدة المتناثرة على سطحها. أنا اليوم تفاحة آدم فاجتنبنى . وفعلا اختار القليل جداً من أصناف ليس بها أثر للدسامة ، وأخذ يتنقل وهو ممسك بطبقه الفقير من صديق إلى آخر مداعباً ضاحكا تملأه السعادة والحياة التى أحبها من كل قلبه ، لأنه وجد فيها مجالا لتأدية الرسالة التى خلق من أجلها فاحبها وأحبته وعركها وعركته حتى سقط فى الميدان شهيداً بحق ، أعطى أكثر مما أخذ ، فبكته الدنيا وبكاه الناس أجمعون .

ولن أنسى عند ما تذكرنا فى هذه الليلة رحلتنا سويا فى كوبنهاجن عام ١٩٦١ عند ما حضرنا معاً المؤتمر الدولى للغدد الصماء ، وكانت معنا (فاطمة) زوجته الباسمة التى لم يفارق قسمات وجهها أمارات السعادة منذ تزوجت بأنور . لقد كان يضرب بزواجهما أبرع الأمثال فى زوجة الطبيب الناجح التى تهىء الجو العائلى ولمعان الظهر اللازمين لزوج مجهد تتلقفه الأيدى ليل نهار وهو عاجز عن أن يرد لأحد طلبا .

كانت الأيام التى قضيتها معهما فى كوبنهاجن مملوءة بالسعادة . فتصوروا قمة الترف النفسى الذى تمرغت فيه وقد انفردت بأنور أياما عديدة ، وفى رفقتنا صادق فوده وزوجته بثينة ، فاكتمل العقد النادر وقضيت حقبة من عمرى كان اليوم فيها ببركة أعوام . وأصغيت إليه وهو يلقى أبحاثه بين العلماء ويتعرض للأسئلة ويرد عليها فى تمـكن عجيب وكأنه يقرأها من كتاب مفتوح حفظ ما بين دفتيه عن ظهر قلب . وكنت أقول لنفسى دائما عند ما أراه يناقش هذه المعضلات فى سلاسة وسهولة كيف تمـكن هذا العقل الجبار من استيعاب تلك المعميات المستحيلة على العقل العادى . ولا تظنوا أننا نذهب إلى المؤتمرات الدولية للهو واللعب . أننا نقضى الليالى قبل إلقاء البحث نفكر فيما عسى أن

يوجه إلينا من أسئلة، وتجهز الردود عليها . ولن أنسى حالة العلامه أنور المفتى قبل إلقاء بحثه بيوم أو يومين . كان يبدو قلقاً حائراً ، وكان يخفى هذا الشعور عن كل الناس إلا أنا ، فكنت أميلى عليه مداعباً مسلياً وأنا أقول متى تحين ساعة الولادة ؟ نحن الاثنان نعانى الآن آلام الوضع ولن نستريح إلا عند ما نلفظ المولود وهو البحث المنتظر . فكان يقهقه ضاحكا تلك الضحكة المحبوبة التى فقدناها إلى الأبد .

* * *

وأصبح اليوم التالى لمقابلتنا الأخيرة على دنيا مشمسة جميلة ، فنهض أنور من فراشه صحيحاً معافى منتعشاً لآخر مرة ، وذهب إلى كليته الحبيبة إلى قلبه والقى محاضر ، ثم ذهب إلى عنبر المرضى بالمستشفى يعالج المرضى ويداعبهم باعثاً فيهم الأمل وحب الحياة إذ يروا طبيبهم ممتلئاً حيوية وإشراقا وأملا . وانتهى من عيادته الخاصة فى ساعة متأخرة ، وخرج من عمارة اللواء حيث توجد عيادته ، نشيطا محيياً بوابيها فى شعبية عذبة جعلتهم يتمنون أن يصبح عليه الصبح وهو فى صحة وسعادة بفضل دعواتهم إلى الله . وقضى ليلته مع صفيه وحبيبه شفيق الريدى وزوجته وتركهما فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وفتح باب منزله بيده للمرة الأخيرة ، وآوى إلى فراشه بعد أن أوصى زوجته (فاطمة) أن توقظه فيما بعد لتناول طعام السحور ، فقد كان مفروضاً أن يبدأ صيام رمضان مع فجر اليوم التالى . وغطى وجهه بغطاء الفراش استعداداً للنوم ، وذهبت فاطمة التى لم تعرف إلا السعادة حتى هذه اللحظة ، إلى غرفة مجاورة لتعود بعد لحظة فتسمع لزوجها شخيراً عجيباً جزعت له نفسها المرهفة الحساسة ، فجرت نحوه توقظه فوجدته قد انتهى . لقد سكت أنور إلى الأبد دون أن يلجأ إلى رعاية طبيب وكان

الـكل يود أن يفتديه بالمهجة والروح ! لقد كان صاحب الفضل على الجميع .

* * *

ووقفت مع الألوف المؤلفة عند باب مسجد عمر مكرم أنتظر لحظة خروج النعش الغالى من هذا البـاب الذى هو بدء الرحلة الأبدية والتى لا رجعة بعدها إلى نور الشمس أو أضواء المساء ، ونزل به أحبابه الذين حملوه درجات السلم فى هدوء وانـكسار وكأنَّ روحه التى اتسمت بتواضعه وأدبه أثناء حياته تستحثهم أن أهبطوا بى رويداً رويداً وإذا سرتم بى فخففوا الوطأ على هذا الأديم الذى سوف تختلط ذراته بذراتى عما قليل ! إيه يانور ! لقد سكبنا على هذه الأرض دموعا سوف تؤنسك فى وحدتك ، وسوف تعزينا بمجرد شعورنا أننا لن نتركك وحيداً حتى نلتقى .

مع محمد عبد الوهاب

إنى أكتب هذه الكلمة والعالم العربى قائم على قدم وساق لإلتقاء أم كلثوم وعبد الوهاب فى أغنية (انت عمرى) . وإن كنت سأطيل السرد فى أصل الأغنية وكيف تابعها ملحنها وكأنها مجهوده الأول أو كأنه على أول درجات السلم ، وهو الذى بلغ السماكين فى فنه فدانت له الزعامة فى اللحن لا ينازعه فيها منازع ، فضلا عن جمال الأداء وحلاوة الصوت التى خلقها الله معه ، وأنى أتخيله يغنى وهو يصرخ صرخته الأولى عند ما ولدته أمه !

أقول أننى لو أسهبت فى التفاصيل فما ذلك إلا لكى أعطى درساً للناشئين فى مختلف الاتجاهات أن الصعوبة فى النجاح هو أن تحافظ عليه ، لا أن تلمع لفترة ما ثم لا يلبث ضياؤك أن يخبو . أن حرص عبدالوهاب على نجاح الأغنية ووقوفه خلف الكواليس وهو يرتجف أثناء استماعه لأعجوبة الزمن تشدو بألحانه لهذه الأغنية الرفيعة المعانى التى وضع كلماتها الأستاذ أحمد شفيق كامل لدرس كبير ، ولا أجد بأساً من سرد كلماتها لأنها يجب أن تخلد مع الزمن . والأغنية تقول :

رجعونى عينيك لأيامى اللى راحو   علمونى أندم على الماضى وجراحه

اللى شفته قبل ماتشوفك عينيه   عمر ضايع يحسبوه إزاى عليه

انت عمرى اللى ابتدا بنورك صباحه

* * *

قد إيه من عمرى راح وعدا   ياحبيبى قد إيه من عمرى راح

ولاشاف القلب قبلك فرحة واحده   ولا داق فى الدنيا غير طعم الجراح

ابتديت دلوقت بس أحبّ عمرى

ابتديت دلوقت بس أخاف للعمر يجرى

كل فرحه اشتقها من قبلك خيالى   التقاها من نور عنيك قلبى وفكرى

ياحياة قلبى يا أغلى من حياتى   ليه ما قابلتش هواك ياحبيبى بدرى

واللى شفته قبل ما تشوفك عنيه   عمر ضايع يحسبوه إزاى علية

انت عمرى اللى ابتدا بنورك صباحه

* * *

الليالى الحلوه والشوق والمحبه   من زمان والقلب شايلهم عشانك

دوق معايا الحب دوق حبه بحبه   من حنان قلبى اللى طال شوقه لحنانك

هات عنيك تسرح فى دنيتهم عنيَّه   هات ادبك ترتاح للمستهم أديَّة

ياحبيبى تعالى وكفايه اللى فاتنا   هو فاتنا ياحبيب الروح شويه

واللى شفته قبل ماتشوفك عنيه   عمر ضايع يحسبوه إزاى عليه

انت عمرى اللى ابتدا بنورك صباحه

* * *

يا أغلى من أيامى   يا أحلى من أحلامى

خدنى بحنانك خدنى   عن الوجود وابعدنى

بعيد بعيد أنا وانت   بعيد بعيد وحدينا

ع الحب تصحى ايامنا   ع الشوق تنام ليالينا

سامحت بيك أيامى   صالحت بيك الزمن

نسيتنى بيك آلامى   ونسيت معاك الشجن

* * *

رجعونى عنيك لأيامى اللى راحو   علمونى أندم على الماضى وجراحه
اللى شفته قبل ما تشوفك عنيه   عمر ضايع يحسبوه إزاى عليه
انت عمرى اللى ابتدا بنورك صباحه

* * *

ولم أقرأ فى وصف انفعالات عبد الوهاب فى هذه المناسبة التاريخية أروع ولا أبدع مما كتبه نبيل عصمت المحرر باخبار اليوم الذى لازم عبد الوهاب من بداية المغامرة إلى آخرها والذى كتب يقول :

٨٠ مليون عربى كانوا يلتفون حول أجهزة الراديو مساء أول أمس ينتظرون فى شوق ولهفة المولود الجديد .

وفى الساعة الواحدة إلا الربع صباحا . . انطلق صوت أم كلثوم عبر الأثير يعلن وصول المولود الجديد .

إن المولود اسمه (انت عمرى) .. الأغنية التى يلتقى فيها صوت أم كلثوم لأول مرة بلحن الموسيقار عبد الوهاب . . فى كلمات للشاعر الحساس أحمد شفيق كامل .

إن يوم الخميس كان يوما حافلا بالنسبة للثلاثة الذين قدموا لك هذا العمل الضخم بعد طول انتظار .

أم كلثوم أجرت بروفة مع عبد الوهاب حتى الظهر .. ثم نامت هى ، وانطلق هو بسيارته إلى المقابر حيث زار قبر أمه . . وهذه هى عادة عبد الوهاب منذ ماتت أمه عند ما يقدم على عمل يهتم به . وفى الثالثة ظهراً عاد عبد الوهاب إلى البيت ونام حتى المساء .

فى مسرح الأزبكية : اتجهت كل الأنظار فى الصالة إلى البنوار رقم (٩) شمال عندما دخلت فيه نهلة القدسى .. كانت العيون تنتظر أن تراها مع الموسيقار

عبد الوهاب ولـكن عبد الوهاب لم يكن معْ زوجته فى ذلك الوقت . . . فقد ذهبت هى مع بعض أقاربها وظل هو فى البيت .

ورأيت أن أبدأ الليلة مع عبد الوهاب من أولها . . ولذلك عند ما كانت الساعة تدق الثامنة والنصف مساء كنت أنا أضع يدى على جرس الباب . لقد كان تركيز اهتمام الناس كله والصحافة بمصوريها على مسرح الأزبكية . . حيث ستغنى أم كلثوم .. ولـكنى كنت أرى أن عبد الوهاب هو الذى يحب التركيز عليه .. فهو معروف بأنه يفقد أعصابه كلما يذاع له لحن لأول مرة . .

لقد قال لى عبد الوهاب ونحن جالســان فى بيته .. وباق على بدء حفلة أم كلثوم ساعة واحدة . . قال أنه لا يستطيع أبداً أن يحضر بنفسه حفلة تغنى أغنية من تلحينه .. بل يفضل أن يستمع إليها فى الراديو . . وحتى وهو يفعل ذلك تظل أعصابه فى غاية الاضطراب حتى يطمئن إلى استقبال الجمهور للحن ونجاحه .. حتى أغنية (ياجارحه قلبى بقزازه) التى لحنها عبد الوهاب لشكوكو منذ ١٥ سنة كان قلقا فى أول مرة ألقاها فيها شكوكو ..

ودق جرس التليفون وكنت أتولى الرد دائماً .. إنه من صحفى يسأل عن الأستاذ عبد الوهاب وأجبته أن (الأستاذ فى الاسكندرية) ووضعت السماعة . وضحك عبد الوهاب . فقد فهم أنى أريد حصاراً عليه . .

ودق جرس التليفون مرة أخرى .كانت هذه المرة عصمت ابنة عبدالوهاب وأعطيته السماعة .. ويتحدث معها عن الأغنية ثم قال لها (ادعى لى ياحياتى . . أدعو لى كلـكم) ووضع السماعة .. ونظر فى ساعته بقلق .. إن الدقائق تزحف وموعد الأغنية يقترب .. والراديو الصغير بجوارنا .

وبدأت حفلة أم كلثوم وبدأت كوكب الشرق تغنى أغنيها الأولى (كل ليله وكل يوم) .. وكأنما كانت هذه ساعة الصفر .. فقد قام عبد الوهاب وقال يالا بينا .. توكلنا على الله ..

وبينما سعاد مديرة البيت تمسك له بالبالطو والطربوش كان هو يتمتم بآيات من القرآن الكريم وانطلقت السيارة تحمل عبد الوهاب إلى مسرح الأزبكية .

ووصلنا إلى المسرح ودخل عبد الوهاب من باب الكواليس . . وبمجرد أن دخلت وجدت جواً غريباً . . بعض رجال الأمن منتشرين لحفظ النظام ، داخل الكواليس ولمنع دخول الجمهور أو المصورين . وانتهت الأغنية الأولى ودخلت أم كلثوم إلى الكواليس .. فهنأها عبد الوهاب .. ثم دخلت حجرتها وأسرع هو إلى خشبة المسرح فاستبقى الموسيقين وبدأ — من خلف الستار — يجرى معهم البروفات الأخيرة . وقد ركز عبد الوهاب اهتمامه فى إجراء بروفات على المقدمة الموسيقية بالذات .

وجلست كوكب الشرق فى حجرتها تتلو لنفسها بعض آيات القرآن .. وفى الساعة الثانية عشر والنصف قامت وتوجهت إلى خشبة المسرح حيث اشتركت مع الموسيقار عبد الوهاب فى البروفات الأخيرة .

وفى الساعة الثانية عشر و ٤٢ دقيقة رفع الستار عن أم كلثوم بينما كان الموسيقار عبد الوهاب خلف الديكور الذى يحيط بأم كلثوم وفرقتها . . لم يكن يفصل عبد الوهاب عن أم كلثوم سوى ستة أمتار على الأكثر . .

ومع بداية المقدمة الموسيقية بدأ عبد الوهاب يسمع من خلف الكواليس وقلبه يخفق .. كانت يداه لا تكفان عن الحركة وشفتاه تردان آيات القرآن.

وصفق الناس للمقدمة الموسيقية . . صفقوا لدرجة أن قاطعوها منذ بدايتها فاضطرت الفرقة الموسيقية إلى إعادتها .

وأخذ عبد الوهاب نفساً طويلا وهو يرفع رأسه إلى أعلى شاكراً الله .. وأعيدت المقدمة الموسيقية بعد ذلك ٣ مرات .. والناس تصفق . وعبد الواهاب واقف خلف الديكور . تفصله عن أم كلثوم ستة أمتار وقلبه يهدأ رويداً رويداً

والابتسامة تأخذ طريقها إلى وجهه، والقلق يغادر مسرح الأزبكية كله .. وبدأت أم كلثوم تغنى .. والناس تمايل طربا وعبد الوهاب فى مكانه فى الظلام يمايل هو الآخر حمداً لله وشكراً ..

لقد بكى عبد الوهاب . . رأيت دمعه تفلت عن عينه وهو يسمع الناس تستزيد أم كللثوم حتى أعادت المذهب ٦ مرات . .

لقد استغرقت المقدمة الموسيقية ٩ دقائق . . استرد عبد الوهاب خلالها كثيراً من هدوئه ثم جاء المذهب وصفق الناس مقاطعين أكثر من مرة . . فازداد هدوء عبد الوهاب . . .

وبعد ٤٠ دقيقة من بدء الأغنية كان عبد الوهاب سعيداً جداً . . فأسرع يرتدى البالطو والطربوش ليكمل سماع الأغنية فى البيت . .

وفى السيارة فتحنا الراديو . . كانت أم كلثوم تردد هذه الأبيات : ابتديت دلوقت بس أحب عمرى . . . ابتديت دلوقت أخاف للعمر يجرى . كل فرحة اشتقها من قلبك خيالى التقاها فى نور عنيك قلبى وفكرى . . . وكان الناس يصفقون ويهللون بطريقة غريبة . . كانوا يصرخون من الإعجاب . . وكان عبد الوهاب يجلس فى السيارة وهو يبتسم ويردد الحمد لله . . الحمد لله . .

وأسرعنا إلى فوق . .

وأسرع عبد الوهاب إلى حجرته ليستمع إلى بقية الأغنية . . لم يكن بالبيت أحد سوى سعاد كانت تمسك الراديو الخاص بها وتمايل معه . . أما السيدة نهلة فكانت هناك . . فى البنوار رقم ٩ . . تستمع إلى أم كلثوم شخصياً .

وانتهت الأغنية التى عشنا ننتظرها سنين طويلة . . وسادت فترة صمت .. ثم قلت لعبد الوهاب — أنى أخشى أن أتكلم . . أن أقول أى مديح فى الأغنية . . فأحس بأنه أقل مما يجب أن توصف به .

وقال عبد الوهاب : لا أعرف ماذا أقول ولكن الحمد لله . وإذا كان اللحن قد نجح فبفضل الله وفن السيدة أم كلثوم :

ودق جرس التليفون . كانت أم كلثوم تتحدث من مسرح الأزبكية . . وطلبت من عبد الوهاب أن يتوجه فوراً إلى المسرح . . وسألها عبد الوهاب مندهشاً . . وأجابته بس تعالى عايزاك تحيي الناس ، وفهم عبد الوهاب أن كوكب الشرق تريده أن يظهر معها على المسرح ليحيي الجمهور بعد انتهاء الحفلة . . فاعتذر لهـــا بلباقة . . فعبد الوهاب خجول جداً ويخاف جداً من مواجهة الجماهير .

ودق جرس التليفون مرة أخرى : كان فريد الأطرش . ونزل عبدالوهاب إلى بيت فريد الأطرش . . كانت الساعة قد بلغت الثالثة والنصف . . لم يكن يشعر بأى تعب أو أى رغبة فى النوم . .

واستقبله صديقه الحميم فريد بالقبلات والتهنئة على هذه الأغنية التى وصفها بأنهـا خطوة كبيرة إلى الأمام . . وهنأ الجميع عبد الوهاب . . . ثم وصلت نهلة القدسى . .

ولا تتصور كم كان جميلا اللقاء بينها وبين زوجها . كانت أول مرة تراه بعد أن وصلت الأغنية إلى أسماع الناس . . وبحضن طويل .. وقبلة حنون عبّرت نهلة لعبد الوهاب عن فرحها لنجاح الأغنية . انتهى كلام الأستاذ نبيل عصمت وهو جدير بالتسجيل .

* * *

وعبد الوهاب يلحن الـكلمة حرفا حرفا ، فعند ما تسمع أم كلثوم تشدو كلمات الليالى الحلوه أو دوق معايا الحب، تشعر أن هناك دعوة للحب ، وفى لحن يا حبيبى تعالى وكفاية اللى فاتنا ، تضرع وابتهال إلى الجالس فى معبد الحب .

وهكذا كل كلمة من الأغنية تشعرك أن الذى لحنها تفحَّص حروفها حرفا حرفا ، وعاش فيها أياماً وليالى قبل أن تخرج للناس فيتقبلها لأول وهلة من يفهمه ، ويتقبلها بوجوم بعض الوقت بعض الناس ثم لا يلبثوا أن يعتادوا العسير من النغم ، ثم لا تلبث الأغنية أن تتغلغل فى أركان العالم العربى كما اتنبأ لهذه الأغنية ، فى الوقت الذى يحاول بعضهم إيجاد بعض المغامز فيها . ولكن كل هذا الذى اعتدناه فى كل أغانى عبد الوهاب — يختفى بعد فترة تطول أو تقصر ، ويبقى اللحن قائماً فى شبه خلود تردده الأجيال المتعاقبة دون أن يفقدجدَّته أو يخبوا لمعانه .

* * *

وعبد الوهاب إسم تلمع حروفه لدرجة تلفت النظر وتجذب العين وكما تأملت فيه تصورت المجهود الجبار الذى بذله هذا الفنان ليضفى على إسمه البريق الذى يتمتع به الآن .

وإذا تمعنا فى دراسة حروفه الواحد بعد الآخر فقد تعجب للمآسى المخبأه وراء كل واحد منها ، أو قد تعجب للكميات الهائلة من العرق والشحم التى بذلت فى سبيل احتفاظ الإسم بجاذبيته ولمعانه . فالنجاح فى الحياة ورطة كبيرة تدفع من بلى بها إلى مكابدة الشوك حتى تدمى منه أجزاء جسمه . والويل لك من نفسك إذا تراجعت بعد أن فتح الله لك باب الدرب الواسع الذى لا نهاية له ، والذى يبدو النجاح فى آخره كالقمر المضىء بين الجوارى الواقفات، يجتذبك اجتذاباً فتجد نفسك منساقاً إليه دون أن تبالى بالشوك يدمى قدميك ، أو بالرعد يصم أذنيك ، أو بالبرق يخطف ناظريك . ألم ترعبد الوهاب العملاق الذى تربع على عرش الطرب والتلاحين زهاء الثلاثين عاما كيف لازم لحنه الأخير مع أم كلثوم خلف الكواليس يترقب فى لهفة حكم الجماهير المتلهفة له أو عليه . ويعدل فى اللحن حتى آخر لحظة ، ويعطى إشارات إلى أعضاء التخت ولا

يتركهم إلا قبل أن ترفع الستار بثوان . ما كان أغناه عن كل هذا لو اعتمد على صيته المدعم الأركان ، وقدم للناس أى لحن يلعلع فى حنجرة المعجزة أم كلثوم فتصفق الجماهير وتسدل الستار . ولكن عبد الوهاب يعطى المثل الحى للأستاذ الرائد الذى يحتفظ بزعامته وتراث نفسه لآخر رمق من حياته ، والذى يرى القمه الحقيقة على بعد فراسخ قليلة من متناول يده مهما بلغ الإتقان مداه !

أذكر أول مرة رأيت فيها عبد الوهاب . كان ذلك فى عام ١٩٢٥ وكانت أم كلثوم تغنى ذات ليلة فى صالة سانتى بحديقة الأزبكية . وإذا بشخص ضئيل يضع على عينيه نظارة سميكة ويلبس معطفاً من (الوتر بروف) . وكان معروفا عند بعض الحاضرين لأنهم كانوا ينادونه قائلين (يامحمد !) فينظر إليهم مبتسما فى أدب جم تميز به طوال حياته .. فسألنى جارى أتعرف من هذا ؟ قلت لا . قال إنه موسيقى مهذب مجتهد اسمه محمد عبد الوهاب عنده عقيدة ثابتة يتحدث عنها دون غرور أو كبرياء أنه سوف يكون زعيم الموسيقى فى مصر فعجبت فى نفسى كيف يصل صاحب هذا الجسم النحيل إلى مكان الصدارة بين الفحول التى كانت مسيطرة على عالم الموسيقى فى ذلك الوقت ، ثم حولت نظرى إلى أم كلثوم وكانت جالسة على المسرح تتهيأ للغناء وكانت فى قمة الشباب وفى وسط السلم الذى أدى بها إلى ماهى عليه الآن ..

وكانت ساحرة فى بساطتها وعقالها ولباسها العربى ، ونضارتها التى لا تنفد ، وجلس حولها والدها واخوتها وأبناء عمومتها يرددون وراءها ما يحفظ للسلم الموسيقى سلامته ، وأنصت إليها مشدوها وهى تبدأ بترتيل « جلَّ من طرَّز الياسمين » ، ثم انتقلت إلى مالى فتنت بلحظك الفتاك ، ولى لذة فى ذلتى وخضوعى ، وأحب بين يديك سفك دموعى . وكانت بين فترات الغناء تجلس فى وقار جميل ، وترسل النكتة اللاذعة بين الحين والحين إلى المرحوم

حسين وكان من ملوك الفكاهة ، فيرد عليها ردوداً تجعلنا نستغرق فى الضحك من قلبنا الخالى .

وأنسانى كل هذا الشخصية النحيلة الجسم الجالسة عن يمينى فى أدب وتواضع بالغين ، ولما نظرت ثانية فى اتجاهه قلت فى نفسى لعل الله يضع سره فى أضعف خلقه . وقد فعل له الحمد والشكر لأنى أعتقد أن صوت عبد الوهاب الحلو وأدائه القوى وأنغامه الجميلة من مزايا العصر الذى نعيش فية .

ومضت الأيام سراعاً ولما كان عام ١٩٢٦ وكان ذلك فى حفل تخرج طلبة دبلوم الطب تطوع عبد الوهاب بإحياء الحفل وكنا إذ ذاك طلبة فى السنة الثالثة فجلسنا فى الصيوان ننظر إلى هذا الشاب الوديع وقد فغرنا أفواهنا من الدهشه وهو يغنى فى نغم بسيط يدخل القلب دون مواربة ولا التواء ، وكانت الأغنية « خدعوها بقولهم حسناء » من شعر أمير الشعراء أحمد شوقى ، فهللنا له وصفقنا فى إعجاب طرب له . ومضت أيام ولا حديث لنا إلا عن هذا المطرب الناشىء وجمال صوته وحسن أدائه وطرافته .

وسارت القافلة فى هدوء وسمعنا . أنه بدأ يحيى حفلاته ، وابتدع بدعة لبس (السموكنج) أى لباس السهرة لأعضاء التخت ، ورأيته فى حلوان يغنى فى كازينو حلوان . وأطرب الحاضرون بطريقة لم يعهدوها من قبل ، وأذكر أن الأغنية التى لاقت نجاحًا فى تلك الليلة كانت تبدأ بالكلمات

الآتية : يا قلبى ليلى وليلاك عيد دق البشاير واتهنّى

ثم رأيته يقترب من القمة فى عام ١٩٢٨ وهو يشترك مع سلطانة الطرب منيرة المهدية فى أوبرت كليوباتره ومارك أنطونيو . فسمعنا شيئاً جديداً فى نفس الصوت الجميل والأداء السهل السلس الذى جعلنا نصفق صائحين

فى أشد المواقف حزناً والتى نحتاج لصمت عميق من المتفرجين المترنحين ! .

وانقطع عن الاشتراك فى الأوبريت بعد شهر بالتمام . فقد كان قد قرر أن يمتنع عن الظهور فى الأضواء أطول من هذه المدة لحكمة فى نفسه وهو الذكى الأريب دائماً ، وتفرغ لتلحين الأغانى التى وضعها له الشاعر أحمد شوقى والسفير الشاعر أحمد عبد المجيد والشاعر أحمد رامى وعزت الهجين — مثل الليل لما خلى ، وكلنا نحب القمر ، وخايف أقول اللى فى قلبى ، وعلى غصون البان ، وأنا أنطونيو ، ويا جارة الوادى ، وامتى الزمان ، وحب الوطن فرض علىّ ، وكانت هذه التسجيلات بداية زعامه فنية فرضها على من قبله ومن بعده عن جدارة واستحقاق .

* * *

كانت المرة الأولى التى جلست فيها مع عبد الوهاب فى سبتمبر عام ١٩٣٥ فى قرية (انجان) من ضواحى باريس ، وكنت أعلم أنه يسجل هناك لقطات من فيلم دموع الحب ، فذهبت إلى هناك مدفوعاً بحبى لفنه وبحنينى للوطن وكل من يمت له بصلة . ولما دخلت باب الأستوديو لم أحاول السؤال عن مكانه لأنى شاهدت عن بعد مجموعة من المصورين ، ومنظر مقام على شكل خميلة جالس على مقعد فيها ممسكا بعوده ، وبجواره آنسة تنظر إليه وهو يغنى : كروان حيران ، سابح فى نور القمر والكون نعسان ، حتى الطيور ع الشجر — ولما اقتربت من المنظر كان عبد الوهاب قد وصل إلى المقطع : « رق قلبه ومال إليه » . . وكان الصوت ملائكياً جميلا . وزاد من سعادتى أننى رأيت عبد الوهاب على بعد خطوات منى ممسكاً بعوده وكأنه يغنى لى وحدى على بعد آلاف الأميال من أرض الوطن .

وكانت لى معرفة وثيقة ببعض ممثلى الفيلم وبعض أفراد التخت مثال الصديقين إسماعيل العقاد ومحمد العقاد ويعقوب طاطيوس فصمموا أن نذهب جميعاً إلى الفيلا التى يعيش فيها عبد الوهاب وممثلى الفيلم وقد مونى إليه . وكانت هذه أول مرة أقابله فيها وكان بالغاً فى الظرف والرقة وتعشينا سوياً . ولما سألنى عن أخبار الوطن قلت له أن أغنية نسيم الربيع من تأليف أحمد عبد المجيد تلعلع ليلا ونهارا فى أجهزة الراديو ، فسر لتتبعى نشاطه الفنى واطمأن إلى أغنيته الأخيرة قبل مغادرة الوطن .

ولما انتهينا من تناول العشاء ، بدأ النعاس يداعب جفون الأستاذ فودعنا وذهب إلى فراشه فى الدور العلوى . وسألت عن المحطة للعودة إلى باريس . فاقترح على الأخوان إسماعيل ومحمد العقاد أن أبيت فى نفس الفندق معهم . فسرنا فى شوارع القرية الهادئة ومعنا المرحومة الفنانة فردوس محمد — وكانت رحمة الله عليها فنانة موهوبة قامت بأدوار الأم خير قيام وتوفيت منذ عامين بمرض سرطان الدم . ولما وصلنا إلى الفندق ، وكنت قد تركت حقائبى فى محطة (جاردى نور) بباريس ، أعارنى إسماعيل العقاد بيجامة من الحرير الفاخر لبستها مزهوًا وأعدتها له فى صباح اليوم الثانى شاكراً . ونزلنا إلى مطعم الفندق حيث تناولنا فطاراً شهياً . والذى أدهشنى وجود بار فى جانب من المطعم وقد جلس إليه فوج أثر فوج من سكان القرية ليشربوا البيرة أو الكونياك فى هذه الساعة المبكرة ولعلهم يلجأون إليها ليبعثوا الدفء فى عروقهم وهم منصرفون إلى أعمالهم .

واصطحبنى إسماعيل العقاد إلى المحطة حيث ركبب القطار إلى باريس ومنها إلى لندن حيث أمضيت عامين فى بعثة دراسية حصلت خلالها على درجة عضو الأطباء الملكية بلندن وأتممت دراستى العليا تمهيداً لشغل وظيفة التدريس

بقسم الأطفال بكلية طب القاهرة حيث تدرجت على طريق الشوك إلى ما أنا عليه الآن بفضل الله الذى أتحدث دائماً بنعمائه علىّ .

* * *

ومرت الأيام سراعاً واندلعت الحرب الكبرى الثانية ، وخلال قصف المدافع وأزيز الطائرات أخرج عبد الوهاب روائعه الخالدة مثل الجندول والكرنك ثم كليوباترة . وكنت فى هذه الأثناء أميناً لصندوق جماعة إنقاذ الطفولة المشردة . وفكرت فى تنمية موارد الجمعية باقامة حفلة يحييها عبدالوهاب، فجددت معرفتى به عن طريق صديقى حسن وهيب المصرى . وفى أدب بالغ أقنعنى بصواب رأيه فى اعتزامه الإقلال من ظهوره فى الحفلات العامة والاقتصار على التسجيلات والأفلام . وتكررت زياراتى له وفى إحدى الزيارات اقترح على أن يقوم محمد أمين المطرب باحياء القسم الغنائى للحفلة ، ودعاه وقدمه إلىّ ، فرأيت شابا مهذبا يميل على يد محمد عبد الوهاب ويكاد يقبّلها ، فقد كان ينظر إليه كأستاذه العملاق . وكانت أغنيته (نور العيون ياشاغلنى) ملء الأسماع فى ذلك الوقت وراجت اسطواناتها رواجا شديداً .

وفى ذات ليلة مظلمة من ليالى الحرب ، كنت أسوق سيارتى فى طريق الأهرام فرأيت قافلة للجمال تحمل بطيخاً . فخطر لى أن أؤلف قطعة تصويرية وأهديها للصديق الجديد محمد عبد الوهاب ، فلما عرضتها عليه تقبلها قبولا — لاأقول حسناً بل لطيفاً ومشجعاً ! واقترح كالعادة تغيير بعض الكلمات لأنه قارىء ذكى يفهم ويستوعب على أعلى درجات الثقافة الفكرية . وطبعاً طوى هذه القطعة النسيان . وكنت كلما قابلته تذكرناها ضاحكين وأقول « أتذكر

أغنية البطيخ ؟ » . ولا بأس من تسجيل كلمات هذه الأغنية على سبيل الطرافه . أذكر أنها كانت على وجه التقريب كالآتى :

حيلك ياجمـال ده حملك غالى بطيخ نادى وعال حلاوة وتسالى
صفحته حمـرة إذا اتفتحت لونها بيمثل قـلوب اتفجعت
م الفراق ياريتها ما تلوعت
بذرته السـوده زى قلبـه الخاين الغادر اللى قلـبى حبُه
إمتى راح يصـفى ويرعى ربه ويحن لى وارجع تانى جنـبه

* * *

ياجمل! ده اللى انت شايله كله مكسب
هلّ ع الناس موسمه ياألف مرحب
الغنى زى الفقير له فيك منافع
اللى واكل واللى شارى واللى بايع
أكلـه صحة ، كلـه لذة
ع المـوائد لك معزّة
يابطيخ ياسكّر !
يا شـهد مـكرَّر !
دى الفواكه رخره أحوالها عجب
يبقى ظاهرها حـلاوة وطرب
واللى جـواها مرارة وعطب
لما يظهر قلبهـا ياذلهـا
لو يكون غير اللى بان على وشها .
ياسلام يا أرض كل ما فيكى رياء
حتى زهرك حتى نبتك له طلاء
يا جمل ! بتدب ليه فى كبرياء !

ثم تخيلت أن القافلة وقفت إلى جانب الطريق للاستراحة من عناء الرحلة وأن فتاة من المرافقات للجمال وقفت تغنى بعد أن تنخ الجمال لتسلى صويحباتها ورفقائها وتقول :

شوفوا الجمل نخ لى   يارب سبحـــانك
الـــكل بيبص لى   عفـــوك وغفرانك
سرى فى سحرى   وجمالى اللى وهبتولى
خـــلىّ الصبـــايا وكل الناس بيشكولى
عملت عصبـــــة من العينين وم الحاجب
وسنَّة لولى وشعـــر أسود جميـــل سايب
وقلت يالله على القلب اللى فيـــكو دايب
وإياك تسيبوا لعـــزولى فى هـــواه نايب

ثم تصورت أن أحد الجمال هب واقفاً وكأنه لا يعجبه كلامها فتمشى الفتاة نحوه وتلاطفه وتطبطب على رقبته قائلة .

زعلت ليـــه ياجمل   هو الغضب طبعك
ولا كلامى تقيـــل   وغنـايا مش عاجبـك
الـكبر راكبك تملى   والغـــرور قاتلك
ده الرب قال إن طاطيت وخضعته له رفعك

فيجلس الجمل خاضعاً لسحر الصوت والجمال وتستأنف المجموعة غناءها

حيلك ياجمـــــال ده حملك غالى
الـــخ . . .

يالأحلام الشباب الجميل !!

* * *

قد يسألنى البعض عن سر اسهابى فى شخصية عبد الوهاب . الجواب الذى يخطر ببالنا جميعاً هو لأننى أرى فيه حياتى كلها . لقد التصقت كل أغنيه من أغنياته فى ركن من تاريخ حياة كل منا . كيف أنسى كيف كنا نردد ونحن طلبة فى كلية الطب أغنياته الأولى مثل تراضينى وتغضبنى للشيخ يونس القاضى ثم قلبك غدر بى على قلبى استعان بالله للشاعر شوقى ، ثم قفز بنا إلى قمة النشوة عند ما خرج علينا بأغنية كلنا نحب القمر للشاعر السفير أحمد عبد المجيد وأذكر أننى وأنا طبيب امتياز بالقصر العينى أن انتابتنى حمى نتيجة التهاب فى اللوزتين ، ولازمت الفراش فى منزل أطباء الامتياز ، وكانت آلام المرض شديدة قاسية ، وارتفاع الحرارة يؤرق نومى ويقض مضجعى ، وإذا بى أسمع فى الغرفة المجاورة لى صوت عبد الوهاب يشدوا أغنية كلنا نحب القمر من الحاكى الذى كان يملكه زميلى ، حتى إذا ماوصل إلى خاتمتها التى يقول فيها ماتقولى إزاى أنساك لا أنا طايل تعذيب فى هواك ولا قادر قلبى يسلاك ، وكان يتلاعب بأوتار العود مصاحباً غناء نفسه ومرتفعاً إلى قمة الطرب الهادىء ، نسيت معها آلامى واستغرقت فى نوم هادىء عميق صحوت منه فى اليوم التالى منتعشاً واستأنفت عملى كأن لم تكن بى علة .

ولما انتهيت من فترة الامتياز وعينت طبيباً بمستشفى الانكلستوما بطنطا وكان الطبيب الأول إذ ذاك هو الدكتور صبحى حنا وكيل نقابة الأطباء حالياً ، قرأت عن ظهور اسطوانة (فى الليل لما خلى) ، فدخلت محلا لبيع الاسطوانات فى ميدان الساعة ، وخرجت منه متأبطاً الاسطوانة وأنا أتخيل أننى ملكت الدنيا

بأسرها ! ! وبعد شهر أو اثنين كان صوته يلعلع فى مقاهيها وشوارعها بأغنية (أهون عليك) من تأليف يونس القاضى وهى التى يقول فى آخرها (كان عهدى عهدك فى الهوا . يانعيش سوا يانموت سوا)

وعند ماذهبت إلى بعثة التخصص بانجلترا عام ١٩٣٥ اصطحبت معى كل اسطواناته وأضفت إليها مجموعة أغانى فيلم دموع الحب مع نجاة على بعد أن أرسلت فى طلبهاخصيصاً من فرع شركة بيضافون ببرلين ، وكانت هذه المجموعة الفريدة تسليني فى وحدتى وعاملا كبيراً فى ارتفاع مغنوياتى فى بلاد الغربة .

وظلت هذه حالة عبد الوهاب مع كل عربى ينتقل به على مختلف العهود والأزمان ولـكل أغنية فى نفسه مناسبة عزيزة ، فما يكاد يسمعها بعد مر السنين حتى تعود به الذكرى إلى أيام خوالٍ غالية مبعثها صاحب الصوت الجميـل والإداء السهل الممتنع .

* * *

ولعـل من أسباب استمرار نجاح عبد الوهاب هو بعده عن الغرور والمباهاة ، فضلا عن هدوء الطبع والأدب الجم فى علاقته مع زملائه واحترامه للصغير والـكبير ، حتى ليتحدث عن تلاميذه فى غيبتهم بقوله : الأستاذ فلان . وهذه كلها تصرفات الواثق من نفسه .

لم أسمعه يوماً يتحدث عن تراثه العظيم . قال لى ذات يوم تعالى معى لجمعية الشبان المسيحيين لتحضر معى تسجيل قطعة لا بأس بها فتبين لى فيما بعد أنها (الحبيب المجهول) وقابلته مرة فى حفلة خاصة فانتحى بى جانباً وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث ، ولما سألته بأى جديد سوف يتحفنا تلك الليلة أجاب « قطعة سوف تعجبك » فـكانت (حياتى إنت) لحسين السيد الذى لازمه طوال العشرين سنة الأخيرة .

ولعل من أسباب تأصل علاقتنا هى عنايتى الصحية بأولاده الذين يغدق عليهم حبًا يقرب من العبادة ، فكان يبكى بالدمع كلما أصابهم مرض ولو كان بسيطاً ، ولا ينام الليل ما دامت حرارة أحدهم مرتفعة . ولكن هذا لا يمنعه من تناول العود ومحاولة تلحين قطعة مكتوبة على ورقة مهملة يضعها أمامه على السرير يتلو منها الكلمات ويحولها إلى السحر المبين الذى لا يلبث صداه أن يتردد فى أنحاء العالم العربى .

وهو يمتاز بذاكرة فريدة . كنت أزور عبد الحليم حافظ أخيراً بمناسبة وعكة طارئة أَلَمَّت ببعض أولاد أخواته . فوجدت هناك الأستاذ عبد الوهاب ، وكان ذلك قبل ظهور أغنية (انت عمرى) بأيام قلائل ، وبعد قليل — وكان يبدو عليه القلق وعدم الاستقرار ، ولعل ذلك يرجع إلى المولود الفنى الجديد الذى هز العالم العربى فيما بعد — اقترح أن نذهب إلى منزله ، ولما مررنا على العمارة رقم ٥ شارع العادل بكر بالزمالك حيث كان يقطن فريد الأطرش وأخته أسمهان قال لى : أتذكر عند ما كنا نسير سوياً فى جنازة أسمهان فى هذا المكان بالضبط وذكّرتنى بأغنية مجنون ليلى التى سجَّلتها معى فأخذت أنا أتمتم بأنغامها والدموع تنهمر من عينى ؟ متى كان هذا ؟ قلت : منذ ثمانية عشر عاماً ! ! يا لذاكرتك ! .

إن عبد الوهاب أنشودة حلوة ، بل هو فكرة جميلة تحتل من ذهنك أكبر حيز وأنت لا تدرى .

* * *

ولما ذهبت إلى جنيف فى صيف عام ١٩٦٤ قيل لى إن محمد عبد الوهاب ينزل فى فندق (أوتيل دى رون) ، فذهبت إليه سائراً على قدمى من فندق الكورنافان حيث كنت أقطن ، ومشيت الهوينا فى شارع (مون بلان)

وكنت أتسلى طول الوقت بالتأمل فى معروضات الحوانيت وما فيها من ثمائن ، حتى إذا ما وصلت إلى جسر (مون بلان) المشهور انحرفت يميناً حذاء النهر وبعد مسيرة بضع دقائق وصلت إلى الفندق وطلبت محمد بالتليفون من مكتب الاستعلامات ، فما كاد يسمع صوتى حتى تهلل وطلب منى أن أسرع بالصعود إلى الغرفة رقم ٢٤٣ ، وما كاد يرانى حتى احتضننى فى شغف وأحسست أنه ينقصه صديق قديم فى وحدته القاتلة فى بلاد الغربة ، وكان يحاول حلق ذقنه بيده لأن اليوم كان يوم أحد والحلاقون فى أجازة ، ووقفت معه أمام المرآة مدة تجاوزت قصف الساعة لأنه وسواس حتى فى حلاقة ذقنه ، فكان يعيد حلاقة نفس المكان مثنى وثلاث ورباع حتى يطمئن إلى نعومته ، ولذ لى فى هذا المجال أن أذكره بأنغام إحدى أغنياته القديمة وهى قصيدة :شوقى التى يقول فيها :

علموه كيف يجفو فجفا ظالم لاقيت منه ما كفى

مسرف فى هجره ما ينبغى أتراهم علموه السرفا

زعموا ذنبى لديه سهرى ليت بدرى إذ درى الذنب عفا

فتمتم بينه وبين نفسه ليتذكر الماضى السحيق فقد غناها منذ أكثر من ثلاثين عاما ، ولكنه لم يحاول إخراجها نغماً أو لفظاً، إذ كان عليه أن يتذكرها من بين آلاف الألحان التى ألفها خلال عمره الزاخر بالإنتاج الضخم . والتفت إلى فجأة وقال :هل عندك عود ؟ فلما أجبت بالنفى قال : يا للخسارة ! ! فأدركت أننا فى سبيل ميلاد نجم جديد لعله أغنية ثانية لأم كلثوم .

ولما دعانى إلى تناول الغذاء فى الفندق كان معنا المطرب محرم فؤاد ، — وكان فى جنيف يعالج من مرض ألمّ به — والدكتور عادل لطفى الذى اصطحبته معى ، أخذ محمد يحدثنى ، لأن محرم كان مشغولاً عنا فى سرد

مرضه الغامض للدكتور عادل — عن القلق الذى طغى عليه وهو يلحن أغنية انت عمرى ، حتى أنه أصبح يخشى الذهاب إلى فراشه إذا ما جنَّ الليل لأن معنى هذا كان بداية تفكير فى محاولة تغيير وتبديل فى اللحن ، وقال لى أنه ذات ليلة شعر بانهيار أوحى إليه بقرب نهايته فأسرع يستدعى أولاده بعد منتصف الليل ليودعهم الوداع الأخير ، وهرعت إلى فراشه بعد منتصف الليل أم كلثوم وزوجها الدكتور حسن الحفناوى ، ولم يطمئن باله حتى استدعوا له المرحوم الدكتور أنور المفتى ، الذى أخذ يطمئنه ويقول له : إن الموت لا يخيف ، إنه أسهل مما تظنون ! وأقسم لى عبد الوهاب هو فى أشد حالات التأثر ، إن هذه كانت كلمات أنور قبل أن يلقى ربه بيومين أو ثلاثة ، ولعله كان يتنبأ بمصيره . فشجعته قائلا : أنت محق فى خوفك من شبح الفشل ، وأنت القائد والأستاذ الأول ؛ ولكن كن شجاعاً مثل تلميذك بليغ حمدى على الأقل ؛ لقد لحن لسومة أغانٍ كثيرة مثل « أنساك يا سلام » و « حب إيه » وغيرها ، وهو ينام الليل ملء جفونه ، ويصحو منتعشاً ليبحث عن نغم جديد ، وتأمل زميلك السنباطى الذى عاصرها ثلاثين عاماً دون أن يمل الابتكار ! فقال : الحق معك .

ولكنى كنت فى قرارة نفسى أعجب بهذا العملاق الذى لن يجود الزمان بمثله ، والذى أصبح النجاح عنده عادة متأصلة لا يمكنه التخلى عنها ، فقلت له : الله يوفقك دائماً ، فأجاب : فى حنان . أنا أعرف أنك تحبنى ! أنت حبيبى! ونطق بالكلمة الأخيرة فى حلاوة مُنَغَّمة ، ودقت حروفها فى رقة بالغة على طبلة أذنى وكأنى أستمع إليها فى أغنية كليوباترا إذ يقول :

يا حبيبى هـــــذه ليلة حُبِّى آه لو شاركتنى أفراح قلبى

بين الماضى والحاضر

دلفت بى السيارة فى صباح يوم جمعة مبكر من فبراير عام ١٩٦٢ تسعى فى طريقها إلى مطار القاهرة لتقلنى الطائرة من هناك إلى أسوان . .

كان الظلام لا يزال مرخياً آخر ستـار له قبيل انبلاج الصبح . . وكان الطريق من منزلى بقصر الدوبارة خلال طريق الـكورنيش هادئاً يشجع على التأمل والدراسة غير العميقين ، ورغم الـكسل الذى كان لا يزال متربعاً على كلِّ ذرة من جسمى نتيجة لسهرى بجوار الراديو أستمع إلى أم كلثوم فى حفلتها الأخيرة ، فقد انتابتنى أثناء المسير انتفاضات — لو شئت — لتناسيتها وبقيت مغمورا فى الموج دون أن يطفوا منى الرأس أو الجسد — ولـكن هناك أمواج لا تمالك إلا أن ترتفع معها ثم تصحبها إلى الشاطى لتستمع إلى همسهما الخالد !

فما كادت السيارة تسير ازاء دار السفارة البريطانية حتى تذكرت أشياء وأشياء . . هنا كان يربض مرسى السفارة البريطانية أو (دار المندوب السامى) كما كانت تسمى ذات يوم . وكانت منطقة حراما لا يجرؤ إنسان على أن يطأها بقدميه . . وكانت الطائرة البحرية تحط على ماء النيل حاملة (فخامة المندوب السامى) أو كبار زواره من لندن ، غير عابئة بالمطار الرسمى للدولة .

وتلفت إلى يمينى حيث دار السفارة قابعة دائماً . . ولـكنها لم تعد مهبط الوحى السياسى كما كانت . ثم جاء الـكورنيش وفرّق بين الحبيبين : المرسى والدار — إلى غير رجعة . . وبعد مسيرة بضع عشرات من الأمتار صادفتنى الجامعة العربية بمبناها العربى الجميل ، وفندق هيلتون النيل ، ودار البلدية . وتخيلت ما وراءها من حدائق غناء يسرح الشعب فيهـــا ويمرح فى الصيف والشتاء .

ثم سرح بى الفكر إلى الماضى القريب حين كانت هذه الرقعة الشاسعة من أرض الوطن الغالى تحتلها ثكنات جيش الاحتلال . . وبالويل للمصرى الذى كان يجرؤ على المشى على الرصيف المجاور لهذا المبنى الأحمر البغيض . كان لا بد أن تناله إهانة ما . . قد تكون بصقة أو كلمة نابية أو قد تكون زجاجة فارغة أو رصاصة طائشة من جندى عربيد مخمور بلغ به السكر منتهاه . . ولاحت منى التفاته إلى فندق هيلتون النيل فرأيت عن كثب سائحة حسناء وقفت فى إحدى شرفات الفندق فى هذه الساعة المبكرة تستنشق هواء الصباح العليل ، وتنظر إلى الأفق البعيد وقد احتجز جزءاً منه عن ناظريها برج القاهرة الذى يعد من معجزات العصر الحديث . . وشتان بين الصورتين : الحاضر والماضى . . أن هذا الجزء من طريق الكورنيش ملىء بالذكريات . . يا ليت وزارة الإرشاد تسجل على كل بقعة منه ما تحويه من ماض بغيض ، فالنسيان من آفاق الإنسان . . وأحداث العالم تجرى بسرعة عجيبة تقطع الأنفاس . . ولكن يجب ألا ننسى ما كان عليه أمرنا وما أصبحنا عليه الآن .

* * *

قدر لى عند وصولى إلى مطار أسوان أن أرى رجل الفضاء جاجارين ، فقد وصلت طيارته بعد وصولنا بأقل من نصف ساعة . . وانتظرت حتى هل علينا بوجهه الوضاء الباسم ، واستقبلته جمهرة من مواطنيه الروس اصطفوا فى نظام وأناقة ، جنباً إلى جنب ، مع مواطنينا الذين انعدم الإنسجام بينهم كالعادة لاختلاف لباس الرأس والجسم والقدمين فبدوا كمجموعة متنافرة ، لا ترتاح العين لرؤيتها . . أضف إلى هذا تجاهل النظام ، فاندفعوا يحيطون بالرجل الباسم الذى تصبب العرق من جبينه لفرط ما أحيط به من حرارة الجو وضغط المعجبين . . .

وساءلت نفسى : متى نتحلى بروح النظام التى هى سر بهاء الفرد والمجموع ؟

لقد كنا والجالية الروسية المحلية نعيش فى تلك اللحظة فى نفس الظروف : شمس ورمال وحرارة وعرق . ولكنهم احتلوا جزءاً من أرض المطار ، ولم يتركوا أماكنهم فى عز الزحام رغم أن البطل الزائر مواطن لهم . لعلهم تلهفوا داخل نفوسهم أن يهرعوا إليه ويضموه إلى صدورهم ، ولكن أنَّى لهم ذلك حين يختلط الحابل بالنابل كما حدث إذ ذاك .

كان الجو فى أسوان صحوا مشمساً جميلا ، فما كدت أستمتع بفترة راحة فى فندق كتاراكت حتى بدأت برنامجى ، وقضيت فى سبيل هذا ثلاثة أيام لم أضيع منها لحظة واحدة دون دراسة ، خرجت بعدها بعقيدة ثابتة وهى أن الثورة تبدأ فى أسوان . . ومن هناك سوف يعم الخير العميم والفيض الكبير لدرجة لن يتصورها أى إنسان دون أن يراها رأى العين .

لقد سألنى صديقى الدكتور فؤاد خورشيد مدير المنطقة الطبية ونحن نبدأ رحلتنا الأولى حول أسوان — إلى أين . . ؟ فقلتها بلا تردد — إلى السد العالى طبعاً . . ؟

فسارت بنا السيارة الهوينا مختالة فى طريق ممهد بين رمال وتلال موحشة ، حتى وصلنا إلى المعجزة الكبرى التى لولا صلابة رئيسنا وزعيمنا لما تحقق هذا الحلم الكبير .

ووصلنا إلى المنطقة التى يجرى فيها العمل ليل نهار دون هوادة ، وكان الليل يرخى سدوله وكأنَّ الليل نهار ، إذ فاضت الأنوار الكهربائية بسخاء من محطة الكهرباء الجديدة عند خزان أسوان . . وتجولنا فى هذه المنطقة الغالية على النفس وفى العين دمعة فرح وفى القلب خفقة تشعر بها عند ماتتخيل ماينتظر هذا الجيل والأجيال القادمة من رخاء شامل وعز مقيم ، بعد سنوات معدودات هى فى عمر التاريخ دقائق أو ثوان .

ولمحت عن كثب لافتة مضيئة كتب عليها (نموذج السد العالى) فنزلنا من السيارة فى لهفة ودخلنا لنرى نموذجاً ضخماً للسد يفسر أسراره وما سوف تجنيه البلاد من مزايا عظيمة بعد أن يصبح حقيقة كبرى .

وتلقفنا فى هذه الساعة المتأخرة المهندس سرور وهو مهندس مقيم هناك لم يكد يرانا حتى هش وبش فى وجوهنا دون سابق معرفة ، وأخذ يشرح لنا باسهاب وطول أناة كل ما غمض علينا من أسرار وتفاصيل فنية بدت معقدة فى أول الأمر ، ولكن مناقشة مرافقنا الأستاذ جلال حسين ودخوله فى أدق التفاصيل إلى حقيقة ذلك العملاق الذى يسمونه السد العالى ، فتحت أمام أعيننا الطريق إلى أدراك ما ينطوى عليه المشروع من فوائد هائلة ، وكان اغتباط النائب السابق جلال حسين كبيراً بالوصول إلى هذا الحد من المعرفة والاقتناع فقرأ الفاتحة طالباً من الله التوفيق لمن فكر ونفذ دون أن يبالى بحقد حاسد أو دسيسه مستعمر .

ولمحت أثناء خروجى من المتحف تمثالا نصفياً للرئيس جمال عبد الناصر فوجدتنى أندفع نحوه فى حب وتقدير كبيرين ، وأخذت لنفسى صورة تذكارية بجواره .

وفى طريق الرجوع مررنا بنفس التجربة التى تبعث فى النفس النشوة الكبرى ، وكانت أصوات الآلات فى كل مكان ترن فى أذنى وكأنها أجراس الفرح . . وعندما وصلت إلى الفندق واستسلمت للفراش الوثير والنوم الهادىء شعرت كأنى أزف نفسى إلى نفسى . . ! أن مصر — وأنا من أبنائها — تولد من جديد . . . .

وفى صباح اليوم التالى ركبت زورقاً وتغلغلت به بين الجزر والصخور حتى وصلت إلى الحديقة النباتية التى تحوى من أنواع النبات النادرة وغير

النادرة ما يفوق الوصف ، وأشبعت هوايتى بتصوير أكبر عدد من الصور الملونة ، وشاهدت قبر أغاخان يطل من بعيد ، وعلى مقربة منه نحو الشاطىء ، تربض الدار البيضاء الأنيقة التى تشغلها البيجوم عند حضورها فى مثل هذه الأيام من كل عام لتضع كل يوم على القبر وردة . . .

واستراحت نفسى بعد هـذه الجولة الممتعة بين الماء والخضرة والزهور وتهيأت للاستزادة من العلم والمعرفة . فما كاد يحل العصر حتى هرعت مع صديقى الدكتور فؤاد خورشيد إلى محطة توليد الكهرباء الجديدة عند خزان أسوان وهى معجزة خرجت إلى النور ، فبدا جمالها لكل ذى عينين . . وعندما دخلت للفرجة تسلمنا مهندس وديع من شـارع زين العابدين بحى محرم بك بالإسكندرية إسمه حامد عبد السلام . . لم يكد يرانا حتى تقدم متطوعاً دون سابق معرفة ، وأخذ يشرح باسهاب مبسط عمل (التربينات) التسع قوة سبع منها ٤٦٫٥٠٠ كيلو وات فى الساعة ، وقوة إثنتين منها (وهما الصغيرتان) ١١٫٥٠٠ وهى تمد بقوتها الهائلة شركة كيما ومشروع السد العالى ومدينة أسوان وقريباً جداً سوف تمد مصنع الحديد والصلب .

وعند ما صحبنى صديقى الدكتور المهندس عبد العزيز أمين مدير مصنع كيما لمشاهدة هذا المصنع ، رأيت عجباً ! أنك لا يمكنك أن تتخيل كيف بنيت هذه المدينة الصناعية الهائلة فى أقل من ثلاث سنوات لتنتج السماد من الهواء ، ولا غير الهواء ، وهو خامة متوافرة بحمد الله وسوف يغمر إنتاجها الأسواق عما قريب فتتعاون مع غيرها من المشاريع الهائلة التى تحيط بأسوان من كل جانب ، على توسيع مساحة الرقعة الخضراء الضيقة التى تراها على جانبى النيل وأنت جالس فى الطائرة تطل من نافذتها . . فتحز فى نفسك رؤية الصحراء القاحلة التى تتضائل بجانبها المساحة المنزرعة ، وتقول لنفسك : حقاً لو اتسعت هذه الرقعة

على طول الطريق من الجيزة إلى أسوان لتضاعف دخل الفرد وعم الرخاء وسعد الناس أجمعون . .

أما المدينة نفسها فإنها على أبواب نهضة إنشائية بنائية كبرى كان يشرف على تنفيذها والأخذ بيدها إذ ذاك محافظ وأستاذ سابق فى كلية الهندسة وبناء صانع مكافح هو الدكتور عزت سلامه الذى أصبح فيما بعد وزيراً للقوى الكهربائية . ولقد رأيت الأمل فى قسمات وجهه وفى كل كلمة يقولها .

وعدت من أسوان ، وأنا مشحون بهذا الأمل .. الأمل فى المستقبل . .

ثم جاء المستقبل الذى تاقت إليه نفسى فى ذلك اليوم من فبراير عام ١٩٦٢ عند ما زرت أسوان فى شهر فبراير ١٩٦٤ أى بعد عامين بالتمام فرأيت العجب العجاب الذى أصبح حديث العالم بأجمعه ومشيت بنفسى داخل الانفاق وعبر القناة التى تحول إليها مجرى النيل عندما وقف عبد الناصر وخروشوف وحولهما ممثلوا دول العالم ينظرون فى دهشه واعجاب واطمئنان إلى المستقبل وإلى النيل الغضبان وهو ينساب رغم أنفه فى غير مرقده الذى احتواه منذ آلاف السنين .

من جولاتي حول العالم

عليْنا أن نعرف غيرنا بذكاء
وأن نعرَف كيف يرانا غيرنا

مصرى فى كان

زرت مدينة كان فى صيف عام ١٩٦٢ أثناء قطع العلاقات مع فرنسا، وكنت المصرى الوحيد على شاطىء الريفييرا . . ولقد حملتنى الطائرة الكارافيل من جنيف إلى نيس ، وكان فى انتظارى بالمطار صديقى الأمريكى الذى يقيم فى (كان) بصفة دائمة بعد أن تعدت به السنون دور الجهاد ، وأدى رسالته على أحسن وجه فلم يجد وسيلة للاعتزال خيرا من اقتناء هذه الفيلا الأنيقة التى يقيم فيها مع زوجة فرنسية فاضلة كان كرم رعايتها والجو العائلى الذى فاضت به علينا خير عوض عن آلام الغربة التى يكتوى بها كل مغترب بصرف النظر عن عدد الأيام التى يقضيها بعيداً عن الوطن الكبير .

ركبت مع صديقى فى سيارة صغيرة يملكها ، والتى يطوف بها العالم ، فمرقت بنا خلال مدينة نيس ، ولما اقتربنا من « كان » أشار صديقى إلى المكان الذى دفن فيه « على خان » حسب وصيته ، وكانت الظروف قد سمحت لى منذ أسابيع بالمرور على مكان مصرعه « فى سان كلو » من ضواحى باريس . وفى المساء تجول بى صديقى الأمريكى المجرب فى أنحاء المدينة وأشار إلىّ من قريب أو بعيد إلى الأماكن التى يمكن أن أتناول فيها وجباتى وأشترى حاجياتى وفاكهتى المفضلة دون أن أستغل كسائح وهى فى الغالب تقع فى شارع متفرع من الشارع المتفرع من الشارع الكبير . . .

وفى الصباح تراءى لى أن أتجول فى هذه المدينة الفرنسية الصميمة لأرى كيف يتفاعل أهلها مع أحداث العالم و « مانشتات » الجرائد الصباحية الضخمة عن أحداث الجزائر وغيرها ، مما سبب لهفتى كغريب عنهم فكيف بهم وهم الأقربون ؟ .

إننى أرى شعباً هادئاً على درجة عالية من الرقة والأدب، يعامل الغريب بروح مضيافة سمحة . إنى كلما رأيت الحياد السائد على ملامح الأفراد فى البلاد التى مررت بها تذكرت كلمة جمال عبد الناصر عند ما يقول « إنها الشعوب وليست الحكومات هى التى بيدها المصير » .

ذهبت إلى سوق الفاكهة والخضروات فى الصباح لأدرس عن كثب الفرنسى « ابن البلد » فسال لعابى للفاكهة الممتازة ، فأخذت أطلب نصف كيلو من هذا وربع من ذلك وهكذا حتى تجمع لى أربع من القراطيس ، ولما أخذت البائعة الثمن أمسكت بالأربع بأصبعيها وقالت : تصور ! كل هذا لك . . . لا تنسى أن تأتى باكر ! وانصرفت مسرعاً لأعطى مكانى لغيرى .

ومرّ علىّ صديقى الأمريكى فى الساعة العاشرة والنصف تماماً لنذهب سوياً إلى البحر للاستحمام ، وقدمنى للعائلات الفرنسية من أصدقائه ولا تسل عن الترحيب فواحد يقول : ما أبدع بلدكم ! لقد أمضيت فيها شهرين ، وأخرى تقول أوه . . لقد اشتغلت بالسفارة الفرنسية أربع سنوات . . ما أبدع القاهرة! وكلهم يتمنون العودة ويقولون متى يأتى اليوم ؟ . .

إنى أكتب هذا وأنا جالس على إحدى الكراسى المريحة المتناثرة فى تناسق على طول رصيف الكورنيش ليستعملها الشعب دون مقابل . تنظر إلى الكراسى فتجدها نظيفة كأنها خرجت بالتو من المصنع إن طابوراً عجيباً يمر من أمامى والساعة قاربت السابعة مساء وقد تحررت السيدات من العرى ولباس « البكينى » وبدا عليهن الاحتشام ،وما أجمل الاحتشام . . لقد أعجبنى حقاً من الأستاذ أحمد الصاوى تشبيهه إياهن بالسمان ، كم كان بودى أن يشبههن باليمام ! وقد كنا ونحن صغار نتخيل تغريده فى الصباح وكأنه يقول : وحدوا ربكم ، عندكم قمحكم . . وسبحان الواحد ! .

ومصداقاً لقولى : إن فرنسا لا تتعصب للون ، كيف أصف لك هذه الحسناء التى تمر علىّ الآن وهى متعلقة بذراع زنجى من أفريقيا وتبدو عليه السعادة فى رصانة وتغمره الغبطة فى سكون وكأنه يشكر الله بينه وبين نفسه .

نظرت إلى ساعتى فوجدتها قد قاربت الثامنة ، وغابت الشمس عن الوجود ولم يعد هناك مجال للكتابة فمشيت الهوينا نحو كازينو « الفيستفال » حيث يعقد المهرجان السينمائى بين حين وآخر ، ووقفت أمامه أتأمل سلمه الذى طالما صعدت درجاته نجوم السينما من جميع أنحاء العالم ومن بينهم نجومنا ، وعلى يمين السلم مطعم كبير هو مطعم (الفستفال) نسبه إلى هذه القاعة الكبيرة ، وعن يساره مطعم البار الأزرق (بلوبار) حيث يجلس المصطافون إلى موائده يأكلون ما يشتهون بشهية لا تنضب ، وتخيلت نفس المكان بالأمس عند ما لفت نظرى تجمع الناس حول سيارة وقفت فجأة وسمع الناس صوت ثلاثة أعيرة نارية صوبها زوج شاب غيور إسمه تراتينى على زوجته الحسناء (پوليت) لأنه علم قبل الحادث بيوم أنها امرأة ذات ماض ، ويقول سائق التاكسى الذى ركباه أنه سمع مناقشة حادة بينهما ثم ، أعقبتها طلقة نارية فارتمت المسكينة على زوجها وكأنها تسأله المغفرة ، ولكنه لم يلبث أن سمع طلقتين أخريين مرقت إحداها بجانب السائق وكادت تصيبه ولم يحاول الجانى الهروب ، بل بقى فى مكانه واستدعى رجال الشرطة وأخذ يكلمهم فى هدوء عما حدث وبدأ حديثه بقوله : أنا الضحية ؟ . . . . لقد قتلت پوليت لأننى اكتشفت بالأمس أنها امرأة ذات ماضى ـ وبينما كان يحملها رجال الشرطة من السيارة أشحت بوجهى حتى لا أرى هذا الشباب الذى ذوى فى بضع ثوان .

جالت كل هذه الخواطر بذهنى وأنا واقف أنتظر صديقى الأمريكى

وزوجته ليصحبانى إلى مهرجان الهواة ، وكان موعدنا الساعة التاسعة إلا ربعا بالتمام ، وحضرت كعادتى قبل الميعاد بدقيقة ، ودخلنا المسرح الفاخر ، وجلسنا على مقاعد وثيرة تتهادى بك أماماً وخلفاً ، ونظرت إلى جدران المسرح المزدانة بالمصابيح التى يعلو ضوؤها حيناً وينخفض حيناً آخر ، ويتغير لونها من الأحمر الخافت إلى الأصفر الهادىء ، ثم إلى البنفسجى البهيج ، ولما لاحظت أن التدخين ممنوع — لفرط سرورى فهو عدوى اللدود — أخبرنى صديقى أن التدخين ممنوع فى فرنسا فى جميع دور السينما والملاهى ، وعلى مدمنى التدخين أن يرتادوا المقهى الملحق بالمسرح خلال فترة الاستراحة حيث يدخنون ويتناولون المرطبات إذا شاءوا . . . ويا حبذا لو اتبع هذا النظام فى مصر حيث يحلو للمدخن أن ينفث دخانه فى عين الجالس بجواره ، وقد يمعن فى الإذلال فيرسله إلى أعلى بعد أن يطيح برأسه إلى الخلف فيصيب أكبر عدد من العيون بالأذى ، سامحه الله .

وعرضت علينا ستة أفلام بين كل ثلاثة منها استراحة خمسة عشر دقيقة ، وكان أكثر الأشرطة التى حازت الاعجاب شريط أمريكى عن التدخين وشريط فرنسى بعنوان (سيدتى وأنا . . . .) ويتلخص موضوعه فى حب متأصل بين قطةوسيدتها. ويستمر هذ الحب ، كلٌ للآخر دون شريك، حتى يحل آخر الأسبوع فتستعد السيدة لاستقبال صديقها فتغتسل وتتعطر وتجهز له أحلى أنواع الطعام والشراب . حتى إذا ما حل ميعـاد النوم واضطرت القطة إلى مشاركتهما الغرفة كعادتها ، بدت عليها ألوان الغيرة وكأنها بنت حواء لحماً ودماً . كل هذا وسيدتها غافلة عنها . ولما أدركت القطة أن العتاب غير الناطق عبث ،تثاءبت وتاهبت للنوم وكأنها تقول فى استسلام ما معناه (خذ لك ساعتين إنها لى بقية الأسبوع) وينتهى الفيلم على هذا . وبعد انتهاء العرض جلسنا فى

المقهى المجاور المطل على البحر وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث ، فقد كانت الليلة بالنسبة لنا ليلة الوداع . واستعدنا ذكريات زيارتهما الأخيرة لمصر فى الشتاء الماضى حيث قضيا بها ثلاثة شهور يتجولان فيها بين الإسكندرية وأسوان ، وكانت معرفتى بهما فى فندق « كاتاراكت » بأسوان ، وتوطدت بيننا صداقة متينة مبعثها ثقة الزوج الذى بلغ من العمر حوالى السبعين عاما ، وثقة الزوجة واطمئنانها لى وهى التى جاوزت الأربعين بقليل ، ولكن لفرط العناية التى يغدقها هذا الثرى الأمريكى عليها فإنها كانت لا تزال محتفظة بشباب إبنة الثلاثين وكانت الزوجة تخبره عن كل حركة نابية تصدر من المصريين الذين قدمتهم إليهما والذين عرفاهم من غير طريقى . لقد صمما أن يعيشا الواحد للآخر حتى يموت أو تموت ، وكنت أفاجأ بين حين وآخر بدخولهما علىّ بالعيادة وكأنها أصبحت جزءاً من برنامجهما اليومى . وأنا فى خلقى الغبطة كلما اكتسبت ثقة جديدة أو صديق جديد يثق بى قبل أن أثق به. وأنا منذ فتحت عيادتى فى عز الشباب أقسمت بينى وبين نفسى ألا أستغل ثقة الزوج . وأصبح تقديس الأم والزوجة عادة سهل علىّ تطبيقها على جميع الأوساط التى أحتكمت بى وأغدقت علىّ قناطيراً من الثقة ناء بها كاهلى ، وقد طبقت هذه القاعدة دون مجهود على هذا الكهل الأمريكى وزوجته . وفجأه مال علىّ الزوج وربت على ركبتى القريبة إليه وقال أتدرى يا مصطفى لماذا دعوتك لتكون ضيفى فى كان دون بقية أصدقائنا المصريين الذين تعرفنا عليهم فى مصر . . ؟ وترك صديقى الأمريكى مهمة الرد إلى زوجته الجريئة نوعا ما فانبرت تقول دون تردد لأنك الوحيد الذى لم يقرص فخذى من تحت المائدة فى حضور زوجى أو غيابه . ولما شاهدت علامات الاستغراب على وجهى اندفعت تقول فى عصبية زائدة ماذا دهى رجالكم وخاصة المسنين منهم . . ؟ أتدرى أن فلاناً صديقك كان يلاحقنى بالليل والنهار ويتصل

بى تليفونياً فى حضور زوجى ويراودنى عن نفسى بينما زوجى يستمع ساخراً .؟ وأن فلاناً صديقك هرأ نخذى قرصاً عندما دعانى مع جيجى (وهو إسم التدليل الذى تغدقه على زوجها) للعشاء فى الهيلتون ؟ واستمرت تعدد مناقب القديسين الأبرار الذين قدمتهم إليهما وأنا أتعجب أشد العجب متحيراً بين تصديقها أو اتهامها بالمبالغة التى تلجأ إليها مثيلاتها من المتزوجات من أشخاص يفرق بينهما السن إلى حد كبير حتى تغرس بذور الثقة أكثر وأكثر فى قلب المحب العجوز . . ؟ مع تأكدى فى الوقت نفسه أنها زوجة شريفة مائه فى المائة وختمت حديثها بقولها ما هذا العطش الجنسى الذى يقاسى منه رجالكم ؟ وما هذا الرياء الإجتماعى الذى يسيطر على مجتمعكم ؟ لماذا لا تتخلصوا من هذا الكبت وتكونوا صريحين ؟ لماذا تحرمون التويست وغيرها من الرقصات العنيفة فى المحال العامة بينما ترقصونها فى البيوت .

وكنت أنصت إليها وأنا ألتمس لها العذر فى ثورتها فقد تكون تذكرت القرصات التى هرأت جلدها والتى أغدقها عليها إخواننا المصريين ، وبعد أن انتهت من حديثها قلت لها أننى أشكر لك ولزوجك ثقتكما بى . أننى احترمتك لأننى أحببت زوجك واحترمته ولأنك دخلت فى ذلك الدوعاء الكبير الذى يحوطه حبى واحترامى فى حدود رضاء الله وضميرى وهو كونك زوجة حصينة ترعين فى أخلاص رجلا أعرفه وأحترمه .

* * *

وفى الصباح الباكر إصطحبانى فى سيارتهما الصغيرة إلى مطار «نيس» ، وبينما كانت نسير بنا الهوينا فى بوليفار الكروازيت المطله على البحر مررنا على المكان الذى لقيت فيه (بوليت) مصرعها على يد زوجها بالأمس القريب

فقلت لنفسى كالعاده لا تظنها الجنة الموعوده هنا ـ موت وقتل وعقد نفسية كأى بلد شريف . . منذ ثلاثة أسابيع فقط سطا أربع لصوص على البنك المركزى فى المدينة فى وضح النهار وإستولوا بالتهديد على ٧٠٠ ألف فرنك ثم لاذوا بالفرار .

ولما تجاوزنا حدود المدينة صادفنى قبر (على خان) مرة ثانية فقرأت الفاتحة على روحه ثم مررنا على قرية جولف جوان وهى التى نزل فيها نابليون بونابرت عندما فر من جزيرة « اليا » وتخيلت إذ ذاك أصدقاءه وهم يستقبلونه مرحبين هاتفين يحيا الإمبراطور . . . ثم بقرية « جوان ليبان » ثم « انتيت » ، « كوجنس » ، « لوران دى فار » قبل أن نصل إلى نيس . وإنى أسميها بالقرى على سبيل التجاوز فالشوارع النظيفة والمحال التجارية الكاملة العدّة والفنادق المتناثرة على الجانبين فى انتظار النزلاء الذين لا ينقطع سيلهم وأفراد الشعب وهو يهرعون إلى أعمالهم فى الصباح الباكر ، نفس النوع من الفرد « الموحَّد » الذى أقابله فى إنجلترا وسويسرا وألمانيا والبلاد الإسكندنافيه وغيرها . . . والذى تراه فى المدن والحضر على السواء . . يصحو من نومه فى بكور ، ويقبل على اليوم بإخلاص حاد وضمير جاد . لا يعرف الا الواجب ولا شىء غير الواجب .

ترى متى يطلع الصبح علينا ونحن فى مثل حالهم . . ؟ وأخيراً هلَّ علينا مطار نيس فنزلت من السيارة وودعنى الزوجان وداعاً جميلا ، ولما الححت عليهما فى المجىء إلى القاهرة فى فرصة قريبة نظرت إلى الزوجة الخبيثة وقالت على شرط أن تبعد عنى براغيثكم الأدمية . . .

وابتعدت عنى السيارة وأنا لوح بيدى مودعاً . ووجدت نفسى بعد قليل وحيداً مرة أخرى !المصرى الوحيد على شاطىء الريفييرا الفرنسى .

المصرى فى (كان) أو فى خبر كان .

— ٢ —

كانت رحلة صيف عام ١٩٦٢ ممتعة حقاً . كان عليّ أن أمثل الجمهورية فى مؤتمر الأطفال الدولى العاشر فى لشبونة . ومن عاداتى أن أقضى بضعة أسابيع متنقلا بين مختلف العواصم أزور المستشفيات وأجدد المعرفة بزملائى الأساتذة وأشاهد ما قد يجِدّ فى عالم البحث . يحلو لى مثلا أن أمر بروما وباريس ولندن كل عام تقريباً ، ويلذ لى أن أجلس على مقهى الفوكيت أو الكافيه دى لا بيه لأسجل أحاسيسى ومشاهداتى خلال رحلتى ، وإذا لم يسعفنى الجيب فإن أى مقهى صغير فى شارع صغير متفرع من الشانزلزيه أو ميدان الأوبرا أو بوليفار هوسمان أتناول فيه فنجان القهوة أو زجاجة إيفيان مثلجة بنصف الثمن الذى أدفعه فى المقاهى الكبيرة المطلة على الشارع الكبير تفى بالغرض . وهنالك أيضاً أتمتع بخلوة سعيدة مع القلم والقرطاس لايقاطعنى خلالها صديق دخيل يربت على كتفى قائلا لى، وأنا منغمس لقمة رأسى فى وصل الفكر بالقلم، أرجو ألا يكون فى جلوسى معك مضايقة لك ، فأتمتم مجاملا أبداً ! إنى مشتاق ووحيد ، لقد أتيت فى الوقت المناسب ! ثم كلمة من هنا وكلمة من هناك ، ثم يحين وقت الغداء أو العشاء وتنتهى الجلسة على غير خير بالنسبة لمحصولك الفكرى .

* * *

اليوم يوم أحد فى مدينة باريس. كل شىء هادىء ،:لقد ذهب نصف سكانها على الأقل لقضاء أجازة آخر الأسبوع ، وهى شىء مقدس فى أوروبا . . إن آفتنا فى مصر أننا لا نعترف بها . لو فعلنا لعم الرخاء كثيراً على البقع النائية عن المدن الكبيرة ، يحج ويهرع إليها الذين ينشدون الراحة من عناء الأسبوع . أهو التراخى أو قلة الدخل أو ضعف المرتب هو الذى يمنعنا عن التحلى بهذه العادة ؟ إن أعطاء الجسم راحته على أقساط أسبوعية أجدى وأكثر نفعاً من إغداقها عليه دفعة واحدة فى آخر العام . إن هدف السياسة الاشتراكية هو

الحيلولة دون أن ينسى الفرد نفسه ليضع القرش فوق القرش فيجمع الآلاف متناسياً أن لبدنه عليه حقاً ، فيرهق نفسه أيام الجمع والآحاد على حد سواء مع بقية أيام الأسبوع فتهلك أنسجته وتهلهل شرايينه قبل الأوان .

إننى أستعرض وأنا جالس فى مقهى (الفوكيت) بشارع الشانزلزيه تفاصيل رحلتى منذ غادرت القاهرة ذات صباح جميل أشرقت شمسه وازدهرت وودعنى بعضهم عند مقر شركة للطيران بميدان الأوبرا ، وتجشم البعض مشاق الطريق إلى مطار القاهرة . . رأيت الدمع يطفر من عينى هذا التلميذ المخلص وهو يهز يدى مودعاً ، ياويلتى ! إن موجة من التشاؤم الخفيف المقرون بعرفان الجميل تنتابنى وأنا أتخيل هذه الدموع المخلصة تودعنى ، وأنا أسير نحو الطائرة النفاثة التى سوف تصبح عما قليل على بعد ١٨ ألف قدم من سطح الأرض ، تطير بنا نحو روما بسرعة قدرها ٨٠٠ ميل فى الساعة لتصلها فى ثلاث ساعات وربع الساعة . . ولـكن متى قفل باب الطائرة عليك فإنك تستسلم للقدر وتنسى من أمرك ما تقدم وما تأخر . وسرعان ما يحوط بك طاقم الطائرة من مضيفين ومضيفات ليسبغوا عليك من ألوان كرم الضيافة ما أصبح علمـا على شركة الطيران المتحدة ، فضلا عن شعور الأمان الغريب الذى ينتابك عند ما تشعر بهذه الطائرة الجبارة وهى تتهادى فى ثقة وثبات فوق مستوى السحاب فتصل بعد ساعتين فوق جزر صقلية ، ثم تبدو روما لناظريك بعد ثلاث ساعات من القيام ، أى فى نفس الوقت الذى يستغرقه القطار العادى ليصل بين القاهرة والإسكندرية .

ومن ذكريات روما العزيزة سفيرنا الممتاز أحمد نجيب هاشم الذى أضفى على السفارة جواً عجيباً من الهدوء والاحترام غير المتـكلفين . لقد جمعنى فى حفل عشاء فاخر أقامه بالسفارة مع أحد كبار الساسة الايطاليين وهو السنيور

(جانيانوا مارتينو) وله الآن مكانة دولية كبيرة . وكان معنا أيضاً الأستاذ الدكتور ناجى المحلاوى وقد تصادف مروره بروما فى طريق عودته للقاهرة ، والملحق الصحفى يوسف كمال وحرمه وأشرفت على الحفل من قريب ومن بعيد حرم السفير الممتازة وكريمتها هدى ، فاوليتانا من كرم الضيافة ما يعجز اللسان عن وصفه . وكان معى شريط مسجل لأغنية لا تكذبى من غناء نجاة الصغيرة وعبد الحليم حافظ ودار الحديث بيننا عن أيهما أفضل : نجاة أم عبد الحليم فانبريت أقول أن لنجاة حسنى فضل (التبشير) لهذه الأغنية أن حبى وإعجابى بعبد الحليم فوق الشبهات . ولكن نجاة أول من وطىء بقدمه هذه الجزيرة اليانعة المليئة بالمفاجآت . إننى كما سمعت أحداً يغنيها غير نجاة حتى عبد الوهاب نفسه مهما بلغت درجة اتقانه ـ أشعر وكأنه انتزعها من بين شفتيها بحق أو بدون حق. هل ينكر أحد ابداع الاثنين فى هذا الجزء من القصيدة الذى يقول فيها ماذا أقول لأ دمع ، لقد سمعت نجاة تغنيها أخر مرة قبل مغادرتى للقاهرة ، وكانت الحفلة مذاعة بالتليفزيون فى أحد أعياد الثورة ولما تمكنت من (القفلة) المعّجزة فى (لا لن أقول أنا فقولى) ظهر الانتصار فى عينيها والفرح فى قسمات وجهها لأن (الأستاذ) أراد أن يمتحن هذا الجيل الجديد من المطربين فوضع لهم امتحاناً صعباً ، كما فى هذا الجزء من القصيدة . وفى الجزء الذى تقول (كونى كما تبغين) أو الذى يقول (فرأيت انك كنت لى قيدا حرصت العمر الا أكسره) يريد (الأستاذ) ان يرى هل سيوجد المطرب الذى يتمكن من الاداء الحسن الذى كان يتمتع به (أيام زمان) هل خلق من بعده من يتقن (قفلات) عذبه فى كلنا نحب القمر ، أو ما أحلاه يا وعدى فى (أحب أشوفك كل يوم) أو الفجر شقق فى (الليل لما خلى) أو ينساب مثله على الطريقة البلدية فى أغنية (أنا اللى طول عمرى عند ما إلى المقطع الآتى :

من قبـل عينى ما تشوفها روحى شوفتهـا

وللقلب حس برقتها من خطوتهـــا

أو ينادى كليوباترا مرفقا الحروف كما ناداها فى أغنية كليوباترة ولو سمعته يناديها هكذا لنسيت انطونيو أيامها . ويتصرف هذا التصرف الحلو (أنا هيمان ويطول هيامى فى أغنية الكرنك أو (ليلنا خمر وأفراح تغنى حولنا) مع كليوباتره . وبالإختصار لقد وضع (الأستاذ) لتلاميذه إمتحانا قاسيا تلاعب فيه بحناجرهم وحاورهم فيه بتنقله المتقن من طبقة لأخرى ومن مقام لأخر وهو يقصد التعجيز والويل للمغلوب على أمره . ولكن نجاة وعبد الحليم اجتازا الامتحان بنجاح تام على ما اعتقد ، وعند ما أقول أن لنجاة فضل التبشير بهذه الأغنية أقصد التبشير بمعناه الحقيقى ، لأن كل ما بها من لفظ ومعنى ولحن لهو جديد على الأغنية المصرية دون جدال .

* * *

وعند مازرت سفارتنا فى روما فى اليوم التالى ، وتلفت يساراً إلى الغرفة الأنيقة التى يشغلها مستشار السفارة ، تذكرت الصديق أحمد عبد المجيد السفير الأديب ، وقد كان يجلس إلى المكتب نفسه منذ ثمان سنوات ، وهو شاعر أديب رقيق . . وكان بالسماء غيم خفيف .. فتذكرت أغنية لأحمد غناها عبد الوهاب منذ أكثر من عشرين عاما وهى :

فى الجو غيم حجب القمر   وحرمنى من حسن جماله

ياهلترى عاذل ظهر   وألا عذول حب وصاله

والواقع أن القطع التى وضعها أحمد عبد المجيد لعبد الوهاب فى أوائل عهده كانت أعمدة قام عليها مجده الفنى ، وإن أغنيتى « فى الليل لما خلى » للشاعر

شوقى «وكلنا نحب القمر» لأحمد عبد المجيد — وكلتاهما ظهرت فى عام ١٩٢٩— كانتا نقطتى تحول فى تاريخ عبد الوهاب وكان يغنى « بمزاج » إذا شدا بألحان شوقى وكلمات عبد المجيد كما هو الحال مع حسين السيد الآن .

إن المعانى التى بدأها أحمد عبد المجيد تعتبر بداية عهد جديد فى تاريخ الأغنية . كيف ننسى له « كلنا نحب القمر والقمر بيحب» مين » ؟ ثم فى الجو غيم » ثم الهوان وياك معزة» .« ومريت على بيت الحبايب، و«ياترى يانسمة» « وما كنش على البال » . .

إنى آخذ على أحمد عبد المجيد إنزواءه منذ أن أصبح وزيراً ثم سفيرا . . أفلا يرانى أبتعد عن الطب فى بعض الأحيان !؟ إننى عند ما أكتب بحثاً علمياً اقتطع من شحمى ولحمى قيراطاً ، وعند ما أسرح فى عالم الأدب ، أضيف إلى نفسى وذهنى قيراطين !!

لقد بدأت هذه الكلمة وأنا استرخى على مقهى « الدونيه» بروما بشارع فنيتو المحبب إلى قلب أحمد عبد المجيد . . وإنى أعاتبه وأنا جالس على حافة حمام السباحة فى الدور السابع من الفندق الذى أقيم فيه وحولى أطفال يسرحون ويمرحون فى المياه الصاخبة ، أحسن الله لهم الأيام جزاءاً حسناً على صفاء نيتهم وبراءة نفوسهم .. ومضيت أعاتبه وأنا سائر فى شوارع روما اترنم بختام أغنية السفير احمد عبد المجيد فى الجو غيم ، إذ يقول :

مسكين مادام عاشق وعذول وانت اعتذارك إيه فى هوانى
ياقلبى آه حاتفيـــدك ايه وقولتى آه حاتزيد فى جفاك
مسكين مجروح من طول النوح واسيه وابكيه يادموع العين
أيها السفير الأديب اظهر وبان .

* * *

والسفير أحمد عبد المجيد لا تكفيه سطور فى إحدى صفحات كتابى الذى دأبت على أن أسجل فيه كل ما يَعِنُّ لى دون إخفاء للحقائق غير المُرَّة . أن صلة قرابة تربطنى به ، وهى ولو أنها بعيدة لحدٍّ ما إلا أنها مدعَّمة بحب كبير كنت أكنُّه لوالده الكبير فى خلقة المرحوم اللواء عبد المجيد فريد (وهو جد السيد عبد المجيد فريد أمين عام رئاسة الجمهورية) ولأخيه على الطالب فريد ، وكان المهندس كامل بدران ابن خالى لا يفتأ يذكر اسم خاله عبد المجيد باشا فريد بنبرات كلها حب ، منذ عرفته عند ما كنت طالباً فى الجامعة ، وكان اسم أحمد عبد المجيد يذكر أمامى دائماً قبل أن أراه أو أتعرف عليه ، كشاعر وزجال مطبوع لعلع صوت عبد الوهاب بأغنيات من تأليفه ، مثل : كلنا نحب القمر ، والهوان وياك معزَّة ، وحسدونى ، ومرِّيت على بيت الحبايب ، ويا ترى النسمة وغيرها ، ولو تخيلنا كيف أمكنه أن يصنِّف هذه المعانى اللامعه ، وهو لا يزال طالباً بكلية الحقوق ، لتساءلنا هل كان لهذا النبوغ الخُلْقىّ مصدر وحْى ؟ وبروح الشباب الرزين ودون أن نحاول إحراج أحمد الخجول همسنا فيما بيننا أنها ابنة عمه ، فقد كانت لا تقل عنه خجلا ، وظل أحمد متردداً يشفى غليله بقرض الشعر والزَّجل ، وهى لفرط تحشمها وخلوّ ذهنها من سفاسف الشباب لم تكن لتشعر أو تتخيل أن من كانت تعتبره فى منزلة الأخ يرسل من سحْر البيان ما تنطق به الملايين لتنعم كلماته ذات يوم بأن تترنم بها مُنَغَّمةً مالكة قلبه مع هؤلاء الملايين من الناطقين بالضاد دون أن يخطر ببالها أنها تناجى نفسها نيابة عنه.
وأخيراً اجتمع الشتيتان فى حفل قران بسيط هادىء فى صيف عام ١٩٣٤ فقرّت أعيننا جميعاً ورافقته الزوجة الواقعية خلال حياته الدبلوماسية العريضة الناجحة ، ولم ينقطع خلال هذه الفترة الطويلة من إصدار ديوان إثر آخر

وكأنَّ هذه الملهمة الوديعة نجحت فى عقْد معاهدة مع شيطان الشعر المتابع لزوجها ، فظل راكباً على كتفيه يتمتم فى أذنيه أروع المعانى بين الحين والحين، بينما يرقب عن كثب ودون غيرة أو حسد أبدع مثل للتفاهم والحب المتبادل بين زوجين ترسبت فى إناء حياتهما الزوجية من ذرَّات الحنان ما سوف يكفى لاستقراره سنين أخرى طويلة بإذن الله .

وأحمد مداعب فَذّ وخاصة إذا هاج شيطان شعره فى حادث معين. وأروع مثل نتندَّر به هو رثاؤه للمعطف الذى فقده فى عمر الورد فى مقهى جروبى فى فى شهر فبراير سنة ١٩٤٢ ، وأثناء الحرب الكبرى الثانية عند ما كان ثمن الأصواف غالياً . فلما انتقل للعمل بمفوضية مصر فى لبنان عام ١٩٤٣ اشترى معطفاً جديداً كان لا يحرص على عمره قدر حرصه عليه وعلى قوله أن العمر إذا ضاع فلا حاجة للمعطف ، أما إذا ضاع الآخير فكيف يكون حاله بدونه .

ثم دعى لحفل ضم ثراة لبنان ، وكان بينهم صديقه الشاعر المرحوم أميل لحود وزير المالية فى ذلك الحين . وعند انصرافه من الحفل لبس خطأ معطف زميله ولم يفطن إلى ذلك إلا عند ما عاد إلى منزله . فكتب يرثى معطفه بقصيدة أذكر بعض أبياتها

قالوا فـــداك ضياعه	فهتفت بل روحى فداه
يامعطفاً ما كان أجدره	بتوشية الوشاة
ما كان أجدره على ردّ	العواصف إذ تراه
حسدته أعين معجبيه	وعاشقٌ فرد طواه
قالوا إليك بديله	فأجبت لا أبغى سواه
قالوا إليك مثيله	هل فى الوجود أرى أخاه
هل يستوى الغصن الر	طيب وذابلٌ شلت يداه

هل يستوى صَدَفُ البحار ولؤلؤ زاهٍ سناه
يامعطفاً قُلْ للذى أقصاك عنى ياهناه
وأنا الذى بردائه أقضى الحياة بلا حياه
ردُّوه لى كقميص يوسف ياعذابى من نواه

وعند ماوصل إلى هذا الحد من القصيدة طرق الباب سائق سيارة الوزير ومعه خطاب رقيق من الوزير يعتذر على أنه أخذ معطفه عن طريق الخطأ ويرجو التفضل بإجراء المبادلة فتهلل أحمد فرحاً وأكمل القصيدة عند ماذهب إلى محل عمله بالسفارة هكذا .

حتى إذا طلع النهار أجاب دعواتى الاله
وأعاده لحودُ لى فأعاد لى صفو الحياة

***

خطرت لى هذه الخواطر وأنا جالس على مقهى (الكافيه دى بارى) الكائن بشارع (فيافينتبو) بروما الذى طالما قضيت فيه لحظات هنيئة مع أحمد عبد المجيد نحتسى قهوة الظهر أو المرطبات المثلجة فى عصر الأيام الحارة .

وبدأت أتصفح جرائد الوطن العزيز ولما رأيت فى إحدها صورة لزميلى النبوى المهندس وزير الصحة ، وضعت الصحيفة جانباً وسرح بى الفكر إلى تلك الأيام الأولى من شهر اكتوبر من عام ١٩٦١ عند ما عين وزيراً للصحة فأيقنت أننى فقدت صديقاً عزيزاً ومعاوناً كبيراً ، وفاض بى الخاطر وكتبت إلى الأستاذ أحمدالصاوى محمد ــ الذى فتح لى صفحاته دائما مشكوراً ، أحاسيسى بهذه المناسبة وكانت صادرة من قلب مكلوم ، ولعلها من أحسن ما كتبت . إذْ ذاك :

« إذا كان يحق لأحد أن يكتب عن النبوى المهندس وزير الصحة الجديد فهو أنا . وأنى لا أتحيز له لكونه بالنسبة لى الابن الروحى البار . لقد احتضنته طالباً ثم طبيباً شاباً يافعاً لم يلبث أنه لمع لمعاناً شديداً وميز نفسه كطاقة بشرية لا حد لها .

وكنت أتوقع دائماً اليوم الذى ينطلق فيه هذا المارد المتألق من القمقم الذى احتبست فيه طاقته وكنت فى قمة السّعادة وأنا أخطو به عتبة باب المستشفى فى صبيحة تعيينه ، وأخرج به متأبطاً ذراعه كعادتى اليومية ، ولكن كوزير للصحة . وقطع تيار سعادتى نشيج وبكاء زميله رشاد صفر من خلفه ، فنهرته فى عطف زائد أن يكفكف دموعه فهذا يوم عيد ، ولعلى نهرته لأنى كنت أعتقد أن هذه الدموع من حقى وحدى ، وكأنى كنت أغار عليه من غريب الدموع ولا عجب فقد كان النبوى بمثابة كل شىء لى . كان أنسى وكان بهجة نفسى ، كان الأخ الروحى والابن البار واليد اليمنى التى لا تكل أبداً ، كان تقياً ورعاً لا يرتكب معصية ، صريحاً لا يعرف الكذب ولا المداراة . حج إلى بيت الله الحرام فى الصيف الماضى فاكتمل دينه وتضاعف زهده فى زخرف الدنيا ، وبدا وكأنه جهز نفسه لحمل الرسالة التى قدر له أن يؤديها ، وهى تتطلب من الهمة والعفة وطهارة اليد الشىء الكثير . ولمع فى مؤتمر الطفولة بأنقرة هذا الصيف وكنت أراقبه فى إعجاب وشغف وهو يلقى بحثه فى سوء التغذية فصال وجال وناقش وأقنع .

خطرت لى هذه الخواطر وأنا أمشى به الهوينا نحو سيارة زميله ممدوح جبر لتحمله إلى حيث يريد ، ثم أودعت وجنتيه قبلتين وهمست فى أذنه إلى لقاء ياسيادة الوزير . وراقبت السيارة الصغيرة وهى تتهادى فى كبرياء هادىء حتى توارت تشيعها القلوب والدموع . . دموعى أنا هذه المرة !! »

* وزير صحة الآن (طبيب أطفال مشهور)

تذكرت كيف تحدث إلى هذا الزميل العزيز تليفونيا فى مساء يوم صدور جريدة الأخبار وهو يغالب الدمع ويحدثنى عما نشرته الجريدة ، ثم وضع السماعة فجأة وكأنه لم يتمكن من مغالبة الدمع .

ويجب أن أشيد بهذه المناسبة إلى تشجيع العمر الذى أفاضه الأستاذ أحمد الصاوى محمد علىّ منذ لمس شغفى بالكتابة ، فانه فتح لى صفحاته فى ترحيب اغتبطت له نفسى ، وكان حافزاً لى على التقدم خطوة بخطوة نحو الإجادة ، وكان طوال معرفتى به مخلصاً وفياً مهذبا غاية التهذيب ، مؤدبا فى حديثه وتصرفاته على مستوى القمة بما حببه إلى كل القلوب التى تهفو إليه كلما لمحوه جالساً على مقعده فى نادى الجزيرة الرياضى . فهو منبر عام تبث إليه شكواك علاوة على كونه صديق ممتاز !

إن الإنتقال من إيطاليا إلى سويسرا يشعرك فى الحال بالفرق بين الإيطالى (البحبوح) والسويسرى المتزمت . فى سويسرا مثلا إياك أن يعلو صوت الراديو أو التليفزيون إلى أكثر من الهمس بعد الثامنة مساء . والويل لطفلك إذا دب بقدميه على الأرض أثناء لعبه أو جريه فى أى ساعة من ساعات النهار . فإن أمرك يبلغ إلى البوليس فوراً بواسطة جيرانك ، وينذرك أولا وإذا تكررت الشكوى ضدك فإنك ترغم على ترك المنزل إلى منزل آخر دون خجل أو نقاش ، لأنك فى مثل هذه الحالة ساكن غير مرغوب فيه من الجيران . أما دقة المواعيد عند الفرد السويسرى فحدث عنها ولا حرج . لا أنسى يوما كنت أتناول فيه الغذاء بدعوة من المستشار صلاح أبو جبل وحرمه هناء الديوانى إبنة عمى وكان معنا الأخ على زين العابدين حسنى وحرمه والدا الشهيد جواد حسنى وكانت الساعة الثانية والنصف هى الموعد الذى حددته كل من مربية الأطفال والخادمة ، وكلتاهما تشتغلان بالساعة بمعدل جنيه لكل ساعة عمل . فحضرت

المربية فى الساعة الثانية والنصف إلا ثانية ، وحضرت الخادمة فى الساعة الثانية والنصف بالتمام والـكمال . وعلى هذه الوتيرة من الدقة تسير الحياة فى سويسرا .

أننى أكتب هذه الـكلمات فى باريس فى السادس من أغسطس والبرد قارص والمطر يكاد لا ينقطع إلا مع لمحات خاطفة من الشمس الساطعة . إن فرنسا تقترب من الجدية والاستقرار بعد أن انتهت من حرب الجزائر . وديجول يتمتع بشعبية الشخص الذى تـكره أن تحبه وتحب أن تـكرهه . يقلده الممثلون الهزليون على المسارح ويسخر منه الرسامون فى محاولاتهم الكاريكاتورية . وبلغ من جرأة أحدهم أن يقلده فى خطبة بعد أن يغير الألفاظ ويقلب المعانى ظهراً على عقب ، وأن يسجل هذه المحاولات على اسطوانات فتنال رواجاً كبيراً من أفراد الشعب . وكان أول من استمع إليها وضحك منها ديجول نفسه . إن الفرد الفرنسى بين لهوه ولعبه جاد فى ساعة العمل وفى كل نواحى الحياة اليومية . أنك تلمس الـكمال فى المستشفيات مثلا ، لقد وصلوا بالناحية المعملية منها إلى حد كبير يجعل منها مدرسة كبيرة يحج إليها الطلاب من جميع أنحاء العالم . إنهم لم يتخلفوا عن الركب أبداً كعادتهم منذ مئات السنين ، عندما وضع باستور وكورى ومَنْ قبلهم اللبنات الأولى فى العلم الحديث . ومن مزايا باريس إنها لا تعرف للتعصب معنى ولا مبنى ، الـكل عند أهلها سواء : الأبيض والأسود والمسيحى والمسلم واليهودى والبوذى . أما فى انجلترا فإن موجة التعصب أخذت تشتد فى السنوات الأخيرة .

لقد زرت المعمل التجريبى لطعم شلل الأطفال والملحق بمركز الطفولة الدولى بباريس واستقبلنى هناك طبيب فى مقتبل العمر إسمه أندريه بوييه وهو المشرف على كل التجارب المعملية والذى فى يده أن يقول لا أو نعم إذا سئل هل آن الآوان لاستعمال طعم الفم (سابين) . تحدثت معه وناقشته طويلا بقدر ما ألممت

به خلال جولاتى العالمية وتجاربى الخاصة بهذا الطعم ، فصمم فى حنكة وحكمة بأنه لن يعطى الرد قبل سنة من الآن ، إذ عليه أن يقنع نفسه والرأى العام والصحافة . أنه يلقى بالا إلى هذين الأخيرين ، فالأرواح عندهم غالية كما يقول وهو مقتنع تماماً بأهمية الطعم وسلامته . وكلما قابل (سابين) سواء فى باريس أو غيرها من البلدان ، ربت على كتفيه قائلا يا بنى لم تتعب نفسك فى التجارب إن الطعم الذى ابتدعته أصبح خبراً صادقا لا زيف فيه ولا رياء فابدأ فى تعميم استعماله ببلدك ولا تخف .. تماماً كما قال فى العام الماضى فى استوكهلم وفى العام الذى قبله بمونتريال ! ولكنى كنت أكثر واقعية من العلاَّمة الفرنسى فهللت وبشرت له عقب عودتى واستجاب ولاة الأمور دون تردد ، وأفاد منه ملايين الأطفال المصريين دون الخامسة من العمر .

لقد أخبرنى هذا العالم الفرنسى المتخصص أن من أكثر ما نخشاه هو تلوث الطعم بفيروس القرده Simian Virus 40 (والمعروف أن فيروس شلل الأطفال تزرع على كلية القردة) وقد حدث هذا التلوث فى ٧٠ ٪ من المزارع البكتريولوجية ، وكل مزرعة يثبت تلوثها يلقى بها البالوعة ، لأنه ثبت بالتجريب المعملى أن فيروس القردة S.V —40 قد يؤدى إلى تحول سرطانى فى خلايا الجسم . وهذا الكشف الجديد قد يؤدى إلى ارتفاع سعر التكلفة لكثرة ما نستبعده من المزارع التالفة . ثم سألته هل من سبيل للكشف عن طريقة أخرى لزرع فيروس الشالل غير القردة حتى تتفادى هذا الخطر أولا ، وللأقلال من تكاليف التحضير ثانياً ؟ . فأجاب أنى مطلعك على سر لا بأس من أن تعرفه . أنت تعرف أن الاجهاض فى السويد مباح قانوناً . ولذا نحن نحصل على الأجنة الآدمية الخالية من هذا الفيروس المخيف (فيروس القردة) ، ومن هناك ترسل إلى معاملنا بفلادلفيا بأمريكا حيث تحضر منها المزرعة اللازمة لنمو

فيروس الشلل وتكاثره ثم ترسل إلينا لاستعمالها للغرض الذى عملت من أجله وهو تحضير الطعم بنفقات أقل وبضمان أكثر لصحة الطفل لخلوها من فيروس القردة كما أسلفنا . إننى أؤكد لك أنه بعد عام من الآن سوف يتحقق هذا الحلم الذى طالما داعبنا .

وخرجت من عنده لمقابلة البروفيسور هنرى بونيه الرئيس العلمى لمركز الطفولة الدولى لأشكره أولا على السماح لى بهذه الزيارة ولأوصيه ثانياً بالاتصال بالبروفيسور لامى والبروفيسور ديبريه لوجودهما خارج باريس بالأجازة للأخذ بيد القاهرة فى الجمعية العمومية لمؤتمر لشبونة فى سبتمبر القادم عندما يختار الأعضاء بين القاهرة وطوكيو كمكان لعقد الدورة الحادية عشر لمؤتمر الطفولة الدولى بعد ٣ سنوات . فوجدته متحمساً للفكرة أكثر مما توقعت وقال ثق أننا جميعاً نفضل المجىء إلى القاهرة لأن العلاقات الثقافية التى تربطنا بها قديمة جداً . ولأن المسافة بين باريس وطوكيوا هى ثلاثة أمثال المسافة بين باريس والقاهرة . لقد حدثنى عديلى البروفيسور لامى ـ وزوجته أخت زوجتى ـ عن الاستقبال الباهر الذى قوبلا به فى مؤتمر الطفولة الإقليمى الأول والذى عقد برئاستكم فى مارس عام ١٩٦٠ . إننا نفضل قطعاً المجىء إلى عاصمتكم الجميلة . سوف أبلغ رسالتك إلى رئيسنا البروفيسور دبريه وهو يعرفك جيداً وأفضل أن تكتب له أيضاً للتأكيد . .

* * *

فى يوم الخميس التاسع من أغسطس ١٩٦٢ ذهبت لزيارة مستشفى (كلود برنارد) للأمراض المعدية بما فيها شلل الأطفال ، فاستقبنى هناك الأستاذ (فيك ديبونت) وهو مثل للأستاذ من حيث الخلق . فالأستاذية خلق قبل كل شىء ، أما العلم ففى رؤوس الجميع . وكانت طريقة استقباله وملازمته

لى لحظة بلحظة دون كلل أو ملل مثلا يحتذى . وأعجبنى أن كل أعضاء هيئة التدريس يرتدون معاطفهم البيضاء طول مدة عملهم بالمستشفى . قارنت هذا بما يحدث فى قسمى وفى معظم أقسام كليات الطب عندنا حيث أصبح لبس الرداء الأبيض عند الأطباء شيئاً مستغرباً . حتى صغار الأطباء أصبحوا يمشون فى تأنق عجيب بملابسهم العادية فى طرقات المستشفى مما سيضطرنى أن أبدأ بنفسى منذ الموسم الدراسى القادم لعلى أكون قدوة لأبنائى وتلاميذى .

وبعد ذلك ذهبت لتناول الغذاء فى ضاحية سان جرمين أون لاى مع صديق فرنسى . وكان ذلك فى فندق هنرى الرابع حيث ولد لويس الرابع عشر ملك فرنسا وجلسنا على شرفة تطل على واد أخضر من أبدع ما وقعت عليه العين . وفى طريق العودة مررنا على المنحنى الذى قتل عنده على خان فى سان كلو ووجدتنى أقرأ الفاتحة على روحه بينما كان صديقى يقص على قصة مصرعه ، وأنه كان يسوق ببطء زائد عند المنحنى عندما صدمته سيارة معاكسة كانت تجرى بسرعة كبيرة ، وهكذا القدر .

وذهبت عقب تناول الغذاء إلى مستشفى ريمون بوانكاريه أو (الجارش) كما يسمونه ، وهناك رأيت معهداً على أحدث طراز لعلاج شلل الأطفال ، واعتقد أنَّه من أعظم ما رأيت فى زياراتى . ويا ليت العين تقر فى القريب العاجل برؤية مستشفى على مثل هذا الطراز فى بلادنا .

واختتمت أيامى فى باريس بجلسة على مقهى (الكافية دى لابيه) حيث عثرت مصادفة على الصديق اللواء أحمد خورشيد رئيس مجلس إدارة فنادق وجه قبلى — ونحن دائماً نتقابل مصادفة فى أوربا ، إذ أننى عثرت عليه مصادفة أيضاً على مقهى البرج بجنيف قبل ذلك بأسبوعين فنصحنى الصديق الممتاز فى أناقته وخلقه أن أصحبه إلى مسرح الفولى برجير .

ولما شاهدت البرنامج الذى أُنفقت عليه الملايين والذى بلغ درجة الإعجاز فى الفن والإخراج ، حمدت للصديق أحمد خورشيد إقتراحه وقلت هذا شىء كان يجب أن أشاهده قبل مغادرة باريس .

ومن الطائره الكارافيل التى أقلتنى إلى لندن نظرت إلى باريس الجادة اللاهية فى نظام وتنسيق عجيبين وهتفت فى تصميم عجيب : وداعاً إلى لقاء !

— ٣ —

تعددت زياراتى لإنجلترا بعد الحرب العظمى الثانية ، وكنت أقضى معظم أيامى بلندن أجوس خلال آفاق البحث العامى . وفى صيف عام ١٩٦١ تاقت نفسى إلى زيارة الريف الإنجليزى الذى أحمل له أجمل الذكريات منذ كنت طالباً بالبعثة خلال عامى ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ لذا صممت أن أزور ابن عمى الدكتور لطفى الديوانى الذى يقيم هناك بصفة دائمة بقرية هارولد بارك التى تبعد عن لندن بأقل من ساعة سفر بالقطار كانت إقامتى فى الريف الإنجليزى لمدة ثلاية أيام كاملة فى رحلة هذا العام أكبر دافع لى على دراسة صميم المجتمع الريفى الذى يسعى رئيسنا جمال عبد الناصر للوصول بالفلاح المصرى إلى ما يقرب من مستواه . . ولو تخيلنا الجو الإشتراكى المتطرف الذى يعيش فيه الشعب الإنجليزى لأدركنا أننا لا نزال نتمرغ فى رفاهية نحسد عليها . ما سألت انجليزيا لماذا لا تأتى إلى القاهرة لتقضى أجازتك فى شمسها الدافئة ، إلا وقال لى وهو يبتسم راضياً :

— ليس عندى نقود .

وأقول (راضياً) لأن الدولة تمتعه بقدر ما تأخذ منه من علاج مجانى وتعليم لا يكلفه شيئاً ، مع تحديد فى أسعار حاجات المعيشة ورقابة عليها . وتتكفل الحكومة بدفع فرق السعر فى بعضها ، وكلها أشياء نتمتع بمعظمها فى بلادنا ويشعر بها كل من سافر إلى الخارج وقارن بين أسعار الأشياء هنا وهناك . لماذا أشترى

أنبوبة أسبيرين (باير) فى ألمانيا مثلا بما يوازى قيمة ريال مصرى وهى فى الأقليم المصرى بسبعة قروش ؟ . أن هذا بالطبع يرجع إلى حزم وزارة التموين عندنا وحرصها على مصالح الشعب . إن مستوى أسعار المعيشة مرتفع فى أوربا وهو يتناسب مع ضخامة المرتبات هناك . لا تحسدوا الزبّال الذى يتقاضى ستين جنيها فى الشهر مثلا لأنه يصرفها عن أخرها . أنه يعيش فى منزل به ثلاجة كهربائية وفرن كهربائى وراديو وتليفزيون ويرزح تحت عبء أسعار الحاجيات الضرورية . أقول : لا تحسدوه على مرتبه ، بل إحنوا رؤوسكم لنظام الحكم الإشتراكى الذى وصل به إلى هذه الدرجة . أن رئيسنا جمال قد حبس نفسه فى قمقم الزهد لا يرى شيئاً من مباهج الدنيا حتى لا تبعده قيد أصبع عن رسالته فى سبيل العامل والفلاح . يقيم ابن عمى الدكتور لطفى الديوانى فى قرية (هارولد وود) من ضواحى لندن منذ عشر سنوات ، ويشرف على علاج ألفى عائلة إنجليزية فى أمانة ودقة ونظام جعلت منه أحسن دعاية لبلادنا بين الإنجليز . وهو وطنى متحمس ، به حنين إلى الوطن شديد ، ولو لزيارة قصير ليرعى مصالحه بعد وفاة والده المحامى الكبير المرحوم أحمد الديوانى . ولكنه يخشى — مثل كثيرين من المصريين الناجحين هناك — من تعسف إدارة الجوازات عندما يريد الرجوع ثانية إلى زوجته وولده فريد وعمله الناجح . لقد مضى عليه فى إنجلترا خمسة وعشرون عاماً عاصر فيها عهود فؤاد وفاروق ثم الثورة . ويحدثنى دائماً عن تطور نظرة الفرد الإنجليزى نحونا منذ قامت الثورة . وعندما يسأله بريطانى من أين أتيت ؟ : يجيبه من الجمهورية العربية المتحدة لأنه نخور بها .

ولقد إستضافتنى خلال إقامتى بهذه القرية سيدة إنجليزية وقور تجاوزت السبعين وكانت والدتها قد إحتضنت من قبلها الدكتور لطفى عندما ألقى عصا

الترحال فى هذه القرية النائية . وقيل له بالأمر : أعمل هنا ، ولا غير هنا. فبدأ بعائلة هذه السيدة العجوز ، وعطفوا عليه بعد أن وثقوا منه لدرجة أنها وهبته رغم فقرها – فى وصيتها مبلغ ثلاثين جنيهاً تنازل عنها لطفى لابنتها عند مافتحت الوصية . والفيلا التى تقوم فيها هذه الفلاحة العجوز (مس ماتيوز) ملك خاص لها ، وتـكاد تنطق بكل مباهج النظافة . وخصصت فيها لى غرفة نظيفة أنيقة ملحق بها حمام به لمعان وبريق لا تجدهما فى قصور غنيائنا أحيانا . . وخلف الفيلا حديقة يانعة تتعهدها بنفسها ، وتتحدث فى زهو واعجاب شديدين بين حين وآخر عما تنتجه من زهور وخضروات وفواكه قد تستعين بها على قضاء حاجة المطبخ اليومية .. وهى تحدثك فى أى موضوع كخبير لا يشق له غبار .

وخلال إقامتى فى هذه القرية برفقة ابن عمى الذى يكوّن فى منطقته حلقة من حلقات التأميم الطبى : تمكنت من دراسة هذا النظام كما يطبق فى بريطانيا .

إن الطبيب يوجه توجيها إلى المنطقة التى تختارها له الهيئة العليا للتأميم الصحى وتقسم المناطق إلى ثلاث :

أولا — مناطق محرمة : وهى المناطق التى شحنت بالأطباء التابعين لها حتى لم يبق فيها حيز لمزيد .

ثانياً — مناطق متوسطة الازدحام لا ينصحون بالذهاب إليها ، ولـكن إذا صمم الطبيب أجابوه إلى رغبته ولـكنه يحرم من إعانة مزاولة المهنة التى توهب لأطباء المنطقة الثالثة وهى المناطق التى يشجعون إرتيادها لشدة حاجتها إلى الأطباء ويمنحونهم إعانة خاصة يسمونها إعانة بدء مزاولة المهنة خلال الأربع سنوات الأولى بحيث يوصلون مرتبه السنوى دائما إلى ألف جنيه لا أقل

فيتمكن بهذا من التمتع بالمعيشة المحترمة نوعا . . وهم يعطونه بصفة عامة هذه الإعانة على الوجه الآتى :

١٢٥٠ جنيه للسنة الأولى و ٩٠٠ جنيه للسنة الثانية و ٥٠٠ جنيه للسنة الثالثة و ٣٥٠ جنيهاً للسنة الرابعة . . إلا إذا بلغ دخله ١٥٠٠ جنيه فى العام أو أكثر خلال السنة الثالثة والرابعة فانه لا يعطى أى شىء على الاطلاق . . والمقصود بالألف وخمسمائة جنيه عدد من المرضى يتناسب مع هذا المبلغ ، إذ المعروف هناك أن الفرد يدفع جنيهاً ونصف جنيه فى العام عن نفسه ومن يعولهم من زوجة وأولاد .

هذا عن الممارس العام ، أما عن الاخصائى ـ وهو غالباً فى سلك التدريس الجامعى ـ فإنه يبدأ بمرتب الف وثمانية جنيه فى العام ، حتى إذا بلغ الخامسة والثلاثين ارتفع مرتبه إلى ٢٠٠٠ جنيه إذا اقتصر عمله على المستشفى فقط ، حتى اذا مابلغ الأربعين ارتفع مرتبه إلى ثلاثة آلاف جنيه اذا اقتصر عمله على المستشفى أو إلى الفين وخمسمائة اذا سمح له بالعمل فى الخارج . والاخصائى لايعالج فى نطاق التأميم الطبى إلا المريض الذى يحال إليه عن طريق الممارس العام للمنطقة واذا كانت الزيارة منزلية تدفع له الهيئة العليا أربعة جنيهات لجيبه الخاص ، أما الكشف فى المستشفى فدون مقابل . . وللأخصائى المصرح له بالعمل فى الخارج الحق فى استقبال أى مريض بعيادته يجىء تلقائياً عن غير طريق الممارس العام ، وفى هذه الحالة لاتتكفل الهيئة العليا بشىء ، ويبلغ الأجر فى مثل هذه الحالة ثمانية جنيهات للكشف الواحد ـ وتبلغ التكاليف هذا النظام العلاجى ٨٠٠ (ثمانمائة) مليون جنيه فى العام . . ويفيد منه ٩٨ ٪ من سكان بريطانيا البالغ عددهم ٤٢ مليون نسمة ، ويشمل هذا النظام صرف الدواء مجانا مهما بلغت قيمته .

وقد انضم إلى هذا النظام العلاجى ٩٩٪ من أطباء بريطانيا البالغ عددهم حوالى ٢٠٠٠٠ عشرين ألفاً بين اخصائى وممارس عام .

ولولا ما يتمتع به أفراد الشعب البريطانى من دقة المعاملة والأمانة لفاقت التكاليف رقم الثمانمائة مليون جنيه بكثير ..

يقول لى قريبى أنه يمضى قد العام دون أن يطرق باب عيادته فرد واحد من أفراد عائلة مسجلة عنده وهى تدفع تأمينها بانتظام ، إذ ليس عندهم مبدأ (البلاش كتر منه) ...

إن تكاليف هذا النظام تزيد عاماً بعد عام ، ولا يمكن للدولة أن تتراجع فقد اعتبره الشعب البريطانى حقاً مكتسباً لأنه يضمن له العلاج الباطنى والجراحى والولادة للزوجة مجاناً دون مقابل وتحت أحسن الظروف وبروح من المساواة والعدل والاحترام المتبادل ليس لها نظير . . هذه الروح التى بهرنى تغلغها بين أفراد الشعب سواء فى تلك القرية الجميلة التى عشت فيها ثلاث ليالٍ سوياً ، أو المدن الكبرى ذات الصخب والضجيج.

وعند ما أقلنى القطار المبكر إلى لندن ، تخيلت جمهوريتنا العربية المتحدة ، جمهورية الغد بأهلها وريفها وحضرها ، على هذا المستوى العالى ، الذى شاهدته فى هذه البقعة التى تركتها بالتو . . بعد أن خرجت منها بدروس لا تحصى ..

حقق الله الآمال . .

— ٤ —

كانت زيارتى الأولى للجزائر خلال انعقاد مؤتمر اتحاد الأطباء العرب الثانى فى يوليو ١٩٦٣ . وكانت الأيام التى قضيتها هناك سعيدة حقاً ويسعد الشرقى أكثر وأكثر عند ما يرى أن هذه البقعة الرائعة التى تشعرك بأنها قطعة من

أوروبا قد عادت إلى أهلها بعد طول جهاد . وكانت إقامتى هناك مبعث وحى لتأملات ودراسات فكرية عميقة حيناً وسطحية أحياناً ولكنى لم أشأ أن أبدأ فى تسجيل الانطباعات التى طرأت على مرآة نفسى خلال زيارتى للجزائر لحضور مؤتمر اتحاد الأطباء العرب إلا بعد أن غادرتها إلى باريس على الطائرة الكارافيل التى ترتفع بك مسافة عشرات آلاف الأقدام فتشعر بنفسك وقد تحررت فجأة من قيود التحفظ نحو قوم حاولوا أن يجاملوك قدر طاقتهم ، وبطريقة تدفعك إلى التساؤل عما إذا كان لكرم الضيافة فن خاص يتقنه البعض ويفتقده البعض الآخر ؟ وهل كان لابد للجزائر أن تدخل فى دور التجربة القاسى لتبلغ الكمال ذات يوم باذن الله ، وهى التى استعبدها المستعمر زهاء مائة وخمسين عاماً فأفقدها كل شىء إلا الشجاعة والشهامة والنخوة التى اكتسحت العدو من أوكاره فاصبحوا يكرهون حتى لغته ، فاذا أنت حدثتهم بها ردوا عليك بالعربية التى هلهلها الاحتلال فلا تفهمهم ولا يفهمونك ، وتسيطر على الموقف بسمة حائرة على الوجهين تجمع بين الحيرة والاشفاق والمجاملة حتى يمر الموقف بسلام .

والضيافة فن ومران على أى حال ، ويخطىء من يدعى أن الكرم العربى لا مثيل له فى الوجود . لقد حضرت مؤتمرات فى أركان المعمورة الأربعة ، وأكدت لى التجارب أن العبرة ليست بمظاهر الكرم نفسه بل فى فن تنظيمه ، فقدم تقدم لى الطعام والشراب فى صحاف من ذهب فأعاف الطعام والشراب فلا تكاد تمتد إليهما يدى . . وقد ترضينى كسرة خبز من يد ناعمة الملمس وبسمة رضا أو إيماءة عطف تشعرنى بأننى الضيف الوحيد لاينازعنى فى الرعاية منازع ...

ولا تعجب إذا أخذنا على مؤتمر الجزائر بعض الهنات التى لابد من حدوثها فى دور البداية ولو شئت أن تسميها البدائية فلست بالمبالغ . واللوم يقع قبل كل شىء على المستعمر الذى احتكر كل نشاط فى مختلف المستويات ، فلما انسحب فجأة كانت الفجوة بين المعقول واللامعقول واسعة جداً ... وتغلبت اللامعقولية فى جميع الحالات لا فى بعضها .. حتى لقد عشنا معظم الوقت على أعصابنا ، وكان الجانب المضيف سواء فى جنبات المؤتمر أو فى المصرف أو فى الفندق عاجزاً عن تقديم أبسط وسائل التيسير على العرب الوافدين . وكنت جالساً ذات ليلة على شرفة غرفتى المطلة على البحر بفندق (آليتى) الفاخر بالجزائر . . . وكان الجو حاراً شديد الرطوبة ، وداعبتنى أحداث النهار خلال أيام المؤتمر ، وتذكرت ذات ليلة من شهر يوليو عام ١٩٥٦ عندما أعطى الرئيس جمال عبد الناصر إشارة بدء العمل فى تأميم قناة السويس ، فتقدم المهندس محمود يونس تحف به شلة من المصريين المخلصين واقتحموا الادارات وحلوا فى غمضة عين وبكفاءة نادرة محل الأجنبى المستعمر . ثم أضرب المرشدون الأجانب عن العمل ووظيفتهم هى أدق الوظائف وأكثرها حيوية فى كل العملية ، فسرعان ما تدرب جيل من المصريين قام بالعمل بكفاية إذ هلت العالم وأغاظت الدول الطامعة مما دفع إلى الأعتداء الغاشم الذى خذله الله والله خير الحافظين . وهكذا المصرى دائماً لم تتغير فكرتى عنه أبداً . مخلوق من أذكى مخلوقات الله تعالى ، فهو سريع التأقلم ، ما وجهته نحو أفق جديد إلا طاوعته خميرته الأصيلة المشبعة بماء النيل الخالد منذ بدء الزمان فيسير على الدرب دون تردد أو التواء . ولقد استعمرنا الأتراك قبل الإنجليز مئات السنين فلم يتمكنوا من إحلال التركية محل العربية بل إضطروا هم أن يتكلموا العربية بطريقتهم المضحكة التى كانت على مر الأيام

موضع الدعاية والتندر . وإضطر الإنجليز خلال سبعين سنة أن يلبس الطربوش ويرطن باللغه العربية قدر إمكانه شاكراً مشكوراً . وحاول كل هؤلاء أن ينالوا من عروبتنا فما تمكنوا . ويرجع كل هذا إلى إصالتنا فى القومية العربية . فقد عاصرت كل هذه الأجيال أقوام فدائيون جبلوا على حب الوطن والمحافظة على التراث العربى ،وكانوا على مر الأيام بمثابة جيوب مقاومة لم تمكن الإستعمار من الاستقرار أبداً حتى إضطرته الكراهية التى توارثتها الأجيال أن يحمل عصاء على كتفه ويرحل لقد تعجبت فعلا وقد مضى حوالى العام على إستقلال الجزائر أن تصدر النشرة الرسمية للمؤتمر الطبى وقد كتبت على الصفحة الأولى منها تاريخ عقد المؤتمر هكذا :

28 جويليه — 3 إغوسطس

هكذا بالأرقام الإفرنجية والأحرف العربية مما يشعرك فى كل صفحات النشرة إن آثار الإرستعمار مازالت قائمة ومثل تلك الآثار الإستعمارية يجب أن تنمحى من لوحة الجزائر فى أقرب وقت وهى تخطو خطوات حثيثة نحو التعريب ثم نحو العروبة بإذن الله .

إنتهت خواطر الطائرة ، وهاهى ذى باريس تبدو من الجو جنة نضرة ، وأرى وسط معالمها قوس النصر وبرج إيفل وكنيسة الساكركير وكل المعالم المألوفة لهذه المدينة الخالدة . سرت الهوينا ذات صباح من الفندق الذى أقيم فيه فى حى ألما بباريس واجتذبنى مقهى أنيق على ناصية ميدان ألما وشارع جورج الخامس الذى يؤدى إلى الشانزليزية فى الطرف الآخر . وإحتللت منه طاولة أنيقة . وبعد أن إستقربى المقام تقدم منى الندل فى أدب جم فطلبت منه زجاجه

(إفيان) فأحضرها مثلجة مشهية ، وأخذت ارتشف منها فى تلذذ ، فإنا الآن فى جنة الراحة من عناء أعمالى ومن صراخ أطفالى الذين يملأون جنبات عيادتى طوال العام، وكم كان جميلا من الدولة أن تسمح للأطباء أن يمضوا أجازتهم بأوربا فتستريح أجسامهم وهم المرهقون طوال العام ، والتى زادت إقامتهم القصيرة بالجزائر من أرهاقهم . لقد قابلتهم فى كل مكان : أنور المصرى وحرمه عند برج إيفل ، وهما فى أعلى درجات السعادة . . . صادق فوده ، وعثمان سرور وعدلى يس وعلى عبدالعال وعبد السلام البربرى وزوجاتهم اللاتى يشرفن أى دولة متمدينة ، يتجولون فى أنحاء المدينة لزيارة معالمها التاريخية. رأيت أيضاً جميل والى ، وعبد الفتاح عبدالعظيم ، وخليل ميخائيل : وقد بدت على وجوههم علامات الصحة كنتيجة حتمية للراحة بعد عناء العام . وكلهم يشيدون بإنتصار المعقولية على اللامعقولية وكانت تصمم فى مبدأ الأمر أن تأخذنا الطائرة : (هيلة بيلة) من القاهرة إلى الجزائر ثم ترجع بنا (هيلة بيلة أيضاً) من الجزائر إلى القاهرة ، وكأن بيننا وبينها ثأراً . وياويلنا لو حدث هذا لنا بعد خروجنا من معركة المؤتمر وتجربتها القاسية . وأنشودة الشكران التى لا أمل فى ترديدها كل عام لا بد أن أبدأها هذه المرة من إدارة الجوازات والجنسية فما لا شك فيه أن تطوراً كبيراً حدث فى عقلية هذه الإدارة فأصبحت لا تقل فى مستواها عن مثيلاتها فى أى بلد متمدين . فالابتسامة المهذبة هى القاعدة فى معاملة الناس من مختلف الدرجات والجنسيات وأصبح مكتب ضابط الاتصال مكان رحمة وتفاهم. أمين المكتب حسن رستم يستقبلك فى ابتسامة تجعل مشكلتك تحل قبل أن تدخل الحصن الأخير الذى يشرف عليه ضابطان أنموذجيان من أرق الناس هدوءاً وأدباً ، لم ألحظ ملامحهما أى أثر للإرهاق أو الضيق أو الملل رغم العبء

الثقيل الذى يصل معظم الوقت إلى درجة الضنى ، إن الضابط مخلوف ونائبه عصام الرمالى تدهشك منهما روح المواساة إذا تعسرت مشكلتك ، ومظاهر الانشراح التى تبدو على محياهما إذا وجدا لمشكلتك حلاً أصبح بابهما مفتوحاً لكل شاك أو باك ، وما أكثرهم فى إدارة الجوازات . . وإذا حال الشاويش مصطفى وزملاؤه دون دخولهم فقد تلمح من مخلوف أو عصام إشارة الإذن بالدخول فى أدب وتقدير لظروف كل مواطن .

كذلك اختفت بدعة كشط ولا أقول شطب أسماء البلاد من جواز السفر لتحديد تنقلاتك مما سبب لنا فى كثير من الأحيان حرجاً أمام زملائنا من البلاد الأخرى ، بل كثيراً ما توقف موظفو المطارات فى مختلف بلدان العالم ناظرين فى تعجب لهذه الظاهرة وإنَّ تطوير العملية لهذه الدرجة قد حفظ للمواطن كرامته داخل البلادو خارجها ، ونحن قد وصلنا إلى درجة من الاستقرار تحسدنا عليها كثير من من الأمم ، لذلك نطالب المزيد من تسهيل عملية الدخول والخروج .

وفى الجزائروجدت السفير على خشبة يبحث عن أعضاء الوفد المصريين ليتأكد من أن أحداً منهم لم يقع فى ورطة مالية بسبب بطء اجراءات البنوك هناك ، ماداً يده فى سخاء عجيب مؤكداً شهامة الرجال . ولقدأقام حفلة استقبال كبرى دعا إليهاأعضاء وفود الدول العربية جمعاء فرفع رأسنا أمامهم بارك الله له، وفيه .ولقداختاروا لفرانسا صديقاً قديماهو الوزيرجمال منصور وهو مثالى لم تتغير آرائى فيه منذ قابلته فى سفارة بروكسل عام١٩٥٧ فجذبتنى شخصيته وتنبأت له بمستقبل زاهر فى ذلك الحين . لقد أخذ هذا الدبلوماسى المرهف الحس يبحث وراءنا الواحد بعد الآخر حتى جمعنا فى حفل استقبال أنيق نعمنا خلاله بكرم

وضيافة زوجته الممتازة وترحيب أعوانه صلاح بسيونى ويحيى رفعت .. وحظينا خلال الحفل بلقاء بدر الدين حمدى وكيل الخزانة وحسن بلبل وكيل وزارة الخارجية فتم سرورنا بهذا اللقاء .

* * *

— ٥ —

إن تدوين الانطباعات على النفس خلال الرحلات وتصوير اللوحات التى تتوالى بسرعة خاطفة كما لو كانت أشباحاً على مرآة يجعل للسفر قيمة ولذة . أما الذى يسافر ويعود ولا يرى ولا يسمع إلا نفسه ففى إعتقادى أنه مقصر فى حق نفسه وحق مواطنيه .

كانت زيارتى الأولى لبراج عاصمة تشيكوسلوفاكيا خلال أغسطس ١٩٦٣ وقد ركبت الطائرة من لندن إلى فرانكفورت ثم ارتفعت بنا فى الجو نحو براج ، وها هو ذا قائد الطائرة التى لم تتحرك بعد ينذرنا فى مذياع بأن أخذ الصور الفوتوغرافية ممنوع منعاً باتا فى مطار براج وهذه أول مرة أسمع فيها بمثل هذا أثناء رحلاتى حول العالم ، ..

وأغمضت عينى قليلا والطائرة تصعد نحو السماء لأتجنب رؤية الأرض ونحن نعلو عنها تدريجياً — ولكن فى ثبات وتحد — وتخيلت البلاد التى مررت عليها بعد باريس ،تخيلت لندن وكيف سبرت غورها كعادتى كل عام . وكنت كلما رأيت الاحترام الذى يتمتع به المواطن فى المستشفيات وغيرها من مرافق عامة ، وكيف يحافظ هو الآخر على التراث الذى سلمته إياه الدولة حقاً حلالا له ولغيره من مواطنيه . .

ورأيت الدكتور مصطفى خليل وزير المواصلات وقد جمعتنا جلستان عائليتان بمنزل الوزير سميح أنور ثم المستشار زكى أبو النصر ، وقد اطمأن على صحته بعد استشارة الأطباء بحمد الله فبدا متورداً مرحاً بسيطاً كما عهدته دائما فى الصديق القديم . وبدا الخلق الجامعى الأصيل فى الصديق الدكتور أحمد محرم وزير الإسكان فى ذلك الوقت عندما قابلته فى مكتب البعثات ، يمر على مكتب وكيل البعثة الدكتور مصطفى الحفناوى قبل أن يدخل على مديرها الثقافى محمد فتحى . وجلسنا نتبادل الذكريات خلال هذه الفترة وتخيلت الأيام الخوالى وما كان يحدث فى رقم ٤ بحدائق شترفلد فى لندن ..وهو عنوان مكتب البعثات اذا دبت على عتبته قدم وزير . . لقد دخل الدكتور محرم وبصحبته مدير مكتبه الباسم الدكتور عبد الرحمن الكاشف دون أن يشعر بهما احد ، وخرجا فى سكون بعد أن أديا مهمتهما التى جاءا من أجلها . . وقد وفد على لندن أيضاً السيد خالد محيى الدين لعلاج ابنته ، وتقابلت معه فى غداء عند السفير محمد عوض القونى .. وفى عشاء الوزير سميح أنور ، وهو يشعر بالحنين إلى الوطن بعد غيبة أيام قلائل ، وله كل الحق فهناك الأهل والأصدقاء والأحباب والمعيشة السهلة الهينة التى لا مثيل لها فى الوجود .. وهناك السرير الحبيب القديم الذى يحتويك فى حنان بوسادته التى لا تصيب عنقك بملخ أو ألم لفرط طراوتها فى فندق ما ، أو شدة تيبسها فى فندق آخر .

وتترك لندن لتتسلمك هامبورج ببرودها ومطرها ورعدها وبرقها ، ولا يعزيك فى كل هذا سوى شعورك بالغبطة لإزدهار هذه المدينة عاما بعد عام ، والثراء الفاحش الذى أسبغه الله على أهلها جزاءاً وفاقا لجدهم واجتهادهم وإخلاصهم لله وللوطن وخاصة لو لقيت فيها الرفيق الغالى ممثلا فى أشخاص عبد المنعم الطحاوى ، القنصل العام ، ونائبه عزيز محرم فهيم ، ورجل الأعمال نبيل الديوانى ابن أخى .

وكأننى كنت على موعد مع رائدة الفضاء السيدة فالتقينا فى مطار براج . فقد أعلن قائد الطائرة قبل وقوفها بقليل أن المهرجان الذى سوف نشاهده فى المطار مقام لمناسبة هذه السيدة المعجزة لتشيكوسلوفاكيا . وبعد نزولى من الطائرة رأيت القوم وقد وقف صغيرهم وكبيرهم فى نظام عجيب — ياليتنا نُبْتَلَى به يوماً ما ! — وقد أمسكوا بأعلام صغيرة تمثل الوطن التشيكوسلوفاكى ، يلوحون بها مرحبين دون تصفيق أو هتاف . وكان وصولنا فى الساعة الثانية عشرة ظهراً ، وكان موعد مغادرتها المطار فى الساعة الواحدة ، ففضلت أن أتلكأ مدى هذه الساعة حتى أقبلت تتهادى فى وقار واتزان ، وكانت أنيقة فى ملبسها المنسجم مع قوامها المتناسق المشدود ، وكانت تقاطيعها الجميلة وابتسامتها المتواضعة تكفى لأن تجعل منها ملكة جمال . فما بالك وقد تُوِّجت فوق هذا كله ملكة للفضاء ؟ .

ثم اعتلت سلم الطائرة ووقفت على بابها برهة غير وجيزة ، تلوح بيدها اليمنى وقد أمسكت بيدها اليسرى باقة كبيرة من الزهور اليانعة . . ولما أغلق عليها باب الطائرة سألت الله لها السلامة من قلبى . .

وما كدت أستدير راجعاً حتى فوجئت برؤية الأخ محسن عبد الخالق وزيرنا التجارى فى لندن ، وقد جاء يستروح من عناء الأعمال مع زوجته الكاملة نهى الدمرداش ، والسكرتير التجارى ببراج عادل الجارحى ، والمستشار جمال ثابت ، وقد جاءوا ينتظرون وصول الطائرة التى يستقلها بدر الدين حمدى وكيل المالية الذى جاء إلى براج ليعمل كعادته دائماً . وفى المساء جمعتنا كلنا مائدة سعيدة فى فندق اسبلاناد الذى نقيم فيه ، وانضم إلينا محمد عبد السلام حسن وكيل التموين وهو فى بعثة دراسية لهيئة الأمم المتحدة ، والسيدة حرمه ، والملحق العسكرى حسن السيد ، وما أروع خلقه

واتزانه ، وعادل الجارحى وحرمه الممتازة . . والمستشار العمالى أحمد فهيم . .
وكان حديثنا عن جمال هذه البلاد التى يعيشون فيها وعن تقدمها وازدهارها
من جميع النواحى ، وعن الصداقة التى يكنونها لبلادنا وشعبنا ، وتحدثت
أنا عن التقدم الهائل الذى لاحظته فى العناية بالطفل عند ما مر بى صديقى
الأستاذ هوستك على أقسام المستشفى ، وكيف أن فى براج كلية طب خاصة
بالأطفال ولا علاقة لها بكلية الطب العامة ، وقد نجحت حملة التطعيم ضد
شلل الأطفال بواسطة طعم سابين عن طريق الفم . . ويعطى لغاية سن
الخامسة عشرة من العمر . . وكانت النتيجة السعيدة أنه لم تحدث حالة شلل
أطفال واحدة خلال الثلاث السنوات الأخيرة فى تشيكوسلوفاكيا . . .
وهذا فى نظرى عنوان التقدم فى العناية بصحة الطفل .

وكان يوم الرحيل ٢٥ أغسطس عاطفياً مشهوداً يوم فوجئنا فى الصباح
المشمس المزدهر بالأخوة الأعزاء عادل الجارحى ، وحسن السيد الملحق
العسكرى ، وأحمد فهيم ، ومحمد شكيب يجندون سياراتهم لحملنا وأمتعتنا مع
الأخ محمد عبد السلام حسن ، واصطحبونا إلى المطار . . وهناك فوجئنا مرة
أخرى بالسفير الممتاز محمد كامل الرحمانى ينتظر وصولنا بالمطار فى هدوئه
ورصانته العجيبين مرحِّباً مودِّعاً . .

وأغرورقت عيوننا بالدموع جميعاً عند الوداع ، ففى بلاد الغربة تتقارب
القلوب بعدد الثوانى لا بعدد الأيام . . والحمد لله الذى وهب مواطنينا حبهم
لبعضهم البعض مما نفخر به فى الدنيا ونستأنس به فى الآخرة . .

لقد عشت فى براج خمسة أيام ، تلك المدينة العريقة التى لا تمل الإقامة
فيها ، وقد حضرت إليها بدعوة من إحدى الهيئات هنا ، وكنت متهيباً

فى بادىء الأمر لوقوعها خلف الستار الحديدى ، ولـكنى وجدتها نافذة مُشرِّفة لهذا الستار . تقدم فى كل النواحى ، دماثة فى الأخلاق ، رضا وسماحة . . إقبال لا مثيل له من هواة السياحة من جميع أنحاء العـالم يعيشون أيامهم القلائل هناك فى سعادة وغبطة . أسعار محددة . وكل شىء ضرورى فى متناول اليد . لا أثر للبطالة هنا بل يشتغل الزوج والزوجة والابنة ليسدوا حاجة البلاد إلى الأيادى العاملة .

عقد أثناء إقامتى هنا المؤتمر الدولى الثانى لعـلم الأقربازين ، وحضره ثلاثة آلاف طبيب من جميع أنحاء العالم . . اطلعت على برنامج المواد التى ألقيت فيه ، فوجدت الروعة وعلو الـكعب ، وأسفت لأننى كنت أتمنى لو حضر المؤتمر كل المختصين بهذا النوع فى مصر ليرضعوا لبن العلم والمعرفة . . ولم أعثر هنا إلا على الأستاذ الدكتور محمد أمين خيال ، وقد سمح له بالخروج على أساس زيارة ابنه فى لندن .

وكانت الهيئة التى دعتنى قد نصت فى خطابها على أنها اشتركت لى فى مؤتمر أمراض الـكلى الدولى المنعقد فى براج ضمن برنامج زيارتى التى تـكفلت بنفقاتها مشكورة فما كاد المختصون يلمحون كلمة (مؤتمر) حتى حدث هرج ومرج ، وقالوا : يجب أن تصلنا موافقة مجلس الـكلية ومجلس الجامعة ووزير التعليم العالى قبل أخذ التأشيرة ، وهذه إجراءات تستغرق شهرين . . وقد وصلتنى الدعوة قبل ميعاد سفرى بأسبوع . . فوعدت صديقين بالمباحث العامة بأننى سأقتصر على زيارة المستشفيات ، وكتبت تعهداً بأننى لن أحضر المؤتمر — وذلك رغم أننى كنت حاصلاً إذ ذاك على تأشيرة الخروج ـ فقبـلا مشكورين هذا الحـل الوسط ، وأخذت التأشيرة .

وفى ذات يوم أشرقت شمسه ، كنت أسير فى شوارع براج ومررت بمكان انعقاد مؤتمر أمراض الكلى ، فلمحت الوافدين إليه من جميع أنحاء الدنيا يضعون الشارات على عروات ستراتهم فى غبطة وسعادة الوافد من بعيد للإفادة والانتهال من موارد العلم والمعرفة .

وكدت أخطو نحو السلم لأرى فقط ما يجرى هناك ، ولكننى تذكرت الوعد الذى قطعته على نفسى ، وانصرفت آسفاً ، وفى القلب غصة وفى العين دمعة تترقرق كما تقول الأغنية : شفت الفرح والهنا وشربت كاس الضنا

عند ما ندب الفتى حظه العاثر ، وهو يرى أضواء حفلة عرس حبيبته .

ولما قصصت قصتى على السفير الوديع المهذب محمد كامل الرحمانى ونحن جلوس إلى مائدة غذاء بفندق الكرو ، تكرم بدعوتى إليه مع المستشار الثقافى محمد شكيب ، قال لى بهدوئه المحبوب : (إن كلمة الشرف تقتضى منك هذا بكل أسف) .

فلعل فكرة حضور المؤتمرات الدولية — كمؤتمر الجزائر مثلا — تلقى قبولا لدى ولاة الأمور . . فهى ليست لهواً ، بل إنها مضنية وفيها صقل وعلم واطلاع واتصال . . وهذا ما تمنته معى السيدة روحية خيال ، وكانت هناك مثلا طيباً للمرأة المصرية .

— ٦ —

تعددت زياراتى لأسبانيا ، وهى من البلاد التى يحن إليها مزاجنا الشرقى ، ومهما حدثتك عن جمال هذه البلاد فإن ما يجذبك إليها شيئان : مصارعة الثيران ، وموسيقى الفلامنكو . أما مصارعة الثيران فهى الهواية الكبرى لهذا الشعب العاطفى الثائر ، والماتادور ، أو فارس الحلبة ، هو معبود الجماهير ، وإذا مسه سوء بكاه الجميع ، وألفت الأغانى فى رثائه وأقبل الناس على شراء تسجيلاتها احتفاظاً بالذكرى .

ولقد سمعت فى أسبانيا ذات يوم قطعة أسبانية غناء المغنى الأسبانى الأشهر (فاريفا) فى رثاء الماتادور (مانوليتى) الذى قتـل فى بلدة ليناروس بجوار قرطبة . ويحكى أن الثور بطل القصة بدأ مقهوراً مغلوباً على أمره فبينما هو يترنح استدار الماتادور ليتلقى تحيات الجماهير الهائجة الهاتفة ، فإذا بالثور يصحو فجأة وكأنها صحوه الموت ويندفع نحو جلاده ويطعنه بقرنه طعنة قاتلة فمات الإثنان فى وقت واحد . وكان مانوليتى معبود الجماهير فصورته على المراوح والمناديل وأغطية الرأس وقد عملوا من منزله متحفاً ومزارا بعد موته .

هل تعتقد أن قتل الثور بطولة حقاً ؟ إنى أعتقد أن بطل المعركة الحقيقى هو الثور . أنه يحبس فى الظلام مـدة يومين قبل اطلاقه فى الحلبة الصاخبة ، فسرعان ما يتسلمه أربعة من المصارعين يداعبونه بعباءاتهم الحمراء فإذا استجاب لمداعباتهم بالهجوم ثبتت لدى المراقبين صلاحيته فتصدع الموسيقى بمارش خاص يدخل بعده ثلاثة من الفرسان راكبين جيادهم المطهمة والمحمية بأردية ثقيلة لا تصل إليها قرون الثور ، وفى يد كل منهم عصاة طويلة فى آخرها سلاح قاطع مدبب ينخسون به الثور نخسا حتى تسيل دماؤه لأول مرة فى المعركة و يـسُمون هؤلاء الفرسان (بيكادور) ويتناوب الفرسان الثلاثة كل يطعن فى مغمز والثور يقاوم مقاومة الأبطال فطوراً يهجم على الحصان وراكبه فيلقيهم على الأرض وما يكاد يأخذ بخناقهم حتى يهجم عليه الفرسان الأربعة بأرديتهم الحمراء فيشغلونه عن زميلهم المقهور ثم تضرب الموسيقى ثانية مؤذنة ببدء عملية رشق الأسهم الثمانية (البنداريلا) فى جسم الثور وهى عملية تحتاج إلى رشاقه وحسن تصويب من المصارع . وفى كل مرة يصيب المصارع تهتف الجماهير قائلة « اورى ! ! » « وما تـكاد تنتهى هذه العملية حتى يدخل المصارع الأكبر الذى يضرب الضربة القاضية بسيفه فتهتف الجماهير وتهـلل متعجلة

البطولة الزائفة ضد حيوان فى حكم العدم يقطر الدم من كل أجزاء جسمه ، فيأخذ المصارع فى تدويخه ومحاورته وفى كل مرة تهتف الجماهير هتافها التقليدى « اورى!! » وأخيراً يقف أمام الحيوان الذليل المنهلك ويصوب سيفه إلى مقتل فإذا خاب أعاد الكرّة مثنى وثلاث ورباع حتى يقع الثور مغلوباً على أمره .

والظاهرة الغريبة التى لاحظتها هى أن الجماهير تصفق بحماس للثور القتيل وهو يجر خارج الحلبة إذا كان قد أجاد وتصفر له فى استهزاء وهو جثة هامدة إذا لم يعجبهم كمقاتل ، وفى كلتى الحالتين لا يملك المسكين وهو جثة مدلاة اللسان لا حياة فيها أن يرد على تحيات المشجعين أو صفير الساخرين .

ويخرج الثور من الحلبة مجرورا إلى عربة صغير تجرها ثلاث جياد مطهمة وقد علقت الجلاجل فى رقبتها فتحدث أثناء دخولها وخروجها أصواتاً كأنها زغردة النساء فى يوم الفرح ،ويؤخذ إلى ركن رهيب من الملعب حيث تفصل رأسه وهو البطل منذ لحظات قلائل ببلطة عملاق ويسلخ جلده ، ويعلق من رقبته تماماً كما يحدث مع زملائه فى محلات الجزارة ، ثم يباع لحمة لفقراء المدينة بثمن بخس دراهم معدودات .

* * *

أن المستمع إلى الموسيقى (الفلامنكو) يشعر أنه يعيش فى جو شرقى بحت ولقد قصدت إلى نادى السامبرا وهو الذى من أهم أغراضه المحافظة على التراث القديم من الموسيقى الأسبانية ، والدخول إليه بتذاكر محدودة يجلس أفراد التخت كما هى العادة عندنا يتوسطهم مغن مجرد من الآلات إلا صوت رخيم يطلقه بعد أن يضع يده أو يديه على خده وتجيب عليه من آن إلى آخر آلة موسيقية تشبه المستعملة فى بلادنا إلى حد كبير ، فضلا عن ضابطات الإيقاع تصفقن بأيديهن فى توافق عجيب يتمشى مع جو الأغنية . ثم تقوم إحداهن فترقص رقصة « الفلامنكو » ، وفى هذه الرقصة يكون الراقص خلالها مرفوع

الرأس شامخ الأنف ثابت الصدر والبطن والوسط فلا يهتز منه إلا الفخذين والساقين والذراعين واليدين وهما ممسكتين بالصاجات يرسلن منها من الإبداع ألواناً . ويستمر الرقص عنيفاً حتى يصل إلى قمة معينة تقف معها أنفاسك فى نفس الوقت الذى ينهى الراقص فيها رقصته بطريقة فجائية تتلذذ منها نفسك المشدوهة .

والشعب الأسبانى موسيقى بطبعه . ما سمعت شخصاً عادياً يغنى فى الشارع أو المقهى أو فى وقت فراغه إلا وخرجت الأنغام من حنجرته منسقة دون نشاز وفى شعور غريب بالطرب حتى يكاد ينسى نفسه . أن مهمة مكتشفى المواهب فى بلاد كاسبانيا يجب أن تكون صعبة للغاية فإنهم لن يدروا من يختارون ومن يتركون . أما فى بلادنا فالمهمة أسهل بكثير !

ومما هو جدير بالذكر أن مقدمة برنامج ما يطلبه المستمعون فى إذاعتنا هى المارش الذى يعزف فى بدء معركة الثيران (مارش الماتادور) . وفى كل مرة كنت أسمع فيها هذا اللحن كنت بالتبعية أحن إلى الوطن الحبيب السهل اللين الذى لا مثيل له فى الوجود .

لقد سبق أن قلت أن هذا الشعب فنان بطبعه ، ولم أسمع فى صوت أحد أفراده نشازا إذا غنى بصوت خافت أو مرتفع مما يدل على قدرة متأصلة فى نفسه على صياغة النغم قبل إخراجه من حنجرته ، فاخراج النغم على الوجه الصحيح تحتاج إلى عوامل ومواهب شتى .

— ٧ —

لقد زرت لشبونة عاصمة البرتغال مرتين الأولى فى عام ١٩٦٢ خلال انعقاد مؤتمر الطفولة الدولى العاشر والثانية فى عام ١٩٦٣ خلال انعقاد مؤتمر أمراض الدم الأوروبى التاسع وشاهدت مصارعة الثيران فى المرتين والفرق بين الطريقة الأسبانية والبرتغالية ، أنهم فى البرتغال لا يقتلون الثور ، ولكن المتادور يتقدم

نحو الثور فى كبرياء وتحدٍّ وقد أبرز صدره إلى الأمام وسار خلفه حوالى العشرة من زملائه ليحموا ظهره ثم يهجم الفارس وهو يمسك بقرنى الثور ويحتضن رأسه بينما يخفضها نحو الأرض ، والثور يقاوم وقد يفلح فى إلقاء خصمه إلى الأرض هاجماً عليه بقرنيه لولا أن يسعفه رفاقه بمعا كسة الثور بشيلانهم الحمراء ليبعدوه عن زميلهم . وبعد انتهاء هذه المعركة المثيرة تدخل ست من أناث البقر وقد علقت برقابهن أجراس صغيرة تحدث صوتاً نشازاً ، بينما يحاولن الإحاطة بالثور المرهق المنهك ، وذلك فى إغراء الغانيات فى ليلة العرس أو ساعة الوصال، فينقاد لهم الثور فى استسلام وأمل أن تكو فى انتظاره ليلة من ألف ليلة ، ولكن الواقع أن سكين الجلاد تنتظره فى الخارج بعيداً عن أعين الجماهير . .

* * *

الواقع أننى زرت البرتغال ثلاث مرات ، كانت الأولى زيارة عابرة وكنت عائداً من نيويورك فى شهر سبتمبر من عام ١٩٥٩ بعد أن انتهت أعمال مؤتمر الطفولة الدولى التاسع الذى عقد فى مونتريال بكندا فى شهر أغسطس من ذلك العام . وكان على أن أسافر فى نفس اليوم إلى مدريد ، واتصلت تليفونياً بالصديق صلاح علوبة مستشار السفارة فى ذلك الوقت ، وقضيت معه ومع زوجته الممتازة كريمة صديقى المستشار بديع الدخاخنى سويعات جميلة وتناولت معهما الغذاء بمطعم أقيم فى قصر قديم على مرتفعات الأستوريل بلشبونة ، ثم أخذونى فى سيارتهما إلى المطار لأستقل الطائرة إلى مدريد . وكان بينى وبين مدريد ثأر قديم . فقبل عام من هذا التاريخ حضرت المؤتمر الدولى لأمراض القلب ببروكسل وقد تمتعت فى هذه الآونة بصحبة الدكتور محمد رضوان قناوى الذى كان وفاته فى سن مبكر وهو فى أوج شهرته صدمة كبيرة لجميع أحبابه . وكنا نقضى معظم أوقاتنا بعد الفراغ من أعمال

المؤتمر سوياً وكانت تصحبنا أحياناً زوجته الوفية نعمت زكى على، فتضفى على المجلس ما عهد فيها من المرح الوقور. وكثيراً ما كنا نرتاد مطاعم السمك التى اشتهرت بها بروكسل. وكان رحمه الله من أوفى الأزواج فكان أينما رحل يصحب زوجته وأولاده مرفت ومهجة ومحمد ومحمود، وتصادف فى ذلك العام أن أقيم معرض بروكسل الدولى الذى هز العالم بأسره. وكنا إذا رسينا على أحد مطاعم المعرض طلبنا سندوتشات ومياه غازية مثلجة لا تسمن ولا تغنى من جوع، دفع الدكتور قناوى لنفسه ولأولاده راضياً قانعاً مختاراً ما لا يقل عن عشرة جنيهات مصرية. فقد كان استغلال السائح هو القاعدة المتبعة وقد سمحت بها الحكومة لتزيد من قوة الإدخار عند فرد الشعب. وكنت إذا دخلت إلى دورة المياه فاجأتك قائمة بالأسعار فوق رأس آنسة رائعة الجمال بالغة الأناقة تنبئك بتسعيرات غريبة فى نوعها فالتبول بعدد كذا من الفرنكات، والتبرز مقابل كذا، وغسل الوجه فقط مقابل كذا وهكذا، مما كان موضع تنادرنا طول مدة إقامتنا فى بروكسل. وأذكر أننى زرت الدكتور حسنى عياد فى المنزل الذى كان يقيم فيه ببروكسل وجلست مع ربة البيت الذى أواه فى هذا الخضم المزدحم الذى جعل بروكسل تشبه فى ازدحامها يوم الحشر.. وأخذنا نتحدث فى كل شيء وأطريت بلادها وكرم أهلها. وكانت تبدو فى حديثها مهذبة راقية وخيل إلىّ لفرط الصداقة التى نبتت بيننا فى تلك الجلسة القصيرة أنها سوف تنسى المكالمة التليفونية التى استعملتها خلال حديثنا، ولكنها بروح الإستغلال التى أقسم أهل بروكسل أن يتطبعوا بها خلال أيام المعرض قالت بمنتهى الأدب وهى تودعنى عند الباب لا تنسى أنك مدين لى بمكالمة تليفونية!؟

وبعد انتهاء أيام المؤتمر ذهبت إلى المطار لأستقل الطائرة إلى مدريد ، وكانت بدعة الإنذار عن موعد قيام الطيارة بواساطة التليفزيون قد بدأت لسوء حظى لأول مرة فى مطار بروكسل ، وكنت أجهل هـذا لأن العادة جرت أن يذاع تاريخ ومواعيد القيـام بصوت واضح وبلغات مختلفة فى المذياع . فأخذت أتلـكأ فى أنحاء قاعة الانتظار دون أن أفـكر فى النظر إلى اللافتة التليفزيونية ، وفجأة نظرت إلى ساعتى فإذا بها تقترب من موعد قيام الطائرة فداخلنى الشك ، ودون تفـكير أو سؤال أخذت أجرى جرياً فى الممر الطويل الذى يؤدى إلى باب قيام الطائرة ، فراعنى أن رأيت الطائرة وقد علا أزيزها ودارت محركاتها، ووقف أحد موظفى المطار وقد أفرد ذراعيه كأنه يسد الباب فى وجهى ويقول مبتسما : سيدى ، لا فائدة ! وقد وقع لى هذا الحادث وأنا أحرص تماماً على ترقب موعد القيام بكل دقة ، وعلى الجلوس بجانب باب الخروج إلى الطائرة وأنا أنصت إلى المذياع كما فى معظم المطارات .

وكانت الطائرة قد صعدت إلى الجو حاملة متاعى فتحيرت ماذا أفعل ففـكرت فى الحال أن أعود إلى الفندق الذى يسكن فيه المرحوم محمد رضوان قناوى وما كاد يرانى ـ وكنت قد ودعته قبل اعتزامى السفر ـ حتى فغر فاه مندهشاً ولما قصصت عليه القصة قال : ملابسى تحت أمرك ، وغرفة من الجناح الذى أشغـــله تحت أمرك ! ثم أردف قائلا : نحن مدعوون اليوم للعشاء فى السفارة عند السفير حسن محرم وهو يعرفك جيداً وسوف يسر برؤيتك . وأنا ليس من طبعى مخالفة أصول اللياقة فى الدعوات ولـكنى أعتمد دائمـاً بأننى صادفت معظم رجال مصر المعروفين يوماً ما حول سرير طفل مريض ، وأن علاقاتى مع مرضاى تشوبها دائمـاً روح صداقة ومحبة متبادلة . ولما وصلنا إلى السفارة الفخمة فى شارع فرنـكلين روزفلت ، كان استقبال السفير لى مما أثلج

صدرى وجعلنى أعتقد أن حياة الطبيب فى سبيل تخفيف الآلام والاختلاط بمختلف المستويات من الناس مداوياً ومجاملا ومبادلا ثقة بحب ومودة ليست عبثاً، فالسيرة الحسنة تسبقك إلى كل مكان وتؤنسك فى وحدتك وغربتك، وأن أجمل شىء فى الحياة هى بشاشة الروح وشفافيتها ،فهى تنفذ بك خلال أى حاجز مهما بدا منيعاً ، وتصل بك إلى شغاف أشد القلوب غلظة .

وكان السفير حسن محرم كريماً جداً عندما اتصل تليفونياً بالمطار راجياً من المختصين استرجاع عفشى من مطار مدريد ، وتسلمته فعلا صباح اليوم التالى بنفسى من مركز الشركة داخل المدينة وخرجت وأنا أمسك بمقبض الحقيبة فى غلظة كأنى أقرص أذنها لتجرؤها على الذهاب إلى مدريد دونى ، وكنت أهمس لنفسى طول الوقت : لك عود يا مدريد ! لأننى تشاءمت من السفر إليها ذلك العام وفضلت أن أؤجل رحلتى إلى أسبانيا إلى عام مقبل !

هذا هو سر الثأر الذى كان بينى وبين مدريد لذلك عندما أوصلنى الأخ صلاح علوبه إلى باب الطائرة التى أقلتنى إلى مدريد تنهدت تنهيدة الارتياح وقلت لنفسى : حنانيك يا مدريد . ها قد مضت ثلاثمائة وخمس وستون يوماً بكل آلامها وآمالها لأضع قدماى على أرضك بعد أن طال اشتياقى إليك منذ تعمدت الطائرة أن تتركنى نادماً آسفاً بسبب غفلة غير متعمدة فى مطار بروكسل!

* * *

وكانت الزيارة الثانية للشبونة فى سبتمبر عام ١٩٦٢ لأرأس وفد الجمهورية العربية المتحدة لدى مؤتمر الطفولة الدولى العاشر وقد عقد هذا المؤتمر فى المدة ما بين ٩ و١٥ سبتمبر من عام ١٩٦٢ . ويمكنك أن تسميه مؤتمراً شاسعاً ، فقد حضره حوالى الأربع آلاف طبيب وفدوا من ٦٧ دولة ليستمعوا أو ليقدموا بحوثهم

التى بلغت حوالى السبعمائة بحثاً تقدم أعضاء الوفد المصريين بثلاثة عشر منها . وكان عدد الجلسات ست وخمسين جلسة رأست أحدها ، وهى الخاصة بأمراض الدم .

وقد نظم المؤتمر برنامجاً ترفيهياً ضخماً ليرفه عن الأعضاء المرهقين من تعب النهار فقد كانت المحاضرات تبدأ من التاسعة ،صباحاً وتنتهى فى الخامسة مساء ، وتتخللها فترة استراحة لا تتجاوز الساعة وكان علينا أن نجرى من غرفة إلى أخرى ومن مبنى إلى آخر فقد عقد المؤتمر فى مبنى الجامعة فكان عليك أن تجرى من مبنى كلية الحقوق إلى مبنى كلية الآداب أو إلى مبنى الإدارة العامة ، وهو يشبه مبنى جامعة القاهرة تماماًفى توزيع كلياته المختلفة .

وكان على كل منا أن يحاول بطريق الجرى أو المشى السريع أن يتجه نحو إحدى غرف المحاضرات البالغ عددها إثنى عشرة كل حسب ما يهمه ويتمشى مع نشاطه العلمى والعملى فى بلاده . وكان علينا أن نقسم أنفسنا إلى فرق هجوم بحيث يستوعب الوفد أقصى ما يمكن من المعلومات . فقلت للدكتورة نفيسة حسين مديرة قسم رعاية الطفل بوزارة الصحة مثلا عليك بتتبع كل ما يخص الطفولة والأمومة واحضرى جلسة عقار الثاليدوميد وأمثاله من أولها لآخرها مهما بلغ الإزدحام ومهما بلغت حرارة الجو وهكذا قسمنا أنفسنا فرقاً فى تضامن وتعاون كبيرين . وقد أعجبنى جداً تضامن الأستاذين الدكتور أحمد شفيق عباسى وممدوح حنفى من جامعة الإسكندرية فى التعاون والترابط العجيبين فيما بينهما . فقسما المواضيع الهامة فيما بينهما ، وكانا يجتمعان كل مساء بعد جلسات المؤتمر ليراجعا ما سجلاه من ملاحظات ليفيدا بها زملاءهما بالقسم عند عودتهما .

ومن المواضيع التى أثيرت فى المؤتمر ونالت إهتماماً كبيراً بحيث امتلأت

مدرجاتها حتى لم يكن هناك موضع لقدم رغم حرارة الجو موضوع تأثير بعض العقاقير المسكنة التى تعطى أثناء الحمل على الجنين مثل عقار الثاليدوميد، إذ لوحظت خلال عام ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ زيادة فى عدد المولودين مشوهين فى ألمانيا الغربية ، وكانت درجة التشوه ونوعها تختلف فى شدتها وهى أشدّ ما يكون إذا تناولت الحامل العقار فى الشهور الأولى من الحمل ويقل مدى التشوه كلما تأخر تاريخ تعاطيه ، وينعدم تماماً إذا أخذ فى آخر مدة الحمل . ورغم دفاع أحد مصنعى العقار – وكان موجوداً فى الجلسة – فقد تقدم المحاضرون بأدلة لا يتطرق إليها الشك على أن هذا الدواء يسبب هذه التشوهات إذ أن لها صورة أكلينيكية ثابتة تتخلص فى قصر الذراعين والساقين وضمور الأذنين أو غيابهما وفى حالات نادرة وجد قصور فى القوى العقلية . ولقد قرأت فى الجرائد الإنجليزية أثناء إقامتى فى لشبونة أن الشركة التى تنتج الدواء فى انجلترا تحت إسم (دستافان) خلال السنوات الأربع الأخيرة وهى شركة Distillers Company قد رصدت مبلغ ½ مليون جنيه استرلينى لإجراء البحوث اللازمة للتحقق من درجة خطورة هذا الدواء على من يتعاطونه، وهل هو مسئول حقاً عن كل ما نُسِبَ إليه .

***

وكان موضوع طعم الحصبة من المواضيع التى أثارت إهتماماً كثيراً . ولقد بلغ حد الكمال فى مجال التجارب وأصبح حقنه لا يؤدى إلى الأعراض الشديدة التى كانت تحدث فى بداية تجربته . إذ كثيراً ما كان يحدث إرتفاعاً شديداً فى الحرارة وأعراضاً شبيهة بحالة حصبة مخففة ولكن استمرار تحسن طرق التحضير قللت من حدوث هذه الأعراض لدرجة محسوسة وسوف يعمّم استعمالها فى القريب العاجل وبذا ينقذ الطفل من براثن مرض من أشد أمراض الطفولة .

وقد أثار أحد الباحثين موضوع الطعم المربع والمخمس أى الذى يحوى علاوة على طعم الدفتريا والسعال الديكى والتيتانوس طعوما أخرى مثل طعم شلل الأطفال أو الحصبة فى المستقبل فقد ثبت أن هذا النوع المخلوط يقلل القوة المناعية لطعم السعال الديكى الممزوج بطعوم أخرى ولذا رؤى الإمتناع تدريجياً عن استعمال هذه الطعوم المختلطة وإعطاء طعم شلل الأطفال أو الحصبة فى المستقبل القريب وحدهما دون خلطهما بأى طعم آخر .

ودرس المؤتمر فى جلستين رئيسيتين أمراض البلاد النامية وأمراض المناطق الحارة وظهر من الأبحاث التى نوقشت أن أمراض سوء التغذية وفيها مرض (الكواشيوركر) منتشرة فى كثير من البلاد الأوربية مثل إيطاليا واليونان وأسبانيا والبرتغال وبلاد أمريكا الجنوبية ، كما ظهر أن بعض أنواع فقر الدم التى وصفها وفد الجمهورية العربية المتحدة ودرس مسبباتها وأعراضها بالتفصيل موجودة فى اليونان وجنوب إيطاليا بنسبة غير قليلة ... وقد استفادت وفود هذه الدول من الأبحاث المصرية فى هذا الصدد لأول مرة . وكنت أرأس هذه الجلسة الهامة . . وقد عنى المؤتمر عناية شديدة بطرق تعليم طب الأطفال بكليات الطب حيث ثبت أن أمراض الأطفال تكون ٦٠ ٪ من الأمراض التى يقابلها الطبيب الممارس سواء فى الريف أو المدن . وأوصى المؤتمر بضرورة زيادة المقررات المخصصة لهذا الغرض .

ودرس المؤتمر مواضيع أخرى هامة فى جلسات مختلفة طرقت فيها أمراض الأطفال النفسية والعصبية وأمراض القلب والدم والغدد الصماء وأمراض الحساسية وسرطانيات الدم وجراحة الأطفال وأمراض الفيروسات . وقد ساهم وفد « ج . ع . م » فى أغلب هذه المواضيع وناقش أئمة الطب فى العالم أعضاء الوفد كل فى موضوعه، مظهرين استحسانهم وأعجابهم للتقدم العلمى الملموس ليس

فقط فى الأمراض المتوطنة بل فى الكثير من المواضيع ذات الأهمية الأكاديمية ، وكنت أرقبهم عن كثب فى اغتباط الذى رعى الزرع حتى أينع ، وأهمس نحوهم من قلبى : بارك الله فى بلد أنتم أبناؤه . .

وكان خير تتويج لأعضاء وفد الجمهورية العربية المتحدة هو اختيارى عضواً فى الجمعية الدولية لأطباء الأطفال فى الإنتخابات الجديدة ومدتها ست سنوات ضمن ثمانية من مشاهير أطباء الأطفال فى العالم ، ممثلا لقارة أفريقيا والشرق الأوسط . .

ولقد قام طاقم السفارة فى لشبونة وعلى رأسهم القائم بالأعمال عثمان أرناؤوط والسكرتيران أحمد الإبيارى وشكرى فؤاد بواجبهم نحو أعضاء الوفد على أعلى مستوى من الخلق والتعاون ، وأقيمت فى السفارة حفلة وداع كبرى لأعضاء الوفد اجتمعوا فيها بإخوانهم فى السفارة وبعض كبار أطباء الأطفال فى العالم أمثال فانكونى ومونكريف ودى سوزا رئيس المؤتمر وغيرهم فاستحقوا منا الشكر .

* * *

أما الزيارة الثالثة للشبونة فى صيف عام ١٩٦٣ فكانت لحضور مؤتمر أمراض الدم التاسع وكنت المصرى الوحيد فى لشبونة لأن العلاقات السياسية كانت قد قطعت بسبب أزمة انجولا فكنت أسير فى شوارعها الكبيرة وأنا فى أشد الزهو لأننى كعالم مصرى تغلبت على عقليتهم المستعمرة ولم يملكوا إلا أن يوافقوا على دخولى لألقى بحثى ، ولأرى بعينى المنشورات الملصقة على الجدران فى كل مكان أحدها تقول . كيف تترك أنجولا ! وثانية تقول : موزمبيق جزء منا منذ مئات السنين ! وثالثة تقول : أنجولا ليست مستعمرة ! أنها جزء من الوطن الغالى! .

وكنت أتعمد التفرس فى ملامح أفراد الشعب الغادين والرائحين فى شارع الليبرادا (أى التحرير) وهو أكبر شوارع لشبونه ، فخيل إلى أنهم يبدون غاية فى الحياد يقومون بعملهم وكأنهم لا يشعرون بسخط العالم كله عليهم لتمسك حاكمهم بالعقلية المستعمرة التى لم يعد لهـا مكان فى العقلية المتمدينة !

كان مؤتمر أمراض الدم فى لشبونة مؤتمراً عملاقا حضره الأئمة المشتغلين بالنواحى الغامضة فى هذا الفرع يبحثون عن المجهول - وما أكثر ما وجدوا - ووصلوا من الاعجاز فى البحث والاستقصاء ما يجعلك تستمع إلى هؤلاء العلماء بلا ملل من الساعة التاسعة صباحاً إلى السابعة مساء دون انقطاع إلا فترة ساعتين للغذاء والإسترخاء . وأكثر من ٨٠ ٪ من المحاضرين متخصصون فى نوع معين من البحث : وقد نقبت عنهم إدارة المؤتمر فى كل أنحاء العالم ودعتهم لالقاء البحوث التى تخصصوا فيها بالذات . . وكانوا يتكلمون كخبراء ملمين بكل النقط دون تردد أو تلعثم وكأنهم يقرأونها من كتاب مفتوح . حضروا من انجلترا وأمريكا واستراليا ونيوزيلاندا والنمسا وفرنسا وبلجيكا والسويد والدانيمارك واليابان وجنوب أفريقيا واليونان وإسرائيل وإيطاليا وروسيا وأسبانيا وفنلندا ، ولولا أنى مررت من هناك فى طريقى إلى الولايات المتحدة لإلقاء بعض المحاضرات بجامعتى فندربلت وبوسطون لفاتنى كل عمرى لا نصفه ! !

سأعطيك مثلا بالطبيب السويدى جوزيف زيسيك فقد تخصص طول الخمس سنوات الأخيرة فى خلية واحدة هى الخلية الوالدة لصفائح الدم فى النخاع العظمى واسمها الميجا كوريوسيت ، وقد عشقها لطول عهده بها يتكلم عنها طول النهار وقد جلس معى على مائدة واحدة فى عشاء الختام مع الدكتور الأردنى أمين محجـ - الذى أصبح وزيراً للصحة فيما بعد - فلم يكن له حديث

إلا عن خليته الحبيبة . . أما الدكتور أمين فلم يكن له حديث إلا عن علاقة الفيتامين هـ ببعض أنواع أنيميا سوء التغذية وقد أحدث بحثه رنيناً افتخرت به كعربى مثله .

وكان مرض كولى أو مرض الثلاسيميا كما يسمونه الآن من المواضيع التى عقدت لأجلها ثلاث جلسات هامة ، وكان البحث الذى ألقيته عن حدوث هذا المرض بمصر مثار مناقشة ، فقد علق عليه الأستاذ ليهمان وهو من أكبر أخصائى العالم فى أنواع الهيموجلوبين الشاذة بأنه يشهد بأن الفصيلة التى وجدت بمصر والذى أجرى أبحاثها قسم الأطفال بالإشتراك مع هيئة النامرو الأمريكية لم يسبق وصفها ، وإذا ثبت له هذا فسوف يسميها فصيلة القاهرة أو الأسكندرية ، وقد سبق أن سميت فصيلة باسم همبورج وأخرى باسم بارث نسبة إلى مستشفى سانت بارث بلندن والذى كان يعمل فيه الأستاذ ليهمان .

وقد قابلنى الصديقان العملاقان الأمريكيَّان فى أمراض الدم وهما دياموند وونتروب ـ وقد زار كلاهما مصر ـ فى طرقات المؤتمر ، وأظهرا إهتماماً كبيراً بهذا البحث . وكانا موجودين بالجلسة والواقع أن هذا المؤتمر أتاح لى فرصة اللقاء بمن أعرفهم والتعرف إلى الكثيرين ممن سمعت عنهم من العلماء .

ولم يكن هناك أى جديد فى علاج سرطان الدم وخاصة فى الأطفال وأنى اعتذر لإخوانى من مرضاى الذين حملونى آمالهم أن أسمع شيئاً جديداً لإنقاذ أولادهم المصابين بسرطان الدم (اللوكيميا) . ولقد أجمع العلماء فى المؤتمر أن المرض يزداد بكثرة عجيبة فى كل أنحاء العالم ولا بد من اكتشاف سببه سواء كان جرثومياً أو خلافه فى المستقبل القريب أو البعيد ومتى اكتشف السبب سهل إيجاد العلاج المضاد .

وقد تحدثت طويلا مع العالم اليابانى واكسا كا وقد ألقى أهم بحث عن هذا المرض أثبت ارتفاع نسبة حدوثه فى اليابان من ٢٦٧ حالة فى عام ١٩١٠ إلى ٢٦٢٨ حالة فى عام ١٩٦٠ ، وأن الحالات التى لا تعطى أى علاج تموت خلال شهر ، وأن التى تعالج بالكورتيزون ومركبات الأمينوبترن قد تعيش أكثر من عامين وقد قال لى أنه لا بد أن يصل البحاث إلى العلاج الحاسم ذات يوم .

وتمكن العلامة ، « جاسر » السويسرى من إطالة العمر إلى ١١ سنة فى حالات قليلة بنفس العقاقير .

وتحدث الأستاذ الروسى كاسيركى عن طريق للعلاج بإيجاد بؤرة تقيح مستمرة فى الجسم لأن التقيح من شأنه إيقاف تكاثر نواة الخلايا ، ومتى حدث هذا أمكن التحكم فى حدة المرض . وقد ذكر أن بعض الحالات عاشت بهذه الطريقة لغاية سن الثانية والعشرين .

وقدثبت بصفة قاطعة أن عقار الأيزونيا زيد المستعمل بكثرة فى علاج الدرن يؤدى إلى نوع الدم يتميز بترسيب الحديد فى خلايا النخاع فتعجز عن العمل وعلاجها عقار البيرودوكسين أى فيتامين ب ٦ وهوعلاج قاطع ولذا ينصحون بأعطائه بانتظام فى الحالات التى تعالج ضد الدرن بهذا العقار وما أكثرها .

أما الأبحاث الأخرى فعن الحديد المشع والفوسفور المشع والكروميوم المشع وعن تجلط الدم وأمور أخرى لا حصر لها ومجالها المحافل الطبية .

— ٨ —

دروس من أمريكا

كانت ليلة العشرين من شهر سبتمبر ١٩٦٣ عندما ودعنى صديقى الطيار محمد عبد الحليم خليفة رئيس مكتب الشركة العربية المتحدة للطيران فى

نيويورك عند باب الطائرة ومعه رئيس المشتريات بالمكتب المستر وليم ديكنسون وشد على يدى مشجعاً وقال : شيد حيلك يا مصطفى ! لا تنسى أن تكتب لى كلمتين من مصر عقب وصولك . وتأملت قليلا وأنا أعبر السلم الفاصل بين أمان الأرض وخطورة الفضاء فى كلمة « شد حيلك » هذه . وبدأت أكتب هذه الكلمات فى الطائرة التى تقلنى من نيويورك إلى روما عائداً إلى أرض الوطن ، وبعد ساعة من رحيلها ، وقد أحاطتنى المضيفات الحسناوات بكل رعاية وعناية . فقد قدمن لنا من أصناف الطعام والشراب ما شغلنا عن أحوال الحياة فترة من الوقت ، ثم أعددن لكل منا فراشاً لننام عليه خلال الرحلة التى سوف تستغرق ثمانية ساعات بالتمام والكمال على ارتفاع اثنين وثلاثين ألف قدم من سطح البحر .

إننى مؤمن بالله وبالقدر وخاصة بعد أن أقفل علينا بالطائرة التى ترتفع بنا إلى السموات العليا فى بضع دقائق ، وأقسم بالله أن الشعور بالخوف هو آخر ما يشعر به راكب الطائرة .

وقد تنام معظم الوقت ولكن عقلك الباطن يظل فى يقظة غير محببة إلى النفس . أننى أتجاهل الإثنين وثلاثين ألف قدم الرابضة تحت قدمى ، وقد أعدت لى المضيفة فراشاً وثيراً . . وها هو جارى بدأ يستغرق فى النوم وسوف أحذو حذوه عما قليل وإذا كتب لنا السلامة فسوف نستيقظ على أبواب روما . ولكن سيشعر كل من يراك بعد ساعات من وصولك إلى الأرض أنك فى حالة غير عادية ، إذ تبدو عليك مظاهر الإنهاك . ويسألك هل قضيت ليلة مؤرقة ؟ فتؤكد له أنك استغرقت فى نوم عميق طوال رحلتك ، ولكن عقلك الباطن الساخر دائماً يرد عليك قائلا :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ونفى عنى الكرى طيف ألم

* * *

وماذا أفعل خلال هذه اليقظة الموجعة سوى أن أمسك بالقلم والقرطاس وأسجل أحاسيسى خلال رحلتى إلى الولايات المتحدة التى بدأت منذ ثلاثة أسابيع، بدت كالأعوام، لا مللا ولكن لأن كل دقيقة قضيتها هناك اكتسبت خلالها دراسة عميقة فبدت الأيام دسمة سخية لم تمر فيها الدقائق عبثا فما بالك بالساعات والأيام .

وقد علمتنى هذه الرحلة درساً خالداً فى أهمية حسن العلاقات بين العلماء فى مختلف أنحاء العالم . وكنت أغبط نفسى وأناجيها كلما صدمتنى الاستقبالات الحارة من زملائى العلماء الأمريكان الذين جمعت بينى وبينهم روابط العلم والصداقة والعلاقة الشخصية التى دعمتها زياراتهم المتكررة لقسم الأطفال بكلية طب القاهرة الذى أتشرف برئاسته، والذى يذخر بالعلماء العرب الذين تفخر بهم أى جامعة فى العالم المتمدين . وهل يمكننى أن أنكر أننى قوى بهم وبعلمهم، وأننى لا أعدو أن أكون لهم بمثابة قائد السفينة أو المرشد فى الواحة السخية بخضرتها النامية على حافة ينبوع الماء المتواضع الذى يميزها عن الصحراء القاحلة من حولها . والتى قد يغرى سرابها بعض المفتونين الذين يظنون لفرط غيهم وغرورهم أن السراب ماء فيرشفون منه حتى تسد الرمال حلوقهم وهم لا يعلمون !

وأنا الآن جالس فى صومعة الراهب بينى وبين الأرض عشرات آلاف الأقدام بل أنا إلى السماء أقرب ! أتخيل فى حياد ومحبة هذا الجيل العظيم من الأطباء الذين أنعم برفقتهم فى قسمى والذين عاصرتهم خلال الخمسة والعشرين سنة الأخيرة :

عطية عبود وعبد الحميد مصطفى وعلى عبد العال وموريس حنا وعبد الحليم شحاته والنبوى المهندس وزهيره عابدين وجميل والى وصفوت شكرى

وممدوح جبر ورشاد صقر وعواطف المازنى وبيومى السباعى وأنيسة الحفنى وعمر الألفى ونوال مختار ومحمد سافوح وحسين كامل وكريمة الظواهرى وإكرام عبد السلام وإبراهيم فياض وألفت محيي الدين وأحمد أبو الحسن وأحمد قطب وعادل السلاوى وخليل الديوانى ومحمد خليل عبد الخالق .

وكان الحصن الذى احتواهم كبيراً اتسع لكل ما تتسم به الطبيعة البشرية من مد وجزر ، فطوراً يلمس الموج الشاطىء الجميل هامساً موسوساً وطوراً صاخباً عارماً فى قصة لا تنتهى إلا مع الزمان ثم لايغبث أن ينحسر عندما يلمس حياد الشاطىء ، فلا المياه العذبة تغريه ولا الماء المالح ينفره ، ولا الموج الصاخب يفزعه ولا تسعده إلا مركب صغير ذات جناح أو جناحين تتهادى باسم الله مجراها ومرساها وعلى ظهرها عملاق لا تنوء بحمله أبدا إسمه الأخلاق وفن المعاشرة ، وفوق صارتها علم صغير تتلاعب به الريح ذات اليمين وذات الشمال ، يمثل العلم الكامن فى صدورنا جميعاً والمتغير المذبذب بين يوم وآخر .

أن الهالة الكبيرة التى أحاطت بى خلال زيارتى للولايات المتحدة فى كل لحظة من حلى وترحالى جعلتنى أتخيل الجيل الكبير الذى نعمت بتوجيهه طوال حياتى الجامعية فكنت أهمس لنفسى مراراً وتكراراً : يا نفس أنى لم أعش عبثاً ! !

* * *

وصلت نيويورك يوم أول سبتمبر ووقفت فى طابور طويل فى انتظار الإجراءات الجمركية والصحية ، وإذ أنا فى دوامة من ملل الإنتظار نادى مناد باسمى وسلمنى مظروفاً تبين لى عند فتحه أنه من صديقى الدكتور هارى باكوين الأستاذ بجامعة نيويورك يدعونى لقضاء اليوم التالى بعزبته القريبة من المدينة لأن يوم ٢ سبتمبر يوافق عيد يوم العمل ، وسوف تتوقف فيه الحركة تماماً فى نيويورك فصممت على تلبية دعوته . وما كدت أصل الفندق حتى شعرت

بالحنين إلى السيرفى شوارع نيويورك لأجدد ذكريات زيارتى الأولى عام١٩٥٩. هاهو الأفينيو الخامس بكل عظمته وناطحات السحاب التى تحده من الجانبين، والناس بين غاد ورائح يطأوون الأرض فى حنان ورفق . وها هو مسرح (الراديوسيتى) وهو أكبر مسارح العالم تلمع أنواره معلنة عرض أحدث رواية للممثلة دوريس داى فضلا عن استعراض ضخم من أروع ما وقعت عليه العين . فتوكلت على الله وقلت هذا الطريقة الوحيدة لقتل الأمسية الأولى من إقامتى فى هذه المدينة الكبيرة حتى لا تقتلنى الوحدة المملة .

وفى اليوم التالى أصطحبنى صديقى الأستاذ باكوين إلى المستشفى ومررنا على الحالات الهامة . وكما أقول دائماً أن بلادنا لا ينقصها الطبيب الماهر ولا رحابة المستشفيات ، ولكن ينقصها المعمل المجهز بالمستحدث من وسائل التشخيص. ثم تناولنا الغذاء بمطعم المستشفى حيث يجلس الأساتذة فى جانب والطلبة وصغار الأطباء فى جانب آخر ، ولكن نوع الأكل واحد وطريقة الخدمة واحدة . فأنت تأخذ صينية وتمر على الأصناف تختار منها ما تشاء وتصادفك فى آخر الممر سيدة جالسة على الآلة الحاسبة تعطيك الإيصال وتناولها النقود . وبعد أن تنتهى من تناول الطعام تحمل الصينية بنفسك بما عليها من أشلاء المعركة وتتركها حيث تقوم بعض المتخصصات بتنظيفها . هذا هو النظام المتبع فى كل أنحاء الولايات المتحدة فإنهم بعد أن يتناولوا قهوة ما بعد الغذاء ينصرفون إلى عملهم مرة ثانية حتى الخامسة مساء باحثين منقبين . ولعل التسهيلات المحلية والمعيشية والمالية هى التى تهيىء لهم ما أسميه (لمعان الظهر) الكافى لأن تقوم المراكز العليا بالمخ والمخيخ بعملها على الوجه الكامل ، فقد يبدو الوجه لامعاً ولكن هناك صدأ كامن وراء العينين .. ترياقه العيشة السهلة الميسرة .

واصطحبنى صديقى بعد الساعة الخامسة إلى منزله الريفى — وهو مقامة الدائم —

لأن المقتدرين هناك يفضلون المعيشة خارج المدن الصاخبة بمسافة لا تقل عن ثلاثين أو أربعين ميلا . وكانت هذه تجربتى مع الدكتور شيفرفى واشنطن والدكتور جينوای فى بوسطن والدكتور وليم داربى والدكتور كريستى فى ناشفيل ، إذ استضافونى فى منازلهم الريفية الجميلة المحاطة ببضعة أفدنة لكل منهم يتعهدون تنسيقها وتنميقها وقطف ثمارها فى لذة شاركْتُهم فيها بعض الوقت وكأنها القطوف الدانية فى الجنة الراضية ! . ونظام الخدم والحشم منعدم هناك تماماً . فزوجة الأستاذ هى التى كانت تقوم بتحضير العشاء بنفسها يساعدها فى ذلك نظام الأغذية المحفوظة الواسعة الانتشار ، وقطع اللحم الكبيرة والفراخ المشوية والديوك الرومية المغلفة بالسلفان والمعروضة فى ثلاجات محلات السوبر ماركت (Super Market) التى تجد فيها كل ما لذ وطاب وأنت تجول فى طرقاتها وحولك كل تشتهى النفس والعين تختار من بينها ما تحتاج إليه وتضعه على عربة معدنية لامعة أنيقة ، وتدفع الثمن طائعاً مختاراً بعد أن تجتاز دهليزا صغيراً محكماً لا يسمح لمن تسول له نفسه بأى سوء أن يصل إلى بغيته .

* * *

وتقوم زوجة الأستاذ الأمريكى مهما بلغ صيته وغناه ـ بسبب ندرة الأيدى العاملة ـ بكل تفاصيل عملية تحضير العشاء . فتعد المائدة فى نظام وأناقة ، ثم تضع قطعة اللحم الكبيرة داخل الفرن الكهربائى حتى يتم شواؤه ثم توزع حوله أنواع الخضروات المسلوقة وتنثر على المائدة نوعين من السلاطات ، ويوزع علينا الأستاذ شريحة من اللحم ثم تخدم نفسك بنفسك فى بقية الأصناف ، ولك أن تعيد الكرة مرتين أو أكثر من هذا الأكل الشهى وخاصة أن وجبة الغذاء بالمستشفى دائماً خفيفة ، والطريق إلى المنزل طويل تسير خلاله بين المروج والروابى الخضرحتى تكاد تمل الجمال من فرط سخاء توزيعه

على طول الطريق . ويطول الحديث بعد العشاء فى غرفة الجلوس ذات المقاعد المريحة ويتفرع أحياناً ليلمس نهضتنا الحديثة فاشرح لهم ما خفى وكل تساؤلهم فى الغالب عن السد العالى وما سوف يكون م من أثر . فأروى غليلهم فى حب المعرفة بما يرفع رأس بلادى وبما يجعلهم يتمنون لمصر الخير العميم .

وفى الغالب يتفرغ الأستاذ إلى قراءاته بعد العشاء فى الأيام العادية . فقد انتهى من فحص مرضاه الخصوصيين سواء فى المستشفى أو فى عيادته الخاصة ، وهذا نادر لأن كثيراً من المستشفيات التى زرتها تخصص بعض الغرف ليفحص فيها أعضاء هيئة التدريس حالاتهم متقاضين أجورهم بالكامل وتقدر حسب حالة المريض المالية والإجتماعية . وبذلك يضمن الأستاذ معاشه ومصلحته المادية ويعيش معظم اليوم فى رحبات المستشفى دارساً فاحصاً منقباً وراء المجهول ، وقد احتمى ظهره بالمرتب الضخم ، والمعمل المجهز ، والممرضة ذات الضمير ، والمكتبة العلمية الزاخرة بمجلداتها .

* * *

ويحاولون هناك أن يقتلوا الملل ــ لطول الوقت الذى يقضيه عضو هيئة التدريس بالمستشفى ــ بابتداع طريقة الندوات على مختلف أنواعها . فاليوم ندوة أكلينيكية وغداً ندوة أكلينيكية باثولوجية . وفى يوم ثالث طبيب شاب يتكلم عن موضوع معين يكلف بتحضيره ، فيجتمع حوله كل من يهتم بهذا الموضوع من جميع فروع المستشفى والكلية . فتسمع نقاشاً على مستوى عال . . تخرج الكلمات خلاله من الأفواه كالهدير الهادىء . وأنا خلال كل هذا استمع فى أمل بالمستقبل ، حين يجتمع ذوى الرداء الأبيض منا فى كل يوم بل فى كل ساعة يتباحثون ويستمعون إلى بعضهم البعض فى حب وتعاون وتقدير معظم اليوم .

ولعل طول المعاشرة تقرب القلوب وتزيل الضغينة وترتفـــع بالنفوس إلى المستويات العليا .

* * *

وخلال زيارتى لجامعة بوسطن لبست الرداء الأبيض وقضيت ثلاثة أيام سعيدة بين زملائى الذين كنت أعرف بعضهم من قبل خلال زياراتهم لبلادنا أو لسابق تعارفنا فى المؤتمرات الدولية . وكان مرافقى الدكتور جينواى أستاذ الأطفال يقدمنى إلى كل صغير وكبير من الأطباء دون كلل أو ملل ، فيرد الطبيب فى الحال نحن نتطلع إلى الساعة الرابعة من مساء اليوم لنستمع إلى محاضراتك . وكان قد أعلن عنها قبلها بيوم . وهم يتلهفون هناك على سماع كلام الأساتذة الزائرين ليستمعوا منهم عن مشكلات غير موجودة فى بلادهم ، وكانت محاضرتى عن مرض (الـكواشيوركور) ملفتة لأنظارهم ، فتجمع فى قاعة المحاضرات المـكيفة الأنيقة ذات المقاعد الوثيرة حوالى ثلاثمائة طبيب بمعاطفهم البيضاء التى لا يخلعونها إلا فى الخامسة عند انصرافهم . وقبل المحاضرة بخمس دقائق جاء صديقى الأستاذ لويس دياموند خبير أمراض الدم العالمى إلى غرفة رئيس قسم الأطفال وسمعت منه أنه اتفق مع زملائه أنه سوف يقدمنى للمستعمين . وتأبط ذراعى فى احترام ومحبة وسار بى خلال ممر طويل حتى وصلنا إلى باب جانبى يوصل للصف الأول من قاعة المحاضرة . وبعد سكون دام دقيقة وقف فى وقاره المعروف وتحدث عن ذكرياته معى بالخارج ومصر وعن مركزى الجامعى بطريقة آنست من وحشتى وشجعتنى على بذل الجهد حتى أصل بمحاضرتى إلى المستوى الذى تحدث به عنى . وبالفعل كان نجاحها كبيراً بحمد الله . وقد تصادف وجودى فى هـــذه المدينة الجامعية العظيمة مع موعد انعقاد جمعية (نيوانجلاند) لأطباء الأطفال ففوجئت فى حفلة العشاء الختامى للندوة بأن

وقفا الدكتور ثاليوت رئيس الجمعية وافتتح كلمته بأن قال « نحن اليوم ننعم بوجود زائر صديق من القاهرة بيننا » ثم ذكر إسمى وأشار إلى وأنا جالس على المائدة الرئيسية فوقفت بين تصفيقهم وتهليلهم وانحنيت شاكراً وأنا فى شدة التأثر من هذا الترحيب الذى غمرنى طول مدة إقامتى بينهم .

* * *

أما زيارتى لجامعة فاندريلت فى أشفيل فقد فاقت كل ما تصورته من إقبال ونجاح . لقد وجدت عميد كلية الطب الدكتور راند ولف باتسون..وهوصديق قديم منذ زار القاهرة فى أوائل هذا العام . . ينتظرنى عند الطائرة ، وبعد أن حيانى بحرارة شاركنى فى حمل حقائبى إلى السيارة ، وصمم على أن يحمل القطعة الأثقل وزنا ـ وهذا من تواضع العلماء . وقبل أن يذهب بى إلى الفندق الذى اختاروه لإقامتى طاف بى فى أنحاء المدينة . وطفنا برهة فى حى الملونين ، وهم يعيشون بينهم على قدم المساواة ، ولو أنهم اختاروا لأنفسهم حياً خاصاً تركزوا فيه بمدارسهم وكلياتهم وقد أشار إلى مبنى كبير وقال لى « هذه كلية طب خاصة بالملونين أساتذتها وطلبتها من السود » .

وبعد أن استرحت بالفندق قليلا طرق باب غرفتى فى الخامسة تماماً ضيف عزيز هو الأستاذ أيموس كريستى كبير أطباء الأطفال بولاية تنيسى والأستاذ بجامعة فندريلت . ولما سألت من الطارق ؟ أجاب ببساطة كريستى ! ! ففتحت له وهلل مرحباً . فقد زار قسم الأطفال الذى أسعد برئاسته فى أبريل عام١٩٦٢ وبهره أفراد (الفريق) الذى أتشرف بقيادته بما يقومون به من أبحاث فى مختلف فروع طب الأطفال . وقد أشاد بهذا فعلا وبضخامة الرسالة التى يقوم بها قسمنا وبعدد المترددين على العيادة الخارجية والذين يتجاوزون الألف يومياً عندما قدمنى إلى الذين حضروا لسماع أولى محاضراتى عن أمراض التغذية فى

البلاد الشامية ، وكانت المحاضرة الثانية عن أنواع فقر الدم فى الأطفال المصريين . . !

وبعد انتهاء أيام الزيارة اصطحبنى الأستاذ كريستى فى سيارته ومعه زوجته الفاضلة إلى بلدة فى أعلى الجبل وعلى مسيرة سبعة ساعات بسيارته التى ساقها بنفسه بين مناظر من أجمل ما تقع عليه العين . وفى خاتمة المطاف وصلنا إلى قطعة من الجنة هى بلدة جاتلنبرج قضينا فى أفخم فنادقها ثلاثة أيام عقد خلالها إجتماعات جمعية أطفال ولاية تنسى ، وفوجئت مرة ثانية ـ كما حدث بوسطن ـ برئيسة الجمعية الدكتورة أديت ولكر تدعونى فى عشاء الختام لإلقاء كلمة ضيف الشرف ، فألقيت كلمة مناسبة قوبلت عبارتها بالارتياح الشديد فقد اشدت فيها بالصداقة المتينة بين مدرستينا وبلدينا وبالضيافة الكريمة التى تمتعت بها خلال إقامتى بينهم . ثم توالت الكلمات بعدها فى جو ساده المرح الرزين .

* * *

وعند هذا القدر من الكتابة والقوم حولى نيام بالطائرة ، داعبنى النعاس وحاولت النوم فلم أحظى منه بأكثر من ساعة صحوت بعدها منتعشاً لأن نهار أوروبا ـ بسبب فرق التوقيت وهو خمس ساعات ـ بدا فى السماء العالية فوق السحب .

ها هو ذا فجر روما يبدو من بعيد . وهاهو ذا القلم يصر فى يدى صريراً حزيناً لعله يبكى فراقه للقرطاس . يا ترى هل يسمع الفجر نواحه ؟ !

* * *

وعندما لمست عجلات الطائرة أرض مطار روما حمدت الله على السلامة وعند وقوفها لمحت عن بعد قطعة منى واقفة على أرض المطار تنتظرنى فى لهفة ، كان مصطفى الديوانى ابن أخى المستشار سيد الديوانى وهو يعمل بروما سكرتير

للسفارة فى الفاتيكان ومعه القنصل يحيى طعيمة يتلهفان على احتضانى عقب نزولى من سلم الطائرة ، وكان الخروج من المطار سهلا ، وسرعان ما اندمجت فى الجو الحبيب الذى يشرف عليه السفير أحمد نجيب هاشم فى روما ومحمد التهامى القائم بالأعمال بسفارة الفاتيكان .

وفى آخر أمسية لى فى روما كنت أسير الهوينا فى شارع فيا فينيتو الذى يشبه الشانزلزيه فى باريس ، عندما لمحنى السلطان على عبد الكريم سلطان لحج وكان يجلس وحيداً على مقهى الكافية دى بارى فنادانى وجلسنا سوياً فترة من الزمن تجاذبنا خلالها حديثاً شائقاً ، ولا عجب فهو محدث جذاب لماح ، وعربيته سليمة مائة فى المائة .

* * *

يا إلهى . . . . ! !

أما وقد عدت إلى بلدى فإنى أسألك اللهم أن تزيدنى تواضعاً قبل أن تزيدنى علماً وتقينى شر الغرور فقد رأيت أقواما وهبتهم من لدنك مالا وجاهاً وعلماً ، فتواضعوا للناس حتى دانت جباههم ونفوسهم للتراب . . . ! .

— ٩ —

رحلتى إلى الشرق الأقصى

غادرنا جاكارتا فى تمام الساعة السابعة من صباح الجمعة ٢٨ أغسطس بعد أن حضرنا مؤتمر الطفولة الأسيوى الأفريقى الثانى . وفى بدء الرحلة وبينما الطائرة تصعد فى الفضاء طلب منا قائد الطائرة أن ننظر إلى المضيفة الحسناء مليا وهى ترينا طريقة استعمال منطقة النجاة فى حالة الخطر لا قدر الله . وحاولت المضيفة أن تبدو فى أبهج حلة وهى تفسر لنا دون أن تنطق بكلمة ، طريقة ارتداء الجهاز فى حركات متئدة تصحبها بسمة مشرقة تعمدت بلباقتها أن تحول وجهها

إلى فلتة قمر لتزيد من طمأنينتك وهى تعطيك أول فكرة عن الجمال اليابانى الذى تخيلناه حتى هذه اللحظة جمالا منغولياً ذا بشرة طينية ، ولكن بشرة مضيفات الطائرة اليابانية كانت مائلة إلى البياض وقوامهن من حيث دقة الخصر ومقاييس الطول والعرض تنطبق على ما تجب عليه المضيفات فى أرقى بلاد العالم .

وأنا أدهش من تنافس شركات الطيران فى طريقة معاملة ركابها ، وتفانيها فى إرضائهم . أهو بدافع العطف على أناس تعلقوا بحبال واهية بين الأرض والسماء ، وقد يكون سلامهم علينا سلام التلاقى أو الوداع والعياذ بالله . أم لأننا إخوان فى السلاح نواجه خطراً واحداً ؟ فعلام الخلاف وعلام التشاحن والدنيا قد تفنى فى لحظات قصار ! وأنا لا أدرى لماذا يحلولى دائماً أن أسطر خواطرى وأنا معلق بين السموات والأرض ، والقلب صاف والفكر متمتع بحرية لا حدود لها ولا قيود . وقد اتعدى حدود المجاملة نحو أشخاص أحبهم وأجلّهم فى سبيل النقد البرىء ، وقد تلتمس لى بعض العذر فى هذا الانطلاق الأثيرى فبينما تسير الطائرة الهوينا على أرض المطار ـ أرض السلامة والآمان إذا بها ترتفع بك فى لحظات قصار إلى السماء السابعة حيث لا تسمع لغوا ولا تأثيما ، ثم تنظر إلى الأرض فلا تراها ، وترى السحب من تحت وكأنها قطع من القطن المنفوش متناثرة فى تناسق عجيب على زرقة السماء التى تشاهدها وأنت واقف فى أى مكان من سطح البسيطة ، فتدرك ضآلتك أمام الجالس على العرش الأعلى والذى له ملك السموات والأرض وما بينهما .

ورغم المضايقات التى صادفتنى خلال الأيام القلائل التى سبقت الرحلة هذا العام إلا أننى حمدت الله الذى هيأ لى فرصة مشاهدة هذا الجزء من العالم ، أعنى منطقة الشرق الأقصى ، التى لم أكن شاهدتها من قبل . لقد كان مفروضاً أن

ينعقد المؤتمر الأسيوى الأفريقى الثانى بجاكارتا يوم ١٩ أغسطس ١٩٦٤،وأعلن فى الجرائد عن المؤتمر وعلى مئات من أمثاله ،وشحذت الهمم كل منها يحاول نيل شرف تمثيل الجمهورية . وبجانب تكليف الدولة آلاف الجنيهات أجراً لهذه الإعلانات التى استوعبت ثلاث صفحات كاملة فى كبريات الصحف الأربع فناهيك يا نهماك أجهزة الدولة فى اجراءات الترشيح على أكثر من مستوى . فأستاذ الجامعة مثلا عليه أن يحصل على موافقة كليته وجامعته ، ثم وزير البحث العلمى ، ثم يجب أن تشغل الرئاسة أيضاً فهناك مرسوم جمهورى يجب أن يمهره رئيس مجلس الوزراء بإمضائه . وناهيك عن سخط صاحب الشأن الذى قضى الليالى فى تحضير بحثه وكتابته مثنى وثلاث ورباع حتى يأخذ الطابع الدولى الذى يجب أن يكون عليه . ثم يصله خطاب قبول البحث من هيئة المؤتمر ليأخذه متهللا إلى أقرب محل تصوير ، ليطبع منه ثلاث نسخ،واحدة منها للمصلحة التابع لها ، والثانية لوزارة البحث ويحتفظ بالثالثة فى أوراقه الخاصة لعل وعسى أن يجد جديد . وفى الغالب توافق المصلحة المختصة والوزير المختص ثم تقف الأوراق عند المستوى الأعلى وهى رئاسة مجلس الوزراء وهى الأكثر دراية بالصالح العام وتحكم بعيداً عن الهوى الشخصى ، على صلاحية المؤتمر من عدمه .

وقد كان المؤتمر الأسيوى الأفريقى الثانى لأمراض الأطفال بجاكارتا من أسعد المؤتمرات حظاً ، وشرفتنى الدولة وزملائى ممدوح حنفى وعلى عبد العال وزهيرة عابدين بالسفر لتمثيل بلادنا الغالية ، وكان علينا أن نسافر فى خلال ٢٤ ساعة لأن الأمر بالسفر صدر يوم ١٨ أغسطس ، وميعاد انعقاد المؤتمر يبدأ من يوم ١٩ منه ، وكلنا يدرى تعقيد الإجراءات من ناحية النقد واجراءات الأمن وخلافها . وفوجئنا بالدولة تقرر لنا ــ حسب قاعدة مالية ثابتة لجميع المسافرين لأندونيسيا بحوالى خمسة عشر جنيهاً فى المجموع لمدة انعقاد المؤتمر وهى أسبوع

بالتمام والـكمال ، ولولا الدكتور القيسونى وزير الخزانة الذى أنقذ رقبتنا بفضل أفقه الواسع لتعرضنا لفضيحة هائلة ، فقد حجزت لنـــا هيئة المؤتمر فى فندق أندونيسيا الذى لا يقبل إلا الدولارات ، وتبلغ تـكاليف الإقامة به عشرة دولارات خلاف وجبات الأكل التى يلزمها عشرة دولارات أخرى . ولـكن شكرا لله وله على أية حال . فقد أتيحت لنا فرصة الحياة لدراسة هذا الجزء من العالم ، وما سردت هذه الوقائع إلا لإرشـاد ولاة الأمور قدر ما أستطيع ، وليفيد من نتائجها من يوفدون فى المستقبل لهذه البقاع السحيقة ، فنجنب المواطن الإحراج أو الحرج فى بلاد الغربة .

* * *

ما أبدع أن تصحو من نومك كل صباح على هواء جديد . . . لقد قطعت آلاف الأميال خلال هذه الرحلة ومرت بى الطائرة فوق خط الاستواء وأنا فى الطريق إلى جاكارتا ، وأعطانا قائد الطائرة شهادة بذلك على سبيل الطرافة والمتعة . ثم عبرت خلال القطب الشمال وأنا فى الطريق إلى أوربا بعد مغادرتى طوكيو . ويلذ لى أن أتمطى وأتثاءب فى صحة وسعادة عند استيقاظى لأول مرة فى آخر بلد أحط فيه ، ثم أسائل نفسى وعلى وجهى المستيقظ بسمة أكاد أن أراها خلال مرآة روحى : ترى يا مصطفى فى أى بلد طلع عليك النهار؟ فيجيبنى الهاتف قائلا مرة : أنت فى جاكارتا ! ومرة ثانية قال أنت فى هونج كونج! ولما قال فى الثالثة : أنت فى طوكيو ردَّت نفسى على نفسى وفى كل حباتها وذراتها بسمة مشعة ونشوة طاغية قائلة طوكيو ؟ غير معقول ! وإذا بالجسم تتشابك يداه فى قوة ومحاولة لإزالة آخر آثار الـكسل الذى تمتع به بعد طول جهاد ، ويقفز بصاحبه من الفراش ليرى ويكتشف من الأرض الجديدة عليه بما يروى غليله الذى لا يشبع أبدا . . . . وكان أول استيقاظ لى بعد عميق سبات ، بمدينة

كراتشى ، وقد بتْنا فيهـا ليلة واحدة فى ضيافة شركة الطيران فى فندق خاص بها مع مقربة من المطار وإسمه فندق ميدواى ، فى انتظار الطائرة التى تقلنـا إلى جا كارتا فى صباح اليوم التالى . وكان الجو فى كاراتشى حاراً ، وسرنا فى شوارعها ذات الطابع الشرقى الجميل ، نساوم الباعة ونعجب بما بدا على وجوههم من السماحة وحسن التفاهم . ولقد زارنا فى المساء القائم بالأعمال السيدأحمد صالح الزاهر وزميله محمود عثمان وعرضا على الذهاب إلى فندق الأنتر كونتننتال للجلوس فى المقهى الفاخر الملحق به ، وقضيت معهما ليلة طيبة كان الحديث عن الفن والموسيقى هو الغالب فيها . ولما أوصلانى إلى الفندق هرعت إلى غرفتى حيث نمت نوماً عميقاً حتى أيقظنى الخادم الباكستانى حسب وصيتى بدقات عنيفة على الباب لا بد أنها أيقظت سابع جار . . . . .

ووقفت بنا الطائرة نصف ساعة فى ميناء سنغافورة ثم بانجكوك ، فكنـا نقضى الوقت فى النظر إلى المعروضـات التى نسقت فى نظام أنيق يدعو إلى اقتناء شيء على سبيل التذكار . وأخيراً وصلنا إلى أرض الميعاد : جا كارتا ! وكانت الساعة حوالى العاشرة مساء فوجدنا فى استقبالنا بعض طلبة كلية الطب الذين كُلِّفوا بمرافقة الأعضاء ، وخصصوا لنا اثنين هما الطالب فيراتمو والطالب أحمد مجتهد ، وكانا مكلفان برعاية الوفد العربى ولست أبالغ إذا أسميتها بالرعاية. لأنهما لم يتركانا لحظة ، فكانا يوقظاننا فى المواعيـد المتفق عليهـا بالنسبة للمحاضرات أو رئاسة الجلسات ، إذا كان لأحد منا أن يقوم بإحدى هاتين المهمتين . ولـما قيل لنا أن أعضاء المؤتمر قد سبقونا إلى باندونج لقضاء يومى السبت والأحد ، أبدينا رغبتنا أن نلحق بهم فى فجر اليوم التالى : وفعلا لم تنم جفوننا أكثر من ساعتين من نوم مضطرب غير هنيء ، لأن نفوسنا كانت قلقة غير مستقرة لسبب شعورها بالخجل نتيجة تخلفنا عن حضور حفـلة

الإفتتاح فبقى كرسى الجمهورية العربية على المنصة شاغرا على المنصة الرئيسية يوم الإفتتاح ، وشعر أصدقاؤنا بالحرج وفى مقدمتهم السفير أحمد رياض الذى وجهت إليه أسئلة من أكثر من جهة هامة عن سبب تخلفنا ، فكان يعتذر بتأخير الطائرة . أما فى حفلة ختام المؤتمر فقد لاحظت السفير وهو جالس فى كرسى قريب فى الصالة راضياً مغتبطاً ، وقد رآنى أشغل كرسى الجمهورية العربية ، ثم وهو يستمع إلىّ وأنا ألقى خطابى نائباً عن أفريقيا وكان خطابى جامعاً استنفذت فيه كل ما قدرنى الله عليه من جزالة اللفظ والمعنى بلغة المؤتمر الرسمية وهى الإنجليزية . وبعد انتهاء الحفلة اقترب منى السفير وهو متهلل فى وقار ورزانة وهمس فى أذنى قائلا : لقد انتشلتنى من وهدة نفسية! أين اليوم من يوم الإفتتاح فقلت له أننى أتخيل كيف كان منظر الكرسى الشاغر . . . لقد كان طعنة فى صدر العروبة .

* * *

قلت إننا صممنا على اللحاق بأعضاء المؤتمر فى رحلة باندونج فاحضروا لنا سيارة بدأت بنا الرحلة فى فجر اليوم التالى وكانت الظلمة لا تزال حالكة ، وما نشعر إلا وأنوار السيارة تنطفىء فجأة لخلل فى الأسلاك ، فسرنا على غير هدى نتحسس الطريق ، أو نتبع سيارة أخرى لنهتدى بأنوارها حتى تختفى هى الأخرى عن مدى نظرنا . وكان يجلس بجوار السائق كل من الدكتور ممدوح حنفى والدكتورة زهيرة عابدين وجلست أنا والدكتور على عبد العال والطالبين المرافقين فريد بكرى وهاريانتو فى المقعد الخلفى . وغلبت غريزة حب الاستطلاع عند الدكتور ممدوح حنفى على الشعور بالخطر ، وكان يداوم سؤال الطالبين عن إسم تلك الشجرة المنزرعة عن يمينه فى الطريق العام ، وإسم ثمرة سمع عنها ولم يرها ونوع الأطعمة التى يستسيغها الفرد الأندونيسى ، فتوسلت إليه أن يؤجل

درس اليوم إلى الغد ، ويصلى إلى الله مع الدكتورة زهيرة عابدين أن يبعد الله الخطر عنا حتى نصل إلى باندونج أو حتى تظهر تباشير الصباح على الأقل .

وما كادت تبزغ الشمس من وراء الأفق حتى سمعنا فرقعة مزعجة وترنحت السيارة ،فأدركنا أن إحدى الطائرات قد أصابها الوهن، فأسرعنا بالنزول وتعاونا على البر والتقوى وتغيير الاطار المعطوب بأطار سليم ، وصممنا على إجراء لحام للثقب الحائر الذى جاء فى غير ميعاد ونحن هكذا على عجلة ، واستغرق منا هذا ساعة ونصف تسكعنا خلالها فى أنحاء قرية مجاورة (جانجور) وما كدنا ننتهى من هذه المهمة الثقيلة ونستانف السير من جديد حتى سمعنا الفرقعة من عجلة أخرى فتعطلنا ساعة أخرى حتى لحمنا الثقب الجديد . وصمم الطالبان على أن نزور (كاوا أوباسى) قبل الذهاب إلى باندونج . وكان منظر البركان ممتعاً حقاً وأعجبنا بالمهارة التى كتبت بهـا على جدرانه المنصهرة مرحباً بأعضاء المؤتمر الأسيوى الأفريقى . . وأخيراً وصلنا باندونج حوالى الساعة الواحدة ظهراً أى بعد ٧ ساعات من بدء الرحلة ، وما كدنا نصل إلى الحديقة الكبيرة لنادى بومى التى كان الأعضاء الذين سبقونا إلى هناك يتناولون طعام الغذاء حتى قوبلت بتهليل كبير ممن يعرفوننى ، فهذا حامد على خان مندوب الباكستان يحتضننى فى شوق كعادته خلال العشر السنوات الأخيرة كلما رآنى فى أى مؤتمر، وهذا ويدانى مندوب الهند تتهلل كل قسمات وجهه وصاح الإثنان فى وقت واحد . . أين كنت يا ديوانى . . لقد قلقنا عليكم عندما بقى مقعدكم المجاور لمقعدنا على المائدة الرئيسية فى حفلة الإفتتاح شاغرا . وها هو التشيكوسلوفاكى الأستاذ الصديق هوشتيك والأستاذ الاسترالى ستابلتن يهلل كل منهما لرؤيتى ويسأل نفس السؤال وأنا فى حيرة كيف يفتح الله على برد مقنع . ولمـا قابلنا أمين عام المؤتمر الأستاذ سوديجو رحب بنا ترحيباً حاراً وقال لقد خشينا ألا

تتمكنوا من الحضور ، وقد افتقدنا كم يوم الإفتتاح ، وكنا قد حجزنا لكم منصب نائب رئيس المؤتمر ، ولما تأخرتم انتخبنا مندوب الباكستان . وهكذا ضاعت منا أمجاد كثيرة نتيجة الروتين القاتل . وأثلج صدرى بصفة خاصة ما حدث بعد ذلك بيومين وأنا خارج من قاعة (رامايانا) الفاخرة بفندق أندونيسيا بعد تناول الأفطار عندما شعرت بيدين قويتين تمسكان بكتفى فى قوة ابن العشرين، وتلفت ورائى فوجدته الدكتور فرانسيس سميث أستاذ أمراض الأطفال بجامعة سان فرنسسكو وكنت قد تعرفت عليه فى العام الماضى عند زيارتى لأمريكا فى ضيافة جامعة فاندربلت ، فحييته بشوق وقال لى لقد رأيتك من آخر القاعة فجريت إليك قبل أن تختفى عن ناظرى ، فسألته عن زوجته دوروثى فقال إنها هناك تنتظرك ، وهى التى رأتك أولا وجرنى من يدى فى نشاط عجيب ـ وهو الذى جاوز السبعين عاماً ـ فحيتنى زوجته الرزينة بشوق كبير ، وسألتها عن سر شباب زوجها ، وقلت أنه يبدو أصغر من العام الماضى بعشر سنوات فأسرع هو بالإجابة قائلا : « أنه الاعتزال يا مصطفى . » أى أن اعتزال الخدمة قد أراح منه الجسد وأعطاه الفرصة ليرعى نفسه ويتمتع بأجازاته على الوجه الأكمل ، وينام حين يشاء ويستيقظ فى أى وقت يشاء . ثم قال فى صراحة : لقد أعجبتنى جداً محاضرتك عن مرض الكواشيوركور لأنى لم أكن أعرف عنه شيئاً قبل أن سمعت التفاصيل الممتعة التى ألقيتها علينا . أنت تعرف أن هذه الأمراض غير معروفة عندنا . وأنى أسرد هذه التفاصيل لأدلل على أن من أهم واجبات الأستاذية هى تدعيم العلاقات بين الأقسام المماثلة فى أنحاء العالم ، وهذا سر التشجيع على ارتياد المحافل والمؤتمرات وزيارة الجامعات ، فإن فيها فائدة للأستاذ نفسه من حيث إزالة الصدأ المتراكم وتطهير نفسيته وعقليته ، فيتحلل

من العقد ، وفيها فائدة لمدرسته وتلاميذه الذين يلقون صدوراً رحيبة من أصدقاء أستاذهم حيثما حلوا .

كانت الأيام التى قضيتها فى جاكارتا أياماً حلوة حقاً . راعنى نظام المؤتمر للبساطة التى روعت فى سبيل إخراجه . فقد أقيم فى فندق أندونيسيا فى دور أرضى خصص للمؤتمرات واقتصر على القاعة الكبرى أو صالة البالية كما يسمونها — يحشدون فيها المحاضرين الواحد تلو الآخر من الساعة الثامنة صباحاً إلى الواحدة ظهراً ومن الثالثة إلى الخامسة عصراً . ولذا ضمنوا حضور أكبر عدد ممكن من أعضاء المؤتمر فى القاعة الكبرى ليستمعوا إلى المحاضر الذى يعجبهم أو الذى يروق لهم الموضوع الذى يناقشه ، وبذا أمكنهم أن يغطوا مائة وخمسة وأربعون موضوعاً كان الكثير منها طريف وعالى المستوى . وقد ساهم كثير من العلماء الأمريكين من بينهم هيلين تاوسيج العالمة الكبيرة فى أمراض القلب وخاصة الخلقية منها وقد كان سرورى كبيراً لرؤية هذه السيدة العجوز الوقورة تناقش وتدلى بالحجج فى تمكن عجيب يتمنى كل عالم أن يصل إلى مستواه . ونظمت لنا هيئة المؤتمر رحلات ترفيهيه نعمنا خلالها برؤية أندونيسيا ذات الخضرة الدائمة ، وكان من أروع ما شاهدناه مزارع الشاى التى تغطى السهول والوديان والجبال على حد سـواء .

وشعب أندونيسيا شعب فنان يميل إلى الغناء والموسيقى — ولن أنسى أبداً حفلة الغذاء التى أقامهـا وزير الصحة لرؤساء الوفود فى فندق البريس (أى الصحافة) وكانت شبه عائلية لاقتصارها على عدد محدود وارتفعت روحى النشوانه إلى أعلى المستويات عندما قامت مسز سوباندريو — وهى طبيبة وزوجة وزير الخارجية — تغنى لنا بصوت كله حساسية وطرب ، أجمل الأغانى العاطفية وصفقنا

لها طويلا طالبين الإعادة . وعلق الدكتور سوتدجو على غنائها بقوله أن هذه الزميلة تتمتع بهذا الصوت منذ أيام دراستنا سويا فى كلية الطب ، وأن بينى وبين زوجها ثأر قديم فلطالما تمنيت أن أتخذ منها زوجة ، وكانت ترفض دائماً وفضلت على زوجها الحالى — وكانت بعيدة النظر حقاً . . علماً بأنى سعيد جداً مع زوجتى . . وأشار إليها وكانت جالسة معه إلى نفس المائدة .

بمثل هذه الروح الفنانة المرحة يعيش الشعب الأندونيسى بعد أن تخلص من ربقة الاستعمار الذى دام ثلاثمائة وستين عاماً . . وأنى لا أدرى لماذا أعتقد دائماً فى الشخص الفنان بطبعه لأن الفن يورث حساسية وشفافية فى الروح ترتفع بصاحبها إلى مستوى من التفكير لا يرقى إليه من ابتلاه الله بالقلب الغليظ والجلد السميك.

وكيف أنسى تلك الحفلة التى أقامها الدكتور أحمد سوكارنو لأعضاء المؤتمر فى قصره — أو كما سماه وهو يخطب فينا بأنه ليس بيته بل ملك الشعب الذى سمح له بأن يسكن فيه . وكان خطابه ممتعاً وقد ألقاه بالإنجليزية التى تمكن منها تماماً . ولما جاء دور تقديم رؤساء الوفود وقفنا جميعاً صفاً واحداً وكنت الثانى من اليمين . ولما قيل له أنى أمثل الجمهورية العربية المتحدة أمسك بيدى بقوة وضربنى بها فى صدرى فى رقة وحنان وقال لى وعيناه تلمعان فى محبة كبيرة لجمهوريتنا ورئيسها : السلام عليكم ! أنا حاضر إلى بلادكم الجميلة فى أكتوبر القادم بمناسبة مؤتمر عدم الانحياز . . . . وقبل أن ينتقل إلى رئيس وفد الهند لمح من بعيد الدكتورة زهيرة عابدين وهى تلتقط بآلة السينما التى تحملها أينما ذهبت صورته وهو يصافحنى ويصافح بقية رؤساء الوفود فسألنى عنها فقلت هذه إحدى أعضاء وفد الجمهورية . فابتسم وقال لقد ظننتها روسية ! وفى اعتقادى أنه لاحظ عليها تلك البساطة فى المظهر التى تميزت به تلك الطبيبة الطاهرة فهى قد زهدت الدنيا وزخرفها منذ حجت إلى بيت الله الحرام وزارت

قبر الرسول عشرات المرات بل لقد صممت على أن تؤدى فريضة العمرة وزيارة قبر الرسول فى طريقها إلى القاهرة بعد إنتهاء مؤتمر جاكارتا . أن هاتفاً يدعوها دائماً إلى هناك ، وقوة خفية تجذبها إلى البيت الحرام يرن فى أذنيها مهما شط المزار مناد أن هلمى إلى قبر رسول الله وأجلسى فى خشوع على مقربة من روضته الشريفة ترتلين الآيات وتؤدين الفروض الخمسة كلا فى ميعادها متى أذن المؤذّن للصلاة بصوت ذى رنين وهو واقف فى جلال ورهبة فى إحدى المآذن الأربع التى تناطح السحاب من فرط هيبتها . لقد مررت أنا بنفسى خلال هذه التجربة أربع مرات وكلما تذكرتها انتابتنى قشعريرة مبعثها الإيمان العميق بالله وخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام . . . . . .

وبعد أن انتهى الرئيس سوكارنو من مصافحة رؤساء الوفود هم بمصافحة سفراء الدول الذين اصطفُّوا إلى يمين فتقدم منه الدكتور على عبد العال حاملاً آلة التصوير التى لا تفارقه وجذبه بلطف من ذراعه وطلب منه طوراً باللفظ وطوراً بإشارات يده اللطيفة . وغالباً ما تتعطل له الكلام وخاصة إذا كانت بالإنجليزية فى مثل هذه المواقف الرهيبة — وطلب منه أن يأخذ له صورة مع أعضاء وفد الجمهورية فمال عليه الرئيس بلطف وديموقراطية حبيبة طالباً منه أن يمهله لحظة حتى ينتهى من مصافحة السفراء . وفعلا ما كاد ينتهى من ذلك حتى أشار إلى — وكنت واقفاً عن كثب — وقال أين بقية زملائك لنأخذ معاً صورة تذكارية ؟ . فتجمع حوله الدكتورة زهيرة عابدين والدكتور على عبد العال والدكتور ممدوح حنفى وأنا والتقطت لنا أكثر من صورة . وكان الجو فى القاعة حاراً ، ولكن الروح المرحة التى أشاعها الرئيس سوكارنو والموسيقى ذات الأنغام الهادئة والمرطبات والأطباق اللذيذة التى مر بها الندل على المدعوين لطفت من تأثير الجو ، ووددنا لو استمرت الحفلة حتى الصباح ولكن لكل شىء نهاية . . .

وحان موعد الرحيل من جاكارتا . وأيقظنى طالب الطب المرافق لى — فيراتمو — فى الساعة الخامسة صباحا . وكان طالباً رقيقاً مهذبا دمث الأخلاق فأصبح بالتدريج بمثابة الابن منى . وصحبنى مع زملائى أعضاء الوفد إلى المطار وأجلسنا فى غرفة الضيوف الممتازين حيث لا اجراءات جمركية ولا خلافه، ومضينا ساعة نتجاذب أطراف الحديث حيناً وتمر على بعض المعروضات بالمطار حيناً آخر نشترى منها ماسوف يذكرنا بأندونيسنا الجميلة مدى حياتنا .

وودعنا الطلبة عند باب الطائرة والدموع تطفر من عيونهم ، فقد أحبونا هم الآخرون من صميم قلوبهم وشعرت وأنا ألوح لهم من النافذة أنهم فقدوا بفراقنا شيئاً كان عزيزاً عليهم ، أو أنهم قد عز عليهم أن يفقدوا عطفاً أبوياً نعموا به خلال السبعة أيام التى قضيناها معهم . ولقد وعدونا عند الفراق المدعم بالدموع أن يزورونا بالقاهرة فى أقرب وقت ، فقلت لهم إن مصر أرضكم ووطنكم الثانى . فأمَّنوا على كلامى بحماس .

وعند ما ارتفعت الطائرة الاندونيسية (جارودا) تشق أجواز الفضاء فى هوادة ورفق نظرت من علّ إلى تلك الأرض ذات الخضرة الدائمة . وحمدت الله على أننى أديت رسالتى العلمية التى أوفدت من أجلها على أكمل وجه ، وأن رابطة متينة قد توثقت عراها بين البلدين أساسها العلم والبحث والاستطلاع ، وهتفت من أعماق قلبى إلى اللقاء ياجاكارتا . . . وتخيلتها وهى فى حجم النملة بما حوت من صداقات كبيرة سعدت باكتسابها خلال إقامتى القصيرة التى زادها متعة ذلك الطاقم من رجال السلك السياسى يضم القنصل فتحى البحطيطى وحسن عبد الحميد وحسين السيد والمستشار الثقافى محمد رضوان وعلى رأسهم السفير الممتاز أحمد رياض الذى لم يتركنى لحظة ، واتخذت منه صديقاً عزيزاً على قلبى مدى الحياة .

* * *

وفى الطريق إلى طوكيو توقفنا ثلاثة أيام فى هونج كونج ، وهى مدينة الأحلام بالنسبة لكل من ارتاد هذه المنطقة السحيقة من العالم . وهى تنقسم إلى قسمين : حى كاولون وجزيرة هونج كونج ، وتفصلهما قناة عريضة تعبرها سفن بخارية كبيرة رخيصة الأجر فى خدمة منتظمة كالساعة وحى كاولون منبسط بعكس جزيرة هونج كونج فهى جبلية وتقع فيها وزارة الخارجية وجميع السفارات وفندق هيلتون الشامخ . ويعتبر حى كالون من أكبر أسواق العالم وتتركز فى شوارعه الكبيرة وحواريه الضيقة مليارات من الجنيهات تتداولها الأيدى فى حنان وشغف على شكل بضاعة جيدة ولكنها معقولة الثمن ، وبقليل من المساومة تصل إلى غرضك من الحصول على أجود بضاعة بأحسن ثمن ، وكنا نشترى أبسط الأشياء لنحتفظ بها كتذكار للزيارة فلم تكن الطاقة المالية تسمح بأكثر من هذا ...

ومعنى هونج كونج بالصينية الميناء المعطَّر وهى إحدى مستعمرات التاج البريطانى وقد آلت إليه منذ عام ١٨٤٢ بموجب معاهدة نانكنج .

وفى عام ١٨٦٠ أضيفت إليها شبه جزيرة كاولون وجزيرة قاطعى الأحجار

وفى عام ١٨٩٨ إزدادت الرقعة إتساعا باستئجار بقية شبه جزيرة كاون وتحوى ٢٣٥ جزيرة مجاورة بموجب عقد لمدة ٩٩ عاما . وتبلغ مساحة المستعمرة بأكملها ٣٩١ ميل مربع .

أما أعلى بقعة فى جزيرة هونج كونج الجبلية فهى قمة فيكتوريا ويبلغ ارتفاعها ١٨٠٥ قدما .

ويفصل الجزيرة عن حى كاولون ميناء هونج المشهور والذى تمر فيه السفن البخارية ويمتاز شتاؤها بشمسه الصافية وجوها الخالى من الرطوبة .

وكان الآخ لطفى يعقوب نائب القنصل خير رفيق لنا فى هذه الجزيرة المتشعبة فى جاذبيتها . . . .

* * *

وأخيراً وصلنا إلى مطار طوكيو ، وكان على أن أذهب إلى هناك لمشاورة الأستاذ تا كاتسو رئيس المؤتمر الدولى الحادى عشر للطفولة الذى سوف يعقد فى طوكيو فى نوفمبر ١٩٦٥ ، وذلك بصفتى عضواً فى الهيئة التنفيذية لهذا المؤتمر نائباً عن أفريقيا والشرق الأوسط . ووجدت فى انتظارى بالمطار الدكتور (اونيزاوا) الأستاذ المساعد بقسم الأطفال نائباً عن الأستاذ تا كاتسو . وأخذنى فى سيارته إلى فندق داى – إتشى حيث تركنى لأنام الليل بعد مشقة سفر ثمانى ساعات بالطائرة . ومر على فى الصباح وذهبنا إلى مستشفى الأطفال الجامعى لمقابلة الأستاذ تا كاتسو ، وهو صديق قديم وقد زارنى بالقاهرة قبل ذلك بثلاث شهور . ووقفنا عند باب الغرفة المغلق ، وضغط الأستاذ المساعد على جرس بالحائط ووقف ينتظر . وبينما نحن فى الإنتظار لمحت كتابة باللغة اليابانية فوق زر الجرس فسألته عن معناها فأجاب : أن معناها أن من على يدق الجرس أن ينتظر قبل أن يدخل . فإذا دق الأستاذ دقة واحدة معناها أنه مشغول ، وعلينا أن ننتظر . أما إذا دق دقتين فمعنى هذا الإذن بالدخول فى الحال .

وقد كان من نصيبنا أن دق الجرس مرتين لأن الأستاذ كان قد حدد ميعاده معى بالساعة والدقيقة والثانية . وما كدت أدخل عليه حتى أقبل على بشوق كبير حتى كاد يحتضننى وأجلسنى على كرسى بجوار الدكتورة زهيرة عابدين التى كانت قد سبقتنى إلى هناك . وأخذنا نحن الثلاثة نتناقش فى المشكلات المرضية فى بلدينا حتى حان ميعاد مرورنا على أقسام المستشفى فاصطحب كلامنا أستاذ مساعد . وبعد رجوعى إلى غرفة الأستاذ تكلمنا طويلا عن نظام عمل

الأساتذة وأخبرنى أن على أعضاء هيئة التدريس وكلهم يعملون كل الوقت وليست لهم عيادات خاصة ، أن يبقوا بجانب سرير المريض من الساعة الثامنة صباحاً إلى الساعة الخامسة مساء . وإذا أرادوا عمل أبحاث لمجدهم الشخصى فليكن ذلك بعد الخامسة مساء إلى أى ساعة من الليل .

ولما مررنا على غرفة الجلوس الخاصة بالمدرسين وجدت أن الأستاذ كتب بخط يده على السبورة أننى سوف ألقى محاضرة فى اليوم التالى عن مشكلات التغذية ، فلم أوخذ على غرة لأننى أحتاط لهذه المفاجآت خلالى رحلاتى وأحضر معى مستلزمات بعض المواضيع الهامة من نصوص مكتوبة إلى صورة تفسيرية للفانوس السحرى . ومرت المحاضرة بنجاح وسلام ، ثم وقف الدكتور ممدوح حنفى فتكلم لمدة ربع ساعة عن الألبان النباتية فلقى كلامه نجاحاً كبيراً .

وفى الساعة الخامسة مساء اصطحبنى الأستاذ مع ثلاثة من أساتذته المساعدين هم الدكتور أونيزاوا والدكتور نا كامورا أمين عام المؤتمر القادم والدكتور الأمين المساعد لنفس المؤتمر إلى مطعم فاخر إسمه شوزان - سو وهو يقع فى إحدى حدائق طوكيو الكبيرة وقدمت لنا فيه اللحوم المشوية على جهاز خاص تشوى عليه الشرائح أمام ناظريك فترتاح لرائحة شوائها خياشيمك فتقبل على التهامها بشهية زائدة فتمسك بها بعصاوين رفيعتين على الطريقة اليابانية ومضت ساعات ونحن نأكل ونتكلم ونمرح فى اتزان، ورفعت الكلفة من بيننا وكأن سنين طوال قد مضت على تعارفنا . وبعد أن انتهينا من تناول طعامنا الشهى قيل لى أن الليلة سوف تختم ختاماً حسناً بزيارة أحد منازل بنات الجيشا ، لاعطائى فكرة عن هؤلاء الفتيات اللاتى لا تعدو مهمتهن فى المجتمع مهمة المضيفات ، ويخترن عادة من كرائم العائلات ويدربن تدريباً خاصاً فى معاهد خاصة أهمها معهد الجيشا بمدينة كيوتو . وقد يستدعين إلى الحفلات الخاصة فى السفارات

والوزارات والقصور والمطاعم الكبيرة للقيام بواجبات الضيافة نحو المدعوين . وتتراوح أجورهن بين خمسة جنيهات وعشرين جنيهاً للساعة الواحدة . وتقوم بتدريبهن والإشراف عليهن سيدات مجربات يطلق عليهن لقب (ماما سان) وكثيراً ما يذهب كبار رجال الأعمال وكبار رجال الدولة ليراجعوا أوراقهم ومشكلاتهم فى جو هادىء تهيؤه لهم هؤلاء المضيفات فى بيوت الجيشا . فالهدوء مستتب والموسيقى الهادئة تأتى من بعيد مع غناء خافت يبعث فى النفس الطمأنينة والاستقرار ومشروبه المفضل ، تحمله إليه فى أدب بالغ فتاة رائعة الجمال توليه كل الاحترام الذى يرضى فيه غريزة التفوق . وقد تتكلم أو لا تتكلم معه إذا استعرض معها إحدى مشاكله لأن فتيات الجيشا على درجة عالية من الثقافة العامة . وعند تمام الساعة تدخل مديرة المنزل (ماما سان) وتعلن انتهاء المدة .

أما عن تجربتى الخاصة فقد ذهبت فى تلك الأمسية مع الأستاذ اليابانى وأربعة من مساعديه إلى بيت بدا أنيقاً نظيفاً وما كدنا نطأ عتبته حتى بدؤا يخلعون نعالهم ففعلت مثلهم ودخلنا غرفة واسعة فرشت بنوع من الحصير الفاخر وجلسنا على مقاعد وثيرة غير عالية حول مائدة شديدة اللمعان لفرط نظافتها . ثم دخلت علينا ثلاث مضيفات بملابسهن الوطنية الكاملة وقدمن لنا مشروباً وطنياً إسمه (الساكى) ، ثم جلسن فى أدب جم بيننا إلى المائدة وقدمنى صاحب الدعوة بصفتى طبيباً الجمهورية العربية المتحدة فابتسمت وهمست ناصر ؟ فاومات برأسى رداً على سؤالها الهامس ، وهى الكلمة الوحيدة التى فهمتها فى الحديث لأنهن لا يتكلمن ولا يفهمن إلا اليابانية . ثم قامت أحداهن ولعبت على الجيتار وهى جالسة على وسادة فى مقعد بالصالة ثم غنت بصوت أعجب به زملائى اليابانيون . وكانت الأحاديث تدور بينهم فى هدوء وأدب واحترام متبادل حول مواضيع هامة ولما انتهت الساعة ظهرت (ماما سان) وقالت بأدب : انتهى الوقت .

فاتجهنا إلى الباب والبنات تحيينا بانحناءة بلغت بحياهن إلى مستوى الأرض تقريباً ، ولبسنا أحذيتنا من جديد وأنا سعيد بأننى لمست بنفسى مهمة بنات الجيشا البريئة الطاهرة ، ولـكننى خرجت وأنا أهمس لنفسى قائلا : تسمع بالمعيدى خير من أن تراه . . لقد دفع هؤلاء القوم حوالى المائة جنيه أو يزيد ليرفهوا عنى من ناحية وليتيحوا لى الفرصة لألمس بنفسى الحقيقة الـكاملة حول إحدى معالم اليابان اللامعة ، وأعنى بنات الجيشا !

وخلال إقامتى بطوكيو لا زمنى ملازمة الظل جمال ابن صديقى فهيم الضعيف المحامى الـكبير . كان إبنه جمال الدبلوماسى الناشىء بسفارة طوكيو لا يتركنى لحظة واحدة . ووضع نفسهوسيارته تحت تصرفى ، لعلمه بمكانة والده عندى ، وكونى أستاذ شقيقه الدكتور سمير الذى يدرس الآن فى لندن والذى ألقى منه ومن زوجته تلميذتى ديزى شمس نفس المعاملة . لقد طاف بى جمال خلال أرجاء طوكيو وكأنه دليل كامل التدريب وكم من مرة سار بى خلال شارع جنسى أكبرشوارع طوكيو رواجاً وأكثرها جمالا وخاصة بأنواره الساطعة أثناء الليل . وكنت كلمـا مررت فى هذا الشارع تذكرت حادثة الدكتور دمرداش أحمد وإصابته من سيارة نقل وهو يحاول اجتيازه مع صديقه الوفى النائب محمد توفيق خشبة ، وكيف تجمّع حولهما حوالى الثلثمائة شخص دون أن يبدوا أى محاولة لمساعدة الجريح أو زميله الذى أخذ يصرخ فيهما بكل اللغات التى يعرفها ولـكن لا حياة لمن تنادى . وأخذ ينظر فى غيظ إلى الجموع المتراكمة حوله وبودّه أن يقول لهم « مالـكم تـكأكأتم على تـكأكؤكم على ذى جِنّة ، إفرنقعوا ! » وهى الجملة التى قالها المرحوم الشيخ حمزة فتح الله لأهل باريس عندما تجمعوا حوله فى الشوارع لغرابة زيه الأزهرى . . وكان كلمـا نظر محمد توفيق خشبة إلى زميله مسجى تحت عجلات سيارة الأتوبيس غائباً عن الوعى

غارقاً فى دمائه الغزيرة ، جن جنونه فأخذ يصيح طالباً سياره أجرة وأخيراً هلَّ عليه كالبدر المنير يابانى مهذب يتكلم الإنجليزية ، فتطوع بحمل الزميل وصديقه إلى المستشفى الجامعى وهناك صمم الجراح على قطع يد الزميل الجريح فصرخ الصديق محمد خشبة فى وجهه قائلا : كلا ! كلا ! . . . . لا أسمح لك . . . ثم جرى إلى التليفون وطلب المرحوم محمد فؤاد جلال والدكتور عبده سلام وكانا عضوين فى الوفد البرلمانى ، فحضرا فى الحال وتشاوروا الجميع مع الطبيب الذى أجل عملية البتر بغرض إعطاء المريض فرصة أخيرة . وفعلا تحسنت الحالة مع طلوع الصباح وعدل الطبيب من تصميمه القاتل . وقد جرنى إلى الحديث عن هذا الحادث الأليم مقابلتى للنائب محمد توفيق خشبة منذ أيام فى جنيف وكان فى طريقه إلى أرض الوطن عقب تمثيل بلاده فى المؤتمر البرلمانى المنعقد فى كوبنهاجن فى شهر أغسطس من عام ١٩٦٤ وأنا فى طريق العودة من طوكيو ، فتكلمنا عن مخاطر الطريق هناك وقلت له أن الذى يقصر غير قاصد فى حق نفسه ولا يتبع تعليمات المرور فى طوكيو يموت كل ساعة خمس مرات . . . فأمن على كلامى وأخذ يقص القصة المحزنة التى عاصر أحداثها دقيقة بدقيقة ، وكانت كل تقاطيع وجهه المعبر تساهم فى سرد التفاصيل التى لا يحتملها الإنسان أكثر من مرة واحدة فى كل حياة . . .

ومما لفت نظرى فى طوكيو الإحترام المتبادل بين الناس لدرجة فى توحى أن به بعض التكلف ، ولكن الظاهر أنه أصبح مع مرور الوقت عادة متاصلة فى النفوس .

وعندما صحبنى الصديق الشاب إلى المحال الكبيرة ذات الأدوار السبعة أو الثمانية التى تبيع لك كل ما تشتهيه نفسك من لوازم الحياة ويسمونها هناك Departmental Stores لا حظت وقوف فتاة يابانية بادية الأناقة وعلى وجهها

ابتسامة دائمة عن بداية السلم الكهربائى المتحرك الذى ينقلك من طابق إلى طابق، تشكرك على حضورك وتطلب منك الحضور مرة ثانية . وفى نهاية السلم تجد إنسانة أخرى تميل عليك بنفس كلمات الشكر لتشعرك بأنك صاحب فضل لحضورك سواء اشتريت أو لم تشتر شيئاً ، فكل ما يهمهم هو تشريفك لهم بتخطى عتبة محلهم الكبير . وهى لا تمل من ترديد جملة (أهلا ومرحباً) ومعناها بلغتهم (رشايماسين) وجملة كوداساى (أى من فضلك) ولعل من أبدع ما رأيت من هذه المحال هو محل (تا كاشيمايا) .

ومما يلفت النظر فى طوكيو معرض شركة (ميتسوفيتسى أى الثلاث ماسات) الاسطوانى الشاهق وهو لا يحوى رغم اتساعه المذهل أكثر من معرض منتجات هذه الشركة التى تنتج كل شىء من الإبرة إلى الصناعات الثقيلة مثل السيارات والمصاعد الكهربائية وبناء السفن والمعروف أن اليابان أكبر مصنع للسفن فى العالم الآن .

وأعجبتنى جداً ظاهرة غسل العربة عند شراء البنزين ، فبينما يملأ أحدهم خزان البنزين يتجمع ثلاثة فتيان حول عربتك يتعاونون على غسلها وتلميعها بحماس وضمير دون أن ينتظروا من وراء ذلك أجراً ، بل إنهم يتقبلون كلمة دومو (أى متشكر) بانحناءة حادة . أن هذا الحماس وهذا الضمير الحى وهذا الشعور بالواجب هو الذى وصل بهذا الشعب إلى ما يشتهى ويأمل ، والأمم بأفرادها . وكان الله فى عون الحاكم فى بلد انعدمت فيه روح الشعور بالواجب .

* * *

وكان يحلو لنا أن نتجول بالسيارة فى حى شيخوكو وهو حى النوادى الليلية والمسارح وقد ينتهى بنا المطاف إلى تناول إحدى الوجبات فى إحدى

مطاعمه العديدة وكم من مرة تجولنا فى سوق (أكى هابرا) الذى يشبه حى الموسكى عندنا ، ومجال المساومة فيه كبير . والتاجر اليابانى ظريف متهاود لغاية عشرين فى المائة من الثمن المكتوب على البضاعة . والإبتسامة لا تفارق فمه وهو يومىء برأسه بالقبول ثم وهو يلف لك البضاعة بأناقة أهل باريس ، ثم وهو يسلمها لك بطريقة تشعرك بأن ما كان ملكه الخاص منذ ثوان معدودات أصبح ملكك الحلال نظير ما دفعته من مال . وأسعار الأجهزة الكهربائية والألكترونية من راديوهات إلى أجهزة التليفزيون إلى جميع أنواع الترانسيستور من راديوهات أو تليفزيون أو آلات حلاقة الذقن وخلافها فى متناول اليد . وكذلك أسعار آلات التصوير مما يشجع على اقتنائها فتشيع الرفاهية فى النفوس والبهجة فى المنازل ، ويروج مجال الآخذ والعطاء بين صاحب العمل فى مصنعه وفرد الشعب فى منزله بين أهله وذويه .

ولن أنسى يوم اصطحبنى مرافقى الشاب جمال الضعيف إلى مسرح الكوكوساى . . . حيث شاهدنا استعراضاً لا يقل فخامة عن ما شاهدته فى باريس على مسارح الليدو والفولى برجير والكازينو دى بارى . ويتميز هذا الاستعراض بأن جميع القائمين به من رقص وغناء فتيات على مستوى عال من الجمال وليس بينهن رجل واحد ، حتى أدوار الرجال تقوم بها سيدات أيضاً . . وقد تدهش أن جميع الراقصات والممثلات فارغات الطول جميلات الوجوه ليست فى سحنهم أية مسحة منجولية كما قد يتخيل البعض عن النساء اليابانيات اللاتى يمرون فى عهد تطور عجيب فى السنوات الأخيرة من حيث المظهر والملبس ولون البشرة وتقاطيع الوجه .وكانت مطربة الفرقة الأولى رخيمة الصوت رائعة الجمال وسبحان من يجمع الإثنين فى واحدة . وقد ذكرتنى ببهية هانم اكسوى مطربة تركيا الأولى التى لم أشهد مطربة فى مثل جمالها وأدبها ، بجانب صوتها الذى أقام تركيا وأقعدها . وقد سمعتها خلال إقامتى فى أنقره فى سبتمبر ١٩٦١

أثناء انعقاد مؤتمر الطفولة الإقليمى الثانى فى كازينو الشباب (جول كازينو) وقد سمعتها وحدى أول ليلة برفقة صديقى المرحوم جميل سالم أستاذ أمراض الأطفال السابق بدمشق ، وذهبت إلى الفندق أقصّ على بقية أعضاء الوفد العربى وهم الدكاترة عبد العظيم الغلمى وعبد الحميد مصطفى وصلاح عواد وجميل والى تجربتى مع الصوت الرائع النابع من السموات العليا فظنونى مبالغاً فاصطحبتهم فى الليلة التالية وراقبتهم فى هدوء عن كثب ، يتمايلون فى مقاعدهم ، وكان ينتابنى نحوهم نفس الشعور بالغبطة والتشفى الذى شعرت به امرأة العزيز عندما أدخلت سيدنا يوسف عليه السلام على صديقاتها اللاتى كن يعايرنها بتدلهها فى حبه فأدخلته عليهن بعد أن أحضرت لكل منهن تفاحة وسكينا ، فقطعن أيديهن وقلن ما هذا والله بشر . . أنه ملاك كريم .

ثم كان منظر رقصة الروكيت تقوم بها أربعون من أجمل بنات اليابان ومنظر النافورة المائية وهو تبدل ألوانها من الأصفر إلى الأخضر إلى الأبيض اللامع بينما تخرج منها الفتيات كأنهن الحور وهن يتمايلن مع أنغام الموسيقى . ثم منظر رقصة المراوح ومنظر رقصة ملك القوقاز والأميرة التى حملها معه إلى السفينة ، وكيف غضبت الآلهة فقامت عاصفة شديدة كادت تعصف بالمركب ، فثار البحارة وطالبوا بإلقائها فى البحر فلم يصغ إليهم فى مبدأ الأمر ولكنه عندما اشتد غضب الطبيعة حملها على ذراعيه فى غضب فاق غضب البحارة وألقاها وهى تصرخ فى الخضم الهائل الذى سرعان ما ابتلعها ، فسكتت أنفاسها ورضى البحر بها قرباناً ، فهدأت ثائرته واستقر حال السفينة التى استأنفت سيرها باسم الله مجراها ومرساها ، والبحارة ينشدون أغنياتهم التقليدية حتى اختفت السفينة عن الأنظار والستار ينزل تدريجياً بينما كان التصفيق يتعالى من المتفرجين . كل هذه المناظر جعلتنى أؤمن أن فى اليابان فناً رفيعاً ، والفن فى رأيى جزء لا يتجزأ من رقى الأمم .

أما ملحوظتى عن المتفرجين فانها تتفق تماماً مع ما قاله لى السفير اللبق الفنان صالح خليل . فعندما قلت له أننى سوف أذهب فى المساء لمشاهدة استعراض مسرح الكوكساى قال لى سوف ترى شيئاً عالمياً فى عظمته ولكن لا تتضايق إذا جلس بجانبك شخص يرتدى السروال والقميص دون سترة أو رباط رقبة ، أو إذا شاهدت الجالس خلفك يلتهم مع أنغام الموسيقى حبات الفول السودانى من قرطاس فى يده المحايدة ، وقد كان . .

وهكذا كانت إقامتى باليابان إقامة سعيدة حقاً ، وتعقبتنى ذكرياتها حتى قامت بى الطائرة الهولندية الجبارة من مطار طوكيو فى الساعة الثامنة من مساء يوم ٥ سبتمبر ١٩٦٤ فاستلقيت على مقعدى متهالكا لعادتى عندما أستسلم لأفكارى وأحاسيسى وكتبت أقول :

ربِّ لم قسمت لى أن أترك طوكيو بمثل هذه السرعة . إننى أكتب هذا وأنا أقوم برحلة لعبور القطب الشمالى فى الطريق إلى أوروبا . وبعد ثلاث ساعات من قيام الطائرة وكان حوالى العاشرة مساء ، بدأ الفجر يشقشق ، ولا يمكننى أن أصف لك جمال حمرته وكأنه يبكى فراق القمر الذى بدأ فى متناول يدى وأنا على ارتفاع عشرات آلاف الأقدام ، هلالياً ضئيلا أمام الشمس التى تزحف أشعتها دون شفقة أو رحمة مسجلة تفاصيل النزاع اليومى بينها وبين القمر على مرأى مجسم منى ، أنا الذى أرى القمر الآن يتوارى خجلا . وأقسم أننى سهرت خلال هذه المعركة ولم تغمض عينى لحظة واحدة ، فقد كنت أتأمل كيف مهدت لى رسالتى الجامعية ورسالة تخفيف آلام البشر هذه الصداقات التى تغمرنى فى

كل مكان دون أهبة أو استعداد وكنت كلما شعرت بدفئها قلت لنفسى « إذن أنا لم أعِشْ عيشاً » .

هذا هو الشاب جمال الضعيف الملحق السياسى بالسفارة يصمم على اصطحابى حتى باب الطائرة . وتركنا خلفنا فى استراحة المطار الصعيدى الشهم عبد الحكيم سيد على رئيس المركز الثقافى بطوكيو . ولا يمكننى أن أوفى الباقة الفريدة الكائنة فى هذه السفارة حقها : تخيل جماعة تعمل فى انسجام عجيب : يرأسها السفير صالح خليل وتضم ممدوح عبد الرازق ابن العلامة المرحوم مصطفى عبد الرازق ، وممدوح المهدى وسيد سالم وحسن عبد الحميد وصبحى شعبان والمستشار الثقافى مختار الجوهرى . وقابلت مصادفة فؤاد عبد المنعم رياض نجل الحبيب المرحوم المستشار عبد المنعم رياض ونعمت بترحيبهم وحبهم جميعاً دون استثناء . وكأننى عرفتهم منذ أجيال . هذه عقبى الرسالة الجامعية والرسالة العلاجية إذا هدى الله صاحبهما سواء السبيل .

أن الوجوم الذى سادنى وأنا أغادر طوكيو لحرمانى من هذا الحب الجديد الكبير حرمنى لذة النوم خلال الليل القصير الذى قصر رحمة من الطبيعة بى ، بسبب اقترابنا من القطب الشمالى ، كيلا يطول سهادى .

ألهى ! الساعة الآن الثامنة والنصف صباحاً وأشعة الشمس تكاد تخطف منى البصر . ارحمى يا شمس واشهد يا قمر وحدث يا سهاد .

* * *

وأخيراً هلت علينا ألاسكا بشمسها الجميلة ووجدنا أنفسنا فجأة فى أرض أمريكية وقيل لنا اضبطوا ساعاتكم على العاشرة إلا ربع صباحاً . وجلسنا فى

قاعة الانتظار بالمطار نتناول المرطبات ونكتب لأصدقائنا فى أمريكا كلمات تحية مقتضبة ، فأجر البريد بسيط لأننا كنا فى صميم أمريكا . ثم ركبنا الطائرة ، وما كدنا نستقر فى مقاعدنا حتى وزعت علينا بطاقة على ظاهرها تهنئة بأننا سوف نجتاز القطب الشمالى عما قليل وبذا خلدنا أسماءنا بجانب أبطال التاريخ أمثال الأدميرال بيرد وامندسن وبيرى . وفى الصفحة التالية طلب بيانات باسمك وعنوانك لترسل لك شهادة من شركة الطيران الهولندية بهذا الحدث التاريخى فى حياتك . وقد سبق أن حصلنا على نفس الشهادة عندما اجتزنا خط الاستواء فى الطريق إلى جاكارتا .

وما أن أقلعت الطائرة حتى تحدث قائدها فى المذياع قائلا أن الطيران إلى هولندا سيستغرق منا عشر ساعات ونصف نقدم خلالها طعام الغذاء والافطار ، ولم يقل العشاء فقد هجم علينا بعد الغذاء بقليل ظلام ليل ثقيل فاطفئت أنوار الطائرة ليهيئوا لنا جو النوم . ثم صحونا بعد ساعات قلائل على أضواء فجر جديد وهكذا تعاقبت علينا دورتان كاملتان فى أقل من ١٢ ساعة نتيجة تجوالنا البوهيمى بين الشرق والغرب، لنصل من طوكيو إلى امستردام ولم تتجاوز الفترة بين قيامنا من الاسكا فى الحادية عشر من صباح اليوم السابق وتناول طعام الإفطار فى اليوم الثانى الثمانى الساعات . فسبحان خالق الكواكب كلها وهو على كل شىء قدير .

وأخيراً وصلت امستردام ولما لمحت أرضها الخضراء من علٍ تنفست الصعداء لانتهاء رحلة من أشق الرحلات التى قمت بها فى حياتى ، وسألت نفسى لماذا يجوب الأستاذ منا أنحاء العالم للبحث عن الجديد ولتطوير عقليته وتدعيم علاقة مدرسته بالمدارس الأخرى الموزعة على بقاع العالم وتفصلها

المسافاة الشاسعة دون رحمة أو شفقة بكبار النفوس الطامحين إلى الأحسن دائماً .
هل كنت أفضل أن أعيش فى جنة الغافل قابعاً فى الركن الذى قسمه الله لى .
أحضر فى ساعة مبكرة من الصباح كأى موظف أمين وألقى درسى وأصرِّف
أمور قسمى وأحل مشاكله حتى تحين ساعة الإنصراف ، فأجمع أوراقى
وأنصرف مع المنصرفين . وتمر الأيام سعيدة سهلة بينما قافلة العلم تدوِّى على
مقربة منى فأتجاهلها وأنا أهز كتفى ذات اليمين تارة واليسار تارة أخرى ، إذا
تعقبنى أوارها وضجيجها محاولا إيقاظى من غفلتى المتعمدة ؟

كلا والله ، ما كنت لأرضى لنفسى بهذا أبداً . . .

حكمة الله

هل هذه حقًا كل أحداث حياتى ؟ . هل تتخيل أنّ القلم سوف يسلى صريره المُلْهِم على القرطاس الولهان ، بينما يسيطر على الإثنين فكر قلق حائر لا يمل أبدًا من تسجيل الأحاسيس التى توحيها ملاحظات الساعة وتجارب اليوم ، وكأنّها طاقة مختزنة تحت ضغط على وشك ما يشبه الانفجار ، ولا يريحه إلا قصاصة من ورق يُسجَّل عليها ما يجيش فى الصدر أو يتراقص بين تلافيف الذهن ، فكأنَّ دُمَّلاً قد نفس عن صديد مختزن ، أو مقلة انفجر منها الدمع بعد طول جفاف قد يرهق النفس المرهفة ، أو ضحكة انطلقت دون تردد لتبعث النشوة فى قلب المكروب ، ورغم الراحة التى تنتابك بعد التحرر من هذه الربقة الفكرية ، فإنك تشعر وكأنك قد اقتطعت من شحمك ولحمك بما يشعرك بالهزال لبضع ساعات أو أيام ، وخاصة إذا سار القلم فى بطء قد يكون نتيجة للتعثر ، فهو أحياناً لا يطاوعك رغم تراكم الدوافع العليا ، وكلما تعجّلته ازداد عصياناً وتصميما على أن يُتْرك لمزاجه الذى يأتى أولاً وقبل كل شىء .

نعم ! تمر الأيام دون أن يقف أزيزها عند حَدْ ، وما أزيزها إلا أحداث قد تهز إحداها جوانب النفس كل ساعة بل كل دقيقة ، ولو شئت تسجيلها لشغلت بها عما هو أعم وأعظم أو ما هو أدْهى وأمرّ . وقد تملأ من الصفحات أضعاف ما سعدت بمعاشرتها طوال الشهور الأخيرة التى استغرقها إخراج هذا الكتاب ، وقد أَسْتَدْرِكها فى طبعات مقبلة . أنا أكتب هذه السطور مثلا عقب عودتى من الاحتفال بذكرى مرور العام على وفاة المرحوم أنور المفتى التى حدثت فى ١٦ يناير من عام ١٩٦٤ ، والتى وضعت تفاصيلها بين صفحات هذا الكتاب . عند ما اقتربت من باب الشقة تخيلته يفتحها للمرة

الأخيرة فى ثقة العارف بخبايا الأرض التى يدب عليها فى حنان وهى تقوده إلى جو الحب العائلى الذى عاش فيه ، وتخيلته ينظر المرة الأخيرة إلى القطع الأثرية التى صُفّت بدقة وإتقان فى لافتة زجاجية بالصالة الكبيرة . . وأهاجتنى الذكريات وأنا أنصت إلى المقرىء وهو يرتل آيات الذكر الحكيم ، حتى إذا ما انتهى من تلاوة ما تيسر ، مضى الناس سابحين فى حنين الذكرى ، ثم بدأ كلٌّ يهمس فى أذن جاره ، ثم ارتفع الهمس تدريجياً حتى طغى على جو السكون الذى ساد لفترة ما ، ثم تحول الهمس إلى لغط واللغط إلى تنادر وتفكّه وصل أحياناً إلى مستوى البسمة الصريحة أو الضحكة المنطلقة دون خجل ، كل هذا وأنا أنظر فى فلسفة عميقة إلى الصور الزيتية المعلقة إلى جدران قاعة الاستقبال الأنيقة التى طالما حفلت بالاستقبالات الأخوية الجامعة التى كان أخرها قبل وفاته بخمسة أيام بالتمام والكمال ، ثم لم تلبث أن كللت بالسَّواد ، وتشوه جمالها بتلك الكراسى الصفراء اللون وقد صفت فى تناسق فى قاعات المنزل لتستقبل المعزين من أحباب الفقيد . وبعد بضعة شهور شاهدت هذه الجدران لمحات من الفرح عند ما تمت خطوبة إحْدى كريمات الفقيد إلى أحد شَباب العائلة . وبدأتْ الحياة تأخذ مجراها فى سهولة ويسر ، بينما كانت فضيلة النسيان تطغى كعادتها ، وشُغِل كل منا بتخليص نفسه من مآزقه اليومية ، ومن منا لا تصادفه كل يوم بل كل ساعة من حياته مشكلة تلهيه عمن حوله من أقرب الناس إليه ، فما بالك بالجُرْح الغريب ! .

كنت وأنا جالس على أحد هذه الكراسى الصفراء فى يوم ذكرى مرور السنة ، وقد علت أصوات الحاضرين إلى الطبقات العليا معلنة دخول أنور إلى عالم الخلود ، وهو عالم يرقى على مستوى الحزن والدموع — كنت

أتخيله داخلاً علينا بابتسامته التى لم تكن لتغيب أبدًا ، مُرَحِّبًا مُحَيِّيًا مداعِبًا ، وأخذت أنتظر ، فقد أنسانى ما جرى حولى من دنيويات زائلة ماجئت من أجله ، وخيل إلىّ أن أنور حَىٌّ يرزق وأنه دعانى لمنزله كعادته معنا للاجتماع والمؤانسة ، ولكن عاطفتى الدفينة التى لم تكن لتسلى أبداً ذكراه الحلوة ، صممت على أن تحلّق بإحساساتى فى أنحاء المنزل الحزين ، فتخيلت أنور إذ دخل منزله فى تلك الليلة الفاصلة ، ووضع مفاتيحه فى جيبه الأيمن ، ثم جال ببصره فى الجدران الصماء وما حوته من تحف وصور جميلة ثم قصد إلى جناحه الخاص حيث مضت روحه إلى ربّها تسعى بعد دقائق ، وبقى الجسد حائراً لا يجد من يؤنسه ويبعث فيه الدفء ، حتى أتى صفيه الأول الدكتور أحمد عبد العزيز إسماعيل فجلس بجانبه يبكى بكاء العاجز أمام قدرة الله وعظمته ، وهو الديَّان الذى لا ينقض حكمه أبدا .

* * *

وكتبت فى صفحة ٥٨ بعض الطرائف عن زميل العمر زكريا رفعت ، وكان أملى أن يفاجأ بما كتبته عنه فيبتسم ابتسامته الهادئة ، ولكن شاء القدر أن يمضى إلى جوار ربه سريعاً وفى بضع دقائق فى اليوم الثانى من يناير من عام ألف وتسعمائة وخمس وستين فى ساعات الصباح الأولى بعد أن قضى الليل وجزءا من الصباح مع أهله وشقيقته التى جاء ذكرها فى مقالى عنه ، وبعد انصرافهم عقب الزيارة والكل ضاحك السنّ منشرح النفس مرتاحها ، زاره الملاك فى موعده المحدد فى اللوح المحفوظ وهمس فى أذنه همساً مباركًا : لقد دعاك ربك فاستجب ! لا تبتئس ولا تحزن ، فلقاء الله جميل ! فطاوعته الروح الغالية وصعدت معه إلى ربها راضية مرضية بإذنه تعالى ، وتركت لنا جسداً هامداً شيعناه ظهر اليوم التالى بين الأشجان والدموع ! .

* * *

ومن بين الذين كنت أتمنى أن أطلعهم على كتابى هذا ، الصديق الراحل الصحفى القديم عبد العزيز الاسلامبولى . وإذا كان لى أن أدّعى أن لى بعض المريدين ، فإن المرحوم عبد العزيز كان من أشدهم إخلاصاً وحباً . لا أنسى يوم تعرفت عليه لأول مرة فى ذات يوم من نوفمبر من عام ١٩٤٥ . وكان يحمل ابنته الأولى عايدة مع زوجة من أروع ما صادفت طاعة ومهادنة لزوج مكافح ، وقد ظلّت تهبه على مرّ الأيام طفلا إثر آخر حتى بلغ عددهم تسعة بين بنين وبنات . وكنت أدهش كيف بارك الله فى القليل الذى منحه الله لهذا المكافح ، وكيف أمكنه أن يقوم بأود هذه المجموعة الكبيرة من الأجسام والبطون . ولن أنسى كيف خطر لى فى اليوم الثانى من شهر رمضان المبارك فى الوقت الذى أختم فيه صفحات هذا الكتاب ، وفى الأيام الأولى من يناير عام ١٩٦٥ ، أن أذهب إلى منزله بقصر الشوق . وتركت سيارتى فى ميدان الحسين ، وأخذت أتحايل على المسير فى شوارع ضيقة ، ولكن فيها حياة ورواج ، متسائلا طوال الوقت عن شارع قصر الشوق . وأخذت عيناى تبحثان فى محبة وحنان عن المنزل رقم ٣ حيث كان يعيش الفقيد حياة المكافح المتواضع . وخطر لى أن أتحدث لبقال أمام باب المنزل مباشرة وشجعنى على ذلك سماحة وجهه والواقعية المستسلمة التى تربعت على قسماته . فقلت لنفسى لا بد أن محبة وألفة قد استحكمتا بين الفقيد وصاحب هذا الوجه الهادىء . وصدق حدسى ، إذ ما كدت أسأله عن منزل الفقيد حتى ظهر الأسى والحزن على تقاطيعه ، فدفعنى هذا إلى الإطالة فى الحديث معه ، وكاد الدمع يقطر من عينيه عندما أخبرنى أن الفقيد عاد فى اليوم الموعود إلى منزله سليما ، معافى وأقرأه السلام قبل أن يصعد السلم العالى المنهك نحو شقته الكائنة فى الدور الأخير ، وبدت لى وكأنها فى السماء السابعة ، لأن البيت كان من الطراز القديم ، وعجبت كيف كان الفقيد يصعد هذه الدرجات مثنى وثلاث ورباع ، كل يوم فى سبيل العيش .

ولم تكد تمضى ساعة أو أقل حتى شعر التاجر بحركة غير عادية ، وعربة الأسعاف تأتى لتحمل الشخصية الغالية إلى المستشفى نتيجة مرض مفاجىء ، وبعد بضع ساعات وصلهم نبأ وفاته . وكان التاجر رقيقاً إذ قال لى أن السلم متعب فاترك بطاقتك عندى وكأنك تركتها عندهم تماماً . فحدثته متسائلا : هل كان عبد العزيز يصعد درجات هذا السلم المضنى يومياً مرة أو بضع مرات ؟ فأجاب الرجل فى أسى عميق : كان حمـــله فى الحياة ثقيلا . لقد كنت أراه يلهث مقدما فما باله عند انتهاء المرحلة بعد أن يصعد المائة درجة من ذلك السلم العتيق ؟ .

ولا يمكننى أن أتصور أن الاتصال الروحى بين الأحباب بالغٌ مابلغ خلال تجربتى مع روح صديق عمرى المرحوم الدكتور ابراهيم يوسف ، والذى عطف على عطفاً كبيراً عند ما كان نائباً بمستشفى قصر العينى وكنت أنا طبيب امتياز. لقد قرأت نعيه وأنا فى الاسكندرية صباح يوم جمعة حزين فأدركت أننى لن أتمـكن من وداعه الوداع الأخير ، فقد كان علىّ أن استقل قطار التاسعة والنصف من الاسكندرية، وهو يصل القاهرة بعد ميعاد التشييع بساعة ونصف ومضيت وقد فاض بى الأسى طول الطريق . حتى إذا ما وصلت إلى محطة العاصمة وجدت سيارتى فى انتظارى ،فركبتهاوسار بها سائقها الهوينا فى شارع رمسيس حتى إذا ما حاذينا مبنى جمعية الشبان المسلمين شاهدت نعشاً يغادر مسجد الجمعية، وكنت أعلم أن الفقيد كان مراقباً عاما للجماعة فى سنواته الأخيرة . فهتف بى هاتف : هل يكون هذا نعش ابراهيم ؟ وأخذت أكرر هذا السؤال بينى وبين نفسى . هل أوصى أن يصلى على جثمانه فى مسجد الجمعية التى أحبها من كل قلبه وفى صلاة ظهر يوم الجمعة بالذات حتى يتلـكأ موكبه نحو الأبدية لحين حضورى ؟ واختلطت على وجوه المقربين إليه من أولاده وذوى قرباه فأنا

لا أعرف منهم أحداً ، وا كتفيت بالسير وراء السيارة التى تحمل جثمانه على طريق الكورنيش حتى وصل الموكب إلى فم الخليج حيث اتجه يساراً إلى الطريق الذى يؤدى إلى حى الإمام . وكنت طول الطريق أتمتم قارئاً الفاتحة راجياً من الله أن تكون من نصيب إبراهيم ، ثم قفلت راجعاً ... مغموراً مجهولا إلا من دموعى وأشجانى ، وعندما ذهبت للعزاء فى المساء أخبرنى ابنه الدكتور أحمد يحيى أنى كنت ماشياً على الصراط مع الروح المطمئنة التى ذهبت إلى ربها راضية مرضية ، وأن الفقيد أوصى فعلا أن يصلى عليه فى مسجد الشبان المسلمين وأن النعش كان نعشه والموكب كان موكبه .

رحم الله ابراهيم يوسف . لقد عاملنى فى مماته بنفس البساطة والنعومة والرفق والدماثة التى تميز بها إبان حياته ، وكان لا يجب أن ينتهى هذا الكتاب قبل أن أذكر فيه كلمتين عن هذا الصديق الوفىّ .

* * *

وهكذا نرى أن الزمن لا يهادن أبداً ! كلّ يوم بأفراحه وأتراحه وانطباعاته التى لا تقف عند حد ، والويل لك إذا ابتلاك الله بقلم يطاوعك على تسجيلها ، وقرطاس يرحب دون ملل بوحى الخاطر ممثلا فى حروف تبدو فى أول الأمر متراقصة فى غير هدى ثم لا تلبث أن تتجمّع على محبة لتعبر عن أبدع الفِكر ، وياويل كاتبها ومنشئها إذا تخاصمت وهى فى طريقها إلى القرطاس . فإن القلم ليعجز عن تصنيفها على الوجـه الذى يرضى مؤلفها الكادح وقارئها الناقد المتلهف . وقد يملُّ شيطان الوحى من طول زمالته للمؤرخ ، فيحين وقت فراقهم ولو إلى حين ، ثم يجتمع الشمل من جديد ، وتنهال الذكريات ، وينشط القلم ، ويعلو الموج فى زهو واعتداد ، حتى إذا ماتفجرت فقاعاته فى الفضاء الواسع ، عاد إلى الشاطىء خاضعاً ذليلا ليهمس له قصته التى لا تنتهى إلا مع الزمان !

حِكمة الله !!



أخذت هذه الصورة فى أواخر عام ١٩٣٩ قبيل الحرب العالمية الثانية وفى أقل من عامين من زواجنا كانت الحياة رغدة هنيئة مليئة بالحب والحنان وكان الدكتور الديوانى طفلا لم يكمل عامه الأول .



تمثل هذه الصورة جمال الأمومة وجمال الطفولة فى نفس الوقت . كانت زوجتى خيرية ولا زالت مثلا رائعاً للأم التى تعنى بالتفاصيل فى رعاية أولادها . وكان ابنى الثانى الدكتور نبيه الديوانى ممتلئاً جمالا وروعة فى طفولته ، كان قانعاً دائم الرضى يوزع بسماته ذات اليمين وذات اليسار فى عذوبة سخية .

[أخذ هذه الصورة الصديق الدكتور أيوب عامر]

زهرات يانعة فى بستان حياتى



الدكتور نبيه [الأصغر] والدكتور خليل فى طفولتهما الأولى
[أخذت فى عام ١٩٤٣]



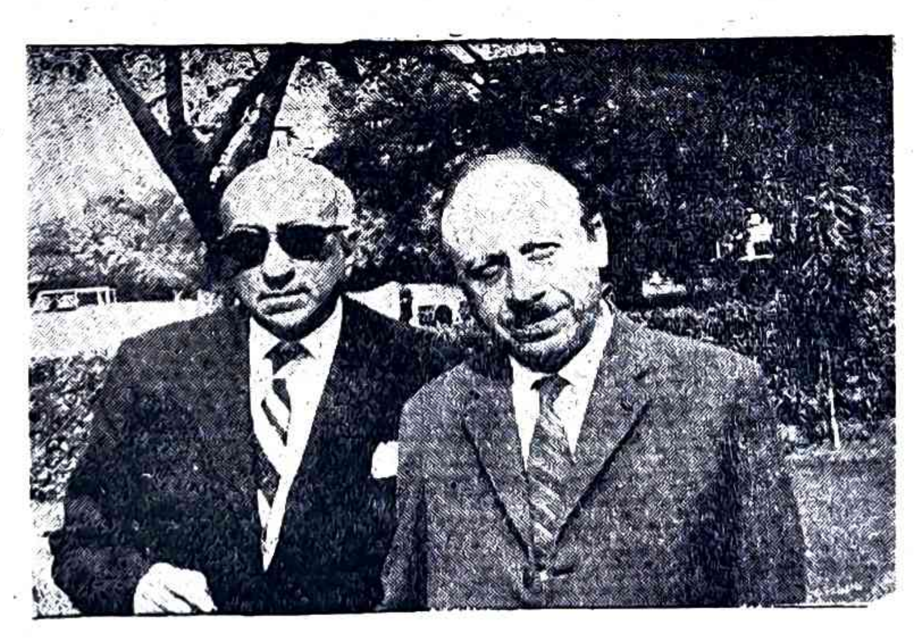
الشقيقتان مائسه وتهانى الديوانى
فى اندماج ونكران ذات عجيب ، تعيش الواحدة للأخرى دون تكلف أو رياء
[أخذت فى عام ١٩٦٣ بفيلا الصديق محمد البقرى بالهرم]



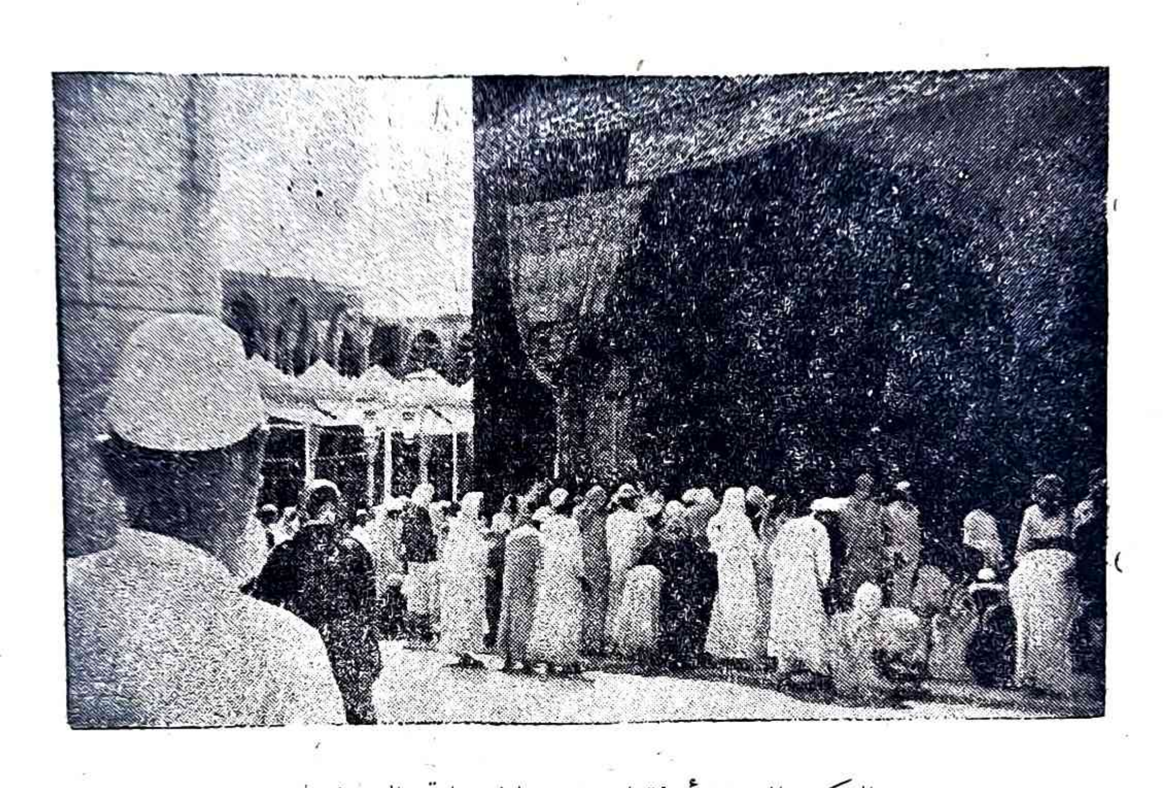
النبوى المهندس

الأخ والتلميذ اللامع فى بريق يخطف الأبصار . كان يحلو لنا أن نصطلى بالشمس فى ڤيلا كنت أملكها فى شارع الهرم . أخذت له هذه الصورة بنفسى فى يوم مشمس جميل . لقد بعت هذه الفيلا بعد أن تملكتها أربع سنوات . وكلما مررت بسيارتى ناجيتها من بعيد بقول الشاعر عبد الرحمن صدقى :

كان لى فى أخريات العمر بيت فعدمته
سنوات أربع أم كان ذا حلم حلمته



مع صديق العمر الصحفى الكبير أحمد الصاوى محمد
[أخذت بنادى الجزيرة عام ١٩٦٤]



صورة الكعبة المشرفة أخذتها بنفسى خلال زيارتى الرجبية عام ١٩٦١
انظر إلى بابها إلى أعلى اليسار . كنت كما تعلقت بأهدابه هتفت من أعماق قلبى بدعاء الرسول إلى الله قائلا :

﴿ اللَّهُمَّ إنِّى أعوذ بك مِنَ الْهَمِّ وَالحزَن ، وأَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ والـكَسَل ، وَأَعُوذُ بكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخل ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ ، اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفقْرِ إلاَّ إِلَيْكَ ، وَمِنَ الذُّلِّ إلاَّ لكَ ، ومنَ الخوْفِ إلاَّ مِنْكَ ، وَأَعُوذُ بكَ أَنْ أَقُولَ زُورًا أَوْ أَغشى فُجُورًا ، أو أكُونَ بِكَ مغْرُورًا ، وَأَعُوذُ بكَ من شَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ ، وعُضَال الدَّاءِ ، وَخَيْبَةُ الرَّجاءِ ، اللَّهُمَّ إنِّى أعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ الخلقِ وَهَمِّ الرِّزْقِ وَسُوءِ الْخُلقِ ، يا أرْحَمَ الرَّاحِمِين وَيا رَبَّ الْعَالَمِين ﴾ .

إستدراك للأخطاء المطبعية

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣	٦	وإنى	وأنىَّ	٦٣	١٠	من المحر	من العمر
٧	٢	إيهاب	أيها	٦٥	١٤	محاضرته	محاضراته
١٥	٦	قصر والدى	قصر عمر والدى	٧٦	٢	لانعدام	انعدام
٢١	١	ذكرت	تذكرت	٧٦	٦	والأخيال	الأجيال
٢٣	٧	احشام	احتشام	٢٥٤	١٧	الأعلى	إلاّ على
٢٧	١٢	أستاذى	أساتذتى	٢٩٤	٢١	المصرى	مصرى
٢٧	١٣	قاعده	قاعة	٣٠١	١٧	الوشاة	الولاه
٢٧	١٥	كا كنا	كما كنا	٣٢٠	٨	شترفلد	شسترفيلد
٤٣	١٦	اجا ممون	أجا ممنون	٣٢٠	١٨	ببرودها	ببردها
٦٠	٢٠	الجبلة	الحيلة				

الفهرس

الصفحة	المحتوى
8	هذا الكتاب
11	هذا الكتاب - بقلم الشاعر الكبير عزيز أباظة
17	مقدمة الكتاب
21	بداية الكتاب (المذكرات)
21	إلى روح والدتي
27	كيف وجدت ؟
41	طفولتي الأولى
66	في كلية الطب
98	بعد التخرج
108	زواجي
115	من صدمات حياتي
157	عودة الى روح أخي
143	مضى عام
147	بعد عامين
170	أخي الثاني
175	أسرار النجاح وأسرار السعادة
184	كفاحي مع فيروس شلل الأطفال
184	صورة من الحاضر
190	صورة من الماضي
210	من وحي الروضة الشريفة
237	مأساة محجر الطور
241	رحلة الى القدس الشريف
250	طريق الآلام

رحلة الخليل وبيت لحم	255
من وحي كربلاء	260
أنور المفتي	275
مع محمد عبد الوهاب	281
بين الماضي والحاضر	301
من جولاتي حول العالم	307
مصري في كان	308
رحلتي الى الشرق الأقصى	368
حكمة اللّه	373
صور نادرة	399
المحتويات	405

يرجى ملاحظة أن فرق التسلسل بين الملف PDF والكتاب = 20 ؛ أي أن صفحة 25 مثلاً تجدها في 45 ، وهكذا دواليك ..

تنويه: هذا الفهرس ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعددته تسهيلاً للوصول الى المواضيع .

م. سرمد حاتم شكر السامرائي



مطبعة السنة المحمدية
تليفون ٩٠٦٠١٧
القاهرة

الثمن
ـــــ
٦٠